

شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK

www.iraqieconomists.net

كتابات

في الاقتصاد والتاريخ الاقتصادي

ترجمة وإعداد وتحريـر

مصباح كمال

2025

عنوان الكتاب: كتابات في الاقتصاد والتاريخ الاقتصادي

ترجمة وإعداد وتحرير: مصباح كمال

الطبعة الأولى: 2025

الناشر: شبكة الاقتصاديين العراقيين

حقوق النشر

جميع الحقوق محفوظة (2025)

بمقتضى قوانين حقوق النشر لا يحق لأي شخص أو جهة استنساخ أو تصوير أو إعادة طبع أو حفظ هذا الكتاب في كومبيوتر أو جهاز إلكتروني لحفظ واسترجاع المعلومات دون الموافقة الخطية للناشر.

يمكن الاقتباس من الكتاب لأغراض الدراسة والبحث مع الإشارة إليه.

التأليف

يعلن مصباح كمال بأنه مترجم ومعد لهذا الكتاب ويؤكد حقوقه المعنوية في الكتاب.

رغم الجهد والعناية التي بذلها معد ومترجم هذا الكتاب فإنه وكذلك الناشر لا يتحملان أية مسؤولية تجاه مستعملي الكتاب فيما يتعلق بأي خطأ أو نقص أو عيب في شكل الكتاب أو مضمونه.

المحتويات

7	الإهداء
8	مقدمة بقلم د. حسن عبد الله بدر
10	توطئة
13	ا. ل. أوبنهايم: نظرة عامة على التاريخ الاقتصادي لوادي الرافدين
24	كارل بولاني: التجارة غير السوقية في زمن حمورابي
25	الاقتصاد الزائف والمشهد المعكوس
28	قضايا الاقتصاد البابلي
31	مستوطنة تجارية آشورية ممعنة في القدم
34	التجارة بدون مخاطرة
39	الصفقات التجارية والمعاملات التحويلية
40	التمكروم
44	تيد تريئر: ملاحظات حول كتاب كارل بولاني، ** التحول العظيم
45	الفجوة الكبيرة بين الاقتصادات السابقة واقتصاداتنا
47	حول الفصل بالغ الأهمية بين الاقتصاد والمجتمع
48	الآثار المدمرة للاقتصاد الحر غير الخاضع للرقابة/للتنظيم
52	التمييز بين الاستعمال والكسب
55	الهبات، التبادلية، وإعادة التوزيع
56	الربا، الفائدة
57	أهمية مفهوم المجتمع؛ روبرت أوين
59	تأمل حكمة المجتمعات القبلية
60	وهكذا كان آدم سميث مخطئاً!
61	لكن المجتمع يحاول حماية نفسه
61	التجارة، داخل وخارج نطاق المجموعة
62	الليبرالية الجديدة الحالية؟
62	الاختلافات مع ماركس
66	تيد تريئر: مقتطفات من كتاب كروبوتكين الرائع "المساعدة المتبادلة"
68	ليس من الصعب إدراك الأهمية التطورية
69	الأهمية بالنسبة للعدالة والمساواة والقانون والذكاء وحل المشاكل والثقافة والتقدم والرحمة والأخلاق
74	لاحظ أهمية المآدب كحدثٍ لتوطيد العلاقات
75	ظروف العمل
77	الإنجازات
79	الزوال: استيلاء الدولة على السلطة
80	قضت هذه الدول الناشئة على الاستقلال المحلي
82	اليوم
83	بعض الأفكار حول الكتاب
84	العلاقة المُحيّرة بين رواية كروبوتكين والنظرية الماركسية
87	دانيال آر فيسفيلد: السوق من منظور تاريخي

95	ستيفن هايمر: روبنسون كروزو وسر التراكم البدائي
95	ملاحظة حول التراكم البدائي
97	(1) رأسمال التجار
101	(2) اقتصاد الجزيرة: الوضع ما قبل التجارة
107	(3) انفتاح التجارة: تشكيل استراتيجية الإمبراطورية
110	(4) الاستعمار
114	(5) الشراكة وإعادة الإنتاج الموسع
119	(6) العبرة
121	هوامش الكاتب
121	حاشية للمترجم
123	إيان آدغاس: خُرافة مأساة المشاعات
124	غاريت هاردن يُؤلّد خُرافة
125	أين الدليل ؟
126	لماذا يريد الراعي المزيد ؟
128	هل سيكون أداء الملكية الخاصة أفضل ؟
129	خُرافة مفيدة سياسيًا
	بيتر دولاك*: مراجعة كتاب إيان آدغاس **: الحرب ضد المشاعات: السلب والمقاومة في صنع الرأسمالية
133	
135	قلب مأساة المشاعات على قدميها
137	القوة تصنع الحق كأساس
139	الدولة الطبقية تعزز المصالح الطبقية
142	مايكل روبرتس: نابليون واقتصاد الحرب
153	براينت سكولوس: الاشتراكية والدخل الأساسي الشامل
161	بيدرو ميدفورد: الكل للواحد والواحد للكل – هل الدخل الأساسي الشامل قابل للتطبيق ؟
161	لمحة تاريخية
163	تحالف قوي
164	قرارات مستنيرة
166	عمل متوازن
167	مايكل روبرتس: 50 عامًا من نظرية التبعية
175	إلينا فيدوتا: بعض الدروس حول التخطيط للقرن الحادي والعشرين من أول اقتصاد اشتراكي في العالم
175	نظرة عامة موجزة عن تاريخ التخطيط السوفيتي
175	شيوعية الحرب (1918-1921)
177	السياسة الاقتصادية الجديدة (1921-1927)
179	مسار التصنيع واقتصاد الحرب والانتعاش الاقتصادي (1928-1950)
180	انهيار مشروع الاقتصاد الاشتراكي لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية (1950-1991)
183	المشاريع الرقمية للاقتصاديات الرأسمالية والاشتراكية
183	المشاريع الرقمية للاقتصاد الرأسمالي
185	المشاريع الرقمية في الاقتصاد الاشتراكي
190	عشرة استنتاجات
195	ديميتريس فاسفالييس: ماركس في عصر الرأسمالية الوبائية

196	كوفيد-19 والرأسمالية الحديثة.....
199	جاك هيرشلايفر: الكوارث والانتعاش الاقتصادي
200	السجل التاريخي.....
203	العوامل المساعدة والمعوقة للانتعاش.....
205	قضايا السياسات العامة: دور الحكومة.....
207	تعليق المترجم.....
209	بول دالزيل: حول تغيير تركيز الاقتصاد من النمو إلى الرفاهة
209	ما الذي يعنيه اقتصاد الرفاهة؟.....
210	خيار نيوزيلندا.....
211	دور الأعمال BUSINESS [الشركات].....
213	إعادة اكتشاف العلاقات.....
215	تيد ترينر: جائزة نوبل في الاقتصاد لعام 2024: مثال على كيفية تحريف الاقتصاد التقليدي للواقع
218	كيف تعمل "التنمية" (التقليدية)؟.....
223	البديل: التنمية "المناسبة".....
228	مايكل روبرتس: لماذا يعتبر "اقتصاد العالم الحقيقي" مهماً؟
238	مايكل روبرتس: دحض أطروحة دوامة الأجور-الأسعار
244	مايكل روبرتس: اقتصاد المنافع الهابطة من القمة إلى القاع
252	مايكل روبرتس: الأشياء غير الملموسة: هل تغير الأشياء
259	مايكل روبرتس: الذهب: ما الذي يقف وراء الطفرة؟
265	مايكل روبرتس: بنك فيرست ريبابليك: جدل من أجل الملكية العامة
268	مايكل روبرتس: بن برنانكي: الشجاعة والارتباك
276	مايكل روبرتس: التعددية في علم الاقتصاد: الرئيسي، وغير الأثرودوكسي، والماركسي
281	ريتشارد هورتون: الطب وماركس
284	المسارات الفكرية المجهولة للمراحل الأخيرة في حياة ماركس: حوار مع مارچيلو موستو
293	مايكل روبرتس: يانوش كورناي: عن الرأسمالية والاشتراكية
299	لين بارامور: لقد نهبوا الشركات، والآن ينهبون الحكومة
303	مارتن هارت-لاندسبيرغ*: لا، ليس هذا وهمًا، مخطط الشركات للذكاء الاصطناعي يشكل خطرًا حقيقيًا
303	ما هو الذكاء الاصطناعي؟.....
304	أسباب القلق.....
307	الأمر يزداد سوءًا.....
308	الطريق إلى الأمام.....
312	جنيد ب. جهانجير: اقتصاد غزة
312	ملخص.....
312	مقدمة.....
313	الاحتلال الهيكلي والصراع على الطاقة.....
315	السوق الحرة مقابل سوق الأفكار الحرة.....

316	اقتصاد التطرف
321	اقتصاديون ناقدون ومواقفهم من غزة
324	ملاحظات ختامية
330	ألينور أوستروم (1933-2012)
334	اتحاد الاقتصاد السياسي الراديكالي: اقتصاديون من أجل فلسطين

الإهداء

إلى ذكرى الراحل الدكتور بارق شبر.

وإلى الدكتور مدحت القرشي، زميل الدراسة في سوانزي في ستينيات القرن الماضي، الذي عرّفني بشبكة الاقتصاديين العراقيين.

وإلى الجيل القديم من الاقتصاديين العراقيين الذين أغنوا مكتبة الاقتصاد العراقي بترجماتهم الرفيعة لمراجع مهمة من الكتابات الاقتصادية.

مقدمة بقلم د. حسن عبد الله بدر

من دواعي الفخر والاعتزاز والسرور لأي إنسان أن يكتب بعض الكلمات، مهما قلّت، عن كتاب الأخ والصدیق العزیز الأستاذ مصاح کمال، الذی یضم بین دفتیه عدداً من المقالات المترجمة فی قضايا الاقتصاد والتاریخ الاقتصادي. المقالات المترجمة، فی معظمها، هی مقالات مختارة بعناية تجمع بین الأهمية التاریخية، والراهنية: قضايا قديمة ولكنها ما تزال تحتفظ بأهميتها، فضلاً عن القضايا الراهنة. ومن ناحية أخرى، تضم قائمة المؤلفین أنفسهم طیفاً واسعاً من مختلف المدارس الاقتصادية لم یقحم المترجم فی اختیارها قناعاته ومتبانیاته الفکرية، بل أهمية المساهمات نفسها. وهكذا فهي تضم بعض مفکري الاقتصاد السیاسي الكلاسيكي واقتصادیین معاصرين وغيرهم، فی مختلف الموضوعات کالفکر الاقتصادي، والصناعة والتخطيط والتراکم البدائي لرأس المال، والاقتصادات الانتقالية، ونظرية التبعية، والدخل الاساسي الشامل، والأمولة، وغير ذلك كثير.

نعرف أن الزميل مصباح کمال صاحب اختصاص فی مجال التأمين وله مساهمات عديدة، تأليفاً وترجمةً، معظمها متوافر فی موقع شبكة الاقتصادیین العراقيين، لكن هذا الكتاب لا يضم أيّاً منها. كما أنه مثابر علی ترجمة مراجعات مهمة لكتب فی الاقتصاد والتاریخ الاقتصادي والتأمين وما يتعلق به. وهذه كذلك مستبعدة من الكتاب الحالي. نتمنى علیه أن يقوم بتصنيفها فی كتاب أو کتابين لتسهيل الرجوع إليها من قبل القراء المهتمين والباحثين.

لقد علمنا منه أنه أنجز دراسة أصيلة سنة 2020، ربما لم يسبقه إليها غيره، بحث فيها حضور التأمين فی کتابات بعض الاقتصادیین الكلاسيك بدءاً من آدم سميث ومروراً بكارل ماركس وانتهاءً بستانلي جيفونز ووالتر باجوت. ومنذ ذلك الوقت وهو بانتظار أن يقوم الناشر فی بيروت بنشره.

مما تعلمناه أثناء الدراسة الجامعية تأكيد الكثير من اساتذتنا الكرام علی أهمية الترجمة (بالمقارنة مع التأليف) لإيمانهم بأن بلداننا تمر بمرحلة من التطور الاقتصادي تتطلب الاطلاع علی إنجازات الغير فی مختلف حقول العلم والمعرفة. وبهذه المعنى، فإن كل عمل مترجم، فی شتى الحقول، إنما

يصب في هذا المصب. ومن جملة هكذا أعمال يأتي هذا الكتاب المرموق للزميل مصباح كمال.

ستقدم المقالات التي يتضمنها هذا الكتاب، دون شك، خدمة مؤكدة لجمهور القراء العام وللكتاب المختصين على حد سواء.

د. حسن عبد الله بدر

تشرين الثاني 2025

يأتي إعداد وتحضير هذا الكتاب استجابة إلى فكرة قدمها د. حسن عبد الله بدر في رسالة بتاريخ 26 تشرين الأول 2025 واستحسنها وشجع عليها د. صباح قدوري. فقد كتب لي الدكتور حسن: "قبل يومين، أثناء قراءة ترجمتك للمقالة عن الذهب، خطرث على بالي الفكرة التالية: لماذا لا تقوم بتجميع كل مقالاتك المترجمة في كتاب واحد بطريقة بي دي أف، وبذلك تتم الفائدة من هذه الأعمال الجادة والغنية لمؤلفيها ولكمترجم لها، وبذلك، أيضاً تسهل على القارئ التعرف والوصول إليها والاستفادة منها." أشكرهما على اهتمامهما الدائم بما أكتب وأترجم.

لم أتردد كثيراً في تحقيق فكرة الدكتور حسن رغم أنني لم أدرس الاقتصاد أكاديمياً كمادة مستقلة ومعرفتي الأساسية به لا تتعدى السنة الأولى من دراستي الجامعية في ويلز وما كان بعض مواد دراسة الفكر السياسي والحكومات يتطلب التعامل مع بعض الأفكار والتطبيقات الاقتصادية.

مما زاد من قبولي للفكرة هو طبيعة الكتابات التي قمت بترجمتها فهي نمط من الدراسات غير الشائعة في الكتابات الاقتصادية العربية وخاصة في مجال التاريخ الاقتصادي والاقتصاد غير الرسمي. كان السائد حتى وقت قريب، وخاصة على المستوى الرسمي، هو الاقتصاد المرتبط بالليبرالية الجديدة، الذي يتمتع بدعم مختلف المؤسسات الدولية الغربية على مستوى الحكومات والنشر وكذلك في التعليم الجامعي في حين أن تاريخ الفكر الاقتصادي والتجارب الاقتصادية في العالم فيها من التنوع ما يستحق الدرس والتأمل، وهو ما يقوم به الدكتور مظهر محمد صالح بين الحين والآخر.

قد يصح القول إن الفكر الاقتصادي النيوليبرالي لم يعد هو النموذج السائد بشكل مطلق في العراق، بل يواجه تحديات متزايدة ونقداً متصاعداً بسبب السياسات التي اتبعتها حكومات ما بعد 2003 في الاعتماد على الريع النفطي، إذ برزت أو بالأحرى تجددت الدعوات البديلة لتدخل الدولة لتوفير الحماية الاجتماعية وضمان التنمية المستدامة، دون أن تتراجع دعوات الخصخصة والاستثمار الأجنبي كحل لأزمة الاقتصاد العراقي.

إن تبني الفكر النيوليبرالي لم يترجم نفسه في بناء القاعدة المادية للاقتصاد والإصلاح المؤسسي، مما يعني أن القائمين على إدارة الاقتصاد العراقي فشلوا في مهامهم. فقد أهملوا الصناعات التي نشأت في العقود الماضية لتتحول إلى "خردة"، وخصصوا صناعات أخرى بأثمان زهيدة، لكنهم نجحوا في تعظيم جهاز الدولة البيروقراطي كوسيلة للحيلولة دون تفاقم الحركات الاحتجاجية (التي تجسدت ذروتها في انتفاضة تشرين 2019 التي قمعتها الدولة بالعنف والقتل) ومكافأة زبائن المحاصصة.

عندما عرضت محتوى الكتاب على الدكتور حسن عبد الله بدر كتب لي مُذكرًا بكتاب مهم للأستاذ إبراهيم كبة بعنوان دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، الطبعة الأولى، الجزء الأول (بغداد: 1970)،¹ وهو كتاب أكاديمي متميز بمنهجيته وتغطيته لتاريخ الاقتصاد وهو ما كرس له القسم الأول تحت عنوان في تاريخ الاقتصاد، ص 49-262، الذي أرى أنه عرض تحليلي للتاريخ الاقتصادي. وجاء القسم الثاني تحت عنوان في تاريخ الفكر الاقتصادي، ص 263-559.

من المعروف أن الفلسفة كانت الجامع للعديد من فروع المعرفة ومن الفلسفة ولدت وتطورات هذه الفروع كوحدات قائمة بذاتها رغم تشابكها مع بعضها. ينطبق هذا على "علم الاقتصاد"، الذي يدرس الظواهر الاقتصادية القائمة ويجترح الحلول لتحسين الأوضاع الاقتصادية؛ وعلى تاريخ الفكر الاقتصادي الذي يدرس تطور النظريات الاقتصادية؛ والتاريخ الاقتصادي الذي يدرس تطور الأنظمة الاقتصادية لفهم التحولات الاقتصادية.

اعتمادًا على هذه الخلفية لهذه الفروع الثلاثة فإن المواد الأولى في الكتاب المترجم يصنف بعضه تحت باب التاريخ الاقتصادي، كما أن معظم الدراسات المترجمة، كتلك التي كتبها مايكل روبرتس، تصنف تحت باب الاقتصاد. وليس للنظرية الاقتصادية (تاريخ الفكر الاقتصادي) بالمعنى الضيق حضور كبير في الكتاب. أتمنى لذلك أن لا يكون عنوان الكتاب كتابات في الاقتصاد والتاريخ الاقتصادي مصدرًا إرباك وتشويش للقارئ.

¹ يمكن قراءة الكتاب في موقع شبكة الاقتصاديين العراقيين:

<https://iraqieconomists.net/ar/wp-content/uploads/sites/2/2022/08/%D8%AF%D8%B1%D8%A7%D8%B3%D8%A7%D8%AA-%D9%81%D9%8A-%D8%AA%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%AE-%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%83%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%82%D8%AA%D8%B5%D8%A7%D8%AF%D9%8A.pdf>

من حسنات شبكة الاقتصاديين العراقيين انفتاحها على مختلف التيارات الفكرية الاقتصادية. ومن حسناتها أيضاً أنها منفتحة على موضوع التأمين وإعادة التأمين. وقد كان المرحوم بارق شبر، المنسق العام للشبكة، محبباً ومشجعاً لنشر الكتابات التأمينية. وبفضله يجد التأمين حضوراً جيداً في موقع الشبكة.

نشرت معظم الكتابات في هذا الكتاب في أوقات متفرقة في موقع شبكة الاقتصاديين العراقيين ومواقع أخرى.

أشكر الدكتور حسن عبد الله بدر مرة أخرى لدعوته لي لإعداد هذا الكتاب، كما أشكر شبكة الاقتصاديين العراقيين لتبنيها نشر الكتاب وإضافته إلى مكتبة الشبكة.

ا.ل. أوبنهايم: نظرة عامة على التاريخ الاقتصادي لوادي الرافدين

نشرت هذه الترجمة أصلاً في مجلة الثقافة الجديدة، العدد 359، تموز 2013.

عنوان هذه الدراسة بالإنجليزية هو A Bird's-Eye View of Mesopotamian Economic History وهو الفصل الثالث، الصفحات 27-37، من كتاب: Trade and Market in the Early Empires: Economies in History and Theory, Ed. Karl Polanyi, Conrad M. Arensberg and Harry W. Pearson, Gateway Edition, Chicago, 1971. (1st Ed published by the Free Press, 1957).

أثرنا استخدام تعبير وادي الرافدين وما بين النهرين بدلاً من ميزوبوتاميا.

لو أن البيانات الوثائقية الوفيرة لوحدها كافية لأن تكون أساساً لكتابة التاريخ الاقتصادي لحضارة نائية وميتة فإن عدد النصوص المسمارية حول جميع مظاهر الحياة الاقتصادية لوادي الرافدين تُمكن المؤرخ على إنجاز هذه المهمة بكل تأكيد. فلم تشهد فترات التاريخ، السابقة لازدهار العصور الوسطى الأوروبية، إلا القليل من المدونات للنشاطات الاقتصادية للأفراد ومعاملات المكاتب الإدارية للمعابد والبلاطات، كالتّي تُميّز بعض عصور التاريخ البابلي والآشوري. كما أن تتبع نهوض وتطور المؤسسات الاقتصادية على مدى أكثر من ألفي سنة غير ممكنة في أي مكان آخر في العالم، ربما باستثناء الصين والهند.

فعدد الألواح الطينية المتعلقة بهذه الأمور تزداد سنوياً بالآلاف، كما أن عدد المدونات المنشورة وغير المنشورة يقترب من مائة ألف ولا يبدو أن هناك نهاية منظورة لهذه المكتشفات. فمادة الكتابة، بفضل طبيعتها غير القابلة للنفاء، وعُرفُ تسجيل المعاملات الإدارية والخاصة يوفران، مع بعضهما، حصداً ثراً يمكن أن يحلم به أي مؤرخ اقتصادي.

إزاء ذلك، ما هي أسباب قصور علماء الآشوريات والمؤرخين الاقتصاديين، على حدٍ سواء، للاستفادة القصوى من هذه المصادر؟

هناك، من جهة، العدد الكبير للنصوص المتوفرة الذي لا يستطيع سوى عدد صغير من العلماء لهم الرغبة في التعامل معها وبما يفي بالمراد. لكن العقبة الأكثر أهمية هو الحاجز المفاهيمي الذي يحول دون الإدراك الكامل

للطبيعة الحقيقية للمعاملات المدونة وخلفياتها المؤسسية المتعددة الجوانب. إن استغراقنا في النظريات الاقتصادية للقرن التاسع عشر، التي تؤثر حتى على علماء الآشوريات الأكثر سذاجة في مسائل النظرية الاقتصادية، يؤدي بنا إلى موضعة كل حالة اقتصادية ضمن النسق التقليدي للنقود، والأسواق، والأسعار، وغيرها - كما استقرّ تعريفها والقبول بها خلال المائة سنة من حضارتنا. فنحن نطبق هذه الأطر باستمرار حتى بدون إدراكنا بأننا نشوه صورة وادي الرافدين في جوانبها الجوهرية، من خلال تأسيس تحليلنا على مجموعة من الفرضيات التي نقبل بها على أنها كونية التطبيق.

لكن هذا الحاجز، على أي حال، يمكن تجاوزه، ذلك أن بعض دارسي الدين والمؤسسات القانونية لوادي الرافدين قد أدركوا منذ زمن - رغم عدم نجاحهم دائماً في تحقيق هذا الهدف - أن أية محاولة لفهم الظواهر المعقدة، والأجنبية أساساً، لحضارة بائدة يجب أن تُساير المجرى الذي اعتمدته هذه الحضارة في فهم الظواهر. إن الوسيلة الأكثر كفاءة للتوصل إلى هذا الفهم، في التعامل مع حضارة غير أمية، هي دراسة دلالة بعض الألفاظ المختارة عوضاً عن استخدام المصطلحات الحديثة للتنظيم. ومما لا يمكن إنكاره أن منهج الدراسة المقترح صعب جداً عند التعامل مع لغة ميتة، وأقصى فائدة يمكن للمؤرخ أن يحصل عليها مقيدة بطبيعة النص المحفوظ عرضاً.

إن رد الفعل ضد أنماط التفكير التي ظهرت في القرن التاسع عشر في حقول تاريخ الأديان، وعلم اللغة، وعلم الاجتماع .. الخ، قد علمنا، احترام الحضارات الأجنبية، وشحذت ملكاتنا الفكرية في الرصد الذاتي لمواقفنا في هذه الحقول. إلا أن هذا الرصد، مع الأسف، لم يمتد إلى حقل علم الاقتصاد. فالمناقشات الأبستمولوجية في هذا الحقل، سواء كانت تقليدية وخلافها، قد خلقت جواً لا يتوفر في ظله فهم لأي نمط اقتصادي سوى النمط الذي نشأ عن التطور الاقتصادي الهائل لأوروبا الغربية منذ القرن الثامن عشر. ونتيجة لهذا الوضع فإن موقف المؤرخين الاقتصاديين، سواء كانت خلفيتهم تتمثل بالمادية التاريخية أو الليبرالية التقليدية، يتصف بمعالجة قاصرة جداً في التعامل مع اقتصادات ما يسمى بالشعوب البدائية، وكذلك الإهمال الكامل للعناصر الجوهرية لاقتصاد الحضارات القديمة العظيمة.

لقد تم تدشين منهج جديد لهذه المسألة من خلال مشروع الجمع بين فروع المعرفة في جامعة كولومبيا، والذي طبق بنجاح كبير في عدة حقول.

يوفر لنا هذا المنهج مزيّة أساسية من خلال مجموعة جديدة من المفاهيم يمكن استخدامها لوصف أجزاء كبيرة من البيانات المعقدة والمتنوعة التي يستخلصها عالم الأشوريات من النصوص الاقتصادية. توظف هذه المفاهيم بالدرجة الأولى لأغراض وصفية وتعمل على كشف معالم بنيوية معينة ذات علاقة باقتصاد وادي الرافدين. وهي تزود الباحث بمقولات كافية لتنظيم وعرض جملة من الملاحظات كانت ستكون غير ذي معنى، وأهم هذه المفاهيم هو مفهوم "إعادة التوزيع redistribution". لا يعني هذا أن فترة ما، أو حقلاً معيناً، مدونة في الوثائق المسمارية يمكن أن يطبق عليها هذا المفهوم كلياً أو حتى بشكل كافٍ، فالواقع أن كامل تطور اقتصاد وادي الرافدين يتميز بتغيرات مستمرة تبرز تارة في التأكيد على شكل من التكامل الاقتصادي، وتارة على شكل آخر دون أن تختفي الأشكال الأخرى تماماً. إن التحري عن العلاقة الدقيقة بين مفهوم "إعادة التوزيع" وغيرها من المفاهيم، كمفهوم "المبادلة" reciprocity [المعاملة بالمثل]، يصبح بالتالي المهمة الأساسية للبحث، وهي مهمة يجب أن تتوسع لتضم دائرة التاريخ الاجتماعي، إذ أن هذه الأشكال للتكامل الاقتصادي مستقرة في أعماق النسيج الاجتماعي للبلاد.

وبالطبع فإن المنهج الجديد سيضاعف من المشاكل بدلاً من تقديم حلول سهلة، ولكن بفضلها فإن مسار البحث سيتحول بالضرورة إلى معالجة قضايا جديدة، وقد يرغب عالم الأشوريات على التخلي عن العذر الجاهز بأن نقص البيانات يُعرقل فرص إيجاد الحلول للقضايا المطروحة على البحث. في ظل هذه الظروف يصبح إعادة تقييم وإعادة اختبار البيانات ذات العلاقة بالقضايا الاقتصادية ضرورة ملحة. كما أن هذه العملية يجب أن تطبق ليس فقط على المادة النصية المتعلقة بالموضوع بل تطبق على المدونات التاريخية والدينية والأدبية. ومن الواضح أن مشروعاً كهذا أوسع من أن يستطيع فرد واحد القيام به بشكل وافٍ، وفي ذات الوقت فإنه يتسم بالجدة والصعوبة بما يحول دون النجاح فيه بسهولة. ولهذا السبب فإن الصفحات التالية لا تمثل غير محاولة للإشارة إلى الإمكانيات في التفسير الجديد ولا يُراد منها سوى توضيح المنهج وليس البرهان على فعاليتها.

سنقوم هنا بإفراد ثلاثة عوامل على أنها ساهمت في تشكيل القاعدة الاجتماعية-الاقتصادية الفريدة لحضارة وادي الرافدين وهي في طريقها للدخول في المرحلة الأدبية literary period. كل عامل من هذه العوامل يتكرر على التوالي في تآلف مختلف في الحضارات الأخرى في الشرق

الأدنى القديم. إلا أن خصوصية تجمع هذه العوامل في بابل الجنوبية لا تظهر في أي مكان آخر.

هناك، أولاً، زراعة الحبوب القائمة على الري، القدرة على إنتاج محاصيل يمكن التعويل عليها دون الاعتماد على الأمطار، ويمكن التوسع فيها في المكان لإعالة أعداد متزايدة من السكان. مزايا مثل هذا النوع من الزراعة - محصول سهل التخزين، يمكن تقسيمه بدقة لأغراض التوزيع، يعطي أكبر غلة مقابل الجهد المطلوب في ظل الظروف المناخية والتكنولوجية القائمة - تتطابق مع العامل الثاني: نمط فريد للاستيطان. يختلف هذا الوضع بشكل واضح عن الوضع في مصر حيث يمكن ملاحظة نمط بدائي نسبياً للتكامل الذي يميز الاقتصاد القائم على التخزين، وذلك رغم تشابه الظروف الظاهري بين الوضعين. ويبدو أن الفرق الحاسم يجد تعبيره في طبيعة التحضر urbanisation الذي ظهر في مرحلة مبكرة جداً في وادي الرافدين، وخلق معه مفهوماً فذاً للمدينة. ففي هذه المدن، ومهما كانت صغيرة، فإن رابطة جمعية قد حلت محل جميع ولاءات السكان سوى الولاءات للعائلة التي لم يبقَ من أثرها شيء. تجد هذه العلاقة بين الأفراد تعبيرها في الطريقة التي تدير بها المدينة نفسها وتصرفها تجاه مواطنيها، وتجاه المدن الأخرى، وتجاه السلطة المركزية. إن الصفة الفريدة والجوهرية للتمدن في جنوب البلاد البابلية هي حقيقة أن المدينة هنا يمكن أن تتطور إلى مركز للنشاط الثقافي دون تحفيز أو حضور الشروط الاجتماعية الكامنة في السلطة السياسية.

لا يزال التنظيم الاقتصادي الداخلي لهذه المدن مبهماً، ولكن من المقبول الافتراض بأنه لم يختلف في جوهره عن تنظيم المجتمعات القروية التي نجدها في جميع أنحاء الشرق الأدنى القديم بضمنها الأقاليم التي كانت تعتمد على الأمطار. مثل هذه القرى، داخل محيط من الحقول في الأراضي المشاعة قرب المدينة، حيث يجني المزارعون حصادهم مع قلة من الحرفيين اليدويين، بإمكانها أن توفر لسكانها حياة ملائمة، لا تستوجب إلا القليل من الاحتكاك مع المدن الأخرى، واستعمال هامشي للنقود. ومن الضروري الملاحظة بأن أية مدينة من هذه المدن كانت تتكون من المدينة بالمعنى الضيق (town proper)، أورو (uru)، ضاحية المدينة (suburb)، أورو برّه (uru.bar.ra)، والميناء (kar). إن غياب موضع السوق marketplace يكشف على نحو دقيق البنية الاقتصادية الداخلية للمدينة تماماً مثلما يكشفها حضور منطقة خاصة خارج المدينة extramural، تُعرف باسم الميناء، لغرض العلاقات الاقتصادية بين

المدن. وهنا يدخل العامل الثالث والأكثر حسماً: ففي عدد من مثل هذه المدن كان يوجد نظام اقتصادي ثانوي ومنفصل، يتركز في المعبد sanctuary، أو لاحقاً - نتيجة لتطور ثانوي - في بلاط الملك. يمثل هذا العامل، بوضوح، نظاماً لإعادة التوزيع يختلف في درجة تعقيده ومداه.

لمثل هذا المركز كان يتم توجيه منتجات، تمثل عمل أفراد يعملون في هرمية معقدة للتنظيم وداخله، للتخزين أو للتحويل إلى أشياء مصنوعة. وكان المركز يستخدم الثروة المخزونة كمصدر للقوة الاجتماعية الاقتصادية، لأغراض الهيبة وكذلك - من خلال قنوات خاصة لإعادة التوزيع - لإسناد تنظيم هرمي ثانوي للأفراد يتكون من الكهنة والكتاب والمحاربين والتجار. إن تنظيم كهذا كان لا بد أن ينمو في حجمه وسلطته ومن أجل توسيع ممتلكاته، بالحصول على دخل من المنتجات الزراعية والعمل في الأراضي العائدة له، واستخدام الدخل الناتج لإعالة أعداد متزايدة من الموظفين وكذلك الإنفاق لأغراض أخرى، اجتماعية أساساً، كتزيين المعابد والقصور. لقد كانت دورتي الإنتاج والتوزيع المتداخلتين مع بعضهما تُداران من المركز من قبل موظفين بيروقراطيين يستخدمون أنظمة عالية التعقيد في مسك الدفاتر والحسابات. وقد تركوا لنا العديد من المدونات التي تنتظر التقييم. إن عدد هذه التنظيمات قد خلقت انطباعاً بأن هذا النموذج التنظيمي يمثل كامل التركيبة الاقتصادية لدويلات المدن. وعلى أي حال، فإن استمرار وجود تقليد مدني، تطور من تقاليد المجتمع السومري واحتفظ بحيويته حتى الفترة السلوقية Seleucid [312-64 قبل الميلاد]، يقيم الدليل على أن تعايش النظامين يسمُ كامل التاريخ الاجتماعي، وبالتالي الاقتصادي، لبلاد ما بين النهرين. ونظراً لافتقارنا إلى المعلومات فإن العلاقة بين المدينة، من جهة، والمعبد أو البلاط، من جهة أخرى، غير قابلة للوصف إلا أن هناك مؤشرات تدل على أن العلاقة كانت تختلف كثيراً من مدينة إلى أخرى بسبب ظروف خاصة أو تطورات عرضية قد تبقى غير معروفة إلى الأبد.

هذا التعايش symbiosis بين مدينة مُنظمة، على الأقل في أشكالها الأولى، على نمط مجتمع القرية، وبين المعبد أو البلاط، الذي يختلف تماماً في التركيب الاجتماعي والإمكانات الاقتصادية، كان يوفر ترتيباً مُرضياً ومثمرراً. فقد شجع على تراكم السلع الرئيسية لدى الأسرة الملكية أو المقدسة، مُجبراً إياها على استنباط طرائق بيروقراطية لإدارة هذا التراكم من خلال جرد المحتويات، ووضع الميزانيات، وتحديد الدخل والإنفاق على مستوى واسع النطاق. وطور نظاماً مُحكماً للمُعادلات equivalencies

لإدارة الكفوة لأنواع المختلفة من السلع الغذائية، ومواد التصنيع، وتسديد [أجور] الأفراد العاملين بالسلع، .. الخ. أثّرت هذه الطرائق - وخاصة استعمال المعادلات - على جميع اتصالات نظام إعادة التوزيع مع العالم الخارجي، وتطورت إلى وسائل مهمة لممارسة السلطة السياسية الكامنة في مثل هذا الوضع الاقتصادي. الجانب الجوهري في التعايش المذكور يجد تعبيره في مراقبة أسعار السلع الأساسية، ومعدل الفائدة ومعايير الأوزان التي كان البلاط أو المعبد يمارسها أو يحاول ممارستها. والأمر الذي يصعب على الفهم هو استعداد المدينة للإذعان لمثل هذا التعايش وفي ذات الوقت إبقاء الروح المجتمعية حياً خلال تقلبات الحروب والغزوات المتكررة وحتى، أثناء التطور، ممارسة نفوذ سياسي كبير على البلاط والمعبد. وأحياناً كان هذا الروح يزدهر إلى اعتزاز مدني واعي، لا يجد له مثيلاً في المجتمعات الحضرية الأخرى في الشرق الأدنى، ويؤدي إلى تعاضد النشاط التجاري القائم بالدرجة الأولى على المبادرة الفردية، وهي أيضاً مما لم تجد إلا القليل مما يناظرها في المجتمعات الأخرى. إضافة إلى ذلك، فإنه ساهم في ضمان بقاء المدن أثناء فترات السيطرة الأجنبية والانحطاط المستمر لأهمية المعابد. وفي النهاية تحولت العديد من هذه المدن إلى هياكل فارغة حيث كان عدد صغير من السكان يعمل على إبقاء التقاليد الألفية حية، ومع هذا فإن عدداً من المدن استمرت كمراكز مزدهرة ذات شهرة عالمية.

ومع ذلك فإن ميزان القوى داخل هذا التعايش كان أبعد ما يكون عن الاستقرار، متحولاً من الملك إلى المدينة ومنها إلى الملك، عاكساً التغيرات السياسية التي كانت تلتف المنطقة بأكملها، أو كفاءة الحكام. ورغم هذه التغيرات فإن أجواء السلام الاجتماعي تميّز تاريخ ما بين النهرين وأدائها على عكس ما كان عليه الوضع في مصر.

إن افتقار المنطقة [وادي الرافدين] إلى الأخشاب والأحجار الملائمة للبناء والزخرفة، وكذلك النقص في المعادن، حفّزت نشاطاً اقتصادياً تجاوز نطاق نظام إعادة التوزيع. فالبلاطات والمعابد كانت ترغب بهذه المواد لتعزيز هيبتها؛ وأدى هذا إلى التجارة مع البلدان الأجنبية، التي اقتصرت على السلع الكمالية وانحصرت على المستوى الرسمي من خلال السفراء الملوكيين. إن الحاجة لإنتاج سلع لغرض التصدير، سلع سهلة النقل وتجد لها، على الأرجح، سوقاً جاهزة في البلدان التي تنتج أو تتاجر بالمعادن والأحجار وغيرها من المواد المرغوبة، قد خلقت نشاطات صناعية بالاستفادة من المواد الرئيسية المخزونة بكميات كبيرة في البلاطات والمعابد. إن مضامين هذا الجانب في اقتصاد ما بين النهرين أبعد ما تكون

عن الوضوح، فتجارة المَلِك كانت قائمة إما على نوع من المبادلة/المعاملة بالمثل reciprocity بين الحكام أو المعاهدات التي تحدد طبيعة السلع وأسعارها .. الخ. وعلى حد سواء يبقى غير واضحاً مكانة الأشخاص الذين يقومون بتحريك تبادل السلع، ومتى وتحت أية ظروف يستطيع المواطنون الأفراد الحصول محل الموظفين الملكيين أو أنهم قد حلّوا محلهم فعلاً، والعديد من القضايا الأخرى ذات العلاقة.

إن التفاعل بين متغيرين مستقلين، البلاط والمدينة، كان المُقرر لكامل مجرى التاريخ الاقتصادي - والسياسي - لبابل. فالبلاط وسّع قاعدة أعماله من خلال مختلف المراحل الوسطية، كتغيير الاعتماد على دخل الضرائب إلى الجزية/الإتاوة tribute وترتب على زيادة القوة الاقتصادية اللاحقة التأثير على نمط السلوك المفضل للفئة الحاكمة، وأدى إلى تغيير في العلاقات ما بين المدن. فالمفهوم الأصلي للدولة-المدينة انزاح ليُخلى المكان لمفهوم الدولة الإقليمية territorial state المكونة من العديد من المجتمعات القروية والمستوطنات الجديدة، والمحمية بحصون ملكية، وكلها تزود السلع الرئيسية إلى نظام إعادة التوزيع لدى البلاط. وكان من نتائج النزاعات بين الحكام من أجل الهيمنة تحوّل المدن الجديدة إلى عواصم تزدان بقصور ومعابد فخمة، وبنية سياسية قائمة على اقطاعية مفروضة من فوق. إن الإبقاء على دولة إقليمية في ظل هذه الظروف يتطلب جهداً عسكرياً مستمراً بهيئة جيش ثابت مكون من شريحة من السكان عُزلوا عن مقامهم الاقتصادي والاجتماعي، وحيث أن نظام البلاط، في وظيفته وطموحه السياسي يقع خارج دائرة مجتمع السكان الذي يشكل المدينة، فإن نظام البلاط كان غرضه التأثير الخارجي وكان مُلزماً باستخدام أفراد من بين أناس من أصول إثنية أو خلفيات ثقافية مختلفة. وكان من المرجح أن يقوم هؤلاء الأفراد بدورهم بالاستيلاء على السلطة واستخدام مواطني بلدانهم المحاربين لإبقائهم في مركز نظام إعادة التوزيع. وأدت الغزوات الأجنبية المتكررة إلى التمزق الفيودالي وإزاحة الحكومة المركزية، كما أن الصراع الحتمي بين المدن القديمة، وتقاليدها الثقافية والمدنية، والحكام الجدد أدى إلى تأسيس عواصم جديدة أشبه ما تكون بمخيمات عسكرية.

إن التطور الذي أتينا على ذكره أعلاه، على أنه تطور نموذجي، لم يتحقق على الإطلاق في جميع مراحلها في أي من الدول التي كانت تتنافس فيما بينها في المنطقة الجنوبية من وادي الرافدين منذ زمن ظهور امبراطورية سرجون الأكدي [الألف الثالث قبل الميلاد]. إن بعضاً من التطورات غير النموذجية التي حصلت بسبب النجاحات الباهرة لبعض الحكام، أو كنتيجة

لغزو أجنبي، قد ساهمت في تمويه النمط ولكن دون أن تنجح في إقصاء المجموعة الرائعة والمتكررة للأحداث التاريخية التي تنظم النمط الذي عرضناه أعلاه.

إن ظهور بعض المدن الكبيرة في بابل بحيوية متجددة وقوة اقتصادية حوالي النصف الأول من الألفية الأولى قبل الميلاد، بعد انقضاء فترة طويلة شهدت انحطاط السلطة الملكية، ينطوي على أحد أهم الألغاز المحيرة في التاريخ الاقتصادي البابلي. القرون القليلة التي تفصل السلالات الحاكمة ما بعد الكيشيين [1531-1155 قبل الميلاد]، والتي لم تعمر طويلاً، عن غزو الفرس، الذين وجدوا في بابل المرزبانية [وحدة عسكرية-إدارية/ولاية فارسية] satrapy الأغنى، قد شهدت نهوضاً اقتصادياً لم يكن، في ضوء الأوضاع الاقتصادية والإمكانات في كامل المنطقة، إلا النتيجة المباشرة للتجارة العالمية، وفي هذه الحالة بمنارة إما من المدن، من خلال نشاط تنظيمات تجارية، أو، وهو الأقل احتمالاً، من خلال أفراد أو البلاط نفسه. وكون أن التجارة مع الشرق يبدأ حوالي هذه الفترة، بعد توقف لما يقرب من خمسمائة سنة، يؤيد هذا التفسير، لا ينبغي أن نرتاب بصحة هذا التفسير على أساس عدم توفر أدلة مكتوبة ذات صلة. ورغم أن النصوص التي توثق المعاملات التجارية الفردية وشؤون بعض الأماكن المقدسة sanctuaries الكبيرة متكررة إلى حد بعيد في هذه الفترة، على المرء أن يفترض أن كتابة السجلات في العصر البابلي الجديد [626-539 قبل الميلاد] لم يكن عَرَفاً متبعاً إلى حد كبير في مجال التجارة الخارجية. ويبدو أنه ينبغي لنا أن نفرق بين نوعين من الممارسات في حقل النشاط التجاري الواسع النطاق في الشرق الأدنى القديم. أولهما، الممارسات التي كانت تقوم بها المستوطنات التجارية الآشورية في آسيا الوسطى وموردي النحاس من الخارج إلى أور بابل-القديم، وكانت هذه بكل وضوح تحت تأثير التقنيات البيروقراطية لإدارات المعابد السومرية التي كانت تتميز بتعقيدات مسك الدفاتر والمحاسبة المتعددة الجوانب. ويبدو أن ثانيهما كانت تُفضل الاتفاقات الشفوية ومُستكملة بأدوات تنفيذية مختلفة كان تجار الشرق الأدنى، من الفينيقيين إلى النبطيين، يعتمدون عليها بشكل أساسي. والتزم بالممارسة الثانية سكان بابل الذين منحهم أسرحدون [680-668 قبل الميلاد]، كدليل عملي على رجوعهم إلى السلطة، حق المتاجرة مع جميع أقاليم العالم، بعد أن قام أبيه سنحاريب بتدمير المدينة وبيعهم كرقيق.

يكشف هذا، بالمناسبة، معلومتين مهمتين إلى حد ما: كان أهالي بابل يعملون في التجارة بعيدة المدى والتي أصبح مصدر ثرائهم وقوتهم، وكان

الملوك الآشوريون يتساهلون مع مثل هذا النشاط، وعلى الأرجح كانوا يستفيدون منها. واهتمامهم بمثل هذه التجارة بين البلدان، علاوة على ذلك، مدون في فقرة في نقش تاريخي لسرجون الثاني (جد أسرحدون). ففي هذا النص المنشور مؤخراً نجد بياناً يعكس بوضوح لافلت للنظر الدور الأساسي الذي كانت تشغله التجارة في مالية الإمبراطورية الآشورية. يدرج سرجون في هذا البيان من بين انجازاته العسكرية حقيقة أنه كان الملك الأول الذي أجبر مصر - التي يبدو أنه هاجمها خلال حملته الفلسطينية - لإقامة علاقات تجارية مع آشور. أن توصف الحدود المصرية هنا بأنها "مغلقة" توضح وجهات النظر المختلفة جوهرياً للخصمين تجاه التجارة. فالإكتفاء الذاتي لاقتصاد التخزين الأحادي لمصر اصطدم مع مصلحة وادي الرافدين في التجارة العالمية التي كانت التعبير المباشر عن اتحاد فريد بين النظامين الاقتصاديين الذين لاحظناهما في بابل.

يقودنا هذا إلى مسألة مهمة في علم الآشوريات: فهم وتقييم طبيعة الشكل الآشوري لحضارة وادي الرافدين.

في الهلال الواسع للأراضي التي تحيط جنوب بلاد ما بين النهرين شمالاً وغرباً كانت الزراعة تعتمد حصراً على مياه الأمطار. سقوط الأمطار ضَمَنَ، كقاعدة عامة، معيش المجتمعات الصغيرة المتناثرة في السفوح الجبلية ووديان زاجروس وفي جميع أنحاء أعالي ما بين النهرين بضمنها المناطق الساحلية للبحر الأبيض المتوسط .. الخ. المدن داخل هذا الهلال كانت تحتاج إلى مُحَقِّز خاص كي تنمو، كمعبد ومقام للسلطة الحاكمة أو خطوط للتجارة، والتي كانت نادرة الوجود. كانت القرى تضم عدداً من العائلات المُعْتَمِدة على نفسها في زراعة الحقول والبساتين القريبة منها، وتدفع الضرائب بشكل جماعي إما إلى حاكم يقيم في قصر منيع أو إلى مالك غائب له قرابة، بحكم الولادة أو المكانة الفيودالية، مع سلطة مركزية من نوع ما. الوحدات القروية ذاتها، أو الإيرادات المستمدة منها، كانت خاضعة للتفاوض مع بعض التقييدات التي كانت تختلف حسب الوقت والمنطقة. وبذلك فإنها صارت القاعدة الاقتصادية لتنظيم فيودالي يرتبط بشكل مؤقت مع من كان يمسك بزمام السلطة. وبفضل المساهمة بالضرائب كان النظام بأكمله يوفر سندا لمجموعات القوة المفروضة. هذه المجموعات، كقاعدة عامة، أظهرت القليل من الاستقرار، وتوسعت بسرعة بقيادة أحد الأفراد، تمَّ التغلب عليها بيسر من قبل مجموعات أجنبية غازية، وانهارت بسهولة عندما اختفت قدرة التنظيم المركزي على جباية الضرائب. وظلَّ مجتمع القرية مستقراً على نحو بارز، وعمل واجب تسديد الضرائب الجماعي على تحييد الانشقاقات الفردية رغم أن الحرفيين

غالباً ما كانوا يجذبون نحو بلاط الملك، وهكذا كانوا يساهمون بذلك النوع من التصنيع الذي كان جميع ملوك المنطقة يسعون إليه لتعزيز قاعدتهم الاقتصادية.

من آشور، المدينة التي يبدو أنها تمثل الأس في أقصى الشمال لتنظيم نموذج المدينة البابلية، قامت السلالات الحاكمة، المحلية والأجنبية، ببناء سلسلة من الإمبراطوريات ذات البنية الاجتماعية-الاقتصادية التي وصفناها آنفاً، والتي لم تُعمّر طويلاً. لكن هذه الإمبراطوريات كانت تتزود بصورة متزايدة دائماً من المغنم المُجمّعة من حملات حربية سنوية ذات طابع مؤسسي، كما يبدو، ومن إيرادات مشاريع الاستيطان الداخلية والتجارة العالمية بعيدة المدى. ونشأت مشاريع الاستيطان الداخلي من مبادرات ملكية، فالملوك الآشوريين كانوا باستمرار يقومون بتشديد المدن الجديدة وتأهيلها بسجناء الحرب. وكانت هذه المدن تُحكم من قبل موظفين ملكيين يدفعون الضرائب للملك. كل هذا وكذلك بناء منظومة من الطرقات لأغراض حفظ الأمن وجباية الضرائب والإتاوات عملت على دعم العائلة المالكة وجيش الملك.

وينبغي أن نوضح في هذا السياق أن السلطة السياسية الآشورية كانت تقوم أساساً على سياسة policy التحضّر بالقوة، المفروضة على تلك الأقاليم التي كانت خارج المنطقة الصغيرة نسبياً للتحضر الذاتي الحقيقي في الجنوب والتي تشكل "قلب" الحضارة البابلية. وقد تمّ تطبيق بعض التحضر بالقوة كذلك من قبل بعض الشخصيات النشطة والناجحة عسكرياً وسط الملوك البابليين. ويمكن القول إن التنفيذ الواعي القاسي للمفهوم السياسي للتحضر الإجمالي هو الذي خلق الإمبراطورية الآشورية. وقد طبقت ذات السياسة فيما بعد من قبل كل الغزاة الفرس والساسانيين الذين سيطروا على نفس المناطق في الشرق الأدنى.

ويبدو أن السياسة الداخلية في آشور كانت معقدة جداً. المدن القديمة المحمية بموانئ ازدهرت بفضل استثنائها من الضريبة والتجنيد العسكري؛ وربما كان لها حصة في النشاط التجاري إلا أن هذا غير قابل للتوثيق في العهود المتأخرة. وقد أمّلت المصالح المختلفة النشاطات المتعلقة بنظام التوزيع المتمركز في البلاط، الذي كان يحتاج إلى الغنائم والخامات البشرية الواردة من الحملات التي لا تنتهي لدعم وتوسيع الأسرة الملكية، بينما بسط التنظيم الفيودالي، مع انظمته لإعادة التوزيع، الثاني والثالث، نفوذه من الضيعات القطاعية والمجتمعات القروية إلى مسؤولي البلاط. كل هذه

القوى كانت تتنافس من أجل النفوذ السياسي لزيادة قوتها، وهذا ما يجعل التاريخ الأشوري حقلاً صعباً، وفي نفس الوقت، حقلاً رائعاً للبحث.

من خلال فرز أنماط أساسية معينة للتكامل الاقتصادي في هذا التبسيط المفرط، المتهور نوعاً، لثلاثة آلاف سنة من التاريخ الاقتصادي لم نقصد إهمال التأثيرات الإيديولوجية المتداخلة الموجودة في كل مكان، أو إهمال حقيقة أن الظروف المحلية وتلك ذات الطابع المؤقت قد ضغطت باستمرار لخلخلة هذه الأنماط. ومع ذلك، هناك اتجاه مؤكد ضمن تطور المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية لوادي الرافدين للعودة إلى عدد صغير نسبياً من التكوينات النموذجية لأوضاع سياسية واقتصادية أياً كانت العوامل المربكة المتحركة عبر المشهد التاريخي. هذه القدرة الغريبة لعكس مسار التطور تفسر إلى حد كبير بعض المظاهر الفريدة للصورة التي رسمنا ملامحها في هذه "النظرة العامة" للتاريخ الاقتصادي لوادي الرافدين.

كارل پولاني: التجارة غير السوقية في زمن حمورابي¹

نشرت في الثقافة الجديدة، العدد 360، أيلول 2013

يشهد تاريخ مختلف فروع المعرفة، في بعض مراحلها، ظهور حالة تنطوي على مفارقة: فمع ازدياد حجم الحقائق القابلة للإدراك تصبح هذه الحقائق وكأنها لا تنتظم في صيغة نمطية. وبالنسبة للاقتصاد البابلي، فقد بين ماكس فيبر [1864-1920] منذ عام 1909 إدراكه للصعوبات الدفينة في هذا الاقتصاد إلا أنه لم يرجع إلى هذا الموضوع ثانية. أما بالنسبة لعلماء التاريخ الآشوري فإن مظاهر العلل التي يتصف بها هذا الاقتصاد كانت واضحة لهم ولكن، وهو الأمر الأكثر دلالة، في فترة متأخرة نسبياً. فبول كوشكر Paul Koschaker – الذي دعى مرة بعد أخرى إلى التعامل بحذر مع بعض الافتراضات التي قدمها الرواد في التاريخ الآشوري – أخذ بالتشكي في النهاية من أن جهوده قد وصلت إلى طريق مسدود. فقد اختتم دراسته عن إدارة الاقتصاد في الدولة البابلية القديمة (1942) بـ "إشارات متضاربة ومشككة" ولمح بأنه لم يتمكن من التطبيق المُرضي لقواعد التعامل التجاري transactional terms على عملية التجارة التي تمارسها الحكومة process of governmental trading كما هي مثبتة في وثائق لارسا. وأضاف بأنه علينا، في الوقت الحالي، القبول بعدم كفاية المفاهيم العقلانية لفهم التصرفات الإدارية اللاعقلانية لما اسماه، من باب الاتهام، الوسائل التجارية المفرطة في بيروقراطيتها. هذا الأسلوب في التعبير قد يعكس تحيزاً في الحكمة العملية لهذا العالم الكبير الذي يتمتع برؤية واضحة. وعلى أي حال، فإن مثل هذه النظرة تتجاوز جوهر المشكلة فحتى غوردن جايلد [1892-1957] V Gordon Child – الذي يمكن أن يوصف بأي شيء عدا كونه معادياً للاشتراكية – أخفق في تفكيك الأمور الغامضة التي تنتظم الأشكال الأولى للحياة الاقتصادية في هذه

¹ المعلومات الواردة بين قوسين مربعين والهوامش من وضع المترجم ما لم يشر خلاف ذلك.

عنوان هذه الدراسة بالإنجليزية هو Marketless Trading in Hammurabi's Time وهو الفصل الثاني، الصفحات 12-27، من كتاب: Trade and Market in the Early Empires: Economies in History and Theory, Ed. Karl Polanyi, Conrad M. Arensberg and Harry W. Pearson, Gateway Edition, Chicago, 1971. (1st Ed published by the Free Press, 1957).

كارل پولاني (1886-1964). للتعريف الأولي لبعض الأفكار الاقتصادية التاريخية لبولاني راجع: دانيال فسفيلد، "السوق من منظور تاريخي"، الثقافة الجديدة، العدد 281، آذار-نيسان 1998، ص 65-73.

المنطقة. فنظريته عن "الثورة الحضرية"² التي كانت انعكاساً للتقدم المذهل في اركيولوجيا ما قبل التاريخ، وعلى الرغم من هذا التقدم، لا تجيب على التساؤل عن كيفية تنظيم الإنتاج والتجارة. لذلك يتوجب علينا الافتراض بأن العوائق أمام فهم أعمق كانت تتجاوز أية تفضيلات لفلسفات التاريخ أو السياسات الاقتصادية. ويبدو أن هناك، في الواقع، أسباباً قوية تدعونا للاعتقاد بأن الإحباط الذي كان الباحثون يواجهونه في حقل دراسة الاقتصاد البابلي ما هو إلا آخر طور للحيرة التي كانت تنتقل من جيل إلى آخر والتي عُرفت لما يقرب من قرن باسم الجدل حول أوِيْكوس oikos controversy³ [المذكور في الفصل السابق]. وموضوع الجدل، وباختصار، هو: هل أن المجتمع الكلاسيكي اليوناني والروماني، في ذروة تطوره، كان، في جوانبه الاقتصادية، يعتبر في جوهره مجتمعاً حديثاً أو بدائياً.

الاقتصاد الزائف والمشهد المعكوس

في استعادة هذا الجدل، ليس من الصعب جداً أن نرى، حتى في حالة الاتفاق العام على الحقائق، لماذا بقي التفسير مٌحيراً للعقول. وفي الواقع،

² أنظر الفصل الخامس، الثورة الحضرية في وادي الرافدين، في كتاب: Gordon Child, **What Happened in History**, Penguin Books, 1952 (First Ed. 1942), pp. 89-113.

³ Oikos أصل الكلمة في اللغة الألمانية يعني "بيت" أو "منزل". فالاقتصاد المنزلي المغلق في الحضارات القديمة يشار إليه بكلمة oikenwirtschaft. الفصل الأول من كتاب **Trade and Market in Early Empires** تحت عنوان المناظرة الدائرة حول البدائية الاقتصادية يقتبس نصاً من كتاب آخر، صدر بالألمانية عام 1925، يلخص عناصر الجدل الدائر بين الباحثين في اقتصاديات العالم القديم بالشكل التالي:

هل لنا أن نفهم اقتصاد العالم القديم على أنه وصل درجة عالية من التطور، أو، على العكس، كان في جوهره بدائياً؟

هل أن القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد يعتبران عصراً للأعمال الوطنية والعالمية، شهد تدهوراً في الزراعة وتقدماً في الصناعة، والمانيفاكچورات الضخمة التي تدار على أسس رأسمالية أخذت طريقها للتوسع، ومصانع تعمل من أجل التصدير وتتنافس مع بعضها على بيع منتجاتها في الأسواق العالمية؟

أو نفترض، عكس ذلك، بأن مرحلة "الاقتصاد المنزلي" المغلق لم تنته بعد؛ وأن النشاط الاقتصادي لم يصل مستوى النشاط الوطني ودونه المستوى العالمي؛ وأنه لم تكن هناك تجارة منظمة تقوم على المتاجرة البعيدة، وأنه بالتالي لم توجد صناعة واسعة النطاق تنتج للأسواق الخارجية؟

وباختصار، هل أن طبيعة الحياة الاقتصادية كانت لما تزل زراعية وليست صناعية؟ هل أن التجارة كانت لما تزل محصورة ببيع بعض السلع عن طريق التجوال، وهو ما يقوم به الحرفيون الذين ينتجون سلعهم بدون استخدام المكنان وباستعمال المواد الأولية المتوفرة لهم محلياً.

فإن المسألة مثار البحث كانت تتمحور حول مدى تنظيم الاقتصاد، في مجالاته المختلفة، من خلال الأسواق. إن الأدلة على وجود أسواق عاملة ليست متوفرة بسهولة - كما يفترض. وحتى في الأزمنة الحديثة فإن مسألة التثبت من جاهزية أو عدم عمل آلية العرض-الطلب-السعر لسلعة أو خدمة معينة، في وقت ومكان محددين، هي مسألة في غاية الدقة. وبالنسبة للماضي السحيق فإن الدليل المباشر قد لا يكون في متناول اليد. ولذلك فإننا مضطرون للاعتماد على تلك الدلائل غير المباشرة، كالسمات الثقافية، التي تشير على العموم إلى وجود الأسواق والنشاطات السوقية في المجتمع. إلا أن مثل هذه الشهادة خداعة. فالسمات التي تستدعي في ظاهرها ثقافة رجل الأعمال قد تتواجد بمعزل عن الأسواق وحتى عن الاقتصاد بأجمعه. هناك الأمثلة الشهيرة للاقتصادات المنتحلة كتجارة البوتلاج⁴ potlatch أو تجارة الكيولا⁵ kula، التي تحاكي تفاصيلها في بعض الحالات نشاطات سماسرة البورصة، والتي تمارسها قبائل مانوس Manus في الجزر الأدميرية⁶ Great Admiralty Islands، وتولواوتوتوتوي Tolowa-Tututni في كاليفورنيا أو كواكيوتال Kwakiutl في الساحل الشمالي الغربي للولايات المتحدة الأمريكية. هناك عادات لا تتمتع بحد ذاتها بطبيعة اقتصادية - كالنزوع نحو المقامرة، والتنافس في المزاد العلني، والمحاسبة الصارمة، وإغراء المخاطرة، والتفاخر برقم المبيعات - والتي تسم ممارسة الأعمال التجارية الحديثة، تلعب دوراً في النسيج الاجتماعي للمجتمعات البدائية. وبالطبع، فإن وجود مثل هذه السمات الاقتصادية الزائفة ليست دليلاً على وجود أسواق عاملة. إضافة إلى ذلك، فإن بعض المؤسسات الاقتصادية الحقيقية، في أشكالها المعقدة، والتي نعتبرها حقاً بأنها نتاج الأزمنة الحديثة حصراً - وهذا مصدر آخر للغموض - كانت موجودة أيضاً في المجتمعات القديمة. ولكن، إذا كانت بُنية هذه المؤسسات متشابهة فإن وظائفها قد تكون مختلفة جداً. فهذه المؤسسات في أشكالها الأولية، أشكالها ما قبل السوقية، كانت تقوم مقام الأسواق في حين أن ذات المؤسسات كانت في أشكالها السوقية، على العكس، مؤسسات تكميلية supplementary للأسواق القائمة. فعلى سبيل المثال، خلقت التجارة

⁴ يشار في الدراسات الأنثروبولوجية إلى أن البوتلاج نشاط احتفالي يقوم على المنافسة، ويتضمن التوزيع السخي للهدايا وتدمير ممتلكات لإظهار المنزلة الاجتماعية لرئيس القبيلة أو العشيرة.

⁵ يرد في الدراسات الأنثروبولوجية أن الكيولا هو تبادل احتفالي للهدايا بين مجموعة من الجزر في غرب المحيط الهادي بهدف تأسيس وتعزيز العلاقات بين سكان الجزر.

⁶ مجموعة من 40 جزيرة بركانية ومرجانية في الجنوب الغربي للمحيط الهادي، تشكل جزءاً من بابوا غينيا الجديدة، في ما يعرف بأرخيبيل بسمارك.

والأعمال، في القرون الأخيرة، هياكل انتمائية معقدة وأنظمة للمقاصة وأشكال معقدة للوساطة والعملية المستخدمة لغرض محدد؛ وكل هذه يجب أن ينظر إليها على أنها جديدة. ومع هذا، فإن مؤسسات مماثلة، بأشكال أقل تعقيداً بكثير، قد وجدت في المجتمعات القديمة. وتفسير ذلك بسيط: عندما تكون المقايضة منتشرة يساعد الائتمان والوساطة والمقاصة والعملية المستعملة كمعيار على تعاطي المقايضة، وهكذا يتم التعويض عن غياب الأسواق والعملية كوسيلة تبادل.

يمكننا القول في مثل هذه الحالات، اعتماداً على المصطلحات الحديثة، إن غياب الأسواق العاملة يستدعي وجود ما يقوم مقام هذه الأسواق. وفي غياب العملة، المستخدمة كوسيلة للتبادل، غالباً ما يكون هناك خزيناً حكومياً كبيراً من السلع الأساسية يلزمه نظام لضبط حساب مديونية الأفراد وإجراء المقاصة. ورغم أن العملة لا تستعمل كوسيلة للتبادل، فإنها قد تستعمل كمعيار وكوسيلة للدفع، ويتم ذلك باستخدام سلع مختلفة حسب اختلاف الغرض. وبالتالي تصبح عملية السمسرة والمزاد وسائل عادية لتنظيم عملية التبادل. ومع تطور الأسواق تصبح هذه الممارسات، بالطبع، زائدة عن الحاجة وتبدأ بالاختفاء إلى أن تبدأ بالظهور ثانية فيما بعد ولكن، هذه المرة، بشكل معقد وبدور جديد للمساعدة في عمل الأسواق المتقدمة. أفضل نموذج لإعادة ظهور السمات المؤسسية والأدوات الإجرائية في زماننا هو المجال الذي نطلق عليه اسم الصناعة المصرفية. لقد كان ظهور الصرافين، تاريخياً، وهم أول المصرفيين، سابقاً لتعميم استعمال العملة المعدنية. فقد وصلت ممارسة الصيرفة، بما فيها التعامل من خلال الفروع، درجة عالية من التطور في مصر زمن البطالسة، إذ كانت هذه الممارسات وسيلة لتسيير اقتصاد عيني [لا يقوم على استعمال النقود] مخطط ومتقدم يعمل بدون أسواق وبدون استعمال العملة كوسيلة للتبادل. وفي الواقع، فإن المقاصة بين حسابات التجار كانت شائعة الاستعمال 1500 سنة قبل بطالسة مصر في التجارة "الأشورية القديمة" وفي غياب الأسواق المقررة للأسعار، وحتى في غياب العملة المعدنية.

الخلاصة: لقد كان العنصر المحير للفكر في الجدل الدائر حول أويكوس يتمحور حول دور السوق، رغم غياب الوعي الكافي بأهمية هذا الدور بين أطراف الجدل. اعتماداً على صياغة المسألة بهذه العبارات، أكد رودبيرتس⁷ Rodbertus على أن النظام الضريبي، في غياب نظام

⁷ يوهان كارل رودبيرتس (1805-1875) عالم اقتصادي ألماني. للتعرف على أفكاره يمكن الرجوع إلى The New Palgrave Dictionary of Economics

السوق، في الفترة المتأخرة للإمبراطورية الرومانية، كان يعتمد، بدهاءة، على ضريبة عامة على الملكية، مفروضة على الأسر المكتفية ذاتياً تقريباً ممن كانوا يشكلون أصحاب الأرض ومالكي العبيد. وعلى أساس نفس الصياغة، سلّم بوشر⁸ Bücher بحقيقة أن توحيد الاقتصادات الحديثة قد تم من خلال الأسواق الوطنية، التي كانت بدورها، إلى حد كبير، نتاج تدخل الدولة، وهو تطور لم يشهده التاريخ قبلاً. وأخيراً، فإن موقف فيبر تجاه الرأسمالية في العالم القديم وكذلك موقف [مايكل إفانوفيتش] روستوفتزييف [1870-1952] Rostovtzeff يمكن أن يختزل إلى سؤال واقعي وهو: إلى أي مدى كانت العملية الاقتصادية في روما القديمة، في أزمنة أخرى وفي جوانبها الأخرى، قد تشكّلت من خلال الأسواق؟ إلا أننا في تأكيدنا على وجود الأسواق يجب أن نتجنب بكل حذر مغبة الوقوع في مأزق خطير. فالنشاطات الاقتصادية ضمن شروط الأسواق المتقدمة قد تشبه النشاطات في ظل شروط ما قبل السوق في حين أن وظيفتها تختلف كلياً. إن التمييز بين أوضاع ما قبل السوق وما بعد السوق يساعد على تجنب ما يمكن أن يسمى بـ "المنظور المعكوس" الذي أغرى المؤرخين برؤية ظواهر "حديثة" جداً في العالم القديم في حين أنهم كانوا، في الواقع، يواجهون ظواهر نموذجية بدائية أو قديمة.

قضايا الاقتصاد البابلي

لقد كان پول كوشكر عام 1942 حقاً أقل وثوقاً لفهمنا للاقتصاد البابلي من إدوارد ماير Eduard Meyer عام 1895. وفيما يلي سنوضح أسباب ضعف الثقة.

⁸ كارل فيلهلم بوشر (1847-1930) عالم اقتصادي ألماني. في التعليق على بعض أفكار بوشر يرد في أحد المراجع ما يلي: وضع بوشر نظرية عن مراحل النمو الاقتصادي في كتاب له نشر عام 1893 (الترجمة الإنجليزية بعنوان: (Industrial Evolution, Toronto: University of Toronto Press, 1903) ميّز فيها بين الاقتصاد المنزلي في العصور القديمة بمقتضى فكرة رودبيرتس عن اقتصاد الأويكوس oikos economy واقتصاد المدينة في العصور الوسطى والاقتصاد الوطني — أي الاقتصاد التبادلي الحديث. وكان دور التبادل يُشكل بالنسبة لبوشر المعيار المركزي في فهم مراحل النمو. فقد افترض بأن التبادل كان، عملياً، مفقوداً في الاقتصاد المنزلي، وهو السبب الذي يفسّر لماذا كان توصيف اقتصاد العالم القديم (حيث كانت التجارة كبيرة الأهمية خلاف ما كان يعتقد به بوشر) بأنه اقتصاد منزلي ليس دقيقاً. كان التبادل في اقتصاد المدينة في العصور الوسطى محصوراً بالسلع المنتجة محلياً في الأسواق المحلية، في حين أن التبادل يعم جميع مجالات النشاط الاقتصادي في ظل الاقتصاد الوطني. أنظر: The New Palgrave Dictionary of Economics, Vol. 1, 1987.

بعد فترة قصيرة من ظهور تضارب الآراء بين بوشر وماير تم العثور على مسألة مصنوعة من الحجر البركاني الأسود منقوشة بشريعة حمورابي. وتضم هذه الشريعة قانوناً تجارياً حُدد تاريخه في (ذلك الوقت) بحوالي 25 قرناً قبل الميلاد⁹. على إثر هذا الاكتشاف بانّت أهمية اللوائح الطينية الخاصة بالمسائل التجارية والمكتشفة قبل مسألة حمورابي. بدى واضحاً بأن الحضارة قد نشأت من الغرائز التجارية للإنسان، وأن مهد عالمنا، القائم على ثقافة رجل الأعمال، قد أزيح عنه الستار في بابل. وفي مواجهة هذه الحقائق فإن توصيف الحياة الاقتصادية القديمة بالبداية لا يعدو أن يكون غير هلوسة. وأثبت سلسلة من العلماء، من أصحاب العقول النقدية التي قلّما تم تجاوزها في أي حقل من حقول المعرفة، النتائج الجماعية لهذه البحوث. لم يكن الاختلاف على التفاصيل معدوماً بينهم، ولا حتى الإقرار بوجود ثغرات مهمة - ولكن فيما يخص الطبيعة العامة للاقتصاد، وروحية المشاركين فيه، والمواقف وميزان القيم التي كانوا يعتمدونها في توجيه سلوكهم، فإن هذه كلها لم تكن موضع شك بين هؤلاء العلماء. نحن نشهد هنا عين الجوهر الذي يتسم به مجتمع الأعمال ذو العقل الرأسمالي، حيث يقوم الملك والإله على حد سواء بالعمل على تحقيق الربح الفاحش، باستغلال الفرص المتوفرة للإقراض بالربا، وإضفاء روح الانهماك في جمع المال على حضارة بأكملها عبر آلاف السنين. لذلك يجب النظر إلى الشكوك التي أثيرها هنا، فيما يخص التنظيم الحقيقي للحياة الاقتصادية القديمة في الشرق الأدنى، فبالهذه المناخ من الآراء.

نستطيع من خلال منهج تفسيرنا للجدل حول الـ أويكوس صياغة المآزق بإيجاز. لقد بدت الحياة الاقتصادية البابلية لهؤلاء العلماء بالضرورة كمركّب من النشاطات تعتمد أساساً على عمل نظامٍ للسوق مفهوم ضمناً. فالأسواق كانت القاعدة الصلدة التي تركز عليها، بالتوكيد البديهي، كل ما يحدد أشكال التجارة، واستعمالات النقود، والأسعار، والصفقات التجارية، وحسابات الربح والخسارة، والإعسار المالي، وشركات التضامن. وباختصار: الأصول التي تنتظم الأعمال. مؤدى ذلك، منطقياً، هو أنه في حالة غياب مثل هذه الأسواق فإن هذه التعليقات للمؤسسات الاقتصادية وطرق عملها تؤول بالضرورة إلى الانهيار.

ونحن نؤكد بأن الحالة هي كذلك تماماً. فبابل، في حقيقة الأمر، لم يكن لديها مواضع للأسواق أو نظاماً للسوق من أي نوع كان. هذا الإقرار،

⁹ حاشية للمؤلف: جرى مؤخراً تحديد التاريخ بالنصف الثاني من القرن السابع عشر قبل الميلاد.

الذي يشكل الأطروحة الرئيسية لهذا الفصل، يتأسس على عدد من الحقائق تدعم بعضها بعضاً.

(1) جَزَمَ هيرودوت¹⁰، الذي زار بابل في وقت غير محدد بين 470 و 460 قبل الميلاد، وبأقصى ما يمكن من تأكيد، بأن "الفرس لا يترددون على مواضع السوق market places وبالتالي ليس لديهم في بلادهم موضع سوق واحد." (هيرودوت، ا، 153). لقد تجاهل المؤرخون الاقتصاديون لبلاد ما بين النهرين هذه الفقرة بثبات.

(2) إن مسحاً سطحياً للطبيعة القانونية للمعاملات التجارية، من الفترة البابلية القديمة، نزولاً إلى الفترات الفارسية، يبين صحة الرأي المقبول، ومفاده أنه، بالرغم من "العصور المظلمة" التي تخللت هذه الفترات، لم يحصل أي تغيير لافت للنظر في طبيعة وخصائص هذه المعاملات.

(3) من الواضح بداهةً بأن مواضع السوق، لو كانت موجودة حقاً في زمن حمورابي، فإنه من الصعب جداً أن يختفي أي أثر لها إلى الحد الذي لا يمكن معه إحيائها خلال فترة نهوض النشاطات في حقل الأعمال والتي حصلت بعد ألف سنة كان هيرودوت في أعقابها يزور بابل.

(4) بالرجوع إلى الأدلة الأركيولوجية المعتمدة فإن المدن المسورة في فلسطين (باستثناء أورشليم الهيلينستية) لم تكن فيها أية مواقع مكشوفة [أسواق] لغاية تدميرها.

(5) إن موضع السوق الرئيسي في بابل [لو كان موجوداً فعلاً] يوفر معلماً لا يمكن إهماله. علاوة على ذلك فإن المدونات الأدبية المعاصرة للأسماء والمواقع وتخطيطات المعابد وطرق المدن، التي أكتشفت في مكتبة آشور-بانيبال، لم تُشر إلى أي نوع من المواضع المكشوفة.

(6) أن ما يقرب من نصف دزينة من كلمات مختلفة ترد في الوثائق المسمارية، وتُرجمت في سياقات مختلفة إلى كلمة

¹⁰ ليس هناك اتفاقاً يقينياً عن الفترة التي عاش فيها هيرودوت، ويعتقد بأنه عاش في الفترة 484-425 قبل الميلاد.

"سوق" ظهرت عند تدقيقها بأنها لا تعني "موضع سوق" بتاتاً
أو على الأقل فإن معناها مشكوك فيها.

(7) أخيراً، فإن إثباتاً جزئياً وصلنا من أ.ل. أوبنهايم A. L. Oppenheim¹¹ كما يلي: "وبالنسبة لأسئلتك الخاصة: الأدلة الأركيولوجية تشهد ضد وجود 'مواقع للأسواق' داخل مدن الشرق الأدنى القديم."¹²

مستوطنة تجارية آشورية ممعنة في القدم

يوفر لنا الاستعراض السريع لمستوطنة تجارية آشورية قديمة، كانت قائمة لفترة تزيد عن القرن في زمن حمورابي في قلب آسيا الصغرى، صورة تعميمية عن الكيفية التي فهم بها علماء التاريخ الآشوري، وحتى لبضعة عقود خلت، تنظيم التجارة لهذه الحالة الخاصة التي نحن بصدددها. فاستعراض الخطوط العامة سيبرز المسائل التي ستظهر بالضرورة مع استبدال وجهة النظر التقليدية - التي تفترض الأسواق - مع وجهة نظر أخرى تعتمد على نفس البيانات المتوفرة ولكن دون اعتماد فرضية الأسواق. ومن الصعوبة بمكان تجنب بعض التكرار عند مقارنة المشهد المُرَكَّب، كما يتجلى من المصادر المتوفرة لنا - وتضم مُؤَلِّفين رئيسيين هما: لاندسبيرغر Landsberger في 1925 و آيسار جَي. لوي Eisser-J. Lewy سنة 1935 - مع الصورة التجريبية التي نقدمها كبديل عن الصورة التقليدية.

مما لا يُنكر أن المطبوع الأول كان قائماً على الحدس - وهو ما لم يمكن بمقدور المؤلف تجنبه بسبب الثغرات في الأدلة؛ إضافة إلى الإدعاء، صواباً، بالحق في الصياغة الحرة للبيانات التوضيحية المنتقاة بغية إتمام [نواقص] النصوص الأصلية بدلاً من الإفراط في الدقة الذي كان سيؤدي إلى إخراج قطع عسيرة على الفهم.

¹¹ يضم كتاب Trade and Market in the Early Empires دراسة له بعنوان A Bird's-Eye View of Mesopotamian Economic History ، الصفحات 27-38. وكان أوبنهايم أستاذ الآشوريات في جامعة شيكاغو. نشر العديد من الدراسات والكتب عن العراق القديم ومنها: Ancient Mesopotamia (1964) و Letters from Mesopotamia (1968).

¹² حاشية للمؤلف: أنظر فيما يلي، ص 30-31.

ضمَّ المطبوع الثاني، الذي ظهر بعد عقد، معظم الألواح المُنقَّحة transliterated آنذاك. وكان على العموم مطابقاً للمطبوع الأول ومختلفاً معه، باستثناء التفاصيل، بشكل خاص في الدقة الحرفية والإتقان القانوني.

لقد عرض لاندسبيرغر سلسلة فارغة من المشاهد الحياتية تستوحي دراما نشاط الأعمال. وقدم آيسار-جي لوي التعليقات الفيلولوجية والتصنيفات القانونية. وسنوجز العرض المجتزأ لهذين المؤلفين في ثلاث نقاط هي: الأفراد والحوافز، طبيعة السلع، خصائص النشاطات.

بالقرب من كانيش¹³ Kanish، على نهر هالس Halys، نجد مستوطنة [محطة تجارية] آشورية للتجار - أعضاء ما يسمى بالكاروم¹⁴ karum، رجال أعمال يعملون على تحقيق الربح من خلال عمليات البيع والشراء، والمشاركة التضامنية partnership، والإقراض والاستثمار. وهناك وفر من الوثائق [عن هذه النشاطات] تمتد لثلاثة أجيال وبعدها تتوقف فجأة. يعمل هؤلاء التجار كوسطاء بين مدينة آشور البعيدة، التي ينتمون إليها عرقياً ودينياً ولغوياً، وبين رعايا أمير (أو أمراء) محلي في وسط الأناضول. ومهما يكن أصلها، فإن سبب وجود هذه المستوطنة، وبالطريقة التي تدار بها في الواقع، هو الحصول على النحاس لمدينة آشور. ويُحقق الربح من خلال بيع-

¹³ ويكتب الاسم أيضا Kanesh ويقع في تركيا ويعرف اليوم باسم كولتبه (Kultepe).

¹⁴ يرد في أحد المراجع الحديثة أن الكاروم الآشوري يعني هيئة حاكمة وقضائية، وأن الآشوريين استخدموا مصطلح الكاروم للدلالة على الهيئات الحاكمة متبوعاً باسم المدينة التي تعمل فيها هذه الهيئات، مثال ذلك كاروم كانيش Karum Kanesh. ويضيف هذا المرجع بأن الكاروم عبارة عن هيئة تتشكل من جباة الضرائب وأن هذه الهيئات الآشورية القديمة في الأناضول كانت تقوم بوظائف متعددة:

- 1- جباية الضرائب ورسوم المرور من القوافل الواصلة، وكانت لها الصلاحية لإلزام من تستحق عليهم الضرائب والرسوم على تسديدها عندما يحاول التجار التحايل في الدفع.
- 2- كانت هذه الهيئات بمثابة الرؤساء (الآباء) للأمراء المحليين ممن خضعوا للسيادة الآشورية.
- 3- القيام بمهام المحاكم القضائية، ولها سلطة التأكد من تطبيق قراراتها.
- 4- توفير التسهيلات الخاصة لخزن البضائع.
- 5- العمل كمؤسسة مالية تقوم بتوفير القروض، وضبط الحسابات الخاصة بالتجار فرادى وجماعات.

وبالنسبة لكاروم كانيش فقد كانت لها وظائف خاصة كونها كانت أكبر من الهيئات الأخرى. فبالتعاون مع مبعوث مدينة آشور كانت تستلم أوامر الحكومة من المدينة وتقوم بنقلها إلى الهيئات الأخرى.

راجع: The Cambridge Ancient History, Ed. I.E.S. Edwards, C.J. Gadd, N.G.L. Hammond, E. Sollberger, Third Edition, Vol. II, Part 1, Cambridge, 1973.

شراء السلع، والقروض - القصيرة الأجل أو الطويلة الأجل - والتشارك في الأعمال وكذلك المشاركة في الأرباح، كما هو الحال مع حقوق المساهمين في أية شركة. والشركة هنا عائلية، ولكن ليس حصراً. غالباً ما يحصل أن أحد الشركاء الصغار، أو شخص آخر يتمتع بمهارات معينة، يُمنح قرصاً نقدياً أو سلعيّاً، بدون فائدة، لقاء خدماته كمندوب متجول، يستطيع استعماله في التجارة لحسابه الخاص (بيعولاطوم *be'ulatum*). القوة المحركة في تجارة الأعمال هو الرجل الكبير في آشور [ورد في الأصل ربما خطأ باسم *Ashshur*] (أمينوم¹⁵ *ummeanum*) الذي يوفر السلع، ويُقرض المال، ويستثمر الأموال لأجل طويل لقاء فائدة أو لقاء المشاركة أو كليهما. ومع ذلك فإن بعض نقابات *gild* التجار، الناجحة أكثر من غيرها في كانيش، ربما كانت تمارس نفس أعمال التجار الكبار. أما عمليات النقل فكانت تقوم بها جماعات خاصة من الناقلين وعلى أساس تجاري. بالإضافة إلى هذه الفئات فإن صورة الشخص المجهول الاسم تمكاروم¹⁶ *tamkarum* دائماً حاضرة رغم أن وظيفته ومصالحه ونشاطاته ليست واضحة ولكنها على ما يبدو مهمة. أما السلع موضوع التجارة فقد كانت بالدرجة الأولى النحاس - كما ذكرنا - والذي يُدار كاحتكار من قبل الكاروم *karum*. ويأتي في الدرجة الثانية من الأهمية السلع برسم الأمانة¹⁷ *consignment* كالرصااص (القصدير؟) والأقمشة الفاخرة من العاصمة [آشور] وتصدير الأنسجة المحلية وغيرها من السلع من كانيش. وكانت قضبان الفضة تتحرك في كلا الاتجاهين. ثم هناك أخيراً ذكرٌ للسلع "الحرّة" التي لا تخضع لـ "الاحتكار" أو لا تكون برسم الأمانة.

كان النشاط الأساسي هو البيع والشراء وخاصة بالنسبة للسلع برسم الأمانة التي يستطيع التاجر أن يطلب عليها عمولة. وفيما عدا هذا النشاط كانت وظيفة التاجر البحث عن زبون للسلع والاستفادة القصوى من فرص السوق. فالأسعار والفوائد تتغير صعوداً ونزولاً

¹⁵ تكتب الكلمة في مراجع أخرى *ummianum* وحسب هذه المراجع فإن أصل الكلمة أكديّة وربما تقابلها كلمة "ممول". أنظر: Wolf from von Soden, *The Ancient Orient*, Michigan, 1994, p 124 وكذلك ص 104 حيث يذكر المؤلف المعاني المختلفة للكلمة.

¹⁶ *tamkarum* كلمة أكديّة الأصل، تقابلها في السومرية *dam-gar* راجع: von Soden.

¹⁷ *condignment* بضاعة، أو وديعة، مرسلة إلى عميل لبيعها بطريقة الأمانة ولا يدفع ثمن البضاعة إلا بعد إتمام عملية البيع.

بطريقة تكاد أن تكون مماثلة لما يجري في البورصة، ولذلك يتوجب على التاجر مراقبة حركة الأسعار والفوائد. وتؤدي المعاملات بين التجار إلى نزاعات غالباً ما تُحلُّ عن طريق التحكيم. وفي حالات أخرى، يبدو أن احتمال فرض العقوبات الصارمة، الأدبية والبدنية، من قبل السلطات، يهدد الطرف المتخلف عن أداء التزاماته [للامتثال للحق].

إن ما ذكرناه يستقيم مع نظام المتاجرة السوقية قبل اختراع النقود المعدنية وإيجاد الأجهزة التنفيذية القادرة على تطبيق قرارات المحاكم. إلا أن أموراً أخرى تبدو وكأنها لا تتسجم مع هذه الافتراضات. ولم ينسَ لاندسييرر أن يقول بأن الأرباح لم تذكر بوضوح أبداً، وأن الخسارات لم تذكر إطلاقاً، وأن الأسعار ليست محط الاهتمام الرئيسي، كما أن المعاملات بين التجار ليست مضمونة بكفالة surety أو رهنية pledge كما هو الحال في التجارة القديمة. كما أن البيانات تشير ضمناً إلى وجود تحريم على المعاملات ما خلا المعاملات النقدية على الأقل بالنسبة للسلع برسم الأمانة. إضافة إلى ذلك، لوحظ بأن الأحكام كانت تطبق أحياناً تحت طائلة التهديد بعقوبة الموت.

حتى الآن أتينا على ذكر الخطوط العامة لوجهة النظر التقليدية.

التجارة بدون مخاطرة

علينا الآن أن نلقي نظرة ثانية على هذه المستوطنة الآشورية، ونقترح أساليب للتجارة تتناسب مع الظروف العامة كما نراها. ومع ذلك فإن المهمة التي نضطلع بها لا تعدو أن تكون غير إعادة تفسير للبيانات التي أتينا على ذكرها أعلاه.

التجارة غير السوقية non market trade – وهذه هي النقطة الحاسمة – تختلف في صفاتها الأساسية عن التجارة السوقية، وتطبق على الأفراد [العاملين في التجارة] والسلع والأسعار ولكن وبكل تأكيد على طبيعة النشاط التجاري نفسه.

فالمتاجرون بالكاروم في كانيش لم يكونوا تجاراً، بمعنى أفراد يرتزقون من الربح الناشئ عن البيع والشراء، أي من فروقات

الأسعار بين العمليتين. لقد كانوا تجارا بحكم المنزلة، وكقاعدة عامة بفضل النسب أو الأسبقية في التدريب على مثل هذا العمل، وفي حالات أخرى بفضل التعيين. وما لم يكن التعيين مقترنا بمنحة كبيرة من الأراضي الأميرية *land grant* - وهو ما نفترضه في حالة الـ *تامكروم* ولكن ليس في حالة أعضاء النقابة [التجارية] - فإن مصدر دخل هؤلاء الأفراد هو من مبيعات السلع التي يكسبون منها عمولة. وكان هذا هو المصدر الأصلي لـ "الأرباح"، أي ذلك المجمع من السلع، بما فيها الفضة، التي كان الأعضاء الداخليين وكذلك الأعضاء الخارجيين - أي الدائنون والشركات - مساهمين فيها [في الأرباح].

كانت السلع تجارية - قابلة للخبز، قابلة للمعاوضة وذات صفات معيارية، أو كما يرد في القانون الروماني *quae numero, pondere ac mensura consistunt* وكانت السلع الرئيسية، إضافة إلى الملابس العادية، تتكون من المعادن - وعلى الأرجح الفضة والنحاس والرصاص والقصدير، وكلها تحتسب حسب مُعادِلها من الفضة. وكانت الفضة، والى حد ما، بالإضافة إلى وظيفتها المعيارية، وسيلة للدفع في حين أن الذهب كان يلعب دوراً أقل في مجالي معادلة القيم واستعماله كوسيلة للدفع.

أما "الأسعار" فقد اتخذت شكل تثبيت التكافؤ *equivalencies* عن طريق العُرف أو القانون أو الإشهار *proclamation* (أنظر فيما يلي، ص 32). ويفترض أن تكون ضروريات الحياة خاضعة لتكافؤ دائم في القيم إلا أنها في الواقع كانت خاضعة لتغيرات طويلة الأجل اعتماداً على نفس الطريقة المتبعة في تثبيتها أصلاً. مثل هذه التغيرات لم تؤثر بالضرورة على دخل التاجر الذي لا يعتمد على التفاوت في الأسعار. مبدئياً، كان هناك دائماً "سعر" [للسلع]، أي المكافئ الذي كان التاجر يبيع ويشترى على أساسه. لكن الأحكام المنظمة للمكافئ لم تطبق على السلع الخاضعة للاحتكار، والسلع برسم الأمانة والبضائع "الحرّة". إن الصفات العديدة المُقيّدة التي تُلحق بمصطلح المكافئ تشير إلى الأحكام المختلفة وآثار هذه الأحكام. فالمكافئ للنحاس، [وهي من السلع التي تخضع] "للاحتكار"، جرى تثبيته باتفاقية تمتد لأمد طويل. أما استخراج النحاس، وكما كان منظماً من قبل السكان الأصليين، فقد كان يتطلب ضمانات من رؤساء هؤلاء السكان بأن قسماً، على الأقل، من المكافئات، وعلى الأرجح بشكل سلع يرغب بها الناس، يكون في متناول اليد بكميات معلومة.

وفيما يخص السلع برسم الأمانة، وتشمل بالدرجة الأولى الملابس الفاخرة المصنوعة في آشور والرصاص (أو القصدير؟) المستورد، فإن "أسعارها" كانت تثبت بنفس الطريقة وكانت السلع تباع وتشتري بذلك "السعر". وتتخذ "الأسعار" بالنسبة للبضائع الحرة أهمية خاصة، ذلك لأن التحول النهائي نحو المتاجرة في السوق ربما نشأ عن هذه الأسعار. وبعبارة أخرى، فإن المعنى الحالي "السعر" ربما كان قد تطور من المكافئات للبضائع "الحرة". إن الصفات المختلفة التي ألحقت بالمكافئات في القوائم الوصفية formulary السومرية (موجودة أيضاً في أوغاريت¹⁸ Ugarit) وكذلك المصطلحات الغريبة التي ترد في وثائق لارسا تدل كلها على أن معاملة المكافئات كانت خاضعة لأحكام إدارية ذات تعقيد خاص. مثل هذا الأمر لا يستوجب الدهشة في القرن العشرين.

وعلى أي حال، فإن الفرق الرئيسي بين التجارة القائمة على الأوامر الإدارية أو الاتفاق من جهة، وبين التجارة الخاضعة للسوق من جهة أخرى يجد تعبيره في أنشطة التجار أنفسهم. فعلى الضد من التجارة في السوق، كانت هذه الأنشطة خالية من الخطر risk-free فيما يخص السعر المتوقع وعُسر المدين. فالخطر الناشئ عن السعر ليس وارداً بسبب غياب الأسواق التي يتحدد فيها السعر والتقلبات التي تطرأ عليه، وبفضل التنظيم العام للتجارة التي لا تعتمد على تحقيق الربح من خلال التفاوت في الأسعار، وإنما يكون الاعتماد على رقم المبيعات. وهذا الوضع يفسر عدم الاهتمام بالأسعار، وغياب أي ذكر للأرباح في الأعمال قيد التداول، والأهم من كل ذلك عدم ورود أي ذكر للخسائر. وتصبح المشاركة في الأعمال، في الواقع، مشاركة في الأرباح. يترتب على هذا الواقع نتائج بعيدة المدى للصيغ التي تتخذها المشاركة التضامنية في التجارة trade partnership، إذ لا يمكن فهم أشكال المشاركة بتاتاً ما لم نُبقي في الذهن، كقاعدة عامة، إسقاط الخسارة من حساب الأسعار.

ليس هناك خطرٌ من عدم وفاء المدين، وبالتالي يكاد أن لا يكون هناك ذكر للخسائر المترتبة على الديون الهالكة bad debts. هذه الحقيقة لها أهميتها القاطعة فيما يخص تنظيم التجارة، مثلما هي قاطعة حقيقة غياب الخطر بالنسبة للأسعار.

¹⁸ أوغاريت Ugarit إحدى دويلات المدن في شمال غرب سورية (الاسم الحديث: راس شمرة) وكانت لها لغتها السامية المتميزة.

إن الدولة القديمة، وعلى الضد من المجتمع المعاصر، تجعل من الالتزامات تجاه السلطة العامة *public hand* مقيدة بالقانون *stricti juris*، في حين لا تتطلب الالتزامات تجاه الحاجة الخاصة أن تكون كذلك. فكل من يُعهد إليه مُلكاً عاماً *public goods* يجب أن يكون قادراً دون كلل على إبراز المُلْك ذاته أو ما يعادله، وهذا يستقيم مع ممارسة المعاملات العينية *in rem transactions* (zug um zug, didontes kai labontes) واستبعاد الدَّيْن. فيما يلي بعض الميزات المعروفة لتجارة الكاروم *karum-trading*: (1) لا يتم البيع إلا نقداً. (2) التاجر في كانيش يستلم شحنته من البضائع مقابل ضمان *security* مساوي لقيمة البضائع. (3) يجب تسجيل الالتزامات تجاه الطرف الثالث مع السلطات المعنية: سلطات المدينة *City*، الكاروم *Karum* أو البلاط *Palace* (في حالة السكان الأصليين). ولذلك فإن جميع الالتزامات، مبدئياً، تكون مضمونة من قبل السلطة العامة. وبالنسبة للتجارة القائمة على الاتفاقيات فإن الدلائل على هذه القاعدة كثيرة. (4) لا تأخذ السلطة العامة هنا على عاتقها أية أخطار، ذلك لأنها ترفض ضمان الالتزامات التي تتجاوز الضمان الموجود تحت تصرفها.

في حالة الغش أو خرق قواعد القانون فإن أقصى العقوبات تطبق بحق الطرف المُسيء.

كل هذا، في جملته، يفسر لماذا لا يحصل في الظاهر حالات عدم الوفاء بالدين؛ ولماذا تُنفَّذ أحكام التحكيم تلقائياً؛ وكيف أن السلطة المسؤولة عن ضبط الحسابات تستطيع ببساطة أن تسجل على حساب الطرف المتخلف عن الأداء المبلغ المحكوم به لصالح الطرف الآخر؛ ولماذا تعتبر عضوية الكاروم وسلامة العلاقة مع المدينة شرطاً سابقاً للشروع في التجارة؛ ولماذا لا نرى تعهدات بضمان الدفع؛ ولماذا لا يتعرض القرض المعطى للشريك الصغير *journeyman* دون فوائد، للتجارة به لحسابه الخاص، *be'ulatum*، للخسارة؛ ولماذا تتميز الأعمال بالأرباح فقط وليس الخسائر.

في ظل هذه الظروف، القيام بالأعمال دون التعرض للخطر في موازاة الإجراءات الإدارية، يصبح تعبير الصفقة التجارية

”transaction“ بالكاد منطبقاً عليها. ولذلك فسوف نشير إلى هذا النوع من النشاط باسم المعاملة التحويلية¹⁹ ”dispositional“.

لقد كانت نشاطات التجار متنوعة: فتجهيز النحاس كان يشمل استخراج المعدن الخام؛ تجميعه ونقله؛ تصفيته؛ خزنه وتسديد ثمنه. وكانت وظيفة التاجر تحفيز النشاط المحلي في استخراج المعادن من خلال تقديم السلف advances [الدفع مقدماً]، وربما من خلال التوظيفات الطويلة الأجل التي قد تمتد لبضعة سنوات، لضمان تسليم وإيداع النحاس مع مكتب النقابة التجاري gild office في كانيش. إلا أن عمله الأساسي كان يتمثل بتسديد ثمن النحاس وأي شيء آخر قد اشتراه. وقد يتخذ التسديد شكل تصفية النحاس، أو الدفع بالفضة أو القصدير أو القماش الفاخر المستورد. وما يتبقى من النحاس والنسيج المحلي كان يُصدّر. وبالنسبة للنسيج المحلي فإن تصديره ربما كان يتم بعد إكماله نهائياً في نفس مكان إنتاجه. إن كل الأشياء التي كانت تُشترى مقابل بضائع الأمانة كانت تذهب إلى آشور.

رغم أن مبادئ ”السعر الثابت“، ”الدفع عند الاستلام“، ”الكفالة القانونية“ و”العمولة على إجمالي المبيعات“ كانت سائدة، فإن وظيفة التاجر لم تكن بسيطة. لقد كان عليه إجراء الاتصالات المناسبة مع السكان الأصليين، والتقدير الصحيح للبضائع التي يحتاجونها، وترتيب التمويل في الوقت المطلوب، والامتنال بدقة للأحكام والقواعد، تحويل البضائع الموضوعة في عهده بكل دقة، التأكد من نوعية البضائع المعهودة إليه أو المراد ابتياعها، الحصول على الأموال اللازمة لتقديم العربون للمجهز المأمول، وكذلك تقديم ودیعة للحكومة، والعديد من الأمور الأخرى. فالأخطاء والهفوات تؤدي إلى التأخير، والصعوبة في الحصول على القروض، والطلبات الصغيرة، والمصاريف غير الضرورية، والبغض العائلي، وفقدان السلطة والنفوذ في شركة العائلة، والمشاكل مع زملاء المهنة والسلطات، والانخفاض في رقم المبيعات. ومع ذلك ففي هذه التجارة بلا أسواق، لم تكن هناك خسارة بسبب الأسعار، أو مضاربة أو إفلاس للمدينين. كانت التجارة كوظيفة مثيرة لكنها كعمل business خالية من الخسارة.

¹⁹ disposition تحويل ملكية شيء من شخص إلى آخر عن طريق الهبة، أو الوصية أو البيع.

الصفقات التجارية والمعاملات التحويلية Transactions and Dispositions

لقد كان الأسلوب التحويلي في التعامل الميزة الرئيسية للتجارة الآشورية القديمة. كان العنصر الأساسي في سلوك التجار ليس فعلاً ذو وجهين، يؤدي من خلال التفاوض إلى عقد، وإنما سلسلة من تصريحات الإرادة ذات الوجه الواحد، يترتب عليها نتائج محددة بفعل أحكام القانون التي كانت تحكم التنظيم الإداري للتجارة القائمة على المعاهدات treaty trade والتي كان التاجر يشتغل بها. واعتماداً على ذلك من السهل أن نستنتج معايير التجارة التحويلية.

(1) لقد كان الحصول على البضائع من مسافات بعيدة - معيار كل تجارة أصيلة - هو العنصر الأساسي. فالحصول على [شراء] الأشياء المفيدة كان يجري بطريقة سلمية، إذ كانت الأشياء تنتقل في كلا الاتجاهين. وكان هناك عدد كبير من الأفراد المحترفين يعملون في الأنشطة الشرائية وكذلك النقل الفعلي للمواد. وكان التجار يحصلون على الدخل بفضل نشاطاتهم التي لهم فيها مصلحة مالية.

(2) رغم أن التاجر كان يعمل ضمن إطار تنظيم حكومي وشبكة من المؤسسات الرسمية وشبه الرسمية، فإنه كان دائماً وكيلاً مستقلاً. فهو لم يكن مستخدماً لدى أي أحد، أو يعمل بأوامر أي رئيس؛ فله الحرية في توسيع أو تقليص أعماله أو توقيفها نهائياً حسب إرادته. وإذا كان التاجر لا يتمتع بالمهارات المطلوبة، كسولاً أو غير حكيم فإن ما يكسبه يميل إلى الهبوط. ومع هذا فهو لا يقع تحت طائلة الخوف من استدعاءات أرباب العمل أو المثل أمام السلطات العليا - طالما استمر في عمله ضمن القانون. لقد كان مبدأ سيادة القانون هو الأسمى.

(3) برغم ذلك، لم يكن بالإمكان، حتى مبدئياً، منع الصفقات أو الاتفاقات الخاصة. ولذلك فإن الأساس المنطقي "لسيادة القانون" هو الفصل المؤسسي بين تحويلات التاجر ذات العلاقة بالأعمال الحكومية عن صفقاته الخاصة. كان التاجر بحاجة إلى رأس المال بشكل قروض قصيرة أو طويلة الأجل أو إلى المشاركة التضامنية، وإلى مساعدين للعمل كأعضاء في الشركة،

ومستخدمين للسفر نيابة عنه ونقل البضائع الى المناطق المجاورة. لقد كان حراً في شراء وبيع البضائع التي ليست برسم الأمانة، وفي تقديم القروض النقدية إلى الشركات والمساهمة في أرباح هذه الشركات. ومع كل ذلك فلم يكن هناك أي شك حول الطبيعة "العامة" للمعاملة تمييزاً لها عن الطبيعة "الخاصة" - سواء أكان التاجر يعمل بصفته العامة، أثناء شراء النحاس، الذي كان ينطوي على استعمال بضائع الحكومة برسم الأمانة، أو بصرف النظر عن هذه الأعمال العامة، أي يعمل بصفته الخاصة. فبالنسبة لعمله في الحقل العام، فإن خطواته كانت مرسومة وأفعاله يُصطلح عليها كتحويلات. أما عمله في الحقل الخاص، فإن خطواته لم تكن رسمية ويمكن سُمُّها بالصفقات. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ما هو نوع المؤسسات التي كانت تسمح بمثل هذا الفصل الفعّال في الحقول المختلفة للنشاط الاقتصادي. والجواب ما زال غير معروف لنا. هل أن الفصل كان بموازاة الأنواع المختلفة للبضائع، أو الكميات التي كانت موضوعاً للمعاملات، أو حسب مصدر الأموال المستخدمة فيها، أو ربما جملة هذه المعايير؟ لا زلنا لا نعرف هذا الأمر.

(4) كانت الوثائق تُسجل من قبل كتّاب رسميين بإشراف موظفين حكوميين. ومن المفترض أن تُحفظ نسخة من هذه الوثائق في الأرشيف الحكومي تحت عناوين سهلة التشخيص. وبذلك كان بالإمكان، في أي وقت، التحري عن وضع أي بند من بنود الأعمال في المركز الرئيسي. وكانت الوثائق تُعدّ باختصار ودقة لتمكين القيم الحكومي public trustee - التكمروم tamkarum - اتخاذ الإجراء في أي وقت بطلب من طرف له مصلحة ويمتلك شرعاً نسخة من الوثيقة محل الطلب.

التكمروم The Tamkarum

يكمن مفتاح فهم وظائف التكمروم في طرق وتنظيم التجارة، والعكس صحيح: فمفتاح فهم هذه الطرق يكمن في وظيفة التكمروم. فشخصيته ووظيفته فريدتان، وواجباته الأساسية هي واجبات القيم العام. فهو يتخذ الإجراء بموجب القانون حالما يبرز له شخص مسؤول (أو بالأحرى يقرأ له) اللوح الطيني المناسب، وربما يترك عنده نسخة من اللوح. وحسب مقتضيات الوثيقة وواقع الحال، فإن واجبه يقتضي

تقديم النول أو المصاريف الصغيرة الأخرى؛ قبول الرهونات، كقبول عبدي، مثلاً، كان قد سُلّم لتاجر النقابة بسبب إخفاق المدين المحلي native debtor ؛ أن يكون الأداة في شراء نقابة التجار gild merchant للبضائع من المدينة City (رغم أن هذه الوظيفة يبدو وكأنها لا تتضمن) تسليم البضائع إلى المدينة نيابة عن التاجر؛ تسهيل عملية النقل من خلال تسليم مسؤولية النقود والبضائع الموضوعين في عهدة الناقلين، وكذلك قبول المسؤولية عن سلامة البضائع المشتراة في المدينة لحساب تاجر النقابة (وفي مثل هذه الحالات الأخيرة كانت المعاملات تُقيد في وثيقة، تُعنون إلى التمكروم، يستطيع الدائن تحويله إلى تاجر آخر عضو في النقابة في حالة احتياج الدائن إلى النقد)؛ بيع البضائع بالمزاد العلني بناءً على طلب التاجر، وتسجيل المبلغ المسترد من المزاد لحساب التاجر بصرف النظر عن كون هذا المبلغ "أقل أو أكثر" من المكافئ equivalency.

الخدمات الثانوية الأخرى كانت تتخذ صفة الاستشارة القانونية والتدخل القانوني لدى الكاروم karum وخاصة إذا ما ظهرت الخلافات مع السكان الأصليين. وكذلك في حالة الموت المفاجئ لتاجر مهم، فإنه يتولى الاستيلاء على البضائع والنقود وتصفية الشركة أيضاً من خلال تدخله الفوري.

لم يكن التمكروم يحصل على دخل عن الأعمال التي كان يقوم بها، وربما يطلب أجراً صغيراً لقاء خدماته للتجار اعتماداً على جدول ثابت. وكانت معيشته مضمونة من خلال الممتلكات العقارية التي كانت تعطى له عند توليته في وظيفته.

إذا تسنى لنا رسم صورة التمكروم بالحدس فإن صورة الأومينوم ummeanum يجب أن توصف بصراحة بأنها قاتمة. وما هو مقترح هنا لا يعدو أن يكون تركيباً أولياً يمكن أن يستقيم مع نمط التجارة بلا أسواق والخالية من الخطر، والمنظمة في خدمة المصالح العامة، وبالأساس نيابة عن الحكومة في شراء مواد الحرب. لقد كان تمويل هذه الاستيرادات جزء من الخدمات العامة. ففي حين كانت الجوانب التجارية للموضوع ربما تترك في عناية الكاروم و التمكروم، على التوالي، اللذان كانا فيما بينهما يقومان في تنفيذها بكفاءة، فإن الجوانب المالية كانت تترك لعناية الأومينوم. هناك أولاً، معالجة حسابات تجار النقابة بما فيها التحويلات transfer من

حسابات المدين لحسابات الدائن. ثانياً، التوظيفات المباشرة في هذا الفرع من فروع التجارة الخارجية بهدف زيادة العرض وجعله أكثر انتظاماً. لقد كان الأمينوم - وهو ما يجب التسليم به جديلاً - شخصاً بارزاً [في الحياة العامة] مشابهاً لشخص التكمروم. فتوظيفاته ودخوله في شركات التضامن يمكن لنا أن نطلق عليها اسم تسليفات الخزينة treasury advances. وغالباً ما كانت هذه تتألف من مبالغ مدورة من الأونسات الذهبية (باستخدام وحدات من أونسين) مما يؤشر على طبيعة مقام مثل هذه الصفقة إذ أن الذهب كان يمثل الثروة. ولا نعرف على وجه اليقين فيما إذا كان هؤلاء "الرجال الكبار" في البلاد كانوا يُعطون الفرصة للاستثمار في مثل هذه الأعمال الأمتيازية، وبالتالي الاستفادة من مصنوعات العمال التابعين (وخاصة النساء منهم). هناك الكثير من الدلائل التي تشير إلى مثل هذا التوسع في الأعمال المرتبطة بالبلاط لصالح القلة المحسوبة على البلاط. فقد كان كليومينيس²⁰ Cleomenes من نوكراتيس Naukratis يُعوض كبار مالكي الأرض في مصر، لقاء احتكاره تصدير الذرة، بتخصيص حصة لهم في التجمع الحكومي governmental syndicate. وكان ملك داهومي يتعامل مع محيطه بنفس الدرجة من السخاء فيما يخص تجارة الرقيق الملكية التي كان هو، بالطبع، المستفيد الرئيسي منها.

بعد الأخذ بنظر الاعتبار كل الظروف والحقائق، فإن هذا التنظيم للتجارة والأعمال ربما يظل فريداً في نوعه في التاريخ. والسؤال إلى أي مدى كان هذا التنظيم نموذجاً للمحطة التجارية port of trade في الفترة المتأخرة من تاريخ أوغاريت، وفي آخر المطاف، صيدا، صور وقرطاجنة، يظل حتى الآن موضوعاً للتكهن. وما يظهر في حكم المؤكد الآن هو أن التجارة والأعمال البابلية، وخلاف ما تقول به الآراء التقليدية، لم تكن أصلاً نشاطات مرتبطة بالسوق.

يُقدم الفصل الثاني نظرة عامة للتاريخ الاقتصادي البابلي والتي تبرز إيضاحات غير متوقعة للعديد من جوانب هذا التاريخ. إن غياب موضع السوق²¹ من هذه الصورة التي يقدمها باحث خبير يمكن أن

²⁰ عيّنه إسكندر المقدوني (356-323 قبل الميلاد) ليتولى جباية الضرائب في مصر وأفريقيا.

²¹ الموضع الذي يقام فيه السوق marketplace كأن يكون ساحة مكشوفة (كسوق بيع المواشي) أو مكاناً مغطى (كالأسواق العربية القديمة).

يُشكّل دعامة عند النقطة الأساسية للفرضيات الأولية التي تنتظم دراستنا. ومما لا يمكن إنكاره هو أن هذه الصورة الجديدة لا تدعم بالتفصيل العديد من الآراء القائمة على الحدس، التي أوردناها، لتضفي الحيوية والمعقولية للآراء المعروضة في هذا الفصل.

إذا كانت الحقائق مؤيدة لتفسيرنا فإن السؤال الذي ينهض هو: كيف ومتى وأين نشأت التجارة القائمة على الأسواق، والتقلب في الأسعار، وحساب الربح والخسارة، والأساليب التجارية وكل أدوات ومستلزمات الاقتصاد المنظم على أساس السوق؟ لربما تحوّل اتجاه تاريخ التجارة القائمة على السوق بألف سنة من عهد سحيق وبعده درجات طولية نحو الغرب، إلى أيونيا²² Ionia واليونان في الألف الأول قبل الميلاد.

²² الأقاليم القديمة في غرب آسيا الوسطى بضمنها جزر بحر إيجه القريبة منها. استعمرها الإغريق في 1100 قبل الميلاد تقريباً.

تيد ترينر: ملاحظات حول كتاب كارل پولاني، ** التحول العظيم

نشر هذا المقال تحت عنوان:

Ted Trainer, Notes on Karl Polanyi's, *The Great Transformation*, Boston, Beacon Press, 1944.

<https://thesimplerway.info/Polanyi.html>

في هذا الكتاب المؤثر جادل پولاني Polanyi أنه في كل المجتمعات التي سبقت ظهور مجتمعنا الغربي بعد القرن الخامس عشر،

- كان الاقتصاد مكونًا ثانويًا من مكونات المجتمع،
- وكان الاقتصاد يعمل وفقًا للقواعد الأخلاقية والعرفية والدينية التي تحكم كل شيء فيه،
- ولم يكن لقوى السوق أي تأثير على مجرى الأمور، أو كانت خاضعة لرقابة اجتماعية صارمة بموجب القوانين الاجتماعية والأخلاقية العامة،
- ولم يكن للكسب gain والربح profit أي علاقة بالأمر، أو إن وُجد، فلم يكونا مهمين. فقد كان ما يهم هو الكفاية sufficiency، أو الكفاف subsistence، أو الإنتاج للاستعمال، لتلبية الاحتياجات،
- وبسماحنا للسوق بالانفصال والتحرر من الرقابة الاجتماعية، ارتكب مجتمعنا خطأ فادحًا، لأنه مع مرور الوقت، يُدمر السوق المجتمع وبيئته.

بمعنى آخر، كانت جميع الاقتصادات السابقة لعصرنا مختلفة عن اقتصادنا الحالي. يناقش پولاني بالتفصيل التغيرات التاريخية في التفكير والممارسات التي رافقت ظهور الرأسمالية. يتمحور الموضوع الرئيسي في هذا النقاش حول الفصل بين الاقتصاد والمجتمع، حيث أصبح يُنظر إلى الاقتصاد كساحة لم تعد تُطبق فيها معظم القواعد الاجتماعية (مثل رعاية الآخرين، وعدم استغلالهم، وضمان عدم حصول أي شخص على أكثر من الآخر من التبادل، واعتبار فرض الفائدة غير أخلاقي)، ساحة لا يُهم فيها سوى تعظيم مكاسب الفرد.

ويجادل پولاني بأن هذا التحول كارثي اجتماعيًا؛ فهو يُدمّر المجتمع والبيئة؛ وأن الاضطرابات الاجتماعية الهائلة في أواخر القرن التاسع عشر، والتي بلغت ذروتها في الحربين العالميتين الأولى والثانية، كانت نتيجةً لهذا التحول؛ أي أن المجتمع القائم على فكرة السوق ذاتية التنظيم self-regulating market يؤدي حتمًا إلى الفوضى.

يجادل أتباع پولاني بأن مشاكلنا الحالية ترجع في معظمها إلى المواضيع التي طرحها، وأن علينا محاولة "إعادة دمج" re-embed الاقتصاد في المجتمع؛ أي إخضاعه للسيطرة الاجتماعية مجددًا. ومع ذلك، فمنذ أن كتب، فإن العولمة والهيمنة الليبرالية الجديدة تمثلان تسارعًا هائلًا للظواهر التي كان پولاني يخشاها.

وتوضح الملاحظات التالية الموضوعات الرئيسية من كتابه ذات الصلة بالتفكير النقدي حول الاقتصاد.

الفجوة الكبيرة بين الاقتصادات السابقة واقتصاداتنا

"قبل عصرنا، لم يوجد اقتصادٌ قط، حتى من حيث المبدأ، خاضعٌ لسيطرة الأسواق." ص 43.

"في حين أن التاريخ وعلم الأنثروبولوجيا يعرفان أنواعًا مختلفة من الاقتصادات، إلا أنهما لا يعرفان أي اقتصاد قبل اقتصادنا كان خاضعًا، ولو من قريب، لسيطرة الأسواق وتنظيمها." ص 44.

"إن الاكتشاف الأبرز للبحوث التاريخية والأنثروبولوجية الحديثة هو أن اقتصاد الإنسان، كقاعدة عامة، غارق في علاقاته الاجتماعية. فهو لا يتصرف لحماية مصالحته الفردية في امتلاك السلع المادية؛ بل يتصرف لحماية مكانته الاجتماعية، ومطالبه الاجتماعية، وموجوداته الاجتماعية." ص 44.

سيطرت القواعد الاجتماعية العامة على جميع السلوكيات، بما في ذلك ما يفعله الناس في الاقتصاد. "تعاونت العادات والقانون والسحر والدين في حث الفرد على الالتزام بقواعد السلوك، مما ضمن في نهاية المطاف استمراره بالعمل في النظام الاقتصادي." ص 55.

"لم تكن الأسواق قبل عصرنا هذا أكثر من مجرد ملحقات للحياة الاقتصادية." ص 68.

على الرغم من وجود السوق منذ العصر الحجري، إلا أن دوره اقتصر على مجرد مُكوّن ثانوي في الحياة الاقتصادية." ص 43.

الفكرة هنا هي أن العديد من الاعتبارات الاجتماعية والأخلاقية والتقليدية والدينية، إلخ، حددت ما يجب فعله فيما يتعلق بالإنتاج والاستهلاك والتوزيع، ولكن في الاقتصاد الحالي، لا يوجد سوى اعتبار واحد، وهو تعظيم الربح للفرد. ويجادل پولاني بأنه ينبغي علينا "إعادة دمج" الاقتصاد في المجتمع، أي التأكد من أن القرارات الاقتصادية تُتخذ بالرجوع إلى جميع الاعتبارات الاجتماعية ذات الصلة. وبشكل عام، ينبغي إعطاء العديد من العوامل وزنًا أكبر من تعظيم الربح للأفراد.

"إن العلاقات الاجتماعية المندمجة في النظام غير الاقتصادي للمجتمع تعتني تلقائيًا بالنظام الاقتصادي." Polanyi, *The Livelihood of Man*, p

55.

تصف مارغريت ميد Margaret Mead القواعد الاجتماعية المعقدة التي تحكم اقتصاد قبيلة أراپيش Arapesh؛ بما في ذلك أن اللحوم الموجودة في المنزل يمكن أن تأكلها تلك العائلة إذا أعطيت لهم، ولكن إذا ذبحوها فيجب أن يعطوها للآخرين. "إن أكل صيد المرء لنفسه، حتى لو كان مجرد طائر صغير، هو جريمة لا ينحدر إليها إلا من هو ناقص الأخلاق." (Dalton, 87).

"حتى نهاية العصور الوسطى، لم تلعب الأسواق أي دور مهم في النظام الاقتصادي." ص 54.

"وُجدت الأسواق بمعنى أماكن التقاء الناس وتبادل السلع."
(Stanfield, p 97)

"لم تكن سلع الحياة اليومية تُشتري وتُباع بانتظام، لا عند القدماء ولا خلال أوائل العصور الوسطى." ص 180.

"إن العلاقات بين الأشخاص في هذه المجتمعات مندمجة في شبكة واسعة من الالتزامات الاجتماعية والسياسية التي لا تسمح للفرد بتعظيم منافعه الاقتصادية." (TLOM) xxxi

في العالم الكاثوليكي في العصور الوسطى، كان يُنظر إلى "الإحسان على أنه التزام اجتماعي صريح" ص 68. وكشف العهد القديم عن "نفور من الربح أو المنفعة، الناتجة عن أي تفاعل بين أفراد القبيلة." ص 70 (TLOM).

يؤكد پولاني أنه حتى بعد ازدياد أهمية السوق، خلال القرن السادس عشر، لم يكن مفهوم السوق ذاتية التنظيم موجودًا. أي أنه كان من المسلم به أن السوق يجب أن يخضع لتنظيم المجتمع وسيطرته الدقيقة. لم تكتسب فكرة السوق ذاتية التنظيم، أي السوق التي لا تحتاج إلى رقابة اجتماعية، أهمية إلا في القرن التاسع عشر.

ولم تظهر الفكرة المعاكسة للاقتصاد المنسلخ [عن العلاقات الاجتماعية] disembodied economy بشكل مفاجئ ومصيري إلا في إنجلترا في القرن السابع عشر. ص 10

حول الفصل بالغ الأهمية بين الاقتصاد والمجتمع

في السابق، كان السلوك الاقتصادي محكومًا بقواعد اجتماعية عامة، تُنظم الأكل والضحك واللعب والذهاب إلى الكنيسة. كانت هناك طريقة مقبولة أخلاقيًا لتحية الآخرين، أو دخول مبنى، أو تبادل المنتجات. لكن لاحقًا، أصبحت طريقة التصرف في المجال

الاقتصادي تُعتبر مختلفة تمامًا، على سبيل المثال، كان بإمكانك دفع منافسك إلى الإفلاس، وفرض سعر باهظ وغير مبرر عليه.

في عصرنا، تجاوز هذا الأمر حدوده؛ فلدينا الآن مجتمع تسويقي؛ وأصبحت قواعد عمل المجتمع هي القواعد التي كانت تقتصر سابقًا على السوق المنفصلة. أي أننا نتعامل مع معظم العلاقات والمواقف الاجتماعية بعقلية تسويقية، فنبيع ونشتري لتحقيق أقصى قدر من الكسب.

في البداية كان الاقتصاد "... يعمل كمنتج ثانوي للرقابة والالتزام السياسي والديني". (دالتون Dalton) xii

"في الاقتصادات البدائية والمبكرة، كان يتم تخصيص الأراضي والعمالة وفقًا للرقابة، أو الحقوق أو الالتزامات السياسية أو القبلية، وليس كسلع يتم شراؤها أو بيعها." ص 13 (دالتون Dalton).

إن الكسب والخوف من الجوع لم يأتيا إلا كدوافع اقتصادية مع الرأسمالية.

الآثار المدمرة للاقتصاد الحر غير الخاضع للرقابة/للتنظيم

"إن السوق ذاتية التنظيم self-adjusting market لا يمكن أن تستمر لفترة طويلة من الزمن دون أن تؤدي إلى تدمير الجوهر البشري والطبيعي للمجتمع؛ بل كان من شأنها أن تدمر الإنسان جسدياً وتحول محيطه إلى قفر." ص 3.

"إن السماح لآلية السوق بأن تكون المدير الوحيد لمصير البشر وبينتهم الطبيعية من شأنه أن يؤدي إلى هدم المجتمع." ص 73.

"إن الجشع البشري المحض، إن ترك لشأنه، لن يضع حدًا للمنافسة، وستكون النتيجة تدمير المجتمع والبيئة على حد سواء.

(p. 64 F.B. Lock and M. R. Somers, "Beyond the Economic Fallacy; The holistic social Science of Karl Polanyi", in T. Scocpol, Ed., Vision and

Method in Historical Sociology, Cambridge U. P., 1984.)

"... إن اقتصاد السوق يعيد تشكيل المجتمع، وفي هذه العملية يدمر التضامن ويزعزع استقرار الاقتصاد الحقيقي، مما يهدد في نهاية المطاف بالتفكك الاجتماعي." ص 11. من الواضح أن پولاني لم يدرك أن آخرين قالوا هذا، بما في ذلك والتون هاملتون، وروسكين، وكارلايل Walton Hamilton, Ruskin and Carlyle.

"إن آلية السوق تُفضي إلى هدم المجتمع.." 120, M. Mendell and D. Salee, Eds., The Legacy of Karl Polanyi, St. Martins, New York, 1991, p.120

يصف پولاني المساعي الخاطئة والمؤلمة المبذولة للحماية من تداعيات الأزمة أو التعامل مع آثارها المدمرة، وخاصة قوانين سبينهاملاند¹. لقد كان الهدف من هذه القوانين تقديم الإغاثة للفقراء، لكنها أسفرت عن نتائج كارثية على معنوياتهم وظروفهم المعيشية. ومع ذلك، استمرت هذه القوانين لمدة أربعين عامًا، مما قلل من وطأة آثارها، إلى أن جرى إلغاؤها نهائيًا عام 1832 بسبب الضغط المتزايد نحو نظام السوق الحر وآلية الأجور.²

¹ كان نظام سبينهاملاند شكلاً من أشكال إغاثة الفقراء، طُبّق في إنجلترا عام 1795، في فترة شهدت ارتفاعاً حاداً في أسعار الحبوب وانتشاراً واسعاً للفقير في المناطق الريفية. سُمّي النظام تيمناً باجتماع عُقد في سبينهاملاند، مقاطعة بيركشاير، حيث وضع القضاة المحليون خطة لدعم أجور الفقراء من الأموال العامة. بدلاً من تحديد حد أدنى للأجور، عزز النظام الأجور المنخفضة بناءً على سعر الخبز وحجم أسرة العامل. استهدف النظام منع المجاعة والاضطرابات خلال الأزمات الاقتصادية، وتحقيق الاستقرار في المجتمعات الريفية دون إجبار الناس على العمل في دور العمل workhouses كانت بمثابة مؤسسات حكومية تُوفّر للمحتاجين المأوى والطعام والعمل مقابل العيش في ظلّ قواعد صارمة، والقيام بأعمال شاقة ووضيعة في كثير من الأحيان.

(جميع الهوامش من وضع المترجم اعتماداً على مصادر مختلفة).

² تناول كارل پولاني هذا الموضوع في كتابه

The Great Transformation: The Political and Economic Origins of Our Time (2001 edition), p 81-89.

صدرت هذه الطبعة بتوطئة كتبها جوزيف ستغلنز، ص vii-xviii

من الواضح أنه إذا كانت السوق هي التي تحدد كل شيء، فيجب أن تصبح العمالة والأرض والمال سلعة للبيع في السوق.

يشير پولاني إلى أنه في المجتمع "البدائي" لا يُجبر أحد على العمل مقابل أجر. بالنسبة للأفارقة السود [Kaffirs]³ في جنوب أفريقيا] الفقر مُستحيل بينهم. كل من يحتاج إلى المساعدة يحصل عليها دون تردد. لم يواجه أي الكواكيوتل Kwakiutl⁴ أدنى خطر من الجوع. ص 163. في جميع المجتمعات تقريباً قبل بداية القرن السادس عشر، كان هناك تحرر من العوز. ص 163.

لقد أصبحت عقيدة الليبرالية الاقتصادية من أهم المعوقات التي تحول دون حل مشاكل حضارتنا. BTEF 57

يشير پولاني إلى أن السوق مُدمرٌ لدرجة أن حتى الرأسمالي يحتاج إليها ويحصل على الحماية منها! ويُفصل الحالات التاريخية التي نظمت فيها الدولة السوق بشدة، لحماية طبقة رجال الأعمال من الدمار الشامل الذي سببته سوق حرة تماماً بسرعة. في المقام الأول، لم تنشأ السوق إلا من خلال قوانين كثيرة أقرتها البرلمانات، مثل السماح بالتسييج⁵ enclosures والمصانع، وظروف العمل والأجور المزرية، والقوانين التي تُمكن من تنظيم التجارة. أقرت البرلمانات (التي كانت خاضعة لسيطرة البرجوازية بوضوح حيث مُنع العمال باستمرار من التصويت) القوانين التي فرضتها الرأسمالية.

³ مشتقة من "كافر" العربية واستخدمها البيض في جنوب أفريقيا، وفي أماكن أخرى، كتسمية للأفارقة السود كتعبير مهين.

⁴ السكان الأصليون لساحل شمال غرب المحيط الهادئ، يقيمون بشكل أساسي في كولومبيا البريطانية، كندا، وتحديداً حول جزيرة فانكوفر الشمالية.

⁵ للمزيد من المعلومات راجع مراجعة كتاب "إيان أنغاس: الحرب ضد المشاعات: السلب والمقاومة في صنع الرأسمالية" المنشور في موقع شبكة الاقتصاديين العراقيين:

<http://iraqieconomists.net/ar/wp-content/uploads/sites/2/2025/03/Commons-War-Against-by-Ian-Angus-IEN.pdf>

(تعليق: الأمر نفسه ينطبق اليوم؛ فهم يصرون على الأسواق الحرة عندما يناسبهم ذلك، على سبيل المثال، الإصرار على حرية الاستثمار في أي مكان مع الحد الأدنى من التدخل، ودفع أجور منخفضة، وتحويل رأس المال [من مكان إلى آخر]، والحصول على الموارد... ولكنهم يسارعون إلى الدعوة إلى تدخل الدولة عندما يناسبهم ذلك. على سبيل المثال، فإن جميع الأنظمة والقواعد التي تُمكن العولمة، مثل الخصخصة، والتجارة الحرة، وحزم التكيف الهيكلي التي وضعها البنك الدولي، وإلغاء القيود التنظيمية على العديد من الأنشطة، كانت نتيجة لقوانين سنتها الدول لتلبية احتياجات رأس المال).

يُبرز پولاني أن آدم سميث نفسه اعترف بالحاجة إلى دمج السوق في المجتمع، لأنه افترض أن المتعاملين في السوق سيتصرفون وفقاً لقيم أخلاقية ويسعون لنيل موافقة الآخرين. (هذا يتعارض مع فكرة السوق بالطبع). ص 10.

أكد دوركهيم Durkheim على أهمية العوامل غير التعاقدية واحترامها لضمان صمود العقود. وخلص پولاني إلى أن معاملات السوق تعتمد على منافع جماعية كالثقة والتنظيم trust and regulation، لا يمكن للسوق توفيرها. 64 (BTEF).

كتب پولاني أن السوق ذاتية التنظيم تُحوّل البشر والبيئة الطبيعية إلى سلع، وهو وضع يضمن تدمير كلّ من المجتمع والبيئة الطبيعية. إن افتراض السوق الحرة بأن الطبيعة والبشر كائنات تُحدد قيمتها السوقية يسمح باستغلال كلّ منهما لتحقيق الربح حتى الاستنزاف أو الانهيار. إن المجتمع الذي لا يُدرك أن للطبيعة والحياة البشرية بُعداً مقدساً، وقيمةً جوهريةً تتجاوز القيمة النقدية، يُقدم على الانتحار الجماعي. هذه المجتمعات تلتهم نفسها حتى الموت. هذا ما نمر به.

Chris Hedges, Zero Point Of Systemic Collapse, Adbusters, 19 March, 2010.

يُعارض پولاني الافتراض السائد (الذي تبناه ماركس أيضاً) بأن نشوء النظام السوقي كان تقدماً، خطوة إضافية من الاقتصادات

البدائية نحو العالم الحديث واقتصاده. بل يراه خطأ، انحرافاً عن النظام الأمثل الذي كان يخضع فيه الاقتصاد للرقابة الاجتماعية.

التمييز بين الاستعمال والكسب

يُعدّ هذا الأمر حاسماً في فهم الاقتصاد. ففي جميع الاقتصادات السابقة، كان الإنتاج يهدف إلى تلبية الاحتياجات، أي للاستعمال. لم يكن إنتاج الطعام والسلع بهدف البيع لتحقيق الربح أو تراكم الثروة. (بدأ عدد قليل من التجار بممارسة ذلك، لكنهم كانوا محل ازدراء إلى حد كبير، وكان هناك بعض التجارة مع الجماعات الخارجية out-group، وفق قواعد مختلفة عن تلك التي تحكم النشاط الاقتصادي داخل القبيلة).

يصعب علينا الآن إدراك أهمية ظهور الكسب كدافع في المجتمع. يقول پولاني: "اختارت حضارة القرن التاسع عشر أن تركز على دافع لم يسبق له مثيل لتبرير الفعل والسلوك في الحياة اليومية، ألا وهو الكسب."

"لم يسبق أن لعب الربح والخسارة في عمليات التبادل دوراً مهماً في الاقتصاد البشري." 43.

"لا يعمل الربح أبداً كمحفز للعمل في ظل الظروف الطبيعية الأصلية." (نقلاً عن مالينوفسكي Malinowski) 66.

لقد أصاب أرسطو حين رأى أن الدافع الاقتصادي ينبغي أن يكون اكتساب المكانة الاجتماعية والسمعة الطيبة. "يرى أرسطو أن التبادل الطبيعي هو تبادل يهدف إلى توفير احتياجات الأطراف المعنية." في النوع الآخر من التبادل "... لا يوجد حدّ نهائي لتراكم الثروة." 10. لم يعتقد أرسطو أن الندرة مسألة مهمة، ولا ينبغي أن تكون أساساً للتفكير في الاقتصاد.

في اقتصاد السوق، "يُستبدل دافع البقاء بدافع الكسب." ص 41. فالبقاء Subsistence ليس تراكمًا، أي الحصول على أكثر مما يملك المرء. فالسوق يتطلب تحويل الإنسان والطبيعة إلى سلعتين، قيمتهما الوحيدة هي قيمتهما النقدية.

لا يشكل الاقتصاد هاجساً رئيسياً في حياة القبيلة، إذ تُغطى الاحتياجات المادية بشكل جماعي. لكنّ العلاقات الاجتماعية تُعتبر جوهر الوجود؛ فكل فرد مُلزم باحترام الأعراف الاجتماعية والقيام بواجباته. هذا يُؤمّن الاستقرار للجميع، ويُكسبهم المكانة والاحترام. وهذا النظام يُبعد دافع المصلحة الذاتية، ويُعطي الأولوية للكرم والعطاء، وخدمة الآخرين، والوفاء بالالتزامات. يتم تبادل السلع على أساس التعاون، وهناك التزام متبادل، وليس هناك مفهوم عن تحقيق الربح أو تراكم الثروة.

في المجتمع الميلانيزي Melanesian هناك "... غياب لدافع الكسب، وغياب مبدأ العمل من أجل الأجر، وغياب مبدأ بذل أقل جهد، وخاصة غياب أي مؤسسة منفصلة ومتميزة قائمة على دوافع اقتصادية". 47.

كان التجار يعملون من أجل الربح. كانوا متنقلين، ولم يكن من الممكن "الدفع" لهم مقابل مكانتهم الاجتماعية في المدن والقرى التي يمرون بها. كان من المنطقي أن يتاجروا مقابل المال، لكنهم لم يحظوا بالاحترام.

أبرز أرسطو الفارق الجوهرى بين إنتاج السلع للاستعمال وبين إنتاجها لتحقيق الربح. فإنتاج السلع بغرض بيعها في السوق يعني السعي وراء الربح، أي "بيعها مقابل المال، بهدف تراكم المال". الربح مرتبطٌ جوهرياً بالسوق. لقد كان الربح دافعاً خاصاً بالإنتاج السوقي. ص 54. يجب أن يكون الإنتاج من أجل الاستعمال، أي لتلبية الحاجات، وليس من أجل الربح. فإذا أصبح الربح هو الهدف، فلا حدود له.

هذا الافتراض يقترح بشكل عام أن جميع الأنظمة الاقتصادية قبل نهاية الإقطاع في أوروبا الغربية قامت على مبادئ المعاملة بالمثل أو إعادة التوزيع، أو إدارة شؤون المنزل، أو مزيج من هذه المبادئ الثلاثة. ص 55. "ولم يكن الربح دافعاً رئيسياً".

"إنّ السمة الأساسية للاقتصادات البدائية هي افتقارها لأي رغبة في جنّي الأرباح من الإنتاج أو المبادلات".

Thurnwald, Economics in Primitive Communities, 1932, p. xiii

"لا يُشكّل الربح دافعاً للعمل في ظلّ الظروف الطبيعية الأصلية."
Malinowski, Argonauts of the Western Pacific, 1930, p. 156.

"لم يُعثر في أي مجتمع بدائي غير مُتأثر على علاقة بين العمل وفكرة الأجر."
Lowie, Skocal
Organisation, Encyclopedia of the Social Sciences, XIV, p. 14
أما رواة القصص والمنشدون في العصور الوسطى، فقد "قبلوا الأجر، ولذلك احتقروا".
Lowie, op cit. ، المرجع السابق.

"إن تقييد العمل إلى الحد الأدنى الذي لا مفر منه ليس أمراً طبيعياً بالنسبة للإنسان." 270.

وصف پولاني المساواة في المعاملات بأنها "تكافؤات"
The Livelihood of Man, K. 63. "equivalences"
(Polany, 1977). وبالتالي، لم يكن هناك مجال للاستغلال أو للمعاملات غير المتكافئة، أي تحقيق الربح من المعاملة. "تُحدد الألواح البابلية والسومرية كميات الشعير المستحقة للأشخاص من مختلف الأعمار، بالإضافة إلى علف الحيوانات الأليفة."⁶

"كان السعر العادل يمثل المكافئ (المعادل) equivalency، وكان المبلغ الفعلي له يتحدد إما من خلال السلطة البلدية أو من خلال تصرفات أعضاء النقابات." 72.

إن المُكافئات "... جعلت المعاملات الخالية من الكسب ممكنة."
TLOM 74

⁶ للمزيد من المعلومات حول فهم پولاني لجانب من الاقتصاد البالي راجع ترجمتنا لدراسته المعنونة "التجارة غير السوقية في زمن حمورابي"، الثقافة الجديدة، العدد 360، أيلول 2013.

في الحضارات القديمة "كان تبادل السلع والخدمات يصبح مشروعًا قانونيًا من خلال تحديد التكافؤ لما يتم تبادله." ص 61.

"لم يسبق أن لعب الكسب والربح في عمليات التبادل دورًا مهمًا في الاقتصاد البشري." ص 43.

"يزخر العهد القديم بالنداءات إلى مد يد العون للفقراء، وإلى معاملة الآخرين بالمثل الذي نريده لأنفسنا."⁷

"منذ عهد المستعمرات التجارية الآشورية الأولى، وحتى ما يزيد عن 2500 سنة لاحقاً، وصولاً إلى عصر القديس توما الأكويني، بقي السعر العادل هو المقياس الوحيد لمشروعية المعاملات." ص 74

TLOM

الهبات، التبادلية، وإعادة التوزيع

اعتمدت المجتمعات القديمة على مبدأي المعاملة بالمثل وإعادة التوزيع لحل مشاكلها الاقتصادية. كان التبادل الحرّ للأشياء بين الأفراد، أو تقديمها إلى سلطة مركزية (كالملك أو رجال الدين أو حكومة المدينة) لتقوم بتوزيعها، هو السائد. وكان السخاء يُشكّل قيمة أساسية، فلم تكن هناك مفاوضات أو ربح، ولم يكن هناك حاجة لدافع مادي كالأجر أو الربح للعمل والإنتاج، فالدافع كان اجتماعيًا بحثًا.

"تُظهر معظم، إن لم تكن جميع، الأعمال الاقتصادية أنها جزء من سلسلة متبادلة من الهبات والهبات المقابلة لها، والتي تتساوى في النهاية، مُفيدةً كلا الطرفين على حد سواء." Malinowski, B., Crime and Custom in Savage Society, 1926, 40-41.

استند تنظيم الاقتصاد في المجتمعات القبلية على مبدأي المعاملة بالمثل وإعادة التوزيع، وكان الهدف الرئيسي هو "صون النظام

⁷ يضم العهد الجديد نصوصًا حول مساعدة الفقراء، منها، على سبيل المثال دعوة الأغنياء إلى التخلي عن ممتلكاتهم ومشاركة الفقراء (متى 19:21). ويضم القرآن آيات عديدة حول مساعدة الفقراء والمحتاجين من خلال الزكاة والصدقة والوقف والإحسان.

الاجتماعي وتعزيز روابط القربى والصدقة والتعاون وزعامة القبيلة."

D R. Fusfeld, "The market in history", Monthly Review, May, 1993, p. 2.⁸

يتفق علماء الإثنوغرافيا بشأن المجتمع "البدائي" على "غياب دافع التبرج، وغياب مبدأ العمل مقابل الأجر، وغياب مبدأ بذل أقل جهد، وخاصة غياب أي مؤسسة محددة ومتميزة قائمة على دوافع اقتصادية".⁶⁶

الربا، الفائدة

أنظر أيضاً الملاحظات على كتاب:

(See also Notes on Tawney's Religion and the Rise of Capitalism.)⁹

لاحظ أهمية هذه المواقف تجاه الربح والتكافؤ في المعاملات بالنسبة لترتيبات "الربا" حيث يحصل أحد الطرفين على أكثر من الآخر.

"إن إقراض شخص محتاج بفائدة يعدّ خرقاً للمعاملة بالمثل وبعيداً عن روح التكافل الاجتماعي. إن الاستفادة بشكل غير مشروع من التبادل يعني الفشل في رد القيمة بالقيمة".⁶⁸

"لقرون، كان يُنظر إلى الربا (الكلمة القديمة للرأسمالية) باشمئزاز، باعتباره ممارسة شريرة بطبيعتها. وقد أدين في

⁸ ترجمت هذا المقال إلى العربية قبل ثلاثة عقود ولكنني لا أتذكر أين نشرتها. احتفظ بنص الترجمة ويمكنني إرساله لمن يرغب.

⁹ لم أستطع الوصول إلى هذا الملاحظات في كتابات كاتب المقال. الكتاب موضوع ملاحظاته هو للمؤرخ الاقتصادي الإنجليزي ريتشارد هنري توني (1880-1962):

R H Tawney, *Religion and the Rise of Capitalism: A Historical Study* (Penguin Books, 1948 edition)

نشر الكتاب أصلاً سنة 1922. وهو دراسة نقدية من منظور أخلاقي للرأسمالية. يعتبر توني أحد الأصوات الأكثر تأثيراً في الاشتراكية المسيحية والحركة العمالية في بريطانيا.

النصوص الدينية لأنه كان يُعتبر وسيلةً لحني ثمار جهود الآخرين دون مقابل."

في الاقتصادات السابقة كان هناك "... حظر صارم على أي ميزة مستمدة من الإقراض." TLOM 69

يتجلى عدد من سمات "الطريقة الأبسط" Simpler Way في تفكير أوين Owen وممارساته. فقد أنشأ تعاونيات تُمكن الفقراء من الإنتاج لتلبية بعض احتياجاتهم الأساسية، مُسيطرًا بذلك على الاقتصاد. كما أنشأ متاجر تعاونية، بل وطور عملة مشتركة لتتبع المعاملات. رفض أوين فكرة أن الربح والكسب عاملان مُرضيان لتنظيم المجتمع. ورأى أن هناك أمورًا كثيرة مهمة إلى جانب الأجور. (كان عماله يتقاضون أجورًا منخفضة، لكنهم كانوا يتمتعون بظروف عمل جيدة ومعنويات عالية. وأبقى العمال في مصانعه عندما كانت فرص العمل معدومة. وكانت إنتاجية العمال عالية. وفوق كل ذلك، رأى أن هناك عوامل أهم بكثير من الربح والثروة والاقتصاد).¹⁰

أهمية مفهوم المجتمع؛ روبرت أوين

يكرر پولاني طوال الكتاب التأكيد على مفهوم المجتمع وأهميته، معتبراً أوين أول من استوعب هذا المفهوم. (أوين "اكتشف" المجتمع، ص 128)

يقدم كتاب پولاني تحليلاً تاريخياً مفصلاً، معظمه لإنجلترا، من العصور الوسطى إلى القرن العشرين، مع التركيز على الاضطراب والتغيير الاجتماعي الهائلين المرتبطين بظهور الرأسمالية. ("اضطراب اجتماعي ذو أبعاد هائلة." ص 129).

¹⁰ هناك دراسات عديدة عن روبرت أوين وبذرة الاشتراكية التعاونية التي كتب عنها وجسدها في مشاريعه، من بينها ما قرأته قبل عقود في كتاب:

Max Beer, *A History of British Socialism*, (London: G. Bell and Sons, 1919), Volume 1, pp 160-188.

شملت مشاريعه إنشاء مصنع في نيو لانارك New Lanark في اسكتلندا الذي لم يكن كغيره من المصانع إذ كان نموذجاً لتجربة اجتماعية تعاونية، مجسداً أفكاره في تحسين ظروف العمل والمعيشة للعمال، إنشاء مدارس للأطفال بما في ذلك أول روضة أطفال في العالم، وتوفير مساكن نظيفة، وخدمات صحية، ومتجرًا تعاونيًا بأسعار عادلة، وتقليص ساعات العمل، ورفض تشغيل الأطفال (السمة الملازمة لتدشين الثورة الصناعية في بريطانيا).

على سبيل المثال، مزّقت حركة التسييج enclosures الحياة الريفية. فقد طُردت أعداد كبيرة [من الفلاحين] من الأراضي والقرى. وفي وقت لاحق، دفعتهم الثورة الصناعية إلى أحياء فقيرة مرعبة في المدن. وكان للثورة الصناعية آثار كارثية مماثلة. لقد شعر العديد من الخبراء والمنظرين الاجتماعيين بالقلق إزاء ما كان يحدث وما يجب فعله، لا سيما وأن جماهير الفقراء المدقعين شُكّلت تهديداً بالثورة، لكنهم كانوا في حيرة شديدة ولم يفهموا ما كان يحدث. لم يدركوا أن النظام الاجتماعي في العصور الوسطى كان يُستبدل بالسوق والرأسمالية، ولم يدركوا الفرق الهائل. إن إجبار الفلاحين على التخلي عن أراضيهم لإنتاج المزيد من الصوف، والتصنيع في المصانع، تضمن بيع كميات أكبر في السوق، ومعاملات نقدية، ورأس مال، وائتمان، وأسعار، وأجور، والضغط لمعاملة العمالة كسلعة قابلة للتأجير. كانت هذه الأمور مجهولة إلى حد كبير أو ذات أهمية تافهة في المجتمع التقليدي، وكانت بمثابة ديناميت له؛ فقد دمرت المجتمع، والمجتمع المحلي، والحياة الريفية، والقرية، والأمن الجماعي، والتقاليد، والروابط الاجتماعية والذكريات والعلاقات، والتزامات ملاك الأراضي والسلطات الاجتماعية (الإقطاعيون، والكنيسة) تجاه الفلاحين، إلخ. على سبيل المثال، أُلزمت الأبرشيات برعاية أولئك الذين لم يتمكنوا من العثور على عمل. لا يمكن أن يستمر هذا إذا تمكنت المصانع من الحصول على عمال راغبين، ولا مع ارتفاع أعداد الفقراء. وهكذا أصبح يُنظر إلى الفقراء على أنهم مخطئون، وكسالى، ويستحقون العقاب لا المساعدة.

لم يكن المسؤولون والمفكرون في ذلك الوقت على دراية بهذه البنى والعلاقات الاجتماعية ووظيفتها الحاسمة في ضمان جودة الحياة؛ على سبيل المثال، الأمن الذي يوفره المجتمع، واحترام الذات الذي يحصل عليه العمال من المساهمة في حياة القرية، وصيانة المساكن والأنشطة الترفيهية، وما إلى ذلك. لم يروا الطريقة التي تأثرت بها هذه العلاقات الاجتماعية واكتسحتها الإجراءات الناشئة، وخاصة من خلال السماح للسوق بأن يصبح شيئاً منفصلاً، يعمل بقوانينه الجديدة الخاصة به، وحرراً في تحديد مصير الناس والمجتمع. النقطة هنا هي أن أوين كان لديه بعض الفكرة عن كل هذا، ولم يدرك الناس إلا في القرن التاسع عشر أنه

يجب أن يكون المجتمع موضع تقدير والاعتراف به على أنه معقد وحاسم، وحمائته من ويلات السوق.

رأى أوين Owen أن النظام الجديد سيُسبب فوضى ما لم يُنظم بشكل صارم. يقول پولاني إنه كان بارعاً في رؤية أن السوق ستُدمر المجتمع (ص 128).

ويشير پولاني أيضاً إلى المجاعات الأربع¹¹ الهائلة في الهند الاستعمارية، والتي نجمت عن تدمير مجتمع القرية وشبكات الأمان التابعة له على يد الاستعمار البريطاني. ستكون هناك مشكلة كبيرة إذا "تم تنظيم المجتمع بأكمله على مبدأ الكسب والربح، وتدمير الطابع التقليدي للسكان المستقرين وتحويلهم إلى نوع جديد من البشر، مهاجرين، بدو، يفتقرون إلى احترام الذات والانضباط — كائنات فظة وقاسية القلب، كان كل من العامل والرأسمالي مثلاً عليها." ص 128.

تأمل حكمة المجتمعات القبلية

تُظهر هذه المواضيع الحكمة الاقتصادية للمجتمعات "البدائية" والفلاحية. يرى الغرب أن هذه المجتمعات متخلفة وتحتاج إلى تبني أساليب السوق.

في هذه المجتمعات، كان الإنتاج للاستخدام لا للتربح. لم يكن هناك بيع لتراكم الثروة.

يعمل أفراد القبائل بجد واجتهاد، بدافع الفخر والإنجاز لا التربح أو الخوف من الفقر. فمثلاً، يفتخر سكان ميلانيزيا [مجموعة جزر في جنوب غرب المحيط الهادئ] Melanesians بحدايقهم وقدرتهم على توفير الغذاء، وهذا ما يمنحهم الاحترام والمكانة الاجتماعية.

¹¹ وفق ما جاء في الموسوعة الحرة، بين عامي 1765 و1943، شهدت الهند العديد من المجاعات الكبرى، أدت إلى وفاة أكثر من 85 مليون شخص. مجاعة البنغال سنة 1943 توصف بأنها من صنع الإنسان (السياسة الاستعمارية للإمبراطورية البريطانية كما أصرَّ عليها ونستون تشرشل الذي كان رئيساً للوزراء آنذاك).

لا يقتصر العمل أبدًا على الحد الأدنى الضروري، بل يتجاوز ذلك بكثير. Thurnwald, Economics, p. 209.

"إن الحوافز المعتادة للعمل ليست التبريح، بل المعاملة بالمثل، والمنافسة، ومتعة العمل، والقبول الاجتماعي." 212(?)

يُعدّ العمل من أجل العمل ذاته سمةً دائمةً في الصناعة الماورية¹²
Moari.
(Firth, "Some Features of Primitive Industry.")

"الإتقان في البستنة هو المؤشر العام للقيمة الاجتماعية للشخص،"
Malinowski, Coral Gardens and their Magic, Vol
Andaman 1, 1935, p. 124
Islanders الكسل سلوكًا غير اجتماعي،"- Radcliffe-
Brown, The Andman Islanders

يُكرّس الكثير من الوقت والجهد لأغراض جمالية، كترتيب
الحدائق وتنظيفها وتطهيرها من جميع الأنقاض، وبناء أسوار
متينة وجيدة، وتوفير أعواد يام yam poles قوية وكبيرة. كل
هذه الأمور ضرورية، إلى حد ما، لنمو النبات؛ ولكن لا شك أن
السكان الأصليين يتجاوزون حدود الضرورة القصوى بكثير.
Malinowsky, B., Argonaughts of the Western
Pacific, p. 59

يناقش سالينز Sahlins "الوفرة المادية". يتراوح يوم العمل بين
3 و5 ساعات لكل عامل بالغ. ربما لا يعمل ثلث البالغين. العمل
ليس شاقًا جدًا، ولا يُعتبر مزعجًا. ص 68.

وهكذا كان آدم سميث مخطئًا!

اشتهر آدم سميث بافتراضه الأساسي أن البشر لديهم ميل طبيعي
قوي إلى "المتاجرة والمقايضة والتبادل"، أي التصرف وفقًا

¹² السكان الأصليون في نيوزيلندا. لهم ثقافة غنية بالتقاليد، والقدرة على التحمل، والارتباط الروحي العميق بالأرض والبحر والأجداد.

لمبادئ السوق. بُنيت النظرية الاقتصادية التقليدية على هذا الافتراض، لكن كما يُبين پولاني، فهو خاطئ.

"المقايضة في الأصل مجهولة تمامًا. فبدلاً من أن يكون الإنسان البدائي مولعاً بالمقايضة، كان ينفر منها." اقتبسهُ پولاني من كتاب بوشر Buecher، ص 274.

لم يكن سميت يعرف الكثير عن آلية عمل الاقتصادات غير الغربية، وبالتأكيد لم يكن يعرف شيئاً مما أفاد به علماء الأنثروبولوجيا في القرن العشرين، مثل مالينوفسكي Malinowski، من خلال ملاحظاتهم عن المجتمعات "البدائية". لم يكن بإمكانه سوى الاستفادة من ملاحظاته عن مجتمعه الذي يهيمن عليه السوق.

لذا ما الذي يجعل أي شخص يهتم به؟ لأنه قال، وشرعن، ومنح السلطة للأفكار التي تفضّلها الطبقة المهيمنة، كما هو الحال دائماً مع الأيديولوجيات السائدة. يُصغي الأغنياء والأقوياء إلى الأفكار التي تناسب مصالحهم، ويُكرّرونها، وينشرونها، ويُصادقون عليها. لذا، يُعلّم الملايين من طلاب الاقتصاد بانتظام أن البشر مُسوّقون، وأن اقتصاد السوق هو الطريقة الطبيعية والأفضل للتعامل مع الاقتصاد، ولا يصادفون أبداً أي منظور آخر.

لكن المجتمع يحاول حماية نفسه

جادل پولاني بأن هناك ميلاً قوياً لدى المجتمع للاستجابة في نهاية المطاف بشكل دفاعي ضد التأثير، والتوصل إلى تدابير مضادة. وعادةً ما تكون هذه الاستجابة عامة وغير منسقة وعفوية وغير معترف بها، من جهات عديدة، بخلاف السلطات أو الدولة.

التجارة، داخل وخارج نطاق المجموعة

لم تتطور التجارة داخل المجتمعات المحلية، بل نشأت من التفاعلات بينها. وعندما نشأت الأسواق المحلية، لم يكن لديها ميل للنمو. فقد كان يتم تبادل كميات محددة من سلعة ما بكميات محددة من سلعة أخرى ("مُكافِآت")، وليس بيعها سعياً للحصول

على أكبر قيمة ممكنة. حتى في العصور الوسطى، كانت التجارة بين المستوطنات تُدار من قِبل الجماعات، لا الأفراد. ص 277.

كان الهدف من السوق المحلية توفير المون اللازمة للحياة اليومية لسكان الأحياء. لم تنشأ طبقة التجار من بين السكان الزراعيين، أي كتنطور للأسواق المحلية. لقد بدأ التجار العمل بين المدن، وركزوا بشكل رئيسي على تجارة الكماليات. أما أسواق المدن، فقد تعاملت مع الضروريات، المنتجة محليًا، وأتاحت ببساطة تبادلها وتوزيعها. ص 275.

وفي تلك الاقتصادات التي تضمنت بعض المعاملات السوقية، كانت هذه المعاملات تتم عادة بين المجتمعات، وليس داخلها. J. R. Stanfield, (1986), The Economic Thought of Karl Polanyi, Macmillan.

الليبرالية الجديدة الحالية؟

ماذا كان پولاني ليقول عن صعود الليبرالية الجديدة منذ عام 1970؟ يعتقد أن السعي وراء سوق ذاتية التنظيم قد انتهى في أواخر القرن التاسع عشر، وأن التوترات التي أحدثتها أدت إلى الحربين العالميتين الأولى والثانية. ويبدو أن هذا يعود إلى عدم تركيزه على أن العولمة الطبقيّة تتعلق بالطبقة الحاكمة التي تنهار. فهو لا يركز على صراع الطبقات المتواصل، حيث يسعى الأغنياء باستمرار إلى الثراء من خلال محاولة فرض سوق حرة على البقية (مع محاولة مستمرة لإجبار الدولة على تطبيق القوانين والقيود على قوى السوق التي تخدم مصالحهم). تُمثل العولمة والصعود الليبرالي الجديد سعي الشركات فاحشي الثراء إلى زيادة التحول إلى علاقات السوق.

الاختلافات مع ماركس

يرى پولاني أن الرأسمالية ليست حالة متفوقة، بل هي خطأ. اعتقد ماركس أن هناك تقدمًا من المجتمع القديم مرورًا بالإقطاع

إلى المجتمع الرأسمالي ثم الاشتراكي. ويرى پولاني أن "الرأسمالية حالة مرضية". ص 133.

الصراع الطبقي ليس مهمًا جدًا في تحليل پولاني.

إن الاستجابة لحماية الذات في المجتمع لا تأتي من مصالح الطبقة، بل تأتي من المجتمع ككل، بطريقة غير واعية في بعض الأحيان، من العديد من القطاعات التي تناضل ضد الضرر.

ينتقد بعض الماركسيين پولاني لاعتقاده أن الإنتاج ليس بأهمية التوزيع، أي بأهمية آثار السوق. كلاهما يرى تناقضًا قاتلاً متأصلًا في الرأسمالية، ويرى طبيعتها المدمرة اجتماعيًا.

اعتبر ماركس أن الاقتصاد هو ما يُحدد بقية المجتمع. ويُعطي پولاني الأولوية للجانب الاجتماعي في تحليله، لكن هذا لا يعني أنه سيختلف مع ماركس بشأن كون سبب الدمار الاجتماعي هو ظهور الرأسمالية. يُركّز ماركس على الاقتصاد، بينما يقول پولاني إن الاقتصاد غير مهم نسبيًا؛ فالمهم هو المجتمع، وهو يتعلق بالأساس بالعلاقات، والأعراف، والتقاليد، والأخلاق، والمعاملة بالمثل، والعطاء، والولاء، والديون، والامتنان، وإعادة التوزيع، وليس بالأساس بالتجارة. لا يهتم ماركس في المقام الأول بعلم الاجتماع؛ بل يهتم بشكل رئيسي بملكية وسائل الإنتاج وما يحدث عندما يمتلكها الرأسماليون.

يمكن انتقاد ماركس لضيق فهمه للاقتصاد، كنظرية الاقتصاديين المعاصرين، أي لاقصاره على المعاملات النقدية. أما پولاني، فيؤكد على العوامل الاجتماعية العديدة التي تؤثر في النشاط الاقتصادي وتتأثر به، بما في ذلك العلاقات الاجتماعية، والتقاليد، والأخلاق، والدين.

اعتبر ماركس اقتصاديات الكفاف بدائية، وبدا غير مهتم بالعديد من العوامل الاجتماعية والأخلاقية وما إلى ذلك التي يقول پولاني بحق أنه يجب أخذها في الاعتبار في القرارات الاقتصادية.

الرؤية "الاشتراكية" العامة هي ضرورة السيطرة على السوق، على أن تقوم الدولة بذلك. يرى پولاني أنه في مجتمع مُرضٍ،

سيتولى المجتمع السيطرة على السوق تلقائيًا. (مع ذلك، كان يُؤيد التنظيم الحكومي القوي لمعالجة الوضع في منتصف القرن العشرين).

يُنقَد پولاني لعدم تركيزه الكافي على الطبقات. إن تحليلاته التاريخية تُولي اهتمامًا كبيرًا لكيفية تحقيق الطبقات المهيمنة أهدافها وإجبارها البقية للعيش في ظروف مُزرية، لكن يبدو أنه لا يُركّز على هذا الأمر، ولا يدعو إلى ثورة طبقية، إلخ، بينما تناول ماركس هذه القضية باعتبارها محورية في تحليله.

يبدو أن پولاني كان يُفضّل تدخل الدولة للسيطرة على الاقتصاد. يُشير ديل Dale إلى تعاطف پولاني مع الصفقة الجديدة لروزفلت، وحكومة أتلي البريطانية، وكينز، ودولة "الرفاهية". ويلاحظ ديل إلى عدم كفاية هذا الموقف؛ فعلى سبيل المثال، أدى صعود/انتصار الليبرالية الجديدة بعد عام 1970 إلى القضاء على هذه المبادرات.

مهم؛ لم يكن پولاني معارضًا للسوق. كان يعتقد أن الأسواق ستكون ذات قيمة. من منظور "الطريقة الأبسط" [The Simpler Way](#)، ينبغي في نهاية المطاف التخلص من السوق تدريجيًا (انظر: "الحُجة ضد السوق" [The Case Against The Market](#)). السوق، بطبيعته، قائم على الأنانية والربح، ولا يمكنه تجنب العمل لصالح الأغنياء، ولا يمكنه تلبية احتياجات المجتمع أو البيئة، والأهم من ذلك، أنه ينطوي على قيم سيئة (استغلال مصائب الآخرين، وفرض أقصى الأسعار، وإفساد المنافسين، وتحقيق أقصى ثراء ممكن).

ولأغراض فهم ما هو الخطأ في الرأسمالية، يبدو أن التحليلين متكاملان إلى حد كبير؛ ويبدو أنه من الممكن دمجهما لتشكيل عرضًا قيمًا.

Dalton, G., (Ed.), *Primitive, Archaic and Modern Economies, Essays of Karl Polanyi*, Anchor, 1968.¹³

¹³ من المؤلف أن الكاتب لم يفرّد قائمة كاملة بالمراجع التي ذكرها في متن المقال.

* تيد ترينر Ted Trainer، محاضر متقاعد، كلية الخدمة الاجتماعية بجامعة نيو ساوث ويلز، استراليا.

من الشخصيات البارزة في عالم الاستدامة والحياة البديلة. وُلد عام 1941، واشتهر بدفاعه عن النمو الاقتصادي السلبي degrowth، والفوضوية البيئية، والبساطة الطوعية. من أهم مساهماته تطوير مفهوم "الطريقة الأبسط" The Simpler Way، وهو إطار عمل للعيش الكريم مع تقليل استهلاك الموارد بشكل كبير. أَلَف العديد من الكتب والمقالات التي تنتقد الاستهلاكية وتقترح بدائل مستدامة ومجتمعية. [Ted Trainer - Wikipedia](#)

** كارل پولاني Karl Polanyi (1886-1964)، نمساوي-مجري، شخصية بارزة في النظرية الاجتماعية والأنثروبولوجيا الاقتصادية في القرن العشرين، اشتهر بنقده للبرالية السوقية ومفهومه للاقتصادات المُدمجة embedded economies، فالإقتصادات ليست أنظمة مستقلة، بل هي متجذرة بعمق في السياقات الاجتماعية والثقافية. طرح فكرة الحركة المزدوجة: حركة تدفع باتجاه لبرلة (تحرير) السوق، وحركة أخرى مقاومة لها، مطالبة بحماية اجتماعية لمواجهة آثار السوق المُزعزعة.

تيد ثرينر: مقتطفات من كتاب كروبوتكين الرائع "المساعدة المتبادلة"

من المُدهش والمُخيب للآمال أن هذا الكتاب¹ لا يحظى باهتمام يُذكر اليوم. فهو يُقدّم حجةً قويةً تُفيد بأن الحيوانات عمومًا اجتماعية ومتعاونة في الغالب، وخاصة البشر، وأن العامل الأهم الذي يُحركنا هو المساعدة المتبادلة.

إنه كتاب طويل، مُكتظٌ بكمية هائلة من الأدلة السلوكية، بدءًا من الحشرات، وبعدها جميع أنواع الحيوانات والبشر والمجتمعات المختلفة والتاريخ، وخاصةً النقابات في العصور الوسطى. معرفة كروبوتكين واسعة، ويتجلى ذلك في الحواشي العديدة. نُشرت النسخ الأولى من محتويات الكتاب حوالي عام 1890.² تُعتبر الأطروحات العامة المتعلقة بالمُساعدة المتبادلة mutual aid والإيثار altruism في الطبيعة صحيحة حتى يومنا هذا، وهو ما يؤكدده، على سبيل المثال، ستيفن جيه Gould³ Stephen J. Gould.

يتأسف كروبوتكين على هيمنة النظرية الهوبزوية Hobbesian [نسبة إلى الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز، 1679-1588]

¹ العنوان الكامل لكتاب كروبوتكين Pyotr Kropotkin (1842-1921) هو المساعدة المتبادلة: عامل من عوامل التطور، نشر سنة 1902. (New York: McClure Phillips & Co, 1902)

لا تضم ورقة الكاتب المراجع التي استخدمها.

جميع الهوامش من وضع المترجم. استفدت من مراجع مختلفة لترجمة وشرح بعض الكلمات.

² نشرت كمقالات في السنوات 1890-1896 في المجلة البريطانية The Nineteenth Century

³ (1941-2002) من الشخصيات الأمريكية البارزة في حقل علم الأحياء التطوري وعلم الحفريات، وفي دفاعه وترويجه للعلم وتقريبه من أذهان الناس. ساهم من خلال مؤلفاته ومحاضراته وعمله في تغيير النظرة للتطور ودحض نظرية الخليقة creationism التوراتية. واشتهر بقدرته على جعل الأفكار المعقدة في متناول اليد وجذابة.

على طريقة التفكير عند البشر، والتي ترى أن البشر فرديون وتنافسيون وعدوانيون بشكل لا رجعة فيه، ويجب السيطرة عليهم لتجنب الفوضى. وقد تبني العديد من الداروينيين هذا الرأي، ولا سيما هكسلي⁴ Huxley. لكن كروبوتكين يجادل بأن الأهم في طبيعتنا وتطورنا وأشكالنا الاجتماعية هو ميلنا القوي والراسخ للتعاون والاهتمام ببعضنا البعض ومساعدة بعضنا البعض والاستمتاع بالتفاعل الاجتماعي.

ويوثق كروبوتكين هذه الميل بإسهاب، بدءًا من الحشرات إذ يقول: فيما يتعلق بـ "...أصل شعور أو غريزة المساعدة المتبادلة... يجب أن نتبع وجودها إلى أدنى مراحل عالم الحيوان؛ ومن هذه المراحل يمكننا تتبع تطورها المتواصل." وقد تأثر بشدة بمحاضرة ألقاها كيسلر⁵ عام 1880، قال فيها: "جميع أصناف الحيوانات، وخاصةً العليا منها، تمارس المساعدة المتبادلة."

قد لا يحتاج السلوك التعاوني للنمل والنحل إلى توضيح، ولكن ماذا عن أنواع الخنافس التي تُساعد خنفساء مقلوبةً على ظهرها عاجزةً عن تصحيح وضعها وتتعاون لتصحيحه؟ يُوثق كروبوتكين سلوكًا مشابهًا لدى الكائنات "البسيطة". ويُشير إلى أن بعض الأنواع أكثر فرديةً من غيرها. ومع ذلك، فإن الثدييات هي التي "يسود فيها التعاون والمساعدة المتبادلة... ونجد، خاصةً لدى القوارض، وذوات الحوافر، والمجترات، ممارسةً متطورةً للمساعدة المتبادلة."

"نعلم في الوقت الحاضر أن جميع الحيوانات، بدءًا من النمل، مرورًا بالطيور، وانتهاءً بأرقى الثدييات، مولعة بالألعاب والمصارعة والجري وراء بعضها البعض ومحاولة الإمساك ومضايقة بعضها البعض، وما إلى ذلك. وبينما تُعدّ العديد من

⁴ توماس هكسلي Thomas Huxley (1825-1895) عالم أحياء وأنتروبولوجيا إنجليزي، متخصص في علم التشريح المقارن. وقد عُرف بـ "كلب داروين" لحماسته ومناصرته نظرية التطور لتشارلز داروين.

⁵ Karl Fedorovich Kessler (1815-1881) عالم حيوان ألماني من منطقة البلطيق، قدّم مساهمات قيمة في علم الأحياء التطوري، وعلم الأسماك، وعلم الطيور. وهو الذي اقترح أن المساعدة المتبادلة، لا التنافس، هي القوة الدافعة للتطور — وهو المفهوم الذي وسّعه لاحقًا بيتر كروبوتكين في كتابه "المساعدة المتبادلة: عامل من عوامل التطور"، موضوع هذه الورقة.

الألعاب، إن صح التعبير، مدرسة للسلوك السليم للصغار في مرحلة البلوغ، هناك ألعاب أخرى، إلى جانب أغراضها النفعية، تُعدّ، إلى جانب الرقص والغناء، مجرد تجليات لقوة فائضة — "متعة الحياة"، ورغبة في التواصل بطريقة أو بأخرى مع أفراد آخرين من نفس النوع أو من نوع آخر — باختصار، هي مظهر من مظاهر التواصل الاجتماعي الأصيل، وهو سمة مميزة لعالم الحيوان بأكمله."

ليس من الصعب إدراك الأهمية التطورية

"...الحيوانات التي تُجيد التآلف هي الأقدر على البقاء والتطور. ... وبالتالي، فإن الأصلح هي أكثر الحيوانات اجتماعية، ويبدو أن الاختلاط الاجتماعي هو العامل الرئيسي للتطور..." تجدر الإشارة إلى أن ما يهم هو بقاء النوع، وأن التنافس بين أفراد النوع الواحد قد يكون ضاراً في هذا الصدد."

لحسن الحظ، إن المنافسة ليست القاعدة لا في عالم الحيوان ولا عند البشر. إنها تقتصر بين الحيوانات على فترات استثنائية، ويجد الانتقاء الطبيعي مجالات أفضل لنشاطه. فالظروف الأفضل تنشأ من خلال القضاء على المنافسة عن طريق المساعدة والدعم المتبادلين. في الصراع الكبير من أجل الحياة — من أجل أقصى قدر ممكن من غنى الحياة وشدتها مع أقل قدر من إهدار الطاقة — يبحث الانتقاء الطبيعي باستمرار عن سبل لتجنب المنافسة قدر الإمكان. تتجمع النمل في أعشاشها وتجمعاتها؛ تُكدس مخازنها، وتربي حشرات المَنّ *rear their cattle* — وبالتالي تتجنب المنافسة؛ ويختار الانتقاء الطبيعي من بين فصيلة النمل النوع الأقدر على تجنب المنافسة، مع عواقبها الضارة التي لا مفر منها.

"... في المدى البعيد، يُثبتُ التمرُّس على التضامن أنه أكثر فائدةً للنوع *species* من تنمية الأفراد الذين يتمتعون بميولٍ افتراضية. فالأكثر مكرًا ودهاءً يُستبعد لصالح من يدركون مزايا الحياة الاجتماعية والدعم المتبادل.

"المساعدة المتبادلة قانونٌ من قوانين الطبيعة، تمامًا كما هو الحال في النضال المتبادل."

"لا تتنافسوا — فالتنافس دائمًا يضرّ بالنوع، ولديكم موارد وفيرة لتجنبه ... " لذا تضافروا — مارسوا التعاون المتبادل! فهذه أضمن وسيلة لمنح الجميع أعظم درجات الأمان، وأفضل ضمان للوجود والتقدم، جسديًا وفكريًا وأخلاقيًا. هذا ما تعلمناه من الطبيعة..."

"كم هي قليلة الأنواع الحيوانية التي تعيش حياة منعزلة، وكم هي تلك الأنواع التي لا تُحصى التي تعيش في مجتمعات، إما للدفاع المتبادل، أو للصيد وتخزين الطعام، أو لتربية ذريتها، أو لمجرد الاستمتاع بالحياة المشتركة. ... تلك الأنواع التي تعرف بشكل أفضل كيفية الاتحاد، وتجنب المنافسة، لديها أفضل فرص البقاء والتطور التدريجي."

"... على المدى الطويل، أثبتت ممارسة التضامن أنها أكثر فائدة للأنواع من تطور الأفراد ذوي الميول الافتراضية."

الأهمية بالنسبة للعدالة والمساواة والقانون والذكاء وحل المشاكل والثقافة والتقدم والرحمة والأخلاق

يناقش كروبوتكين بشكل مقنع أن التبادلية تنطوي على نوع من الاهتمام بالآخر، والرغبة في التمتع بصحبة الآخرين، والاستعداد لمساعدة الآخر، والاهتمام برؤية الآخر وهو يُعامل بشكل عادل، وقد أدى هذا إلى الاهتمام بالأخلاق والقانون.

"إنَّ الاختلاط الاجتماعي والتبادلية يُضيفان شعورًا بالعدالة والإنصاف... وتنمو مشاعر العدالة، إلى حدٍّ ما، لدى جميع الحيوانات الاجتماعية.... فإذا قصد عصفور كسول الاستيلاء على العش الذي بينيه رفيق، أو حتى سرق منه بضع قش، تتدخل المجموعة ضد الرفيق الكسول..."

"لدينا عدد من الحقائق المؤكدة جيدًا عن التعاطف بين الحيوانات البرية الحرة. ... تتمتع قصة جيه سي وود J.C.

Wood عن ابن عرس weasel الذي جاء لالتقاط رفيق مصاب وحمله بشعبية مستحقة. وكذلك ملاحظة الكابتن ستانسبيري⁶ Captain Stansbury في رحلته إلى يوتا Utah والتي استشهد بها داروين؛ فقد رأى طائر بجع أعمى كان يُطعم، ويطعم جيداً، من قبل طيور بجع أخرى بالأسماك التي كان يجب إحضارها من مسافة ثلاثين ميلاً.

"أما بالنسبة لوقائع التعاطف مع الرفاق الجرحى، فهي تُذكر باستمرار من قبل جميع علماء الحيوان الميدانيين. هذه الحقائق بديهية. فالتعاطف compassion نتيجة ضرورية للحياة الاجتماعية. لكن التعاطف يعني أيضاً تقدماً ملحوظاً في الذكاء العام ورهافة الشعور. إنه الخطوة الأولى نحو تنمية المشاعر الأخلاقية السامية."

يُنتج هذا العامل ترتيبات وقائية للفرد. ويُفصل ذلك في نقاشه المُطوّل حول مدن العصور الوسطى حيث كان الجميع يعتبرون أنفسهم إخوة وأخوات.

علاوة على ذلك، يُجادل كروبوتكين بأننا نتعامل هنا مع نزعة تُمكن من التقدم... لأنه يتعلق بالتعاون لإيجاد حلول للمشاكل التي يختبرها الجميع... بما في ذلك بناء الكاتدرائيات القوطية gothic cathedrals. ويوسع هذا العامل ليشمل تحسينات في الترتيبات الاجتماعية. تنبع هذه التحسينات من ذلك الحرص الأساسي على المساعدة المتبادلة.

التاريخ، وصولاً إلى المدينة والنقابات في العصور الوسطى

يتناول الفصل الثالث بالتفصيل التعاون بين "المتوحشين" "savages"، وخاصة البرابرة السلتيين⁷ Celtic، بما في ذلك

⁶ الكابتن هوارد ستانسبيري (1806-1863) كان مهندساً ومستكشفاً في جيش الولايات المتحدة، اشتهر بمسحه التاريخي لبحيرة الملح الكبرى Great Salt Lake والمناطق المحيطة بها بين عامي 1849 و1851

⁷ مصطلح "البرابرة السلتيون" استخدمه الكُتّاب الإغريق والرومان القدماء لوصف شعوب السلت-غالباً باعتبارهم محاربين متوحشين وغير متحضرين—رغم أن علم الآثار الحديث يكشف عن ثقافة أكثر تعقيداً ورُقياً بكثير. كان السلتي مجموعة من القبائل الهندو-أوروبية نشأت في وسط أوروبا، وانتشرت عبر بلاد الغال (فرنسا الحديثة)، والجزر البريطانية، وإيبيريا، والبلقان.

ظهور "المؤسسة الأساسية"، القرية، بترتيباتها التي تتجاوز القبيلة أو العائلة الواحدة.

يُخصص الفصل مساحة واسعة لشرح نشأة وطبيعة وآليات عمل المدن والنقابات⁸ guilds في العصور الوسطى. تُعدّ هذه أمثلةً مبهرةً للغاية على آليات عمل المجتمعات التي يقودها مبدأ المساعدة المتبادلة، وتُشكّل مصدر إلهامٍ لطوباويي اليوم. (يشرح كروبوتكين لاحقًا كيف دُمّرت إنجازاتهم بظهور الدولة؛ انظر أدناه).

"...نشأ مجتمع القرية، على أساس مفهوم مناطقي. هذه المؤسسة الجديدة، التي انبثقت طبيعيًا من سابقتها — العشيرة — أتاحت للبرابرة اجتياز فترة تاريخية مضطربة للغاية دون أن ينقسموا إلى عائلات معزولة كانت ستستسلم في صراع البقاء."

"لقد كانت فكرة الاعتماد على الذات والفيدرالية، وسيادة كل جماعة، وبناء الجسم السياسي من البسيط إلى المركب، الأفكار الرائدة في القرن الحادي عشر."

تدريجياً، "بدأت حياة جديدة من الحرية تتطور داخل الأسوار المحصنة. وهكذا ولدت مدينة العصور الوسطى." "في القرنين العاشر والحادي عشر، عندما بدأت القرى والأسواق المحصنة، التي تُمثل "واحاتٍ عديدة وسط غابة الإقطاع"، بالتححرر من نير أسيادها، ووضعتُ تدريجياً هيكل المدينة المستقبلي."

"مع تزايد تنوع المهن والحرف والفنون، ونمو التجارة في البلدان البعيدة، برزت الحاجة إلى شكل جديد من أشكال الاتحاد، وقد

⁸ لا يضم العرض في هذه الورقة أي إشارة "للتأمين" الذي كان جزءاً من وظائف النقابات في العصور الوسطى في أوروبا. راجع بهذا الشأن ترجمتي لعرض كتاب التأمين التبادلي: 1550-2015: من رفاهية النقابات وجمعيات الأخوة إلى شركات التأمين المتناهية الصغر المعاصرة، موقع شبكة الاقتصاديين العراقيين:

<https://iraqieconomists.net/ar/wp-content/uploads/sites/2/2018/06/Mutual-Insurance-1.pdf>

وَقُرت النقابات هذا العنصر الجديد الضروري. " لقد لعبت هذه النقابات دورًا بالغ الأهمية في تحرير المدن.

يبدو أن هذه المدن والنقابات قد شكّلت ذروة في تاريخ التبادلية. كانت النقابات عديدة ومعقدة، مدفوعة بأخلاقيات تختلف تمامًا عن أخلاقنا، لا سيما بسبب الشعور العميق بالزمالة؛ فالنقابة "... تعتبر جميع أعضائها إخوة وأخوات."

"... كانت المدينة في العصور الوسطى... محاولةً لتنظيم اتحاد وثيق، على نطاق أوسع بكثير من مجتمع القرية، للمساعدة والدعم المتبادلين، وللاستهلاك والإنتاج، وللحياة الاجتماعية ككل، دون فرض قيود الدولة على الناس، بل مع منح حرية التعبير الكاملة للعبرية الإبداعية لكل مجموعة من الأفراد في الفنون والحرف والعلوم والتجارة والتنظيم السياسي."

كانت للنقابة "... سلطة قضائية مستقلة، ولها قواتها العسكرية الخاصة، وجمعياتها العامة، وتقاليدها الخاصة في النضال والمجد glory والاستقلال، وعلاقاتها مع النقابات الأخرى في نفس المهنة في مدن أخرى: باختصار، كانت لها حياة عضوية كاملة لا يمكن أن تنجم إلا عن تكامل وظائفها الحيوية. عندما كانت المدينة تُستدعى لحمل السلاح، كانت النقابة تظهر كسرية منفصلة (شار) (Schaar)، مسلحة بأسلحتها الخاصة (أو بنادقها الخاصة، التي زينتها النقابة ببراعة، في حقبة لاحقة)، تحت قيادة قادتها المنتخبين ذاتيًا. كانت، باختصار، وحدة مستقلة للاتحاد.

تأملوا في الفارق الشاسع بين العقلية التي قادت الاقتصاد وعقليتنا اليوم. وبهذا الصدد يشير كروبوتكين إلى:

"...المشاعر الأخوية العامة التي يجب أن تسود في النقابة؛... واللوائح المتعلقة بالسلطة القضائية الذاتية في حالات الخلافات التي تنشأ بين شقيقين، أو بين أخ وغريب؛ ثم تُعدّد الواجبات الاجتماعية للإخوة: إذا احترق منزل أحد الإخوة، أو فقد سفينته، أو عانى في رحلة حج، يجب على جميع الإخوة مساعدته. إذا مرض أخ مرضًا خطيرًا، يجب على شقيقين حراسته عند فراشه حتى يتعافى، وإذا مات، يجب

على الإخوة دفنه — وهو أمرٌ بالغ الأهمية في أوقات الأوبئة — والمشي وراءه إلى الكنيسة والقبر. بعد وفاته، يجب عليهم إعالة أبنائه، إذا لزم الأمر؛ وغالبًا ما تصبح الأرملة أختًا للنقابة."

"كانت السلطة البحرية على متن السفينة للقبطان؛ ولكن، من أجل نجاح المشروع المشترك، اتفق جميع الرجال على متن السفينة، الأغنياء والفقراء، الربابنة والملاحون، القبطان والبحارة، على أن يكونوا متساوين في علاقاتهم المتبادلة، وأن يكونوا مجرد بشر، ملتزمين بمساعدة بعضهم البعض وتسوية نزاعاتهم المحتملة أمام قضاة ينتخبهم الجميع. وكذلك عندما اجتمع عدد من الحرفيين — بناؤون، نجارون، قاطعو أحجار، إلخ — لبناء كاتدرائية، مثلاً، كانوا جميعًا ينتمون إلى مدينة لها تنظيمها السياسي، وكل منهم ينتمي إلى حرفته الخاصة؛ لكنهم كانوا متحدين أيضًا بمهمتهم المشتركة، التي كانوا يعرفونها أكثر من أي شخص آخر، وانضموا إلى هيئة تجمعهم روابط أوثق، وإن كانت مؤقتة؛ وأسسوا النقابة لبناء الكاتدرائية."

"كانت هذه هي الأفكار السائدة لتلك الجمعيات التي غطت تدريجيًا كامل الحياة في العصور الوسطى. في الواقع، نحن نعرف النقابات بين جميع المهن الممكنة: نقابات الأقبان serfs، ونقابات الأحرار، ونقابات تضم الأقبان والأحرار على حد سواء؛ ونقابات أنشئت لغرض محدد كالصيد أو صيد الأسماك أو رحلات تجارية، ثم انحلت عند تحقيق الغرض المحدد؛ ونقابات استمرت قرونًا في حرفة أو تجارة معينة."

"لذا فإننا لا نرى التجار والحرفيين والصيادين والفلاحين متحدين في النقابات فحسب؛ بل نرى أيضًا نقابات للكهنة والرسامين ومعلمي المدارس الابتدائية والجامعات، ونقابات لأداء مسرحية الألام passion play، وبناء كنيسة،

وتطوير "mystery"⁹ مدرسة معينة للفنون أو الحرف، أو للترفيه الخاص — وحتى نقابات بين المتسولين والجلادين والنساء الضائعات، وكلها منظمة على نفس المبدأ المزدوج للحكم الذاتي والدعم المتبادل.

لاحظ أهمية المآدب كحدثٍ لتوطيد العلاقات

"كانت المآدبة المشتركة، مثل احتفالات مجالس الشعب folkmote القديمة — mahl or malum¹⁰ — أو احتفالات Buryate aba¹¹ بورياتي آبا، أو احتفال الأبرشية وعشاء الحصاد، مجرد تأكيدٍ على الأخوة. كانت ترمز إلى الأوقات التي كان فيها كل شيء مشتركًا بين العشيرة. في هذا اليوم على الأقل، كان الجميع مُلگًا للجميع؛ فالجميع يجلس على نفس المائدة ويتناولون نفس الوجبة."

ويذكر كروبوتكين المزيد من التفاصيل عن آلية الاقتصاد؛

"كان لا بد من عرض كل شيء في السوق مقابل كل عملية شراء، حتى يُقرع الجرس معلناً إغلاق السوق. حينها فقط يستطيع بائع التجزئة شراء الباقي، وحتى حينها، يجب أن يكون ربحه "ربحًا شريفًا" فقط." [202]

"... إذا حُلَّت تُدرة بالمدينة، كان على الجميع أن يعانون منها بدرجة أو بأخرى؛ ولكن بعيدًا عن الكوارث، طالما ظلت المدن الحرة موجودة، فلا يمكن لأحد أن يموت في وسطها

⁹ في اللغة الإنجليزية في العصور الوسطى، كانت كلمة "mystery" تعني حرفة أو مهنة، مثل حرفة الخياطة أو النجارة. وتستخدم أيضًا في وصف ما يعرف بالـ passion play وهي دراما دينية تدور حوادثها حول حياة المسيح كانت تؤديها النقابات.

¹⁰ مصطلحات تعني بالتجمعات القبلية القديمة حيث يجتمع فيها أعضاء المجتمع لمناقشة الأمور واتخاذ القرارات ومشاركة وجبة الطعام.

¹¹ Aba البوريات شعب منغولي من سيبيريا، والـ Aba احتفال جماعي مشابه لاحتفالات mahl or malum غالبًا ما كان يتضمن ولائم وطقوسًا وتوطيدًا للروابط الاجتماعية. كان الأبأ بمثابة رابط ثقافي يعزز القرابة والمساعدة المتبادلة.

من الجوع، كما هو الحال للأسف في كثير من الأحيان في عصرنا."

"... كانت المدينة نفسها هي التي اعتادت شراء جميع الإمدادات الغذائية لاستخدام المواطنين. ... كانت شحنات المواد الغذائية "يشتريها بعض المسؤولين المدنيين باسم المدينة، ثم يتم توزيعها على شكل حصص بين التجار المواطنين *merchant bourgeois*، ولم يُسمح لأحد بشراء البضائع التي ترسو في الميناء إلا إذا رفضت السلطات البلدية شرائها."

ظروف العمل

لاحظوا مرة أخرى الفرق الشاسع بين موقفهم من العمل وموقفنا، وكيف تُحدد القيم الأخلاقية آلية عمل الاقتصاد.

"... في مدينة العصور الوسطى، لم يكن العمل اليدوي رمزًا للدونية؛ بل كان يحمل، على العكس من ذلك، آثارًا للاحترام الكبير الذي كان يحظى به في مجتمع القرية. كان العمل اليدوي في "الأسرار"¹² يُعتبر واجبًا تقنيًا تجاه المواطنين: وظيفة عامة¹³ (*Amt*)، مُشرفة كأي وظيفة أخرى. إن فكرة "العدالة" تجاه المجتمع، و"الحق" تجاه كل من المنتج والمستهلك، والتي قد تبدو باهظة للغاية الآن، قد اخترقت الإنتاج والتبادل. يجب أن يكون عمل الدباغ أو صانع البراميل أو صانع الأحذية "عادلًا" ومنصفًا، كما كتبوا في تلك الأزمان. يجب أن يكون الخشب أو الجلد أو الخيوط التي يستخدمها الحرفي "صحيحة"؛ يجب أن يُخبز الخبز "بعدل"، وهكذا."

"لم يكن الحرفي في العصور الوسطى ينتج لمشتري مجهول، أو يطرح بضاعته في سوق مجهولة. بل كان ينتج لنقابته

¹² كما تم شرحه في الهامش 9 فإن "الأسرار" تعني الحرف أو المهن في اللغة الإنجليزية في العصور الوسطى.

¹³ في اللغة الإدارية الأوروبية القديمة، يشير مصطلح "*Amt*" (بالألمانية: "مكتب") إلى إدارة حكومية أو مكتب عام. لذا، فإن الكلمة قد تعني ببساطة "وظيفة عامة" (*Amt*)، واجبًا أو دورًا يؤديه مكتب عام، مثل إصدار التصاريح، أو تحصيل الضرائب، أو إدارة السجلات المدنية.

أولاً؛ إذ كانت هناك جماعة من الرجال يعرفون بعضهم بعضاً، ويعرفون تقنيات الحرفة، وعند تحديد سعر كل منتج، كانوا يُقدِّرون المهارة في صنعه أو العمل المبذول فيه. ثم كانت النقابة، وليس المنتج المنفصل، تعرض السلع للبيع في المجتمع، وهذا الأخير بدوره كان يعرض على جماعة المجتمعات المتحالفة السلع التي كانت تُصدر، ويتحمل مسؤولية جودتها. مع هذا التنظيم، كان طموح كل حرفة ألا تعرض سلعة رديئة الجودة، وأصبحت العيوب الفنية أو الغش مسألة تهم المجتمع بأكمله، لأنه، كما ينص أحد القوانين، "من شأنه أن يزعزع ثقة الجمهور." وبالتالي، ولأن الإنتاج واجب اجتماعي، يخضع لسيطرة جميع أفراد الجماعة amitas، لم يكن من الممكن أن يقع العمل اليدوي في الحالة المتدهورة التي يحتلها الآن، ما دامت المدينة الحرة على قيد الحياة."

"لم يكن هناك فرق بين المعلم master والمتدرب apprentice، أو بين المعلم والعامل الذي أكمل تدريبه (كومباين، جيزيل)¹⁴ (Compayne, Geselle)، ولكن في مدن العصور الوسطى منذ بداياتها؛ كان هذا الفرق في البداية مجرد فرق في السن والمهارة، لا في الثروة والسلطة. بعد سبع سنوات من التلمذة، وبعد أن يُثبت معرفته وقدراته من خلال عمل فني، يصبح المتدرب معلماً بنفسه. ولم يكن من الممكن أن يصبح المعلم معلماً إلا بعد ذلك بكثير، في القرن السادس عشر، بعد أن دُمّرت السلطة الملكية المدينة والتنظيم الحرفي، بمحض الميراث أو الثروة. ولكن هذا كان أيضاً زمن انحطاط عام في الصناعات والفنون في العصور الوسطى."

¹⁴ Compayne (يرجح أن أصلها من الفرنسية القديمة أو الإنجليزية الوسطى) تعني رقيقاً أو زميلاً في العمل. Geselle هي كلمة ألمانية تعني العامل المتمرس—أي العامل الذي أنهى تدريبه لكنه لم يصل بعد إلى مرتبة "المعلم".

هاتان الكلمتان تُستخدمان تاريخياً في سياق النقابات الحرفية في أوروبا، حيث كانت هناك مراتب واضحة: متدرب (Apprentice)، عامل متمرس (Geselle)، معلم (Master) أو كما نقول بالعامية: أسطة"

"في الواقع، كلما تعلمنا المزيد عن المدينة في العصور الوسطى، زاد اقتناعنا بأن العمل لم يتمتع في أي وقت من الأوقات بمثل هذه الظروف من الرخاء والاحترام كما كان الحال عندما كانت الحياة في المدينة في أعلى مستوياتها."

يقول كروبوتكين: "يُسخر منا عندما نقول إن العمل يجب أن يكون ممتعًا، ولكن — ينص قانون كوتنبرغ Kuttentberg في العصور الوسطى على أنه "يجب أن يكون كل فرد راضيًا عن عمله، ولا يجوز لأحد، دون أن يفعل شيئًا (mit nichts thun)، أن يستولي على ما أنتجه الآخرون بالتطبيق والعمل." (ربما ينتبه المستثمرون للأمر!)

الإنجازات

يُشدّد كروبوتكين على الإنجازات الفنية والمعمارية الباهرة التي حققها نظام النقابات، والخسارة التي أعقبت زواله... " ... النتائج الهائلة التي تحققت في ظل هذا الشكل الجديد من الاتحاد — في رفاهية الجميع، في الصناعات والفنون والعلوم والتجارة..."

"كانت نتائج تلك الحركة الجديدة التي قامت بها البشرية في المدن في العصور الوسطى هائلة. في بداية القرن الحادي عشر، كانت مدن أوروبا مزوقة عبارة عن مجموعات صغيرة من الأكواخ البائسة، وكنائس بائسة غير متقنة الإنشاء، بالكاد يعرف بناؤها كيفية بناء قوس؛ كانت الفنون، التي تتكون في الغالب من بعض أعمال النسيج والحدادة، في بداياتها؛ ولم يُوجد تعليم إلا في عدد قليل من الأديرة. بعد ثلاثمائة وخمسين عامًا، تغير وجه أوروبا نفسه. كانت الأرض مليئة بالمدن الغنية، محاطة بأسوار ضخمة سميكة مزينة بأبراج وبوابات، كل منها عمل فني في حد ذاته. وجاء تصميم الكاتدرائيات على طراز فخم وتم تزيينها بغزارة، ورفعت أبراج أجراسها إلى السماء، مظهرة نقاء الشكل وجرأة الخيال التي تسعى جاهدين الآن لتحقيقها."

"هذه هي التغييرات الساحرة التي تحققت في أوروبا في أقل من أربعمائة عام. ولا يمكن فهم الخسائر التي تكبدتها أوروبا جراء فقدان مدنها الحرة إلا بمقارنة القرن السابع

عشر بالقرن الرابع عشر أو الثالث عشر. لقد اختفى الرخاء الذي ميّز سابقًا اسكتلندا وألمانيا وسهول إيطاليا. تدهورت الطرق إلى حالة مزرية، وخُلّيت المدن، واستُبعد العمال، واختفى الفن، واضمحلت التجارة نفسها."

"... شهدت عصور حياة المدن المستقلة أعظم تطور للفكر البشري خلال العصر المسيحي وحتى نهاية القرن الثامن عشر. فعند النظر، على سبيل المثال، إلى لوحة من العصور الوسطى تُصوّر نورمبرغ بأبراجها وصوامعها الشامخة، التي يحمل كل منها طابع الفن الإبداعي الحر، يصعب علينا أن نتصور أن المدينة قبل ثلاثمائة عام لم تكن سوى مجموعة من الأكواخ البائسة."

هذا الإبداع "... انبثق من مفهوم الأخوة والوحدة الذي عززته المدينة... كان له ذلك التعبير عن الحيوية، لأن الحيوية تغلغلت في كل حياة المدينة. كانت الكاتدرائية أو المنزل الجماعي يرمز إلى عظمة الكائن الحي الذي كان كل بناء وحجر هو من بناه... يبدو المبنى في العصور الوسطى — ليس كجهد فردي ساهم فيه آلاف العبيد بالحصّة التي خصصها لهم خيال رجل واحد؛ بل ساهمت فيه المدينة بأكملها. ... تتجلى هذه الروح في جميع الأعمال الجماعية ذات المنفعة المشتركة، مثل القنوات والمدرجات وكروم العنب وحدائق الفاكهة حول فلورنسا، أو قنوات الري التي كانت تتقاطع مع سهول لومباردي، أو ميناء جنوة وقنواتها المائية، أو في الواقع، أي أعمال من هذا القبيل أنجزتها كل مدينة تقريبًا."

وربما يكون الأمر الأكثر أهمية هو الآثار المترتبة على التحضر، وعلى مجتمع الرعاية وعلى الجماعية collectivism. فرفاهية الفرد تعتمد على مراعاة الآخرين له؛ أما التبادلية mutuality فتتضمن الجماعية، والاهتمام بالآخرين والصالح العام، وبالتالي العدالة ومدى الرضا من الترتيبات الاجتماعية. يشير كروبوتكين إلى أن العامل الرئيسي ليس الإيثار أو الحب، بل "الروح الاجتماعية" أو التضامن، أي الرغبة في التفاعل بطرق ممتعة ومفيدة للطرفين. قد تُبقي روابط الحب الأسرة متماسكة، لكن المدينة بحاجة إلى شيء أكثر.

"لا شك أن مدن العصور الوسطى قد قدمت خدمة جلييلة للحضارة الأوروبية. فقد حالت دون انجرافها نحو الأنظمة الثيوقراطية والدول الاستبدادية القديمة؛ ومنحتها التنوع والاعتماد على الذات وقوة المبادرة... لماذا أصابها ضعف الشيوخوخة في القرن السادس عشر؟... لماذا استسلمت في النهاية..."

الزوال: استيلاء الدولة على السلطة

يقدم كروبوتكين تفاصيل كثيرة عن انهيار النظام القروسطي، من حيث صعود المركزية، أي نشوء دول انتزعت السيطرة من المواطنين والمدن والنقابات... الشغل الشاغل للفوضويين. تشير المقتطفات التالية إلى قيمة رؤاه في صعود المجتمع الرأسمالي، الذي قضى على المحلية localism والجماعة community والتبادلية mutuality.

لطالما احتاجت المدن إلى النضال ضد تعديات الملوك والنبلاء والبابوية، ولكن في النهاية "... تدخلت الدولة... وصادرت ممتلكات النقابات وقضت على استقلالها لصالح بيروقراطيتها."

اضطرت العديد من المدن "... إلى القتال خمسين أو مئة عام متتالية..." لنيل حريتها من اللوردات الغزاة أو الحفاظ عليها. نصّت موثائق المدن على الشروط التي أُجبر اللوردات المحيطون بها على الموافقة عليها. "كانت المدينة في العصور الوسطى واحة حصينة وسط بلد غارق في خضوع إقطاعي، وكان عليها أن تُفسح المجال لنفسها بقوة أسلحتها." "كان كل مرج، وكل حقل، وكل نهر، وطريق حول المدينة، وكل إنسان على الأرض خاضعًا لسيدٍ ما." "تحملت فلورنسا سبعة وسبعين عامًا لسلسلة من الحروب الدموية، لتحرير كونتادو¹⁵ contado المدينة من النبلاء..."

¹⁵ في إيطاليا في العصور الوسطى، كان مصطلح "كونتادو" يشير إلى المنطقة المحيطة بدولة المدينة، وخاصة الأراضي التي تحكمها البلدية الحضرية ولكنها تقع خارج أسوارها. ويمكن اعتبارها بمثابة المنطقة الريفية التي تزود المدينة بالغذاء والعمالة والموارد.

قضت هذه الدول الناشئة على الاستقلال المحلي

"على مدى القرون الثلاثة التالية، قامت الدول، سواء في أوروبا أو في جزرها، باستئصال جميع المؤسسات التي كانت تتجلى فيها نزعة المساعدة حليفة له، سارت في الاتجاه نفسه. ... منحت الكنيسة الحكام الصاعدين قدسيتها، وتوجتهم ممثلين لله على الأرض..."

ارتكبت المدن أخطاءً جسيمة، قوّضت التضامن، لا سيما في إهمالها للفلاحين.

"... ارتكب المواطن في العصور الوسطى خطأً فادحاً في البداية. فبدلاً من النظر إلى الفلاحين والحرفيين الذين تجمعوا تحت حماية أسواره على أنهم مساعدون سيساهمون بدورهم في بناء المدينة — كما فعلوا بالفعل — نشأ انقسام حاد بين "عائلات" سكان المدن الأحرار burghers القدامى والوافدين الجدد. فبالنسبة للأولى، كانت جميع منافع التجارة الجماعية والأراضي الجماعية محفوظة، ولم يتبقّ للوافدين الجدد سوى حق استخدام مهارات أيديهم بحرية. وهكذا انقسمت المدينة إلى "سكان المدن الأحرار" أو "العامة" the commonalty و"السكان". وأصبحت التجارة، التي كانت في السابق جماعية، امتيازاً "لعائلات" التجار والحرفيين."

"الفلاحون، الذين عجزت المدن عن تحريرهم أو رفضت تحريرهم، عندما رأوا عجز سكان المدن الأحرار عن وضع حد للحروب التي لا تنتهي بين الفرسان — والتي دفعوا ثمنها غالياً — علقوا آمالهم على الملك أو الإمبراطور أو الأمير العظيم؛ وبينما ساعدوهم على سحق الإقطاعيين الأقوياء، ساعدوهم على تأسيس الدولة المركزية."

وهكذا "... وجدت الأنظمة الاستبدادية الناشئة دعماً في الانقسامات التي نمت داخل المدن نفسها. كانت الفكرة الأساسية للمدينة في العصور الوسطى عظيمة، لكنها لم تكن واسعة بما يكفي. لا يمكن حصر المساعدة والدعم المتبادلين في جمعية

صغيرة؛ بل يجب أن يمتد إلى محيطها، وإلا فإن المحيط سيمتص الجمعية."

حروب المدينة "... أصبحت حروب ضد اللوردات، كما ذكر سابقاً، حروباً لتحرير المدينة نفسها من اللوردات، لا لتحرير الفلاحين. تركت للسيد حقوقه على القرويين، بشرط ألا يضايق المدينة بعد الآن وأن يصبح شريكاً مع سكان المدن الأحرار. في هذه الأثناء، كان اللوردات داخل المدن..." يكرهون الخضوع لمحكمة الحرفيين والتجار البسطاء..."

"كان الخطأ الأكبر والأشد فتكاً الذي ارتكبه معظم المدن هو بناء ثرواتها على التجارة والصناعة، مع إهمال الزراعة. وهكذا كرروا الخطأ الذي ارتكبه مدن اليونان القديمة، وسقطوا فيه في نفس الجرائم. إن نفور العديد من المدن من الأرض دفعها بالضرورة إلى سياسة معادية للأرض... ورطتها السياسة التجارية في مشاريع بعيدة. تم تأسيس المستعمرات..."

"لمائتي أو ثلاثمائة عام، علّموا من على المنابر، ومن على كراسي الجامعات، ومن على مقاعد القضاة، أن الخلاص يجب أن يُطلب في دولة مركزية قوية، خاضعة لسلطة شبه إلهية؛ وأن رجلاً واحداً يستطيع، بل يجب، أن يكون منقذ المجتمع، وأنه باسم الخلاص العام، يستطيع ارتكاب أي عنف: حرق الرجال والنساء على الخازوق، وإهلاكهم تحت عذابات لا توصف، وإغراق مقاطعات بأكملها في أشد البؤس قسوة. ولم يفشلوا في إعطاء دروس عملية في هذا الشأن على نطاق واسع، وبقسوة غير مسبقة، أينما وصل سيف الملك ونار الكنيسة، أو كليهما معاً. وبهذه التعاليم والأمثلة، التي تكررت باستمرار وفرضت على الرأي العام، شكّلت عقول المواطنين أنفسهم في قالب جديد. بدأوا لا يجدون سلطة مفرطة في اتساعها، ولا قتلاً تدريجياً في قسوته، بمجرد أن يكون "للسلامة العامة." ومع هذا التوجه الفكري الجديد، وهذا الإيمان الجديد بسلطة الفرد الواحد، تلاشى مبدأ الفيدرالية القديم، وتلاشت عبقرية الجماهير الخلاقة. انتصرت الفكرة الرومانية، وفي مثل هذه الظروف، وجدت الدولة المركزية في المدن فريسة جاهزة.

"عندما خضعت مدن العصور الوسطى في القرن السادس عشر على يد الدول العسكرية المتنامية، دُمِّرت جميع المؤسسات التي كانت تجمع الحرفيين والمعلمين والتجار في النقابات والمدن تدميرًا عنيفًا. ألغي الحكم الذاتي والسلطة القضائية لكل من النقابة والمدينة؛ وأصبح قَسَم الولاء بين أعضاء النقابة جريمة تُعَدُّ جنائية تجاه الدولة؛ وصودرت ممتلكات النقابات كما صودرت أراضي المجتمعات القروية؛ وتولّت الدولة التنظيم الداخلي والفني لكل مهنة. وسُنّت قوانين، ازدادت صرامةً تدريجيًا، لمنع الحرفيين من الجمع بأي شكل من الأشكال بين ما كان في السابق القوة الحيوية للحياة والصناعة في العصور الوسطى، والذي اختفى منذ زمن طويل تحت وطأة الدولة المركزية الساحقة."

اليوم

في نهاية الكتاب، يُفصّل كروبوتكين المؤسسات والممارسات العديدة التي لا تزال قائمة حتى اليوم، والتي تُمارس وفق الممارسات الجماعية التي كانت سائدة في مجتمع العصور الوسطى. ومن الأمثلة الجيدة على ذلك القرى السويسرية.

"ثلثا مروج جبال الألب وثلثا غابات سويسرا حتى الآن أراضٍ مشتركة؛ وعدد كبير من الحقول والبساتين وكروم العنب ومستنقعات الخث¹⁶ peat bogs والمحاجر، وما إلى ذلك، مملوكة ملكية مشتركة. في مقاطعة فو Vaud، حيث يواصل جميع أصحاب المنازل المشاركة في مداورات مجالسهم البلدية المنتخبة، تنبض روح الجماعة بقوة. مع نهاية الشتاء، يذهب جميع شباب كل قرية للإقامة بضعة أيام في الغابات، لقطع الأخشاب وجلبها إلى أسفل المنحدرات الحادة، حيث يُقسَم الخشب وحطب الوقود بين جميع الأسر أو يُباع لصالحهم. هذه الرحلات هي احتفالات حقيقية بالعمل الشاق. على ضفاف بحيرة ليمان Lake Lemman،

¹⁶ الخث (Peat): مادة عضوية تتكون من بقايا نباتات متحللة جزئيًا، تتراكم في بيئات رطبة وفقيرة بالأوكسجين.

لا يزال جزء من العمل المطلوب للحفاظ على مصاطب الكروم يُنقذ على نحو مشترك؛ وفي الربيع، عندما يُهدد مقياس الحرارة بالهبوط تحت الصفر قبل شروق الشمس، يوقظ الحارس جميع أصحاب المنازل، الذين يشعلون نيران القش والروث ويحمون كرومهم من الصقيع بسحابة اصطناعية. في جميع المقاطعات تقريبًا، تمتلك المجتمعات القروية ما يُسمى منفعة المواطن "Bürger Nutzen" — أي أنهم يمتلكون عددًا مشتركًا من الأبقار لتزويد كل أسرة بالزبدة؛ أو يحتفظون بحقول أو كروم مشتركة، يُقسّم إنتاجها بين سكان البلدة، أو يؤجرون أراضيهم لصالح المجتمع... ومع ذلك، فإن سويسرا ليست استثناءً في أوروبا بأي حال من الأحوال، لأن نفس المؤسسات والعادات موجودة في قرى فرنسا وإيطاليا وألمانيا والدنمارك.

بعض الأفكار حول الكتاب

إنها حجة مؤثرة للغاية ضد الافتراض المُسلم به بأن البشر تنافسيون وعدوانيون، وبالتالي علينا قبول أن المجتمع كذلك. وهذه الحجة تتماشى مع أعمال پولاني وتوني Polanyi and Tawney، لا سيما فيما يتعلق بنظرة العصور الوسطى للعالم، والتفكير الاقتصادي، والأخلاق، ومدى اختلافها الكبير عن الأيديولوجية الرأسمالية السائدة حاليًا. ويتناول كتاب "النوع البشري" الصادر حديثًا لروتجر بريغمان Human Kind by Rutger Bregman القضية نفسها بالتفصيل.¹⁷

من المثير للاهتمام أن كروبوتكين يبدو أنه لا يشير إطلاقًا إلى ماركس. يعتبر الأناركيون (الفوضويون) رواية كروبوتكين نقدًا قويًا للدولة، بينما يرحب الماركسيون بامتلاك الدولة لسلطة عظمى. لذا، يُمثل هذا الكتاب حجة قوية ضد الاشتراكية، وخاصةً من منظور "البيئة الاجتماعية"، أي الأهمية الحيوية للعلاقات الاجتماعية، والعادات، والقواعد، والتضامن، والأخلاق، وما إلى ذلك، في تحديد الأداء، والصمود، ونوعية الحياة.

¹⁷ Rutger Bregman, *Humankind: A Hopeful History* (Bloomsbury Publishing, 1st Edition, 2021)

يرتبط هذا بتقصير ماركس في مراعاة أهمية "الثقافة"، لا سيما في عملية الانتقال إلى مجتمع فاضل. يُعدّ وصف كروبوتكين المطوّل للقرى والمدن والنقابات في العصور الوسطى دليلاً قاطعاً على الأهمية الاجتماعية للأفكار والقيم والعادات والأخلاق، إلخ، في بناء مجتمع فاضل. يشرح أفينيري (Avineri) (1968)¹⁸ كيف أهمل ماركس هذا المجال، مُفترضاً إمكانية الاهتمام به بعد الثورة. (يرى الأناركيون أنه يجب التعامل معه قبل الثورة؛ انظر) (الطريق الأبسط: نظرية الانتقال¹⁹ TSW: Transition theory).

العلاقة المُحيّرة بين رواية كروبوتكين والنظرية الماركسية

ليس من الواضح كيف ارتبطت مناقشته [كروبوتكين] لزوال المجتمع في العصور الوسطى، والذي يناقشه من حيث القضاء عليه بصعود الدولة، برواية ماركسية لصعود الرأسمالية. كما أنه ليس من الواضح لماذا لا يُشير إلى النظرية الماركسية في هذه القضية. يتناول ماركس تدمير المجتمع في العصور الوسطى من حيث صعود الطبقة الرأسمالية إلى السلطة، لذا كان من الجيد معرفة كيف رأى كروبوتكين العلاقات السببية بين الطبقة الرأسمالية والإقطاعيين والقرى والدولة. صحيح أن روايته تتناول الصراع الطبقي (مع أنه لا يستخدم المصطلح)، أي الصراع بين القرويين والإقطاعيين بشكل خاص، لكنه لا يناقش مكانة الطبقة الرأسمالية في الصورة السببية (أو الطبقات ذات الصلة، مثل التجار). نقده موجّه للدولة، وليس للرأسماليين. لكن الماركسي سيقول (عن حق) إن الطبقة (أو الطبقات) الحاكمة هي التي حرّكت الأمور، وخاصة عمليات التسييج enclosures التي انتزعت من الناس أراضيهم التقليدية، وإن سيطرتها على

¹⁸ Shlomo Avineri, *The Social and Political Thought of Karl Marx* (Cambridge University Press, 1st Edition, 1968)

¹⁹ نظرية "الطريق الأبسط" للتحوّل طوّرها تيد تريزنر، والتي تدعو إلى تغيير جذري في المجتمع نحو الاستدامة والعيش المتقشف. نظرية "الطريق الأبسط" ترى أن المجتمعات الصناعية الحديثة يجب أن تتحوّل بعيداً عن الاستهلاك المفرط والاقتصاد القائم على النمو، نحو نمط حياة محلي، تعاوني، وبسيط مادياً. وهي ترفض الحلول التقنية وحدها، وتؤكد أن التوازن البيئي الحقيقي يتطلب تغييراً جذرياً في البنية الاجتماعية والاقتصادية.

الدولة هي الوسيلة، على سبيل المثال، لتمرير مئات قوانين التسييج عبر البرلمانات. مرة أخرى، يُركّز كروبوتكين على الأقل على مركزية الصراع الطبقي في هذه الأحداث، لكنه لا يناقش أو يشرح أسباب نشوء الدول أو ازدياد قوتها الساحقة بسرعة. مع ذلك، يبدو أن الروايتين غير متعارضتين، ويمكن دمجهما بسهولة.

لعلّ الجانب الأكثر إثارة للإعجاب في الكتاب يكمن في تصويره للأهمية الحاسمة لـ "الإيكولوجيا الاجتماعية" في مجتمع العصور الوسطى. لقد كان مزيجاً بالغ التعقيد والقوة من الأفكار والقيم والعادات والالتزامات والأعراف والتقاليد والأخلاق الراسخة، التي ربطت الجميع بقوة في تفكير وسلوك متبادل المنفعة. كان هناك، كما يفصّل پولاني وتوني²⁰ Polanyi and Tawney، اقتصاداً "أخلاقي" شديداً، لم يكن فيه لاعتبارات المال والربح والتسويق وتراكم الثروة مكان. كان الموقف السائد هو "الأخوة"، والالتزام برفاهية الآخرين والمجتمع. يناقش كروبوتكين كيف أن صعود المركزية، وخاصةً في شكل الدولة، يُقصي ويُدمّر الأخلاقية "الروحانية" القوية التي تتغلغل في مجتمع متماسك... تخيلوا عندما يأتي وول مارت²¹ Walmart إلى المدينة. يُدرك الإنسان الفوضوي أن هذا ما يحدث عندما تكون هناك مركزية للوظائف والسلطة. ولعلّ أعظم خطيئة للاشتراكية هي سذاجتها السوسيولوجية.

لذا، يُعدّ الكتاب حجة قاطعة لصالح الفوضوية ضد الاشتراكية. لا يمكن ترسيخ ثقافة الاهتمام بـ "الأخوة" والمجتمع إلا في مجتمعات ذاتية الحكم، تضم مواطنين مسؤولين، ملتزمين بالصالح العام وبالنظمة التي طوروها لتوفير احتياجاتهم. إن من يسعون إلى مركزية السلطة والوظائف يرتكبون خطأ فادحاً؛ فالمركزية تمنع المواطنة التشاركية (أو تُعيد تعريف المواطنة

²⁰ للتفاصيل راجع "تيد ترينر: ملاحظات حول كتاب كارل پولاني: التحول العظيم"، موقع شبكة الاقتصاديين العراقيين:

<https://iraqieconomists.net/ar/wp-content/uploads/sites/2/2025/07/Karl-Polanyi-Ted-Trainer-Review-IEN-Final.pdf>

²¹ وول مارت شركة عملاقة متعددة الجنسيات لتجارة التجزئة، مقرها الرئيسي في ولاية أركنساس، وهي معروفة بسلسلة ضخمة من المتاجر الكبرى ومتاجر البقالة في جميع أنحاء الولايات المتحدة و23 دولة أخرى.

بأنها طاعة للسلطات)، وبالتالي تُلغى المسؤوليات والقرارات والأفعال والتبادلية، تاركةً ضواحي سكنية مليئة بالمستهلكين الذين لا تربطهم أي صلة ببعضهم البعض، ولا يهتمون بمجتمعهم.

ومن هنا، يُدرك كروبوتكين تمامًا الفرق بين الفرد المنعزل، المنافس والوصولي الطمّاع، والمؤسسات الاجتماعية المصاحبة له، لا سيما "الفائز يستأثر بكل شيء" للاقتصاد النيوليبرالي، من جهة، وبين المجتمع community من جهة أخرى. أي أخلاقيات تُركز على القيم الاجتماعية كالاهتمام بالصالح العام، ورفاهية الجميع، والمستضعفين، والعدالة الاجتماعية، ورؤية الجميع يزدهرون. بعبارة أخرى، تُمثل هذه الأخلاقيات حجة قوية لصالح الجماعية التشاركية المحلية على نطاق ضيق.

* تيد ترينر Ted Trainer، محاضر متقاعد، كلية الخدمة الاجتماعية بجامعة نيو ساوث ويلز، أستراليا.

من الشخصيات البارزة في عالم الاستدامة والحياة البديلة. وُلد عام 1941، واشتهر بدفاعه عن النمو الاقتصادي الصفري degrowth، والفوضوية البيئية، والبساطة الطوعية. من أهم مساهماته تطوير مفهوم "الطريق الأبسط" The Simpler Way، وهو إطار عمل للعيش الكريم مع تقليل استهلاك الموارد بشكل كبير. ألّف العديد من الكتب والمقالات التي تنتقد الاستهلاكية وتقرّح بدائل مستدامة ومجتمعية. - Ted Trainer

Wikipedia

دانيال آر فيسفيلد: ¹ السوق من منظور تاريخي ²

لم ينشر كارل پولاني ³ بحثاً متكاملًا عن التاريخ الاقتصادي، ولو انه كان محاضراً في موضوع "التاريخ الاقتصادي العام" في جامعة كولومبيا ابتداءً من 1945 لغاية 1953، كما أشرف على بحوث طلبة الدكتوراه في هذا الحقل، لكن كتاب معيشة الإنسان، الذي حرره هاري بيرسون ونشر عام 1977 بعد حوالي اثنتي عشرة سنة من وفاة پولاني، قد جمع بعض كتاباته المتفرقة في هذا الحقل. لقد كنت واحداً من حوالي 150 من هؤلاء الطلبة عام 1947 عندما بدأت الدراسة بعد الحرب العالمية الثانية، متحمساً لفهم الاضطراب والهيجان الذي وسم الماضي القريب، والاستفادة من هذا الفهم لصياغة عالم أفضل. وكان "التاريخ الاقتصادي العام" الذي يحاضر فيه پولاني يصبُّ مباشرةً في صُلب هذا الاهتمام. فمحاضراته كانت تقتفي وتتابع تطور المؤسسات الاقتصادية من أشكالها البسيطة للحياة الاقتصادية الى اقتصاد السوق الحديث. ولكنها كانت أكثر من مجرد عملية سردٍ للتطور:

¹ Daniel R. Fusfeld أستاذ الاقتصاد المتقاعد في جامعة ميشيغان.

² قدمت هذه الورقة في المؤتمر العالمي الرابع حول كارل پولاني، في جامعة كونكورديا، مونتريال، كندا، الذي انعقد ما بين 11-14/11/1992.

³ Karl Polanyi (1886-1964) عالم اجتماعي من الطراز الرفيع، كرس جهده العلمي لدراسة موقع الاقتصاد في المجتمع، أي العلاقة بين الترتيبات الخاصة بالإنتاج وامتلاك المنتجات وبين الترتيبات القرابية والدين وأنظمة الثقافة. لا تعبر النظرية الاقتصادية الحديثة اهتماماً بمثل هذه العلاقة، ولذلك أقترح بولاني توصيفها تحت عنوان "الاقتصاد الحقيقي" substantive economics تمييزاً له عن "الاقتصاد الشكلي" formal economics. وفي تأكيده على هذا التوصيف، فإنه كان يهدف إلى إبراز الاستعمالات المختلفة لمصطلح الاقتصاد وما هو اقتصادي، وتجنب الوقوع في شرك إسقاط الاقتصاد الصناعي الحديث على الاقتصادات البدائية والقديمة وكان هذه الأخيرة ليست إلا صوراً وخامات أولية للاقتصاد الحديث. إن "الاقتصادي"، من وجهة نظر بولاني، مرادف لما هو "مادي". فعند الحديث عن الجوانب الاقتصادية للمجتمع، وخاصة البدائية والقديمة، فإن النظر ينصرف إلى جملة الوسائل والترتيبات المتوفرة للحصول على الأشياء المادية وسبل إنتاجها واستعمالها للاستهلاك الشخصي أو الجماعي. وبهذا المعنى فإن جميع المجتمعات، بغض النظر عن حجمها والتكنولوجيا التي تمتلكها ومؤسساتها السياسية، تضم نظاماً اقتصادياً - أي مجموعة من الترتيبات البنوية لتوفير المعيشة. مقابل ذلك فإن المعنى الشكلي "للاقتصادي" يشمل الميل إلى الاقتصاد أو التوفير - الاختيار ما بين البدائل لغرض تعظيم الإنتاج إلى أقصى حد وكذلك الأرباح والكسب من عملية التبادل، أو التقليل من كلفة إنتاج الأشياء ضمن سياق "الندرة" المادية بالنسبة لما يسميه الاقتصاديون الشكليون الطلب على المواد النادرة. إن مفهوم الاقتصاد الحقيقي، الذي ينتظم دراسات بولاني، ساهم كثيراً في دمج دراسة الاقتصاد مع دراسة المجتمع. (المعلومات الواردة في هذا الهامش مستقاة من الانسيكلوبيديا العالمية للعلوم الاجتماعية International Encyclopedia of the Social Sciences، الجزء 12، ماكميلان و فري بريس، 1968.

كانت أشبه بهجوم عميق على اقتصاد السوق، كونه وسيلةً تنطوي على خللٍ أساسي في تنظيم الحياة الاقتصادية، وفي إشباع حاجات الناس المادية والاجتماعية والنفسية. كانت المحاضرات في جملتها تأصيلاً تاريخياً قوياً للفكرة الأساسية التي انتظمت كتاب پولاني الشهير **التحول العظيم**⁴ والتي تقول أن الجزء الأكبر من التاريخ الحديث يتمحور على جهود الناس لحماية أنفسهم والنظام الاجتماعي - اعتماداً على الدولة الى هذا الحد أو ذاك ولكن ليس اعتماداً كلياً - من الآثار المُمزقة لقوى السوق.

بدأ پولاني البحث المنظم في طبيعة الحياة الاقتصادية وبنيتها المؤسساتية في المجتمع القبلي. وكانت أطروحته الأولى تقول إن الدافع التملكي - نزوع الفرد للحصول على الأشياء المادية - لم تكن القوة الموجهة للحياة الاقتصادية في المجتمعات القبلية. إن الاقتصاد الشكلي الذي تتأسس عليه النظرية الاقتصادية الحديثة يقوم على فرضية نزعة التملك الفردي، لكن الاقتصاد الحقيقي للمجتمعات القبلية كان يقوم على أسسٍ أخرى.

ضمن هذا السياق قدّم پولاني ثلاثيته الشهيرة عن أشكال التكامل الاقتصادي: المبادلة reciprocity، إعادة التوزيع، والتبادل السوقي. فكل واحد من هذه الأشكال كان ملازماً لنمطٍ أوسع للتنظيم الاجتماعي: المبادلة (القائمة على المساواة) كانت ملازمة للثنائية في التنظيم، إعادة التوزيع مع التوجه نحو المركز، والتبادل السوقي مع الفردية الذرية. كان التكامل الاقتصادي القائم على المبادلة وإعادة التوزيع من ميزات المجتمع القبلي، في حين أن التبادل السوقي لم يصبح سائداً في الحياة الاقتصادية إلا مع نهوض الرأسمالية في التاريخ الحديث. إن الاقتصادات القبلية لم تعرف التبادل السوقي إلا في التعامل مع الغرباء من خارج القبيلة.

كانت دوافع المبادلة وإعادة التوزيع في المجتمعات القبلية تتمحور حول صياغة وإبقاء النظام الاجتماعي: أي ضمان استمرار وتعزيز العلاقات القائمة على القرابة والصداقة والتعاون ورئاسة القبيلة وغيرها من العلاقات الاجتماعية التي كان النشاط الاقتصادي مرتكزاً عليها. فإنتاج المنتجات واستهلاكها كان

⁴ Great Transformation نشر الكتاب لأول مرة عام 1944 وأعيد نشره عام 1957. (المترجم).

يجري ضمن بنى مؤسساتية توفر القنوات لتقديم الهدايا ودوران المنتجات من السلطة أو البنية المركزية واليهما. أما تخصيص الموارد، بما فيها الجهد البشري، فإنه كان قائماً على مؤسسات اجتماعية وعلاقات اجتماعية على الضد من تخصيص الموارد بفعل قوى السوق التي لا علاقة لها بالاعتبار الشخصي - كما هو الحال مع اقتصاد السوق الحديث.

كان ذلك أول درس عميق ثاقب النظر من محاضرات پولاني. إن حقيقة كون الحياة الاقتصادية - غير القائمة على السوق - كانت مرتكزة على المؤسسات الاجتماعية أدت إلى بروز دوافع وقيم مختلفة عن الدوافع والقيم المرتبطة باقتصاد السوق. فالبنى المؤسساتية هي، بمعنى ما، مستودع ومكن لقيم النظام الاجتماعي. فتربية المجتمع للناشئة لاحتلال موقعهم في النظام الاجتماعي كانت منصباً على المعايير الأخلاقية والقيم الخلقية المتجسدة في البنية المؤسساتية. فالمنتجات تنطوي على "قيمة" ليس لكون هذه القيمة نتيجة تثمين للمنتجات في السوق بل لأن المنتجات جزء من شبكة العلاقات الاجتماعية والعضوية. وكذلك الوظائف والمهن، فهي تنطوي على "قيمة" ليس بفضل مردودها النقدي بل بفضل موقعها في البنية المؤسساتية والنظام الذي يحكم المنزل الاعتبارية وشرف هذه المنزل. لقد كان پولاني مهتماً في هذه المحاضرات بإبراز التباين بين قيم أنظمة المجتمعات غير السوقية والقيم المادية النقدية لاقتصاد السوق الحديث.

ونبه پولاني أيضاً إلى الفصل بين اقتصاد الكفاف subsistence economy والاقتصاد القائم على المنزل الاجتماعية status economy للمجتمع القبلي والذي سمّاه بالاقتصاد المنحل pseudo-economy. وكمثال على ذلك أشار إلى تجارة الكيولا kula في جزيرة تروبريان، والتوزيع السخي للهدايا بين بعض قبائل الهنود الحمر في الساحل الشمالي الغربي للولايات المتحدة، وكذلك الجمعيات السرية الشائعة في كل مكان.

في العديد من الحالات كان أبناء الرئيس الأول للقبيلة أو الرئيس الثانوي أو العوائل القائدة يرثون الجاه ومنزلة الشرف، إلا أن هذه الوراثة كانت تخضع للتصديق من خلال تنظيم احتفالات إعادة توزيع الأشياء. وفي حالات أخرى، كان الحصول على المنزل

والجاء والاحترام يتم من خلال الاشتراك في الوظائف المرتبطة بالمؤسسات التراتبية. أما إنتاج المواد الأساسية (القوت والملابس والسكن) فهو من وظيفة مؤسسات أخرى قد تتصف بدرجة عالية من المساواة رغم أن النظام الذي يتحكم بالمنزلة الاجتماعية يقوم على التراتب.

وكان ذلك الدرس الثاني العميق لـبولاني. فالندرة والوفرة مرتبطتان بالعلاقة المؤسساتية ما بين ضرورات العيش والمنزلة. فاستهلاك المنتجات المرتبطة بضرورات العيش يتحدد بالطاقة للناس على استهلاكها واستيعابها. وبهذا المعنى، رغم أن بولاني لم يلجأ إلى استخدام مصطلح "المنفعة الحدية"، فإن الاكتفاء أو الأشباع يتناقض مع كل وحدة من هذه المنتجات، وبالتالي فإن هناك حداً لتطور الأشباع. مقابل ذلك فإن المنزلة لا يحدها أي ضابط مادي لأنها تعتمد على موقع الشخص مقارنة بالأشخاص الآخرين. فالمرء يستطيع دائماً أن يزيد من الفجوة التي تفصله عن أولئك ممن هم في منزلة أدنى في السلم التراتبي، أو يقلص من هذه الفجوة، وقد يتجاوز أولئك الذين هم في مرتبة أعلى منه.

يمكن القول، إذًا، إن فصل استهلاك الفرد من المنتجات عن منزلته الاجتماعية، كلياً أو جزئياً، يجعل إنتاج وفرة من المنتجات الضرورية أمراً ممكناً لأن نمط التوزيع قائم على المساواة إلى هذا الحد أو ذاك، لكن الواقع في اقتصاد السوق الحديث هو أن المنزلة تعتمد على نجاح الشخص في السوق، وعلى مراكمة الثروة كمؤشر على هذا النجاح. وتتخذ المنتجات الاستهلاكية الصفات المرتبطة بالمنزلة الاجتماعية والجاه، وتصبح جزءاً من النزوع نحو المزيد من الجاه والأبهة. وبما أن هذا النزوع غير قابل للإشباع فإن المرء لا يستطيع مراكمة ما يكفي منهما. فالمأكل والملبس والمسكن - وهي منتجات استهلاكية - تصبح نادرة قياساً بالطلب، غير القابل للإشباع، عليها. اعتماداً على هذه الحجة استطاع بولاني تبين أن الفرضيتين الأساسيتين لعلم الاقتصاد الحديث (فرضية الندرة وفرضية النمط السلوكي التملكي) ليستا كامنتين في الطبيعة أو في سيكولوجية الإنسان، بل انهما مشتقتان من أساليب مأسسة النشاط الاقتصادي.

وكان هذا ثالث درس عميق لـبولاني. فبالإمكان تغيير العالم، فنحن غير مرغمين باسم الطبيعة البشرية أو النظام الطبيعي

للعيش في عالم الندرة وفي مجتمع يحت على الامتلاك والمادية، فهذه ما هي إلا شروط وأوضاع هي نتاج لبنية التنظيم الاجتماعي ومسار تطورها التاريخي.

أعتمد پولاني كثيراً على كتابات Richard Thurnwald في تصوره لتطور المؤسسات الاقتصادية من اقتصاد الصيد والتقاط الثمار الى الإمبراطوريات القديمة. لن أعرض التفاصيل هنا، إلا أن من المناسب إبراز بعض الأفكار الأساسية. هناك خط متواصل في التطور يمتد من اقتصادات الصيد والجمع، القائمة إلى حد كبير على العلاقات الاقتصادية التبادلية (المقايضة)، إلى العلاقات القائمة على إعادة التوزيع في الإمبراطوريات القديمة. فعلى سبيل المثال، يستطيع الصيادون الذكور التحول إلى رعاة متنقلين في حين تستمر النساء في نشاط التجميع. أو يمكن للبستنة gardening أن تتطور من خلال التجميع. وباختصار، فإن بالإمكان تصور تنوع كبير في الجمع بين أنشطة مختلفة.

تمثل التطور الأساسي في نظر پولاني في غزو القوام التي على البستنة للرعاة الرحل، هذا التطور هو الذي جعل الزراعة القائمة على الحراثة ممكناً، وكذلك من خلال التوليف بين قوة الحيوان وتكنولوجيا البستنة. نشأ من خلال ذلك مجتمعات تراتبية قائمة على إعادة التوزيع حيث تقوم الأرستقراطية باستهلاك الفائض الاقتصادي الزراعي للفلاحين التابعين. وأصبح هذا الفائض قاعدة لقطاع تجاري-حضري يقوم إلى حد كبير على تجارة المنتجات الكمالية للأرستقراطية.

وتطور في تلك الحضارات الأولى إيقاع تاريخي. فقد أدت مركة السلطة إلى ظهور السلالات الإمبراطورية الحاكمة، التي كانت تنهار فتصبح السلطة لامركزية يتقاسمها حكام الأقاليم، ومن ثم يعاد تجميع هذه السلطة اللامركزية في إمبراطورية ذات مركز موحد وتحت قيادة قائد آخر أو سلالة جديدة من الحكام. وباختصار، فالإمبراطورية تتحول إلى الإقطاعية التي تتحول بدورها إلى الإمبراطورية لتنتهي مجدداً إلى الإقطاعية. هكذا كانت الدورة التاريخية. ولكن بغض النظر عن البنية السياسية، فإن هذه الأنظمة كانت قائمة على استحواد الأرستقراطية على

الفائض الاقتصادي للفلاحين التابعين، وإعاشة المراكز الحضرية التي كانت مشغولة الى حد كبير في تجارة المنتجات الكمالية عبر البلدان. لقد كان هذا اقتصاد كل العالم المتحضر، مع بعض الفروق، ذلك العالم الذي امتد من أوروبا الغربية مروراً بحوض البحر الأبيض المتوسط الى جنوب آسيا والشرق الأقصى حتى اليابان. وقد استمر هذا الاقتصاد حتى القرن الخامس عشر. فباستثناء أوروبا الغربية توقف التطور عند هذا الحد. فلم تكن هناك قوى داخل الاقتصاد أو السياسة قادرة على تحويل المراكز الحضرية نحو اقتصاد السوق لتكون هذه المراكز العنصر الرابط والمُوحد للنظام الاجتماعي، وذلك من خلال استبدال بنية إعادة التوزيع redistributive structure لما كان الفلاحون يقدمونه للسيد أو الإقطاعي. إلا أن التغيير في أوروبا الغربية لم يأتِ كنتيجة بسيطة لعملية تطور طبيعي. لقد مر توحيد ودمج اقتصاد أوروبا الغربية المتمركز على علاقات السوق بمرحلة من التطور المعقد. فمن ناحية، كان النظام الإقطاعي في أوروبا الغربية مختلفاً عن حضارات الشرق: ففي أوروبا الغربية كانت العلاقات القرابية لا تُشكّل إلا عنصراً ضعيفاً لا أهمية له في البنية الاجتماعية. فبعد الهجرة الواسعة للقبائل عشية نهاية الإمبراطورية الرومانية استبدلت العلاقات العصبوية، الى حد كبير، بيمين الولاء. لم يحدث مثل هذا التحول في حضارات الشرق، إذ بقيت علاقات القرابة والقبيلة والعشيرة محافظة على قوتها كعناصر موحدة للبناء الاجتماعي. ففي أوروبا الغربية، عندما ضعفت الروابط الإقطاعية واختفت، لم يبقَ أمام هيمنة قوى السوق أية قوة أخرى.

لقد أشار پولاني في دراسته الى كل الأسس لنهوض وصعود الرأسمالية: فحركة النهضة والإصلاح الديني جرّت الى تغييرات في منظومة القيم المستحسنة والمقبولة ثقافياً، ومنحت نزعة التملك مشروعية أخلاقية. وساهمت الأساليب الحربية الجديدة في تمكين الأوروبيين من السيطرة على المراكز التجارية في شرق البحر الأبيض المتوسط أثناء الحروب الصليبية وبعدها. وجرى، الى حد كبير، تمويل التحالف السياسي الاقتصادي بين الملوك والتجار والفلاحين ضد طبقة النبلاء، أصحاب الأرض، من أرباح التجارة مع الشرق. واستهدفت السياسات الوطنية ترويج التجارة والتبادل التجاري والاستكشاف من أجل الكسب، بالنسبة للتجار، ومن أجل الدخل، بالنسبة للملوك.

في ثنايا هذه الدراسة كان هناك اهتمام متساوٍ لدور النشاط الحكومي في تحطيم القيود الفئودالية على توزيع واستعمال رأس المال والأرض والعمل ودور قوى السوق المؤثرة. لقد كان النقاش منصّباً على ركنين أساسيين: استخدام نشاط الدولة لدعم نمو أسواق لعناصر الإنتاج، ومساعدة اقتصاد السوق النامي في تحطيم المؤسسات الفئودالية الاقتصادية والسياسية. ويمكن القول بأن نهوض اقتصاد السوق كان تطوراً ثورياً "مصطنعاً"، يوجّهه الطمع والقوة. وكان هذا هو الدرس الخامس الكبير الذي خرج به پولاني.

كان العنصر الأساسي في صعود الرأسمالية يكمن في تحويل الأرض والعمل ورأس المال إلى سلع قابلة للتداول في السوق. فقد حررت الأرض من القيود الفئودالية إلى حد كبير من خلال النشاط الحكومي أثناء الثورة الزراعية. كما أن رأس المال، القائم على أرباح التجارة والغزو، حوّل إلى المراكز التجارية لأوروبا وخصص لاستخدامات توفر فرصة كبيرة للربح. وكان سوق العمل العنصر الأخير، في سوق عناصر الإنتاج، في التطور، ولم يظهر مكتملاً إلا مع بدايات القرن التاسع عشر في إنجلترا. فالعمال الذين طردوا من الأرض، أثناء الثورة الزراعية التي وفرت الوسيلة للزيادة الكبيرة في عدد السكان، لم يجدوا مكاناً آخر يذهبون إليه سوى سوق العمل المتنامي.

لقد أكد پولاني على أن الأرض ورأس المال والعمل هي العناصر الثلاثة الضرورية في بناء المجتمع. فهي ضرورية لرزق الناس، ولوظيفة العائلة، والمجموعات المدنية التي ينتمي إليها الناس، وكذلك ديمومة النظام الاجتماعي. وعندما تتحول هذه العناصر إلى سلع - سلع زائفة في مصطلح پولاني - فإن كامل النظام الاجتماعي، بما فيه الأفراد والعائلة والمجموعات التي ينتمي إليها الفرد والقيم الخلقية والمعايير الأخلاقية، تتوطن كلها داخل قوى السوق وتخضع في ذات الوقت لهذه القوى. وكان هذا هو الدرس الأخير الكبير لبولاني.

وهنا تنتهي محاضرات پولاني عن التاريخ الاقتصادي. لقد قامت البشرية بالتحول من المجتمع إلى الاقتصاد، من الصيد وجمع الثمار إلى التجارة والصناعة، ومن العلاقات الاجتماعية والتبادل

وإعادة التوزيع الى فردية ومادية السوق. لقد أتسمت عملية التحول بزيادة كبيرة في الثروة المادية إلا أن هذه الزيادة كانت قائمة على صفقة فائستية. فقد أبرز السوق مجموعة من الدوافع والقيم والمعايير الخلقية لتحل محل علاقات العصبية، والصدقة، والتعاضد الاجتماعي التي اقترنت ببدايات عملية التحول.

لقد أثارت محاضرات پولاني عن التاريخ الاقتصادي أسئلة ذات دلالات عميقة عن طبيعة المجتمع الحديث وشروط الوجود الإنساني، وشكلت هجوماً على فلسفة دعه يمر دعه يعمل [عدم تدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية] ومنطق هذه الفلسفة. كما وفرت المبرر لتدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية لحماية المجتمع من النتائج المدمرة للسوق، ومن أجل توزيع الدخل والثروة والقوة بوعي اجتماعي وعلى أساس من المساواة. حقاً، لقد كانت هذه النظرة راديكالية للماضي والحاضر.

وتبقى مؤلفات پولاني مناسبة لزماننا. ويضحك المرء عندما يسمع الرئيس بوش ومحافظي الحزب الجمهوري يعظمون السوق الحر وما يسمونه بـ"القيم العائلية"، ذلك لأن ما يعرض القيم العزيزة عليهم للخطر أكثر من غيرها هي قوى السوق، في حين أن تدخل الدولة الذي يحتقرونه ما هو إلا جهداً يراود منه حماية الناس والعوائل والمجموعات البشرية الأخرى من آثار قوى السوق هذه. وربما يكون هذا هو أهم الأفكار التي تنتظم مؤلفات پولاني.

ستيفن هايمر: روبنسون كروزو وسر التراكم البدائي

"كل كائن حي هو إمبريالي من نوع ما، يسعى إلى تحويل أكبر قدر ممكن من البيئة لذاته ولذريته."

برتراند راسل

ملاحظة حول التراكم البدائي

يستخدم كلمة "بدائي" هنا بمعنى "الانتماء إلى العصر الأول، الفترة الأولى، أو المرحلة الأولى"، أي أنها "أصلية وليست مشتقة"، وليس بمعنى "بسيط، فظ، أو خشن". المصطلح الأصلي عند ماركس كان "akkumulation ursprüngliche"، وكما يقترح بول سويزي [1910-2004]، كان من الأفضل ترجمته على أنه التراكم "الأصلي" أو "الأولي". ولكن فات أوان تغيير الاستخدام الحالي، وكلمة "بدائي" ينبغي أن تُفسر بالمعنى التقني، كما هو الحال في الرياضيات، حيث أن الخط أو الشكل البدائي هو عبارة عن خط أو شكل "يبدأ منه البناء أو الحساب". وفي علم الاقتصاد فإن "التراكم البدائي" يشير إلى الفترة التي بدأ فيها ظهور التراكم الرأسمالي. لم يكن التراكم بسيطاً، على الرغم من أنه كان فظاً وخشناً.

الشخصية المنفردة والمعزولة لروبينسون كروزو غالباً ما تُتخذ كنقطة انطلاق من قبل الاقتصاديين، خاصة في تحليلهم للتجارة الدولية. فهو يُصوّر بمثابة فرد قوي - دؤوب، ذكي، وقبل كل شيء مقتصد - تغلب على الطبيعة من خلال العقل. ولكن القصة الحقيقية لروبينسون كروزو، كما رواها ديفو، هي أيضاً قصة الغزو، والعبودية، والسرقة، والقتل، والقوة. وليس مستغرباً تجاهل هذا الجانب من القصة على الإطلاق، "ففي السجلات الناعمة للاقتصاد السياسي تسود المثالية منذ زمن سحيق". التناقض بين روبنسون كروزو الحقيقي وكما يصوره الاقتصاديون يعكس التناقض بين الوصف الميثولوجي للتجارة الدولية كما يرد في كتب الاقتصاد المدرسية والحقائق الفعلية لما يحدث في الاقتصاد الدولي.

إن نموذج نظرية التجارة الدولية غير الماركسية هو نموذج الصياد hunter وصياد السمك fisherman الذين يتاجران لتحقيق منفعة متبادلة لكليهما في ظل ظروف من المساواة، والمعاملة بالمثل، والحرية. ولكن غالباً ما تقوم التجارة الدولية (أو، بالنسبة لهذه المسألة، التجارة بين الأقاليم)

على التقسيم بين المتفوق والتابع بدلاً من التقسيم بين طرفين متساوين، وهو تقسيم يمكن أن يكون أي شيء إلا أن يكون سلمياً. فهي تجارة بين المركز والمناطق النائية، بين المستعمرين والمستعمرين، بين الأسياد والعبيد. وهي مثل العلاقة بين رأس المال والعمل، لأنها تقوم على تقسيم المهام بين الأعلى والأدنى: أحد الطرفين يقوم بالتفكير والتخطيط والتنظيم؛ والآخر يقوم بالعمل. ولأنها غير متكافئة في البنية والأجر reward يتوجب إنشاؤها والإبقاء عليها بالقوة، سواء كان ذلك من خلال العنف الهيكلية للفقر، والعنف الرمزي للتنشئة الاجتماعية، أو العنف الجسدي للحرب والتهدة.

في هذا المقال أود مراجعة تفاصيل قصة كروزو¹ - بادئاً كتاجر للعبيد، وكيف استخدم فائض الآخرين للحصول على ثروة - وذلك من أجل توضيح تحليل ماركس للاقتصاد الرأسمالي، وخاصة فترة التراكم البدائي التي كانت نقطة انطلاق لها.

لكي يتحقق التراكم الرأسمالي، يجب أن يلتقي نوعين مختلفين من الناس في السوق (وفيما بعد في عملية الإنتاج)؛ من ناحية، أصحاب المال الحريصين على زيادة رأسمالهم عن طريق شراء قوة عمل الآخرين؛ من ناحية أخرى، عمال أحرار غير مُتقلين بالالتزامات ما قبل الرأسمالية أو الملكية الشخصية personal property. ومتى ما وطّدت الرأسمالية أقدامها، فإنها تحافظ على هذا الفصل وتقوم بإعادة إنتاجه على نطاق يتوسع باستمرار. ولكن هناك حاجة إلى مرحلة سابقة لتمهيد الطريق للنظام الرأسمالي والبدء بها - فترة من التراكم البدائي.

في الجزء الأخير من المجلد الأول من رأس المال، رسم ماركس العملية التاريخية التي تمّ من خلالها تركيز وسائل الإنتاج في يد الرأسمالي، تاركة العامل بدون بديل سوى العمل لديه. وبين كيف تم خلق العمل المأجور من خلال نزاع ملكية السكان الزراعيين وتتبع نشأة الرأسمالي الصناعي وقيامه، من بين أمور أخرى، بنهب أفريقيا، وآسيا، وأمريكا "في بداية عصر الإنتاج الرأسمالي". وفي قصة روبنسون كروزو، يصف ديفو كيف استطاع رجل إنجليزي في القرن السابع عشر جمع رأس المال ونظم قوة عمل للعمل لديه في البرازيل ومنطقة البحر الكاريبي. بالطبع إن ما أنشأه كروزو لم يكن اقتصاد السوق كالذي ظهر في إنجلترا ولكن اقتصاد المزارع والمستوطنين

¹ نشرت الرواية في العام 1719 بعنوان:

The Life and Strange Surprising Adventures of Robinson Crusoe, of York, Mariner

كالذي كان يستخدم من قبل الرأسمالية في العالم غير الأوروبي. وبالتالي يمكن أن يطلق عليه قصة التخلف البدائي.⁽¹⁾

لقد كان ديفو (1659-1731) في وضع جيد بشكل خاص لمراقبة وفهم جوهر البرجوازية الصاعدة وأسرار أصولها. فهو ابن جزّار في لندن، اشتغل كوكيل تجاري في أعمال الجوارب والملابس الداخلية، وعمل تاجراً بالعمولة لحين إفلاسه. كتب خلال حياته العديد من المقالات والكراسات حول الاقتصاد، ناقش فيها، من بين أمور أخرى، مسائل تتعلق بالبنوك، وإدارة الطرق، والجمعيات الأخوية والتأمينية، وملاجئ المعطوئين، والإفلاس، والأكاديميات، والكلبيات العسكرية، وتعليم المرأة، وبرامج الرعاية الاجتماعية، وورش العمل الوطنية. وكان واحداً من أوائل الكتاب في الاعتماد على السوق المتنامية للطبقة الوسطى لكسب عيشه.⁽²⁾

(1) رأسمال التجار

Merchants' Capital

يمكن أن تروى قصة روبنسون كروزو باعتبارها سلسلة من الدورات cycles، بعضها تعمل في نفس الوقت، يُراكم من خلالها رأس المال. في الأيام الأولى تأخذ هذه الدورات شكل 'M-C-M'، أي إنه [روبنسون] يبدأ بالنقود، ويبادل النقود بالسلع، وينتهي مع مزيد من النقود. في مراحل لاحقة عندما يكون خارج الاقتصاد النقدي، فإنها تأخذ شكل C-L-C، حيث يستخدم مخزونه من السلع للسيطرة على عمل الآخرين، وإنتاج المزيد من السلع، لينتهي بتأسيس إمبراطورية صغيرة.

ولد روبنسون كروزو عام 1632. كونه ابن تاجر، كان بإمكانه أن يختار مهنة وسطية في الحياة [كونه ينتمي للطبقة الوسطى] middle station of life ويكون ثروته "من خلال الانكباب على العمل والكد، مع حياة الراحة والمتعة". لكنه بدلاً من ذلك اختار أن يسلك سبيل البحر – من أجل المغامرة، جزئياً، وبدافع الجشع.

يبدأ روبنسون كروزو أول رحلة له بمبلغ 40 جنيه استرليني من "اللعب والأشياء التافهة"، متوجهاً نحو سواحل غينيا (كرفيق على مائدة قبطان السفينة mess-mate ومرافق له companion والذي تصادق معه في لندن)، ويعود بخمس أرطال وتسع أونصات من الذهب قيمتها 300 جنيه

استرليني. هذه هي الدائرة الأولى من رأسماله. يودع 200 جنيه استرليني من هذا المبلغ في انجلترا مع أرملة القبطان (توفي القبطان بعد فترة قصيرة من عودتهما) ويستخدم الـ 100 جنيه المتبقي كرأس مال جديد، وينطلق في رحلة ثانية كتاجر في غينيا من أجل كسب المزيد من رأس المال. ولكن بدلاً من ذلك يتعرض لكارثة إذ يستولي المغاربة Moors² على السفينة ويصبح عبداً في شمال أفريقيا. وينجح في الهروب من العبودية في قارب أخذه من سيده، يرافقه عبد آخر، زوري Xury، رجل أسود، الذي يعده بالقول: "زوري، إذا كنت ستكون وفيّاً لي، فإنني سأجعلك رجلاً عظيماً". يبحر الاثنان معاً لمسافة ألف ميل على طول الساحل الأفريقي إلى أن يلتقيان بقبطان برتغالي يقوم بإنقاذهما.

ولحسن حظ روبنسون، هناك شرفٌ بين الرأسماليين. فالقبطان، الذي هو في طريقه إلى البرازيل، يشعر أنه سيكون من الظلم أن يأخذ كل شيء من روبنسون ليقلّه إلى البرازيل ويتركه مفلساً. "لقد أنقذت حياتك بدون شروط أخرى غير تلك التي سأكون سعيداً ليتم بها إنقاذي ... عندما أفلك إلى البرازيل، البعيدة جداً عن بلدك، وكان عليّ أن آخذ منك ما لديك، فسوف تجوع هناك، وبعد ذلك أكون قد سلبتك الحياة التي أعطيتها لك."

روبنسون بالطبع لا يقول للقبطان إنه لا يزال يملك 200 جنيه استرليني في انجلترا. بدلاً من ذلك، يبيع سفينته الصغيرة للقبطان (أي السفينة التي هرب بها) وكل ما فيه، بما في ذلك زوري. الأفريقي يظل أفريقياً، ولا يصبح عبداً إلا في شروط معينة. يعاني روبنسون شعوراً بالذنب لبيعه "حرية الصبي الفقير [زوري] الذي ساعدني بإخلاص للحصول على حريتي." ومع ذلك يعرض القبطان عتق زوري في عشر سنوات إذا أصبح مسيحياً. "بناءً على هذا، واستعداد زوري للذهاب معه [القبطان]، سمحت للقبطان أن يكون زوري له [يمتلكه]" (مقابل ستين قطعة من العملة الثمانية sixty pieces of eight).³ السلع هي أشياء لا يمكن أن تذهب

² للتعريف باستعمالات هذا الاسم راجع:

<https://en.wikipedia.org/wiki/Moors#:~:text=The%20term%20Moor%20is%20an,to%20Arabs%20and%20Arabized%20Iberians.>

³ العملة الثمانية Pieces of eight هي عملات معدنية تاريخية بالدولار الإسباني تم سكها في الأمريكيتين من أواخر القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر. كانت مصنوعة من الفضة، وكانت متداولة في جميع أنحاء العالم تقريباً بحلول أواخر القرن التاسع عشر وكانت عملة قانونية في الولايات المتحدة حتى عام 1857. كانت عملة الدولار الإسباني تساوي ثمانية ريالات reales ويمكن تقطيعها فعلياً إلى ثماني قطع أو "بتات" bits. للحصول على وحدات صغيرة [فكه] - ومن هنا جاءت التسمية العامية "قطع ثمانية". يمكن أيضاً تقطيع عملة

إلى السوق بذاتها. لذلك يجب أخذها للسوق. وإذا كانت غير مستعدة لذلك، يمكن إجبارها عليه.

يصل روبنسون إلى البرازيل حيث يقوم بشراء "أكبر قدر ممكن من الأراضي غير المستصلحة التي يمكن لأموالي الوصول إليها، ورسمت خطة لمزرعتي ومستوطنتي وخاصة تلك التي تتناسب مع المواد [السلع] التي كنت أنتظر استلامها من إنجلترا." وسرعان ما يكتشف "أكثر من ذي قبل، بأنني أخطأت في التخلي عن الصبي زوري،" لأنه بحاجة إلى المساعدة ووجد أنه "لا يمكن القيام بأي عمل إلا بعمل يدي."

يرسل روبنسون رسالة إلى الأرملة في إنجلترا من خلال صديقه القبطان البرتغالي مع تعليمات بإرسال نصف الـ 200 جنية إسترليني له بشكل بضائع. يأخذ القبطان الرسالة إلى لشبونة حيث يسلمها لبعض التجار من لندن لتوصيلها إلى لندن. وتقوم الأرملة بإعطاء المال لتاجر في لندن "لاستثمار المائة جنية إسترليني هذه في سلع إنجليزية، كما هو مثبت لدى القبطان، وإرسالها له مباشرة في لشبونة، وتوصيلها سالمة لي في البرازيل؛ ومن بينها، ودون توجيه مني (إذ كنت حديث السن جداً في عملي للتفكير بهذه السلع)، قيامه [القبطان] بانتقاء جميع أنواع الآلات، والأدوات الحديدية، والأواني اللازمة لمزرعتي، والتي كانت ذات فائدة كبيرة بالنسبة لي."

تصل البضائع ويتحقق بفضلها ثروة كبيرة لروبينسون. لقد استعمل القبطان البرتغالي الجنيهات الخمسة التي قدّمها له الأرملة لشراء هدية وتقديماً لروبينسون، "خادم مستعبد للخدمة ست سنوات، ودون أي مقابل باستثناء القليل من التبغ الذي سأقنعه بقبوله، كونه من محصولي الخاص." وعلاوة

الدولار إلى أربع، وأصبحت "البنتان" في اللغة العامية الأمريكية معادلة لربع دولار، أو 25 سنتاً. إن الدولار الأمريكي المستخدم اليوم يعتمد على الدولار الإسباني.

لطالما ارتبطت هذه العملات بالقرصنة، لأنها كانت هدفاً مشتركاً للخارجين عن القانون، حيث كانت تشحن كميات كبيرة منها بانتظام من المستعمرات الأمريكية إلى إسبانيا. بالإضافة إلى ذلك، كان التجار الإسبان ينقلون العملات إلى ماينلا في الفلبين مرة أو مرتين في السنة للتجارة بالسلع الصينية. وقد أصبح العديد من القرصنة أثرياء بفضل اعتراضهم السفن التي تحمل قطعاً من ثمانية. غالباً ما يُقال إن كنوز القرصنة المدفونة تتضمن العملة المعدنية.

كانت العملة المعدنية المكونة من ثمانية قطع شائعة في المستعمرات البريطانية بأمريكا لأن العملة البريطانية كانت محدودة. بعد حصول الولايات المتحدة على الاستقلال، ظلت العملات المعدنية عملة مستخدمة على نطاق واسع. على الرغم من أن الولايات المتحدة بدأت في سك عملاتها المعدنية في عام 1792، ظل الدولار الإسباني ذو الجودة الأفضل هو العملة الأكثر شعبية في البلاد حتى أنهى الكونجرس استخدامه في عام 1857.

على ذلك، كان روبنسون قادراً على بيع السلع الإنجليزية في البرازيل "بفائدة كبيرة جداً" وأول شيء يفعله هو شراء عبد أسود وخادماً ثانياً مستعبد للخدمة.

هذه السلسلة من المعاملات تفترض شبكة اجتماعية رأسمالية معقدة متداخلة. روبنسون الأسطوري يُصوّر كفرد مكتفي ذاتياً، ولكن الكثير من القصة الفعلية، حتى بعد غرق السفينة، تظهره كرجل تابع *dependent* ينتمي إلى مجموعة أكبر يعتمد دائماً على مساعدة وتعاون الآخرين. ويتبين أن الطبيعة الاجتماعية للإنتاج هي الرسالة الحقيقية لقصته كما سنرى مرة تلو الأخرى. وليس هناك مفارقة حقيقية في هذا المجال. فإنتاج العلاقات الاجتماعية الأكثر تطوراً في التاريخ وإنتاج الفرد المنعزل كلاهما ينتميان للرأسمالية.

يدمج روبنسون نفسه الآن في المجتمع باعتباره مزارعاً ناجحاً وينتج التراكم باطراد. لكنه لا يمكن أن يكون قانعاً وسرعان ما يترك "وجهة النظر السعيدة بكوني رجلاً غنياً ومزدهراً في مزرعتي الجديدة، جرياً وراء رغبة متهورة ومتطرفة للصعود بشكل أسرع مما تسمح به طبيعة الشيء."

كانت المزارع في البرازيل تنقصها العمالة، وذلك لأنه "لم يُلجَب إلا عدد قليل من الزوج، وكانت أثمانهم مفرطة" إذ أن تجارة العبيد في ذلك الوقت لم يكن قد تطور كثيراً وتسيطر عليها الاحتكارات الملكية لملوك إسبانيا والبرتغال. وقد ذكر روبنسون لبعض الأصدقاء رحلته إلى ساحل غينيا وسهولة الشراء هناك "مقابل أشياء تافهة ليس فقط لغبار الذهب ولكن الزوج بأعداد كبيرة." (ملاحظة هامة. إن التفاهات المذكورة هي الخرز، ولعب الأطفال، والساكين، والمقصات، والفؤوس، وقطع الزجاج، وما شابه - هي ليست تفاهات باستثناء المادتين الأولين، كما سيكتشف روبنسون عاجلاً). هؤلاء الأصدقاء اتصلوا به سراً بشأن خطة لتجهيز سفينة للحصول على العبيد من ساحل غينيا ثم يتم بعدها تهريبهم إلى البرازيل بصورة شخصية ويوزعون بين مزارعهم الخاصة بهم. لقد طلبوا من روبنسون أن يكون "مشرفاً على حمولة السفينة *supercargo* لإدارة الجزء الخاص بالتجارة وعرضوا عليه حصة متساوية من الزوج دون تقديم أي جزء من البضاعة."

يقبل روبنسون بهذا العرض، وفي هذه الرحلة حصل حادث غرق السفينة الشهير. بعد سنوات، وفي أعماق العزلة، خطر له أن يتأسف على هذا

القرار الذي ينظر إليه كخطيئته الأولى: "عدم الرضى عن مكانته التي وضعها الله والطبيعة فيه."

ما الذي اضطرني إلى ترك ثروة مستقرة، مزرعة جيدة التجهيز، تتحسين وتنمو باستمرار، لأكون مشرفاً على حمولة سفينة متجهة إلى غينيا، لجلب الزنوج، في حين أن الصبر والوقت كانا سيزيدان مخزوننا في الوطن وكان بمقدورنا أن نشترىهم [الزنوج] من أولئك الذين يعملون على جلبهم؟ على الرغم من أنه قد يكلفنا شيئاً أكثر [شراء الزنوج من الغير]، ولكن الفرق في ذلك السعر وتوفيره بأي حال من الأحوال لم يكن يعادل مثل هذه المخاطرة الكبيرة.

في الواقع هو في هذا يسبق نفسه لأنه في نهاية القصة نجح روبنسون في تحقيق تراكم أسرع بكثير مما لو كان قد بقي قانعاً، لأنه يضيف ثروة جديدة من اقتصاد جزيرته لنمو مزرعته. صحيح، كان عليه أن يعاني لفترة طويلة من العزلة، ولكن من نواح كثيرة فإن إقامته الانفرادية تمثل الاغتراب alienation الذي يعاني منه الجميع في ظل الرأسمالية — أولئك الذين يعملون ويستلمون القليل [كأجور لقاء عملهم] وكذلك أولئك الأفراد مثل روبنسون الذي يجب عليه أن يحقق التراكم دائماً وعليه أن يتقدم ويتقدم.

(2) اقتصاد الجزيرة: الوضع ما قبل التجارة

Island Economy: The Pre-Trade Situation

إن العوامل الرئيسية في نجاة روبنسون كروزو والازدهار في جزيرته السعيدة ليست براعته وسعة حيلته ولكن المناخ اللطيف والمخزون الكبير للعمل المُجسّد embodied labor الذي يبدأ به. ففي ثلاثة عشر رحلة إلى سفينته المحطمة كان قادراً على تجهيز نفسه بأشياء كثيرة، مع مجموعة كبيرة من المواد والأدوات التي لم يصنعها بنفسه أبداً ولكنها صارت له للتمتع بها. استخدم هذه المواد للسيطرة على الطبيعة وعلى رجال آخرين. وكان الأكثر أهمية في هذا المخزون الأولي لوسائل الإنتاج هو الامدادات الوفيرة من البنادق والذخيرة، والتي منحتها ميزة حاسمة في تحديد معدلات التبادل التجاري عند فتح اقتصاد جزيرته أخيراً أمام التجارة.

كان روبنسون يدرك تماماً أهمية تركزته (انظر الجدول 1). فهو يتساءل: "ما الذي كنت أستطيع القيام به من دون بندقية، ومن دون ذخيرة، وبدون

أي أدوات لصنع أي شيء أو العمل بها، ومن دون ملابس، وفراش، وخيمة، أو أي شكل من أشكال الغطاء؟" "عن طريق الحكم الأكثر عقلانية على الأشياء فإن كل واحد يمكن، مع مرور الوقت، أن يكون مُعلماً لكل فن ميكانيكي. لم يسبق لي استعمال أداة في حياتي، ولكن مع الزمن، من خلال العمل، والتطبيق، والاختراع، رغم أنني لم أكن راغباً بشيء كان بإمكانني صنعه، خاصة إذا كانت لدي الأدوات." [التشديد مضاف من الكاتب]. الأوروبي هو الأوروبي فقط في ظل ظروف معينة يصبح سيداً. لم تكن السمات الشخصية لروبنسون والمغامرين الأوروبيين الآخرين وراء قوتهم في مواجهة غير الأوروبيين ولكن المعدات التي أحضروها معهم، قوة المعرفة المُحوّلة إلى أشياء. لقد كانت هذه القاعدة المادية نتيجة لتقسيم اجتماعي معقد للعمل الذي كانوا المستفيدين منه وليس الخالقين له.

الجدول (1) المواد التي أخذها روبنسون كروزو من حطام سفينة

ذخيرة، أسلحة، بارود، برميلان من رصاص البنادق، ما بين خمس إلى سبع بنادق، حقيبة كبيرة مليئة بالرصاص الصغير	مواد دفاعية
بسكويت، شراب الرّم، خبز، أرز، جبن، لحم الماعز، ذرة، خمور، دقيق، عصائر، حلويات، أعلاف للدواجن، قمح، بذور الأرز	أغذية
ملابس رجالية، مناديل، ربطات عنق ملونة، زوجين من الأحذية	ملابس
أرجوحة شبكية، أغطية فراش، أقلام، حبر، ورق، ثلاث أو أربع بوصلات، بعض أدوات رياضية، أقراص ساعات، مناظير، رسوم بيانية، كتب حول الملاحة، ثلاثة أناجيل	أثاث ومواد مختلفة
صندوق أدوات نجارة، ثلاثة أكياس مليئة بالمسامير، مسامير غليظة، مقبس لولبي كبير، رافعة لولبية، دزينة أو اثنتين من الفؤوس الصغيرة، مجلخة [حجر الشحذ]، منشارين، فأس، مطرقة، اثنتين أو ثلاث عتلات، اثنتين أو ثلاث شفرات حلاقة، مقص كبير، مجرفة النار وملقط، غلايتي نحاس أو اني نحاسية، مشبك للشوي	أدوات

مواد خام	حبال أشرعة وصواري، أشرعة كتانية، حبال صغيرة، حبال وأسلاك، مصنوعات حديديه، أخشاب، لوحات خشبية، اثنين أو ثلاثة قنطار من الحديد، وقنطار واحد من ألواح الرصاص
حيوانات	كلب، قطتان
أشياء يفقدها بشدة	حبر، مجرفة، معول، إبر، دبابيس، خيوط، غليون

كانت جزيرته غنية، ومرة أخرى يرجع الفضل في ذلك جزئياً إلى أنشطة أشخاص آخرين. يقوم بمسح جزيرته مع فهم قليل لأن معظم النباتات فيها كانت غير مألوفة له. ولا يتوصل إلى أي اكتشاف مستقل لكنه يجد بعض الأشياء المألوفة – الماعز، والسلاحف، والفواكه، والليمون، والبرتقال، والتبغ، والعنب – وأتصور أن العديد منها لم تكن موجودة هناك إلا بفضل زرعها من قبل زوار سابقين من جزر أخرى. اكتشافه للزراعة كان عَرَضِيًّا. فمن بين الأشياء التي أنقذها من السفينة كيس صغير كان ذات مرة مليئاً بالحبوب. لم يرَ روبنسون أي شيء في الكيس سوى القشور والغبار، ولأنه كان بحاجة للكيس لغرض آخر، هزه فسقطت القشور على الأرض. وبعد شهر أو نحو ذلك، ودون أن يتذكر بأنه ألقى القشور هناك، فإنه "اندهش تماماً" ليرى شعيراً ينمو.

يحاول كروزو، ضمن التقاليد الرأسمالية المُكَيِّفَة لتفكيره، تسجيل أنشطته "فما دام الحبر موجوداً كنت دقيقاً جداً في كتابة الأشياء؛ ولكن بعد أن نفذ، لم أستطع ذلك، لأنني لم أتمكن من صنع أي حبر بأي وسيلة استتبطتها." ويرسم تحليل التكلفة والعائد لوضعه، مشيراً فيه "بحيادية عالية كمدین ودائن، وسائل الراحة التي استمتعت بها، مقابل المآسي التي عانيت منها." ويجد يومه مقسماً إلى ثلاثة. فأمر الخروج مع بندقيته لا يستغرق سوى حوالي ثلاث ساعات، للحصول على طعامه. وينفق جزء آخر من يومه في ترتيب، ومعالجة، والحفاظ على [الأطعمة]، والطهي. وينفق الجزء الثالث على تكوين رأس المال، زراعة الشعير والأرز، وحفظ الزبيب، وصنع الأثاث وقارب، وهكذا دواليك.

قد يبدو هذا الشغف بالمحاسبة تأكيداً للصورة التي يرسمها عالم الاقتصاد لروبينسون بوصفه الإنسان العقلاني بامتياز، مُخصّصاً وقته بكفاءة بين الأنشطة المختلفة من أجل تحقيق أقصى منفعة. ولكن بعد ذلك تأتي هذه الملاحظة المذهلة "ولكن وقتي أو عملي لم يكن ذا قيمة كبيرة، وهكذا فإن

استخدامه سيكون جيداً، بطريقة واحدة أو أية طريقة أخرى!" وعلى عكس النماذج المعتادة في النظرية الاقتصادية، فإن روبنسون كروزو، الذي ينتج فقط للاستعمال وليس للتبادل، يكتشف أنه لا يوجد ندرة وأن العمل ليس له قيمة. إن القوة المُحرّكة للرأسمالية، الشغف الكامن وراء التراكم قد اختفى لديه عندما كان وحيداً "فكل ما يمكن الاستفادة كان له قيمة ... إن البخيل المقتّر، الأكثر طمعاً في العالم، كان سيشفى من رذيلة الطمع، لو كان في مثل حالتي."

إن تفسير روبنسون الخاص لهذه الظاهرة يقوم أساساً على الطلب. لأنه وحيد، فإن حاجاته محدودة ويتم اشباعها قبل أن يستنفد وقت العمل المتاح له:

كنت بعيداً عن كل شرور العالم هنا. لم يكن لي لا شهوة الجسد ولا شهوة العين أو غطرسة الحياة. لم يكن هناك شيئاً لأطمع به؛ إذ كان لي كل ما كنت الآن قادراً على الاستمتاع به. لقد كنت سيد المزرعة كلها؛ أو إذا رغبت، قد أسمى نفسي الملك، أو الإمبراطور على كامل أنحاء البلاد والتي كانت في حيازتي. لم يكن هناك أنداداً لي. لم يكن لدي أي منافس....

وهذا صحيح إلى حد ما، لكنه متحيّز. فجشع روبنسون اختفى بسبب عدم وجود الناس لتنظيمهم والسيطرة عليهم. كانت أطروحة ماركس أن العمالة الفائضة surplus labor هو المقياس والمصدر الوحيد للثروة الرأسمالية. فبدون وجود عمل شخص آخر للسيطرة عليه يتلاشى نظام القيمة للرأسمالي؛ فلا يوجد عطش لا حدود له للعمل الفائض ينشأ من طبيعة الإنتاج نفسها؛ إن أهداف الكفاءة والتعظيم [زيادة الإنتاج] والتراكم تلاشت في نظام أوسع من القيم.

وفي وقت لاحق، عندما تصبح جزيرة روبنسون مأهولة بالسكان، يعود الشغف بالتنظيم والتراكم. عندما لا يكون له سوى عمله الذي يسيطر عليه فإن العمل لا يتسم بالندرة ويتوقف عن قياس الأشياء من حيث وقت العمل [الداخل في إنتاجها]. وكما تبين إشارة روبنسون إلى البخيل، فإنه ليس مجرد مسألة الطلب على السلع الاستهلاكية. إن البخيل يراكم ليس للاستهلاك ولكن للتراكم، تماماً كما الرجل صاحب الهدف في العصر الرأسمالي، كما لاحظ كينز، "لا يُحبُّ قطته، ولكن صغار القطّة؛ ولا، في الحقيقة، صغار القطط، ولكن فقط صغار قطط القطط الصغار، وهلم جرا

إلى الأمام إلى الأبد إلى نهاية مملكة القط cat-dom. بالنسبة له فإن المُرَبَّى ليس مربى ما لم يكن هناك مربى غدا وبالقطع ليس مربى اليوم." (3) إن النقود ورأس المال علاقات اجتماعية تمثل السلطة الاجتماعية على الآخرين. وبغض النظر عن ما يدور في أذهان البخلاء والرأسماليين عندما ينظرون في أموالهم، إنه السلطة على الناس التي تشكل هدف المحاسبة والتراكم، لأنهم سيكتشفون، مثل روبنسون، إن كانوا قد تركوا وحيدين.

روبنسون يدرك هذا جزئياً عندما يتأمل في عدم فائدة الذهب في جزيرته:

ابتسمت لنفسي على مرأى من هذا المال. "أيها المُخَدَّر!"⁴ قلت بصوت عال، "ما هي الفائدة منك؟ أنت لا تساوي شيئاً لي، لا، فأنت لا تحفر الأرض، واحدة من تلك السكاكين تساوي جميع هذه الكومة. ليس لدي أي طريقة استخدام لك؛ حتى لو بقيت حيث أنت، وتغرق كمخلوق حياته لا يستحق الانقاذ." ومع ذلك، وبعد التفكير ثانية، أخذته

وهو بذلك ينفي النظام الميركنتالي الذي جعل من الذهب صنماً، لكنه لا يخترق تماماً حجاب النقود، لكشف الأساس الكامن وراء فائض العمل، في نظرياته، أي أنه في ممارسته اليومية يدرك تماماً الأساس الحقيقي للاقتصاد. ويظهر هذا عندما يناقش مفهوم الطمع. فبالنسبة لروبنسون، فإن خطيئته الأصلية هي جريمة الرغبة في الارتفاع فوق موقعه الطبقي بدلاً من اتباع المهنة التي اختاره له والده. جاءت عزلته واغترابه عقاباً له، وهو يشعر أن قصته يجب أن تكون درساً لأولئك "الذين لا يستطيعون الاستمتاع قانونين بما أعطاهم الله..". إنه يشعر بالذنب لانتهاكه المؤسسات الإقطاعية للمكانة، والنظام الأبوي، والله. إنه لا يعتبر أنه عندما يراكم، فإنه ينتهك أولئك الذين يستغلهم — زوري Xury، والأفارقة الذين باعهم كعبيد، وخدمه المستعبدين، وفي وقت لاحق جمعة وغيرهم. من وجهة النظر الأيديولوجية، فإن روبنسون هو رجل انتقالي ينظر إلى الوراء وإلى الأعلى بدلاً من الأمام وإلى الأسفل. هذا هو السبب في أنه لا يتعلم شيئاً (من الناحية الأخلاقية) من وحدته. البخيل لا يشفي في الحقيقة، ومن السهل أن يرجع إلى رذيلة الطمع.

⁴ المُخَدَّر هنا إشارة إلى النقود، الذهب والمال عموماً. الاقتباس يشير إلى ازدياد روبنسون كروزو للمال.

نظرًا لأن علاقة التجارة والتراكم والاستغلال ضرورية جدًا لفهم الاقتصاد، فمن المناسب أن نتناولها قليلاً. يمكن إرجاع هذه الأطروحة إلى أرسطو، الذي رأى أن المجتمع المكثفي ذاتيًا لن يكون مدفوعًا بالندرة والتراكم، نظرًا لأن الاحتياجات الطبيعية كانت محدودة ويمكن إشباعها بسهولة بوجود الكثير من الوقت المتبقي لقضاء وقت الفراغ. مثل هذا المجتمع من شأنه أن يمارس فن الإنتاج المنزلي householding الذي يعتمد القيمة الاستعمالية هدفًا له. لكن أرسطو، وهو شاهد عيان على نمو السوق في أول ظهور له، لاحظ أن هناك فئًا آخر للحصول على الثروة - تجارة البيع والشراء - commercial trade التي لا حدود لها، إذ أن هدفها هو تراكم القيمة التبادلية لمصلحتها. كان أرسطو مهتمًا بالآثار المترتبة على نهوض التجارة أكثر من اهتمامه بالأساس الذي تقوم عليه هذه التجارة، ولم يربط بين القيمة التبادلية وفائض العمل. لكن هذه الرابطة كانت موجودة ليراها الجميع. لقد كان ظهور السوق في أثينا القديمة نتيجة ثانوية لتوسعها الإمبراطوري، ونهب الأراضي المحررة من الفرس، وجمع الجزية والضرائب من الدول اليونانية الأخرى لقاء الحماية، والتحويل القسري لتجارة المنطقة إلى ميناء أثينا. (4)

على الرغم من عدم دقة كينز من الناحية التحليلية، فقد لمح نفس النقطة في مقالته عن "الاكتفاء الذاتي الوطني" حيث رأى غريزيًا أن بعض الانسحاب من التجارة الدولية ضروري لجعل الحياة [الوجود الإنساني]، الذي صار ممكنًا بفضل العلم، ممتعة وجديرة بالاهتمام. لقد أراد تقليل التشابكات الاقتصادية بين الدول بدلاً من تعظيمها بحيث يمكننا أن نكون "أسيادًا" لأنفسنا و "نقوم بتجاربنا المفضلة للوصول إلى جمهورية اجتماعية مثالية في المستقبل". لقد كان موافقًا بقوة للتبادل الحر للأفكار، والمعرفة، والعلوم، والضيافة، والسفر، "ولكن دع البضائع تُنتج وطنيًا home-spun كلما كان ذلك ممكنًا بشكل معقول وتجاريًا، وقبل كل شيء دع التمويل ليكون وطنيًا في المقام الأول." كان يعلم أن المشكلة لم تكن مشكلة الاستهلاك البغيض، ولكن الرغبة في التوسع من خلال اختراق الأسواق الخارجية بالصادرات والاستثمار، والتي تعني في الحقيقة محاولة تحويل أكبر قدر ممكن من العالم لصالح [المركز] وإفرازاته، أي الإمبريالية. (5)

بالعودة إلى روبنسون كروزو، من المهم أن نلاحظ أن عزلته لم تكن مصحوبة بالوحدة بقدر ما كانت مصحوبة بالخوف. كان أول شيء فعله عندما وصل إلى جنته الكاريبية الجميلة هو بناء حصن لنفسه. فقط عندما كان "مسيحًا ومحصنًا" تمامًا من جميع العالم، "نام آمنًا في الليل." إن

احتياطاته خلال السنوات الإحدى عشرة الأولى عندما كان بمفرده تمامًا مذهلة. ومع ذلك، خلال هذه السنوات لم يكن في خطر من الحيوانات البرية أو أي شيء حي. مشكلته الرئيسية تأتي من الطيور التي تسرق بذوره. إنه يتعامل معها بفاعلية وبسرعة، بإطلاق النار على البعض منها، ثم "حَمَلُهَا وعرضتها كما نعرض اللصوص سيئي السمعة في إنجلترا، أي، تعليقها في سلاسل لإرهاب الآخرين." وكما سنرى في القسم التالي، عندما يقع نظره على إشارات بوجود بشر آخرين، فإنه لا يقفز من الفرح، والاستعداد للمخاطرة بكل شيء لسماع صوت بشري بعد سنوات عديدة في الحبس الانفرادي. وبدلاً من ذلك، ترتفع مخاوفه وقلقه إلى درجة الاحتياج، ويقوم بتسييج وتحصين نفسه أكثر فأكثر، وينسحب أكثر فأكثر إلى العزلة.

ربما هذا ما يجب أن يتوقعه المرء من رجل منعزل لفترة طويلة. لكن في بعض الأحيان يبدو لي أن ديفو، في وصف روبنسون كروزو، لم يكن يتحدث فقط عن رجل أصبح منعزلاً عن طريق الصدفة، ولكنه يقدم قصة رمزية عن حياة البشر في المجتمع الرأسمالي - وحيد، فقير، بدون يقين، خائف. إن العزلة هي أكثر حدة في عقل روبنسون مما كانت عليه في وضعه الفعلي. لأن ما يتبين بوضوح، في مواجهة تلو أخرى، هو أنه عندما يتعين على روبنسون مواجهة شخص آخر، فإنه يتفاعل معه بالخوف والريبة. إن عزلته، باختصار، ليست أكثر ولا أقل من اغتراب الفردية التملكية⁵ possessive individualism، الذي يتكرر مليون مرة في المجتمع الرأسمالي، وفي أيامنا هذا يجد رمزيته في الملجأ الخاص للدفاع المدني [المسكن] المحمي من الجيران ببندقية آلية.

(3) انفتاح التجارة: تشكيل استراتيجية الإمبراطورية

Opening Up of Trade: Forming an Imperial Strategy

إن انفتاح اقتصاده على العالم الخارجي لا يأتي بالنسبة لروبينسون كروزو بشكل أسعار مجردة تنشأ في أسواق مجهولة ولكن بشكل أشخاص حقيقيين يجب أن يتعامل معهم. بعد خمسة عشر عامًا في الجزيرة، وجد بصمة قدم رجل عارٍ على الشاطئ. أول رد فعل له هو الخوف. لقد كان "مرعوبًا إلى أقصى حد، أنظر ورائي كل خطوتين أو ثلاث، وأخطأ في تمييز كل شجيرة

⁵ راجع:

C. B. Macpherson, *The Political Theory of Possessive Individualism: Hobbes to Locke* (Oxford University Press, 1962)

يمكن ترجمة العنوان النظرية السياسية للفردية الحيازية أو التملكية. اعتقد أن هذا الكتاب لم يترجم للعربية.

وشجرة، وأتخيل كل جذع شجرة مقطوعة على مسافة ليكون إنساناً." يذهب إلى معتكفه. "لم تخف أبداً أرنبه هربت إلى ساتر، أو ثعلباً إلى وجُر، برعب ذهني أكثر مني." منذ ذلك الحين، عاش "في شرك خوف دائم من الإنسان ... حياة من القلق والخوف والتحوط."

يفكر روبنسون في تدمير حظيرة الماشية، وحقل الحنطة، والمسكن، "حتى لا يجدون مثل هذه الحبوب فيها ... ومع هذا يجدون في البحث، من أجل اكتشاف الأشخاص القاطنين فيها." لقد بنى جداراً ثانياً من التحصينات، مسلحاً بسبعة بنادق مركبة كمدفع ومثبتة "في إطارات تحملها مثل عربة، حتى أتمكن من إطلاق جميع البنادق السبعة في غضون دقيقتين. لقد استغرق مني الانتهاء من إكمال هذا الجدار شهوراً مرهقة من العمل، ومع ذلك لم أشعر بالأمان حتى تم الانتهاء منه." يقوم بتثبيت عصي أو أوتاد على الأرض خارج جداره بحيث يكون لديه في غضون خمس أو ست سنوات "غابة أمام مسكني تنمو بشكل وحشي كثيفة وقوية لدرجة أنه حقاً غير سالكة تماماً؛ ولا يمكن للبشر من أي نوع أن يتخيل أن هناك أي شيء وراء ذلك."

بعد ثلاث سنوات من رؤيته لوصمة القدم، عثر على عظام وبقايا أكلة لحوم البشر. (نترك جانباً السؤال التاريخي حول ما إذا كان الكاريبيون يمارسون أكل لحوم البشر أم لا. ويكفي أن روبنسون اعتقد ذلك. يلعب الاستعداد الأوروبي للاعتقاد بأن الآخرين كانوا من أكلة لحوم البشر، بغض النظر عن الحقيقة، نفس الدور في تحديد أنماط التجارة كما أظهره التضامن الأوروبي، على سبيل المثال، بين القبطان البرتغالي وروبينسون). تراجع روبنسون أكثر "لأظن قريباً من دائرتي لمدة عامين تقريباً."

يتلاشى الخوف تدريجياً ويبدأ في الخروج [من دائرته] أكثر. لكنه يتحرك بحذر. فهو لا يطلق بندقيته خوفاً من أن يُسمع صوته، وهو مسلح دائماً ببندقية ومسدسين وسيف. حتى أنه يفكر أحياناً في الهجوم، ويبنى مكاناً يمكنه من خلاله "تدمير بعض هذه الوحوش في ترفيههم الدموي القاسي [أكل لحوم البشر]، وإن أمكن، إنقاذ الضحية في حال إحضارها لتدميرها [أكلها]." لكنه يعتقد بعد ذلك أن "هؤلاء الناس لم يتسببوا لي بأي أذى ... وبالتالي فإنه ليس من العدل مهاجمتهم." وهو يوبخ الإسبان على همجيتهم في أمريكا "حيث دمروا الملايين من هؤلاء الناس ... مجرد مجزرة، مثال دموي وغير طبيعي من القسوة، لا تبرير لها من الله أو الإنسان؛ حيث يُعتبر اسم الإسباني نفسه مخيفاً ومرعباً لجميع البشر أو من ذوي الشفقة

المسيحية." ولذلك قرر أنه "ليس من شأني العبث معهم ما لم يهاجموني أولاً."

خلال السنوات القليلة التالية، صار "أكثر انزواءً من أي وقت مضى"، ونادرًا ما يخرج من مأواه. لقد وضع الخوف "حدًا لجميع الابتكارات وجميع الأدوات التي قمت بها لسد حاجاتي في المستقبل." كان يخشى دق مسمار أو قطع عود خشب أو إطلاق بندقيّة أو إشعال نار خوفًا من سماعها أو رؤيتها. إنه لا يريد "شيئًا أكثر من ملاذ آمن" ويجده في مغارة خفية. "تخيلت نفسي الآن كواحد من العمالقة القدامى الذين قيل إنهم يعيشون في الكهوف والجحور، حيث لا يمكن الوصول إليهم." ولكن حتى في هذه العزلة العميقة، كان يخشى البشر فقط. مع وجود بعض الببغاوات والقطط وصغار الماعز وطيور البحر المدجنة كحيوانات أليفة، "بدأت أكون راضيًا جدًا عن الحياة التي أعيشها، إذا كان من الممكن أن تكون كذلك: محمية من رعب الوحوش."

إفي عامه الثالث والعشرين، شاهد أخيرًا بعض الكاريبيين الذين يزورون الجزيرة بشكل دوري. في البداية ينزوي في تحصيناته. ولكن لأنه لم يعد "قادرًا على تحمل البقاء في الجهل"، يتخذ له مكانًا آمنًا يلاحظ منه "تسعة متوحشين عراة جالسين حول نار صغيرة." وهنا يبدأ بالتفكير مرة أخرى في "تدبير كيفية الالتفاف والهجوم عليهم في المرة القادمة" وسرعان ما يحلم "في كثير من الأحيان بقتل المتوحشين." تشتد وحدته عندما يسمع في إحدى الليالي طلقة نارية أطلقت من سفينة منكوبة وفي اليوم التالي يجد حطام السفينة. يتوق للتواصل مع الأوروبيين. "آه لو أنه كان هناك واحد أو اثنان، لا بل شخص واحد نجا من هذه السفينة، وجاء إليّ، ليكون لي رفيق واحد، وإنسان واحد يحدثني وأتجاذب الحديث معه!"

أفكاره تأخذ بالتحول من الدفاع إلى الهجوم. وتراجعت مخاوفه الأخلاقية بشأن الاستعمار الإسباني إلى الخلفية، ويبدأ بتخطيط استراتيجية إمبراطورية. تأتي الخطة إليه في حلم حيث يهرب أسيرٌ وحشي، ويهرع إليه ويصبح خادمًا له. بعد أن استيقظ، "لقد توصلت إلى هذا الاستنتاج، أن الطريقة الوحيدة للشروع في محاولة الهروب هي، إن أمكن، إضافة [إنسان] وحشي إلى ممتلكاتي؛ وإذا أمكن، يجب أن يكون أحد السجناء." لكن لديه بعض المخاوف بشأن ما إذا كان يمكنه القيام بذلك، وبعض الهواجس الأخلاقية حول ما إذا كان يجب عليه القيام بذلك؛ ولكن على الرغم من أن "أفكار سفك الدم البشري من أجل خلاصي كانت فظيعة

بالنسبة لي،" إلا أن رأيه استقر بعد تفكير طويل على "أن أحصل على أحد هؤلاء المتوحشين، مهما كان الثمن."

بعد حوالي عام ونصف تصل مجموعة من حوالي عشرين أو ثلاثين كاريبيًا إلى الشاطئ. صار الحظ بجانبه. يهرب سجين واحد يتبعه رجلين فقط. "انصبَّت أفكارى الآن، وبقوة، وفي الواقع بشكل لا يقاوم، على أن الوقت قد حان الآن للحصول على خادم، وربما رفيق أو مساعد."

يطرح روبنسون أحد المُطاردين أرضًا ويطلق النار على الثاني. يقترب منه السجين المُنقذ، بحذر وخوف. "اقترب أكثر فأكثر، راکعًا على ركبتيه كل عشر أو اثنتي عشرة خطوة ... وبعد مضي الوقت اقترب مني، ثم جثا مرة أخرى، وقبل الأرض، ووضع رأسه على الأرض، وأخذ قدمي ووضعه على رأسه. هذا، على ما يبدو، كان علامة على القَسَم بأن يكون عبدي إلى الأبد". وهكذا حصل روبنسون على خادمه. وهكذا يولد الاقتصاد economy

(4) الاستعمار Colonization

جمعة، المُتعب من محنته، ينام. يقوم روبنسون بتقييم ما فاز به. العلاقة التي هما على وشك الدخول فيها هي علاقة غير متكافئة وعنيفة. (إن "العنف"، كما كتب آر دي لينج R. D. Laing في كتابه *The Politics of Experience*، "يحاول تقييد حرية الآخر، لإجباره على التصرف بالطريقة التي نرغب فيها، ولكن مع عدم الاهتمام المطلق، مع عدم الاكتراث بوجود الآخر أو مصيره".⁶) إن العنف يتطلب بنية فوقية أيديولوجية للحفاظ عليه وجعله مقبولا. جمعة شخص مستقل له عقله وإرادته. لكن حكم روبنسون يعتمد على مدى سيطرة رأسه [عقل روبنسون] على يد جمعة. لمساعدة نفسه في صراعه اليومي مع جمعة، يبدأ روبنسون في التفكير بجمعة ليس كشخص بل كنوع من الحيوانات الأليفة، كيان بلا عقل مُطيع وجميل. (إن "استخدام العبيد والحيوانات الأليفة لا يختلف كثيرا؛ لأن أجسادهم تخدم احتياجات الحياة". أرسطو، الجمهورية).⁶ فيما يلي اقتباس حرفي لوصفه جمعة، باستثناء استبدال

⁶ يأتي ذكر كتاب الجمهورية هنا سهواً. عنوان كتاب أرسطو هو السياسة، وكتاب الجمهورية هو لأفلاطون - كم هو واضح في هوامش الكاتب في آخر الدراسة.

"هي" "she" بكلمة "هو" "he" و [الضمير المتصل] "هي" "her" بدلاً من [الضمير المتصل] "هو" "him". ليس الهدف هو الإيحاء بالمثلثة الجنسية ولكن للتأكيد على كيفية تصور الحكام للمحكومين فقط ككيانات تخدم احتياجاتهم. (على حد قول أرسطو مرة أخرى، "الذكر بطبيعته متفوق، والأنثى أقل شأنًا؛ والواحد يحكم والآخر محكوم." (7))

لقد كانت امرأة جميلة، امرأة وسيمة، مصنوعة بشكل جيد، بأطراف مستقيمة قوية، ليست كبيرة جدًا، طويلة وحسنة الشكل، وكما أعتقد، عمرها حوالي ستة وعشرين عامًا. كان لها وجه جيد جدًا، محياها ليس شرسًا وعنيفًا، ولكن يبدو أن لديها مسحة رجولية جدًا في وجهها ومع ذلك كانت تتمتع بكل حلاوة ونعومة الأوروبيين في وجهها أيضًا، خاصة عندما تبتسم. كان شعرها طويلًا وأسودًا، غير مجعد كالصوف؛ جبهتها عالية جدًا وكبيرة، وحيوية كبيرة وحدة متألئة في عينيها. لم يكن لون بشرتها أسودًا تمامًا، ولكنه كان أسمرًا جدًا؛ ومع ذلك، فهي ليست صفراء قبيحة، صفرة تبعث على الغثيان، مثل البرازيليين والفيرجينييين، وغيرهم من سكان أمريكا الأصليين؛ ولكن نوع مشرق من لون زيتوني يحتوي على شيء مقبول للغاية، على الرغم من أنه ليس من السهل وصفه. كان وجهها مستديرًا وممتلئًا. أنفها صغير، غير مسطح مثل الزنوج، فم جيد جدًا، وشفاه رقيقة، وأسنانها الرفيعة جيدة، وبيضاء مثل العاج.

روبنسون لديه بندقية، لكنه لا يمكن أن يحكم بالقوة وحدها إذا أراد لجمعة أن يكون مُنتجًا. لا بدّ له من الاختلاط مع خادمه لقبول موقعه المروّوس. يتمتع روبنسون بميزة كبيرة لأنه أنقذ حياة الرجل، لكن وجود برنامج دقيق لا يزال ضروريًا، يمر بمراحل متعددة للتنمية، وذلك قبل استيعاب الخادم internalizes للعلاقة السلطوية ويصبح قادرًا على التصرف "بشكل مستقل" ولكن ضمن علاقة "تبعية". أوجه التشابه بين تعليم روبنسون لجمعة، والإجراءات الفعلية للاستعمار المستخدمة في المائتي سنة الماضية هي ملفّة للنظر.

الخطوة 1. أول شيء يفعله روبنسون هو تمهيد الطريق للخطاب بإعطاء نفسه وجمعة أسماء تكون مهينة لجمعة وترمز إلى مديونيته. "أولاً، أخبرته أن اسمه يجب أن يكون جمعة، وهو اليوم الذي أنقذت فيه حياته؛ اطلقت عليه هذا الاسم لذكرى ذلك الزمن؛ علّمته أيضًا أن يقول سيد، ثم أخبرته أن هذا سيكون اسمي."

الخطوة 2. يُرسّخ روبنسون أيضًا المكانة النسبية من خلال تغطية عري جمعة بزوج من الكتان (مأخوذ من حطام السفينة) وسترة بدون أكمام مصنوعة من جلد الماعز وغطاء للرأس من جلد أرنب برّي صنعه بنفسه. لقد كان سعيدًا للغاية لرؤية نفسه يرتدي ملابس جيدة تقريبًا مثل سيده.

الخطوة 3. يخصص روبنسون لجمعة مكانا للنوم بين جداري التحصينات، أي في مكان وسط، محمي جزئيًا ولكن خارج المكان المخصص للسيد. ويُركّب جهاز إنذار من السرقة بحيث أن "جمعة لا يمكنه الوصول إليّ في عمق المأوى الداخلي من دون إحداث الكثير من الضوضاء يؤدي إلى إيقافه"، ويتخذ إجراءات وقائية أخرى مثل أخذ كل الأسلحة ووضعها إلى جانبه كل ليلة. ومع ذلك، كما يقول روبنسون، لم تكن هناك حاجة إلى هذه الاحتياطات حقًا، "لأنه لم يكن لدى إنسان أبدًا خادم أكثر إخلاصًا ومُحبًا وصدقًا من جمعة؛ بدون عواطف أو كآبة أو مخططات، ملتزم ومنشغل تمامًا في عمله؛ كانت عواطفه مرتبطة بي مثل تلك التي تربط الطفل بأبيه؛ وأجرؤ على القول إنه كان سيضحى بحياته من أجل إنقاذ حياتي في أي مناسبة على الإطلاق." إن تخصيص هذه المساحة تساعد على تذكير جمعة بمكانته وإبقائه تابعًا.

الخطوة 4. بعد ذلك يتم إعطاء جمعة المهارات اللازمة لمكانته وواجباته، أي القدرة على فهم الأوامر وتلبية احتياجات روبنسون. "لقد أخذت على نفسي مهمة تعليمه كل ما هو مناسب لجعله مفيدًا مستعدًا للعمل ومساعدًا؛ ولكن بشكل خاص لجعله يتحدث ويفهمني عندما أتحدث."

الخطوة 5. تأتي بعد ذلك لحظة حاسمة يقوم فيها روبنسون، من خلال عرض قاسٍ للقوة، بإرغاب جمعة المسكين واستسلامه الكامل. يخرج روبنسون ومعه جمعة ويطلق النار من بندقيته ويقتل ماعزًا صغيرًا. (الآن لم يعد روبنسون خائفًا من أن لا يُطاع).

لقد كان اندهاش هذا المخلوق البائس، الذي كان يشاهدني في الواقع على مسافة مني وأنا أقتل المتوحش، عدوه، ولكنه لم يكن يعرف أو يمكن أن يتصور كيف تم ذلك، معقولًا هو لم ير الماعز الصغير الذي كنت قد أطلقت عليه النار أو يدرك بأنني قد قتلته، ولكنه مرّق سترته ليتحسس إن كان قد جُرح، وكما وجدت في الحال، فإنه اعتقد أنني عازم على قتله، لأنه جاء وركع أمامي، وقال، محتضنًا ركبتي،

أشياء كثيرة لم أفهمها؛ ولكن سرعان ما اكتشفت المعنى بسهولة،
التوسل مني كي لا أقتله.

في طقوس الموت والولادة هذه، يتعلم جمعة المدى الكامل لسلطة روبنسون عليه. بعدها يقوم روبنسون بقتل حيوانات مختلفة، ويُعلم جمعة "الركض وإحضار" [الحيوانات المقتولة] مثل الكلب. لكنه يحذر أن لا يراه جمعة مطلقاً وهو يشحن البندقية، حتى يظل جاهلاً بحقيقة أنه يجب عليك وضع الذخيرة في البندقية.

الخطوة 6. اكتملت المرحلة الأولى من التلقين، يستطيع روبنسون الآن الانتقال إلى إنشاء التقسيم الاجتماعي للعمل على أساس أكثر دقة. يُعلم جمعة الطبخ والخبز، "وفي وقت قصير كان جمعة قادراً على القيام بكل الأعمال من أجلي، تمامًا مثلما كنت أقوم بها بنفسي." ثم حدد روبنسون قطعة أرض "لم يعمل فيها جمعة عن طيب خاطر وبجد فحسب، بل فعل ذلك بمرح." يوضح روبنسون أن العمل كان لإنتاج الحنطة لصنع المزيد من الخبز حيث يوجد الآن اثنان. جمعة، بمفرده، يكتشف قوانين الملكية والتوزيع الرأسمالي للدخل بشكل مبهم تمامًا. "لقد بدا حساسًا جدًا تجاه هذا الجزء، وأخبرني أنه يعتقد أن لدي الكثير من العمل المبذول لحسابه أكثر مما بذلتُ لنفسي، وأنه سيعمل بجد أكبر من أجلي، إذا أخبرته بما يجب عليه أن يفعله."

الخطوة 7. التخرّج. يقوم روبنسون الآن بإرشاد جمعة لمعرفة الإله الحقيقي. يستغرق هذا التعليم ثلاث سنوات، يثير خلالها جمعة أسئلة صعبة بحيث أن روبنسون يتوقف لفترة، مدركاً أن المرء لا يستطيع الفوز عن طريق الحجة المنطقية لوحدها، وأن الوحي الإلهي فقط يمكن أن يُقنع الناس بالمسيحية. وأخيراً، يتحقق النجاح. "لقد صار الهمجي الآن مسيحياً جيداً." ويصبح الاثنان أكثر حميمية، ويخبر روبنسون جمعة قصته، وأخيراً وبعد طول انتظار "أطلعته على اللغز، فهو كان كذلك بالنسبة له، لغز البارود والرصاص وعلمته كيفية إطلاق النار." يعطي روبنسون جمعة سكيناً وفأساً ويبين له القارب الذي كان يخطط لاستخدامه للهرب.

الخطوة 8. الشرطي الأبدي. حتى بعد منحه الاستقلال، لا يمكن لروبنسون أن يثق بجمعة. فالسيد لا يمكن أبداً أن يرتاح بأمان. في أحد الأيام، أثناء مشاهدة البر الرئيسي من أعلى تل في الجزيرة، لاحظ روبنسون شعوراً غير عادي بالمتعة ظهر على وجه جمعة ... ولهفة

غريبة، كما لو كان باله مشغولاً ليكون في بلده مرة أخرى؛ ملاحظتي هذه ولدت الكثير من الأفكار عندي، الأمر الذي جعلني في البداية غير مرتاح تجاه رجلي الجديد جمعة كما كنت من قبل؛ ولم أشك في ذلك، لكن إذا تمكن جمعة من العودة إلى أمته مرة أخرى، فإنه لن ينسى كل دينه فحسب، بل كل واجباته تجاهي؛ وسيكون متقدماً بما يكفي ليدلي لمواطنيه قصتي، ويعود، ربما مع مائة أو مائتين منهم، ويجعل مني وليمة، حيث قد يكون عندها سعيداً كما كان مع أعدائه، عندما أسروهم في الحرب.

استمر روبنسون في طرح الأسئلة على جمعة لمعرفة ما إذا كان يستطيع كشف أي جوانب مخفية لدى جمعة؛ ثم يشعر بالذنب لشكوكه. الإمبريالية لا تعرف السلام.

(5) الشراكة وإعادة الإنتاج الموسع

Partnership and Expanded Reproduction

لما يقرب من عشر سنوات، بين الوقت الذي رأى فيه لأول مرة بصمة قدم في الرمال حتى التقائه بجمعة، عاش روبنسون كروزو حياة من الخوف والقلق والهموم تقلصت خلالها أنشطته الإنتاجية إلى الحد الأدنى وبالكاد كان يتجراً على المغامرة خارج الحدود الضيقة لمعاقله. عندما يظهر جمعة، يتوسع في أنشطته مرة أخرى، يُعلم، يبني، يراكم. على الرغم من عدم وجود ذكر للمحاسبة، يمكن للمرء أن يستنتج أن العمل أصبح ذا قيمة مرة أخرى، لأن روبنسون كان مرة أخرى هادفاً، ومهتماً بالتخصيص allocation والكفاءة، حيث يأمر، ويدفع جمعة أن يفعل شيئاً أو آخر، يوجهه، ويبين له، ويقدم له التوجيهات، ويجعل الأشياء مألوفة له، يجعله يفهم، يُعلمه، يتركه أن يرى بنفسه، يمنعه، يريحه، ويأمره بالركض والجلب، يجعله يعمل، يجعله يبني شيئاً، إلخ، إلخ. من خلال علاقته الاجتماعية بجمعة يصبح روبنسون رجلاً اقتصادياً. ويصبح جمعة العامل ويصبح هو رأس المال — يبتكر وينظم ويبني إمبراطورية.

بعد حوالي ثلاث سنوات من وصول جمعة، السنة السابعة والعشرون لروبنسون في الجزيرة، تأتي فرصة التوسيع. إذ يصل واحد وعشرون متوحشاً وثلاثة سجناء إلى الشاطئ. يُقسّم روبنسون السلاح بينه وبين جمعة ويشرعان في الهجوم. في الطريق، يبدأ الشك يساور روبنسون مرة أخرى فيما إذا كان من الصواب "إغراق يدي في الدماء، لمهاجمة بشر لم يعملوا على أو يتقصّدوا إيذاي". ويلاحظ أن "جمعة قد يبرر ذلك، لأنه

كان عدوًا مُعلنًا، وفي حالة حرب مع هؤلاء البشر بعينهم؛ ومهاجمته لهم قانوني،" ولكن، بما أنه لا يستطيع أن يقول الشيء ذاته لنفسه، يقرر من جانب واحد [دون استشارة جمعة] ألا يشرع بالهجوم إلا إذا "نشأ وضع هو بمثابة دعوة لي [للتحرك] مما أعرفه حتى الآن."

تأتي الدعوة عندما يكتشف أن أحد الضحايا رجل أبيض ويصبح "غاضبًا إلى أقصى حد." وكما يتبين فإن السجين إسباني. بالنظر إلى ما قاله روبنسون سابقًا عن السياسة الاستعمارية الإسبانية، ربما يعتقد المرء أنه سيكون لدى روبنسون بعض الشكوك حول ما هو قانوني. لكنه لم يفعل، ويهاجم مع جمعة — مما أسفر عن مقتل سبعة عشر وهزيمة أربعة. (يقوم جمعة بمعظم عمليات القتل، ويرجع ذلك جزئيًا إلى أن "استهدافه كان أفضل بكثير" من روبنسون، ويرجع ذلك جزئيًا إلى أن روبنسون كان يقوم بالتوجيه ويقوم جمعة بالتنفيذ). تم إنقاذ الإسباني ووجدوا ضحية أخرى في مركب تبين أنه والد جمعة، لحسن الحظ أنقذت حياته لأن زميله الأسير كان أبيض.

الآن صاروا أربعة. روبنسون لديه إمبراطورية يحكمها بحزم وبالعدل مع درجة معينة من التساهل والتسامح.

أصبحت جزيرتي الآن مأهولة بالسكان، واعتقدت أنني غني جدًا بالرعايا؛ وقد كان ذلك فكرة ممتعة، كنت أتأمل به كثيرًا، كم أنا شبيه بملك. بادئ ذي بدء، كان البلد [الجزيرة] بأكمله ملكية خاصة لي، لذلك كان لي حق لا شك فيه في السيطرة. ثانيًا، كان شعبي خاضعًا تمامًا. كنت السيد والمُشرع المطلق؛ فالجميع كانوا يدينون بحياتهم لي، وكانوا مستعدين للتضحية بحياتهم من أجلي، إذا كانت هناك مناسبة لذلك. كان من الرائع أيضًا أنه لم يكن لدينا سوى ثلاثة رعايا، وكانوا من ثلاث ديانات مختلفة. كان تابعي جمعة بروتستانتيًا، وكان والده وثنيًا ومن أكلة لحوم البشر، وكان الإسباني باباويًا [كاثوليكيًا]. ومع ذلك فقد سمحت بحرية الفكر في جميع أنحاء مملكتي.

انتهت فترة التراكم البدائي. روبنسون لديه الآن ملكية. هذه الملكية لا تقوم على عمله السابق، ولكن على حيازته للسلاح. على الرغم من أن رأسماله يأتي إلى العالم وهو ينزف بالدماء من كل مسام، إلا أن ملكيته لا جدال فيها. لم يكن جمعة نذلًا كسولًا ينفق رزقه وأكثر بالعيش معربدًا، ومع ذلك في النهاية لم يكن لديه سوى نفسه، بينما تزداد ثروة روبنسون كروزو باستمرار على الرغم من توقفه عن العمل منذ فترة طويلة.

مع مرور الوقت، يصل عدد أكبر من الناس إلى جزيرته. يستخدم روبنسون بدهاء احتكاره لوسائل الإنتاج لجعلهم خاضعين لحكمه. مع نمو الإمبراطورية، تصبح مشاكلها أكثر تعقيداً. لكن روبنسون واسع الحيلة دائماً في استخدام الإرهاب والدين وقانون الحدود frontier law، ومبدأ تفويض السلطة لتعزيز موقعه وإنتاج نظام يعيد إنتاج نفسه.

يكتشف روبنسون أن هناك أربعة عشر من الإسبان والبرتغاليين الذين مع الكاريبيين "يعيشون هناك في سلام بالفعل مع الوحوش savages". كان لديهم أسلحة ولكن لم يكن لديهم بارود ولا أمل في الهروب، لأنهم لا يمتلكون "سفينة، أو الأدوات لبناء سفينة، أو مؤن من أي نوع". روبنسون بالطبع لديه المكونات المفقودة لنجدتهم، ولكن كيف يمكن أن يكون متأكداً من أن الثمن سيسدد؟ "أكثر ما كنت أخشاه هو الغدر وسوء استخدامي، إذا وضعت حياتي في أيديهم، ذلك لأن الامتنان ليس فضيلة متأصلة في طبيعة الإنسان؛ كما أن البشر لا يلتزمون بصدق وعدالة مقابل ما تلقوه وبما يعادل المزايا التي يتوقعونها."

لا يمكن لروبنسون الاعتماد على القانون لحماية ملكيته. بدلاً من ذلك يستخدم الدين. لا يحتاج الأوروبيون إلى وضع إجراءات تنشئة اجتماعية مثل التي خضع لها جمعة لأنهم بفضل التعليم والتقاليد والعادة صاروا ينظرون إلى الملكية الخاصة على أنها قانون طبيعي بديهي. سيذهب الإسباني ووالد جمعة إلى حيث يقيم الأوروبيون الآخرون. ثم يوقعون عقداً، يقضي بأنهم "يجب أن يكونوا تحت قيادتي تماماً، كقائد وقبطان؛ وأن يُقسموا على الأسرار المقدسة Holy Sacraments والإنجيل ليكونوا صادقين معي وأن يذهبوا إلى بلد مسيحي يجب أن أوافق عليه دون غيره؛ وأن يتم توجيههم كلياً وبشكل مطلق من خلال أوامري." يحول روبنسون ديونهم له إلى التزام تجاه الله. وهكذا يُحكم البشر من نتائج عقولهم.

تم تأجيل الرحلة لمدة عام، بينما يجري توسيع رأسمال روبنسون بحيث سيكون هناك ما يكفي من الغذاء للمجندين الجدد. عملية العمل هي الآن أكثر تعقيداً بسبب الزيادة في الأعداد. صار هناك هيكل عمودي يفصل بين العمليات، والتنسيق، والاستراتيجية على أساس الجنسية— نموذج مصغر من شركة متعددة الجنسية. "قمتُ بوضع علامة على عدة أشجار التي أرى أنها صالحة لعملنا، وخصصت لجمعة ووالده عمل قطع هذه الأشجار؛ وبعد

ذلك دفعتُ الاسباني، الذي كنت قد أسَرْتُ له فكرتي بهذا الشأن، للإشراف وتوجيه عملهما."

مع بدء الحصاد، أرسل الاسباني ووالد جمعة للتفاوض. أثناء غيابهما، تصل سفينة إنجليزية إلى الجزيرة. يشعر روبنسون بفرح لا يوصف عند رؤية سفينة "يديرها مواطنوه، وبالتالي أصدقاؤه." ومع ذلك، في الوقت نفسه، كانت هناك "بعض الشكوك السرية التي تراوده عنهم"، ربما لأنهم كانوا لصوصًا وقتلة. وكما رأينا فإن هذا هو رد فعل نموذجي لروبينسون كروزو تجاه الآخرين. إنها صفة حكيمة في مجتمع من الأفراد الممتلكين possessive individuals حيث يكون الجميع عدوًا لكل واحد منهم. مسؤولية المشتري Caveat Emptor [على المشتري أن يكون حذرًا].

جاء بعض أفراد الطاقم إلى الشاطئ ومعهم ثلاثة سجناء. أثناء ما كان السجناء دون حراسة، يقترب منهم روبنسون: "أنا رجل، رجل إنجليزي، ومستعد لمساعدتكم، كما ترون لدي خادم واحد فقط؛ لدينا أسلحة وذخيرة؛ أخبرونا بحرية، هل يمكننا خدمتكم؟" تبين أن السجناء الثلاثة هم قبطان السفينة ومساعداه وراكب واحد. والآخرين متمردون، يقول القبطان عنهم: "كان بينهم اثنان من الأشرار اليائسين إلى درجة أنه لم يكن آمنًا إبداء أي رحمة تجاههم" ولكن إذا تم حجزهم، فإنه يعتقد أن "البقية سيعودون إلى واجباتهم."

بعد توجيه التهم يتم التوصل إلى قرار سريع وإصدار حكم. روبنسون يقف مع السلطة. يقدم القبطان عقدًا سخيًا لروبينسون: "يجب أن يكون هو والسفينة، في حالة استعادتها، موجهًا وخاضعًا لقيادتي بالكامل في كل شيء؛ وإذا لم يتم استرداد السفينة، فسوف يعيش ويموت معي في أي جزء من العالم أرسله إليه؛ وكذلك الرجلين الآخرين." يطلب روبنسون أقل من ذلك بكثير: الاعتراف بسلطته بلا منازع أثناء وجودهم في الجزيرة، حرية المرور إلى إنجلترا لنفسه وجمعة إذا تم استرداد السفينة.

تعرض الرجال الذين أحضروا القبطان إلى الشاطئ للهجوم. جرى إعدام الشريرين بإجراءات موجزة في الجولة الأولى، وأصبح البقية سجناء أو سُمح لهم بالانضمام إلى القبطان وروبينسون. بدأ إرسال المزيد من الرجال إلى الشاطئ من السفينة، وسرعان ما يتم أسرهم. أحدهم أصبح سجينًا، وقيل للآخرين أن روبنسون هو حاكم الجزيرة وأنه سيطلب العفو عنهم إذا ساعدوا في الاستيلاء على السفينة. تم الاستيلاء على السفينة مع

فقدان حياة واحدة فقط، وهي حياة القبطان الجديد. روبنسون، الذي لا يزال يتظاهر بأنه الحاكم، يقابل السجناء الخمسة وعند الاستماع إلى "سرد كامل لسلوكهم الشرير تجاه القبطان، وكيف أنهم هربوا بالسفينة وكانوا يستعدون لارتكاب المزيد من عمليات السطو"، يقدّم لهم خيار تركهم في الجزيرة أو اصطحابهم إلى إنجلترا مقيدين بالسلاسل ليتم شنقهم. اختاروا الجزيرة وصار روبنسون أكثر ثراءً. القانون يخلق المجرمين والمجرمين يتحولون إلى مستوطنين. في تكرار لدرسه للطيور [التخويف]، يأمر روبنسون القبطان "بإعدام القبطان الجديد، الذي قُتل، في ساحة السفينة، حتى يراه هؤلاء الرجال."

في التاسع عشر من كانون الأول/ديسمبر عام 1686، أي بعد ثمانية وعشرين عامًا وشهرين من وصوله، يصعد روبنسون إلى متن السفينة، حاملاً معه قبعته الكبيرة المصنوعة من جلد الماعز، ومظلته، وأحد ببغاواته، والمال الذي أخذه من السفينة. كما أنه يأخذ معه جمعة لكنه لا ينتظر عودة والد جمعة والإسبان. وبدلاً من ذلك، يترك لهم رسالة مع السجناء الذين ظلوا في الجزيرة، بعد أن جعلهم "يعدون بمعاملتهم مثلما يعاملون أنفسهم."

يعود روبنسون إلى الحضارة ويكتشف قوة رأس المال للنمو الذاتي المستدام. كان أمناءه trustees قد قدموا في حساب "إنتاج الجزء الخاص بي من المزرعة إلى الوكيل المالي، الذي استحوذ عليه، في حال عدم عودتي نهائياً لأقوم بالمطالبة بها، ثلثها للملك، وثلثها لدير القديس أوغسطين، ليتم إنفاقه لصالح الفقراء وتحويل الهنود إلى الإيمان الكاثوليكي؛ ولكن من أجل ذلك لو رجعت، أو ظهر أي شخص نيابة عني، للمطالبة بالميراث، فيجب استعادتها: فقط التحسينات، أو الإنتاج السنوي، الذي يتم توزيعه على الاستخدامات الخيرية، لا يمكن استعادته."

وهكذا صار رجلاً ثرياً، "سيد كل شيء فجأة بحوالي 5,000 جنيه إسترليني من النقود، ولي منزل كبير في الريف، كما يمكن أن أسميه، في البرازيل، بحوالي ألف جنيه إسترليني سنوياً، تماماً مثل ملكية الأراضي في إنجلترا."

كان لديه أيضاً جزيرته التي عاد إليها في 1694. ويكتشف كيف واجه الإسبان مشكلة مع الأشرار عندما عادوا لأول مرة ولكنهم أخضعوهم في النهاية، وكذلك معاركتهم مع الكاريبيين، "والتحسين الذي قاموا به في

الجزيرة نفسها وكيف قام خمسة منهم بمحاولة الوصول إلى البر الرئيسي، وجلبوا أحد عشر رجلاً وخمس سجينات، والتي، عند مجيئي، وجدت حوالي عشرين طفلاً صغيراً في الجزيرة." جلب لهم روبنسون المؤن، ونجاراً، وحداداً، وأرسل فيما بعد سبع نساء "مناسبات للخدمة أو لاتخاذهن زوجات."

قبل أن يغادر الجزيرة، أعاد تنظيمها على أساس سليم. بتقسيمها إلى أجزاء، يحتفظ لنفسه بملكية الكل، ويعطي الآخرين مثل هذه الأجزاء على التوالي كما اتفقوا عليها. أما الإنجليز، فقد وعدهم بإرسال بعض النساء من إنجلترا، "وقد أثبت الرجال أنهم صادقون ومثابرون للغاية بعد إنقائهم وتمييز ممتلكاتهم." مع ترسيخ الملكية والعائلة، فإن الأرضية واضحة للنمو المطرد.

(6) العبرة

Moral

قد نتوقف عند هذه النقطة وننظر في معدل العائد المرتفع للغاية الذي حققه روبنسون على رأسماله الأصلي البالغ 40 جنيهًا إسترلينيًا. لا يمكن القول إنه عمل بجد من أجل أمواله، لكنه كان بالتأكيد مُنظمًا ورائد أعمال رائعًا، وأظهر قدرة غير عادية على الاستفادة من المواقف وإدارة الأشخاص الآخرين. لقد عانى آلام العزلة ورذائل الجشع وعدم الثقة والقسوة، لكنه انتهى به الأمر مع "الثروة من حولي" وجمعة — "يثبت دائمًا أنه خادم أكثر إخلاصًا في جميع المناسبات".

تعطينا قصة روبنسون كروزو الرمزية تاريخًا اقتصاديًا أفضل ونظرية اقتصادية أفضل من العديد من الحكايات التي رواها علم الاقتصاد الحديث حول التقسيم الوطني والدولي للعمل. يميل [علم] الاقتصاد إلى البقاء في السوق والقلق بشأن الأسعار. إن القصة تقول الكثير عن علاقة سُكَّر روبنسون بملابسه أكثر من علاقته بجمعة. لفهم كيف يُنتج رأس المال وإنتاجه، يجب أن نترك المجال الصاخب للسوق حيث يحدث كل شيء على السطح والدخول إلى الأجزاء المخفية للمصنع والشركة، حيث لا يُسمح عادة بالدخول إلا لأغراض الأعمال التجارية [business]

يتم نقل رأسمالي [روبنسون كروزو] ديفو إلى جزيرة غير مأهولة desert island خارج نظام السوق، وعلاقاته بالآخرين مباشرة وواضحة. وفيها

يتكشف سر رأس ماله، أي أنه يقوم على عمل الآخرين ويتم الحصول عليه من خلال القوة والوهم. إن شهادة ميلاد رأسمال روبنسون ليست دموية مثل العديد من الثروات الأخرى، لكن طبيعتها القسرية واضحة.

لا يتألف الاقتصاد الدولي في عصر روبنسون، وكما هو الحال اليوم أيضًا، من شركاء متساوين ولكنه منظم على أسس طبقية. يحتل روبنسون أحد المستويات العليا والمتوسطة من الهرم. (أعلى المستويات موجودة في عواصم أوروبا). القباطنة والتجار والمزارعون هم مجموعة أقرانه. يتبادل معهم على أساس التعاون الأخوي. (باستثناء القباطنة العرب).⁷ يقومون بتعليمه، وإنقاذه، والقيام بأعمال تجارية من أجله، ومنعه من الوقوع إلى ما دون طبقته. وهو بدوره يعتبرهم عمومًا رجالًا صادقين ونزيهين، ويقف إلى جانبهم ضد مرؤوسيه المتمردين، ويتساهل معهم في مساوماته. لكنه أكثر تطلبًا تجاه البيض من رتبة أدنى. إذا عصوا فهو شديد معهم، ولكن إذا كانوا مخلصين، فهو على استعداد لتقاسم بعض الغنائم وتفويض بعض السلطة لهم. الأفارقة والكاريبين يباعون أو يقتلون أو يدربون أو يستخدمون كزوجات من قبل رجاله، حسب الحالة. فيما يخص الخدم البيض المستعبدين، والحرفيين، وما إلى ذلك، فلم يذكرهم ديفو إلا قليلًا في هذه القصة.

التناقضات بين روبنسون وأعضاء آخرين في التسلسل الهرمي تعطي القصة دينامياتها. فهو في صراع دائم مع مشكلة إخضاع المستويات الدنيا ومحاولة القفز فوق مستواه الطبقي. حقيقة أنه لا يرى الأمر بهذه الطريقة ولكنه يفضل اختلاق قصص عن نفسه لا يشكل فرقًا. فهو ينفي التعارض بينه وبين جمعة بقبول قناع جمعة الإرادي للطاعة. وهو يعتبر جشعه جريمة بحق الله لا بحق الإنسان. لكن حياته اليومية تظهر أن علاقاته الاجتماعية عدائية وأنه يعرف ذلك.

لكن في التحليل الأخير، فإن القصة جدلية جزئيًا فقط. فنحن نسمع فقط عن كيف يدرك روبنسون التناقضات وكيف يقوم بحلها. في هذا العمل الروائي، يمكنه دائمًا دمج اثنين في واحد. في الحياة الواقعية، ينقسم الواحد إلى اثنين، ويتطور النظام إلى ما بعد تخيل الرأس مالي عن القانون والنظام المناسبين. إن علم الاقتصاد يحتاج أيضًا إلى قصة أحفاد جمعة.

⁷ ربما لأن روبنسون كروزو أستعبد من قبل المغاربة، كما جاء في القسم الأول من هذه الدراسة تحت عنوان "رأسمال التجار" حيث نقرأ أن روبنسون "ينطلق في رحلة ثانية كتاجر في غينيا من أجل كسب المزيد من رأس المال. ولكن بدلًا من ذلك يتعرض لكارثة إذ يستولي المغاربة Moors على السفينة ويصبح عبدًا في شمال أفريقيا."

هوامش الكاتب

1. Karl Marx, *Capital* (New York: International Publishers, 1967), vol. 1, 751.
2. For studies of Defoe dealing with economic aspects see: E.M. Novak, *Economics and Fiction of Daniel Defoe* (Berkeley: University of California Press, 1962); H. M. Robertson, *Aspects of the Rise of Economic Individualism* (Cambridge: Cambridge University Press, 1933); Ian Watt, *The Rise of the Novel* (Berkeley: University of California Press, 1957); Dorothy Van Ghent, *The English Novel* (New York: Harper and Row, 1961), chapter on *Moll Flanders*; Brian Fitzgerald, *Daniel Defoe* (London: Secker and Warburg, 1954); Pierre Macherey, *Pour une Theorie de la Production Litteraire* (Paris: Francois Maspero, 1966); John Richetti, *Popular Fiction Between Defoe and Richardson* (New York: Oxford University Press, 1969). All quotations and excerpts in the text of this article are from Daniel Defoe, *Robinson Crusoe* (New York: New American Library, 1961).
3. John Maynard Keynes, "Economic Possibilities for Our Grandchildren," in *Essays in Persuasion* (New York: W.W. Norton, 1963), 370.
4. See Karl Polanyi, "Aristotle Discovers the Economy," in Karl Polanyi, et. al., *Trade and Market in the Early Empires* (New York: Free Press, 1957), 64-94; A. French, *The Growth of the Athenian Economy* (London: Routledge and Kegan Paul, 1964).
5. John Maynard Keynes, "National Self-Sufficiency," *Yale Review*, vol. 22 (Summer 1933), 755-69.
6. R.D. Laing, *The Politics of Experience* (New York: Pantheon, 1967), 36.
7. Aristotle, *The Politics* (New York: Oxford University Press, 1946), book 1, chapter 5, 1254, b7-b9.

حاشية للمترجم

نشرت هذه الدراسة أصلاً في مجلة مونثلي ريفيو:

Monthly Review, 2011, Volume 63, Issue 04 (September)
[Robinson Crusoe and the Secret of Primitive Accumulation](#)

يعتبر ستيفن هايمر (1934-1974) اقتصاديا بارزا في تأسيس نظرية الشركة متعددة الجنسية، والاقتصاد السياسي لرأس المال الشركات متعددة الجنسية، وتأكيداته على سمات الاحتكار التي تميز هذه الشركات، وساهم في جعل موضوع اهتمامه مجالا للدراسة الأكاديمية. وهو أول من استخدم مصطلح الاستثمار الأجنبي المباشر Foreign Direct Investment. وقد جاء ذلك بفضل أطروحة الدكتوراه التي كتبها في عام 1960 وعرضها للنشر في عام 1976 أستاذته المشرف المؤرخ الاقتصادي شارلز كندلبرغر (1910-2003) Charles Kindleberger. وكان عنوان الأطروحة: *The International Operations Of National Firms, A Study Of Direct Foreign Investment* وهو متوفر في الشبكة العنكبوتية للتحميل:

<https://dspace.mit.edu/handle/1721.1/27375>

في مرحلة لاحقة من تطوره الفكري تحول نحو الماركسية وأخذ بتطبيق منهجها كما هو واضح في هذه الدراسة المترجمة.

هذه المعلومات مقتبسة من:

Jairus Banaji, "The Radicalisation of Stephen Hymer"

<https://www.historicalmaterialism.org/node/1829>

Christos N. Pitelis, "Stephen Hymer: Life and the Political Economy of Multinational Corporate Capital"

[Stephen Hymer: Life and the Political Economy of Multinational Corporate Capital | Contributions to Political Economy | Oxford Academic \(oup.com\)](https://www.oup.com/academic/cpe/article/21/1/9/393388)

<https://academic.oup.com/cpe/article/21/1/9/393388>

للمزيد من المعلومات راجع:

https://en.wikipedia.org/wiki/Stephen_Hymer#:~:text=Stephen%20Hymer%20is%20considered%20to,of%20theories%20of%20multinational%20enterprises.

هناك ترجمة عربية ملخص كتاب دانيال ديفو روبنسون كروزو تُقدم على أنها قصة للأطفال:

<https://www.hindawi.org/books/48246418/>

* ستيفن هايمر (1934-1974)، كان أستاذ الاقتصاد في المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية New School for Social Research، نيويورك، حتى وفاته. أنشئت في الأصل كملاذ للعلماء الفارين من الفاشية في أوروبا، وكانت تُعرف باسم "الجامعة في المنفى".

إيان أنغاس: خُرافة مأساة المشاعات

هل سيتم دائماً إساءة استخدام الموارد المشتركة والإفراط في استخدامها؟ وهل أن الملكية المجتمعية للأراضي والغابات ومصائد الأسماك هي طريق مضمون إلى كارثة إيكولوجية؟ هل الخصخصة هي السبيل الوحيد لحماية البيئة وإنهاء الفقر في العالم الثالث؟ سوف يجيب معظم الاقتصاديين ومخططي التنمية بـ "نعم" – وللدليل على ذلك سوف يشيرون إلى المقالة الأكثر تأثيراً على الإطلاق التي كتبت حول هذه الأسئلة المهمة.

منذ نشرها في مجلة العلوم *Science* في ديسمبر 1968، تم ضم مقالة "مأساة المشاعات" ضمن 111 كتاباً على الأقل، مما يجعلها واحدة من أكثر المقالات التي أعيد طباعتها على الإطلاق في أي مجلة علمية. وهي أيضاً واحدة من أكثر الكلمات اقتباساً: فقد وجد في محرك البحث Google مؤخراً "حوالي 302000" نتيجة لعبارة "مأساة المشاعات".

لقد كانت المقالة ولمدة 40 عاماً، على حد تعبير ورقة نقاش صادرة من البنك الدولي، "النموذج السائد الذي يقيم من خلاله علماء الاجتماع قضايا الموارد الطبيعية." (Bromley and Cernea 1989: 6). واستُخدمت مراراً وتكراراً لتبرير سرقة أراضي السكان الأصليين، وخصخصة الرعاية الصحية وغيرها من الخدمات الاجتماعية، ومنح الشركات "تصاريح قابلة للتداول"¹ "tradable permits" لتلويث الهواء والماء، وغير ذلك الكثير.

عالم الأنثروبولوجيا الشهير الدكتور ج. ن. أبيل Dr. G.N. Appell (1995: 34-5) كتب أن المقالة "تم تبنيها كنص مقدس من قبل العلماء والمهنيين الذين يعملون في تصميم [خطط] المستقبل للآخرين وفرض

¹ تصاريح التلوث القابلة للتداول tradable pollution permits هي حصص منظمة regulated تهدف إلى الحد من التلوث، تسمح للشركات بإنتاج الحد الأقصى من انبعاثات التلوث كما تقررها الحكومات. إذا كان حجم التلوث فوق ما هو مسموح به في هذه الحصص، تتعرض الشركات المنتجة للانبعاثات إلى غرامة. وإذا وجدت الشركات أنها تنتج تلوثاً أقل من الحصص المخصص لها، فيمكنها بيع ما يفضل من حصتها المقررة في التصاريح لشركة أخرى تحتاج إلى المزيد من التصاريح لمواصلة أنشطتها. (المترجم)

عقلانيتهم الاقتصادية والبيئية على الأنظمة الاجتماعية الأخرى التي ليس لديهم فهم ومعرفة كاملة لها."

مثل معظم النصوص المقدسة، يتم الاستشهاد بمقالة "مأساة العموم" أكثر من قراءتها. وكما سنرى، على الرغم من أن عنوانها يبدو موثقاً وعلمياً، إلا أنه افتقر للعلم كثيراً.

غاريت هاردن يؤلّد خُرافة

كان كاتب "مأساة العموم" غاريت هاردن Garrett Hardin، الأستاذ بجامعة كاليفورنيا والذي كان حتى ذلك الحين معروفاً بأنه مؤلف كتاب لعلم الأحياء والذي دافع عن "السيطرة على تكاثر" الأشخاص "المعييين وراثياً" (Hardin 1966: 707). في مقالته عام 1968، قال إن المجتمعات التي تنقسم الموارد تمهد حتماً الطريق لتدميرها؛ فبدلاً من الثروة للجميع، لن تظلّ ثروة لأحد.

لقد بنى هاردن حجته على قصة عن المشاعات في ريف إنجلترا.

(كان مصطلح "المشاعات" "commons" يستخدم في إنجلترا للإشارة إلى المراعي والحقول والغابات وأنظمة الري وغيرها من الموارد المشتركة التي كانت موجودة لفترة طويلة في العديد من المناطق الريفية وامتدت حتى من القرن التاسع عشر. وكانت هناك ترتيبات زراعية جماعية مماثلة في معظم أنحاء أوروبا، ولا تزال موجودة حتى اليوم بأشكال مختلفة في جميع أنحاء العالم، وخاصة في مجتمعات السكان الأصليين).

كتب هاردن: "تخيل مرعى مفتوحاً للجميع." إن الراعي الذي يريد توسيع قطيعه الشخصي سوف يحسب أن تكلفة الرعي الإضافي (انخفاض [كمية] الغذاء [العلف] لجميع الحيوانات، واستنزاف التربة السريع) سيتم تقسيمها بين الجميع، لكنه وحده سيحصل على فائدة وجود المزيد من الماشية للبيع.

ومن المحتم أن "يستنتج الراعي العقلاني أن المسار المعقول الوحيد الذي يجب عليه اتباعه هو إضافة حيوان آخر إلى قطيعه." لكن كل "راع عقلاني" سيفعل الشيء نفسه، لذلك سرعان ما تصبح المشاعات مكتظة

وترعى بشكل مفرط إلى درجة أنها لا تستطيع إعالة أي حيوانات على الإطلاق.

استخدم هاردن كلمة "مأساة" "tragedy" كما فعل أرسطو، للإشارة إلى النتيجة الدرامية التي هي النتيجة الحتمية ولكن غير المخطط لها لأفعال الشخصية الدرامية. لقد وصف تدمير المشاعات من خلال الإفراط في الاستخدام بالمأساة، ليس لأنه أمر محزن، ولكن لأنه نتيجة حتمية للاستخدام المشترك للمراعي. "الحرية في المشاعات تجلب الخراب للجميع."

أين الدليل؟

وبالنظر إلى التأثير اللاحق لمقالة هاردن، فمن المثير للصدمة أن ندرك أنه لم يقدم أي دليل على الإطلاق لدعم استنتاجاته الشاملة. وادعى أن "المأساة" كانت حتمية، لكنه لم يبين حدوثها ولو مرة واحدة.

لقد تجاهل هاردن ببساطة ما يحدث بالفعل في المشاعات الحقيقية: التنظيم الذاتي من قبل المجتمعات المعنية. وقد وجاء وصف لإحداها قبل سنوات عديدة في عرض فريدريك إنجلز لـ "المارك"² وهو الشكل الذي اتخذته المجتمعات القائمة على المشاعات في أجزاء من ألمانيا ما قبل الرأسمالية:

كان استخدام الأراضي الصالحة للزراعة والمروج تحت إشراف وتوجيه الجماعة....

وكما أن نصيب كل عضو في القدر الذي تم توزيعه من المارك كان متساوياً في الحجم، كذلك كان نصيبه أيضاً في استخدام "المارك المشترك". وكانت طبيعة هذا الاستخدام تحدد من قبل أفراد الجماعة ككل....

وفي أوقات محددة، وإذا لزم الأمر، بشكل متكرر، كانوا يجتمعون في الهواء الطلق لمناقشة شؤون المارك mark

² نظام اجتماعي يقوم على الحيابة والزراعة المشتركة للأرض (المترجم). يمكن قراءة ما كتبه إنجلز بالنقر على هذا الرابط: <https://www.marxists.org/archive/marx/works/1892/12/mark.htm> أو في كتابه: Frederick Engels, *The Peasant War in Germany* (Moscow: Progress Publishers, fifth printing 1977), Appendix I, pp 135-153.

والحكم على مخالفات الأنظمة والنزاعات المتعلقة بالمارك.
(Engels 1892)

وقد أكد المؤرخون وغيرهم من العلماء على نطاق واسع وصف إنجلز
لإدارة الجماعية للموارد المشتركة. فقد جاء في ختام ملخص لبحوث
حديثه ما يلي:

ما كان موجوداً في الواقع لم يكن "مأساة للمشاعات" بل كان
انتصاراً: لمئات السنين – وربما الآلاف، على الرغم من عدم
وجود سجلات مكتوبة لإثباته لفترة أطول – حيث كانت
الأراضي تدار بنجاح من خلال الجماعات communities.
(Cox 1985: 60)

كان جزء من عملية التنظيم الذاتي self-regulation معروفاً في إنجلترا
باسم "التقتير" "stinting" – وضع حدود لعدد الأبقار والخنازير
والأغنام وغيرها من الماشية التي يمكن لكل شخص من عامة الناس رعيها
في المرعى المشاع. وكان مثل هذه "التقتير" يحمي الأرض من الإفراط
في الاستخدام (وهو المفهوم الذي فهمه المزارعون ذوو الخبرة قبل وقت
طويل من وصول هاردن) وسمحت للمجتمع بتخصيص الموارد وفقاً
لمفاهيم المجتمع الخاصة بالإنصاف.

الحالات المهمة الوحيدة من الإفراط [في عدد الماشية] التي اكتشفها الخبير
الحديث الرائد في المشاعات الإنجليزية تتعلق بملاك الأراضي الأثرياء
الذين وضعوا عمداً عدداً كبيراً جداً من الحيوانات في المراعي من أجل
إضعاف موقف جيرانهم الأكثر فقراً في النزاعات حول تسبيج
enclosure (خصخصة) الأراضي المشاعة (Neeson 1993: 156)

افترض هاردن أن المزارعين الفلاحين غير قادرين على تغيير سلوكهم في
مواجهة كارثة معينة. ولكن في العالم الحقيقي، أنشأ صغار المزارعين
وصيادي الأسماك وغيرهم مؤسساتهم وقواعدهم الخاصة للحفاظ على
الموارد وضمان بقاء مجتمع المشاعات على قيد الحياة خلال السنوات
الجيدة والسيئة.

لماذا يريد الراعي المزيد؟

تبدأ حجة هاردن بتأكيد غير مثبت على أن الرعاة يريدون دائماً توسيع قطعانهم: "من المتوقع أن يحاول كل راع الاحتفاظ بأكثر عدد ممكن من الماشية في المشاعات ... ككائن عقلاني، يسعى كل راع إلى تعظيم مكاسبه."

باختصار، كان استنتاج هاردن محدداً مسبقاً من خلال افتراضاته. ذلك أنه "من المتوقع" أن يحاول كل راعي تعظيم حجم قطيعه — وكل واحد يفعل ذلك بالضبط. إنها حجة دائرية circular argument لا تثبت شيئاً.

افترض هاردن أن الطبيعة البشرية أنانية وغير متغيرة، وأن المجتمع مجرد تجمع لأفراد مهتمين بذواتهم ولا يهتمون بتأثير أفعالهم على المجتمع. وتشكل الفكرة نفسها، صراحةً أو ضمناً، عنصراً أساسياً في النظرية الاقتصادية السائدة (أي المؤيدة للرأسمالية).

وتشير كل الأدلة (ناهيك عن المنطق السليم) إلى أن هذا أمر سخيف: فالناس كائنات اجتماعية، والمجتمع أكبر بكثير من المجموع الحسابي لأعضائه. وحتى المجتمع الرأسمالي، الذي يكافئ السلوك الأكثر مناهضة للمجتمع، لم يسحق التعاون والتضامن الإنساني. إن حقيقة أن "الرعاة العقلانيين" لم يفرطوا في الرعي على مدى قرون من الزمن تدحض افتراضات هاردن الأساسية — لكن هذا لم يمنعهم من إنشاء قلاع للسياسيات على أسس من الرمال.

وحتى لو أراد الراعي أن يتصرف كما وصف هاردن، فإنه لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا إذا توافرت شروط معينة.

يجب أن يكون هناك سوق للماشية، ويجب عليه التركيز على الإنتاج لهذا السوق، وليس للاستهلاك المحلي. ويجب أن يكون لديه رأس مال كافٍ لشراء الماشية الإضافية والأعلاف التي تحتاجها الماشية في الشتاء. ولا بد أن يكون قادراً على استئجار عمال لرعاية القطيع الأكبر حجماً، وبناء حظائر أكبر، وما إلى ذلك. ولا بد أن تفوق رغبته في الربح مصلحته في بقاء مجتمعه على المدى الطويل.

باختصار، لم يصف هاردن سلوك الرعاة في المجتمعات الزراعية ما قبل الرأسمالية — بل وصف سلوك الرأسماليين العاملين في الاقتصاد الرأسمالي. إن الطبيعة البشرية الكونية التي ادعى أنها ستدمر دائماً

الموارد المشتركة هي في الواقع سلوك الشركات القائم على الربح "النمو أو الموت".

هل سيكون أداء الملكية الخاصة أفضل؟

ويقودنا هذا إلى خلل قاتل آخر في حجة هاردن: فبالإضافة إلى عدم تقديم أي دليل على أن الحفاظ على المشاعات من شأنه أن يؤدي حتماً إلى تدمير البيئة، فإنه لم يقدم أي مبرر لرأيه بأن الخصخصة من شأنها أن تنقذ البيئة. مرة أخرى، قدّم ببساطة تحيزاته الخاصة على أنها حقيقة:

يجب علينا أن نعترف بأن نظامنا القانوني للملكية الخاصة بالإضافة إلى نظام الميراث غير عادل — ولكننا نتحمله لأننا غير مقتنعين، في الوقت الحالي، بأن أي شخص قد اخترع نظاماً أفضل. إن بديل المشاعات أمر مرعب للغاية بحيث لا يمكن التفكير فيه. فالظلم أفضل من الخراب الشامل.

والمغزى من ذلك هو أن أصحاب القطاع الخاص سوف يقومون بعمل أفضل في رعاية البيئة لأنهم يريدون الحفاظ على قيمة أصولهم. في الواقع، قام الباحثون والناشطون بتوثيق عشرات الحالات التي أدى فيها تقسيم وخصخصة الأراضي المدارة بشكل جماعي إلى نتائج كارثية. وقد أدت خصخصة المشاعات مراراً وتكراراً إلى إزالة الغابات، وتآكل التربة واستنزافها، والإفراط في استخدام الأسمدة والمبيدات الحشرية، وتدمير النظم الإيكولوجية ecosystems

وكما كتب كارل ماركس، تتطلب الطبيعة دورات طويلة من الولادة والتطور والتجديد، لكن الرأسمالية تتطلب عوائد قصيرة الأجل.

إن روح الإنتاج الرأسمالي بأكمله، الموجه نحو تحقيق الأرباح النقدية المباشرة، يتعارض مع الزراعة، التي يجب أن تهتم بسلسلة كاملة من ظروف الحياة الدائمة التي تتطلبها سلسلة الأجيال البشرية. ومن الأمثلة الصارخة على ذلك الغابات، التي نادراً ما تتم إدارتها بطريقة تتوافق إلى حد ما مع مصالح المجتمع ككل. . . . (Marx 1998: 611n)

وخلافاً لادعاءات هاردن، فإن المجتمع الذي يتقاسم الحقول والغابات لديه حافز قوي لحمايتها بأقصى ما يستطيع، حتى لو كان ذلك يعني عدم تعظيم الإنتاج الحالي، لأن هذه الموارد سوف تشكل ضرورة أساسية لبقاء المجتمع لقرون قادمة. أما المالكون الرأسماليون فلهم الحافز المعاكس، لأنهم لن يتمكنوا من البقاء في عالم الأعمال إذا لم يعملوا على تعظيم أرباحهم على المدى القصير. فإذا وعدَ الإيثانول بأرباح أكبر وأسرع من تلك التي حققتها الغابات المطيرة التي يعود تاريخها إلى قرون مضت، عندها ستسقط الأشجار.

وقد بلغ هذا التركيز على المكاسب القصيرة الأجل نقطة من السخافة المروعة في الكتب الأكثر مبيعاً التي ألفها بيورن لومبورج، وويليام نوردهاوس Bjorn Lomborg, William Nordhaus، وآخرون، الذين يزعمون أنه من غير العقلاني إنفاق الأموال لوقف انبعاثات الغازات الدفيئة اليوم، لأن المردود هو بعيداً جداً في المستقبل. ويقولون إن الاستثمارات الأخرى ستنتج عوائد أفضل بكثير وبسرعة أكبر.

إن إدارة المجتمع ليست طريقة معصومة من الخطأ لحماية الموارد المشتركة: فقد أساءت بعض المجتمعات إدارة الموارد المشاعة، وربما تم الإفراط في استخدام بعض المشاعات حتى الانقراض. ولكن لا يوجد مجتمع قائم على المشاعات يتمتع بالدافع المتأصل في الرأسمالية لوضع الأرباح الحالية قبل رفاهية أجيال المستقبل.

خُرافة مفيدة سياسيًا

إن الأمر المروع حقاً في "مأساة المشاعات" ليس افتقارها إلى الأدلة أو المنطق — فالمقالات سيئة البحث والمحااجة ليست غير معروفة في المجالات الأكاديمية. الأمر الصادم هو حقيقة أن هذا الهراء الرجعي قد تم الترحيب به باعتباره تحليلاً رائعاً لأسباب المعاناة الإنسانية والدمار البيئي، وتم اعتماده كأساس للسياسة الاجتماعية من قبل خبراء مزعومين بدءاً من الاقتصاديين وعلماء البيئة إلى الحكومات ووكالات الأمم المتحدة.

وعلى الرغم من دحضها مراراً وتكراراً، فإنها لا تزال تستخدم اليوم لدعم الملكية الخاصة والأسواق غير الخاضعة للرقابة باعتبارها طرقاً مؤكدة لتحقيق النمو الاقتصادي.

يعكس نجاح حجة هاردن فائدتها كتفسير علمي زائف للفقير العالمي والتفاوت بين الناس، وهو تفسير لا يشكك في النظام الاجتماعي والسياسي السائد. فهو يؤكد تحيزات من هم في السلطة: فالأخطاء المنطقية والواقعية لا شيء مقارنة بالادعاء الجذاب للغاية (في نظر الأغنياء) بأن الفقراء مسؤولون عن فقرهم. إن حقيقة أن حجة هاردن تلوم الفقراء أيضاً على التدمير الإيكولوجي هي إضافة لهذا النهج.

تم استخدام مقالة هاردن على نطاق واسع كرد فعل أيديولوجي على الحركات المناهضة للإمبريالية في العالم الثالث والسخط بين السكان الأصليين وغيرهم من الشعوب المضطهدة في كل مكان في العالم.

لقد تبنت قوى الرجعية الليبرالية الجديدة في السبعينيات حكاية هاردن الخرافية، وأصبحت مقالاته الأساس "العلمي" لسياسات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، أي تسييج المشاعات وخصخصة الممتلكات العامة. . . . والرسالة واضحة: لا ينبغي لنا أبداً أن نتعامل مع الأرض باعتبارها "خزانة مشتركة". يجب أن نكون قساة وجشعين وإلا فإننا سوف نهلك. (Boal 2007)

في كندا، تستخدم جماعات الضغط المحافظة الحجج المستمدة من مقالة هاردن السياسية لتبرير الفقر في محميات الأمم الأولى 'First Nations reserves' وللمطالبة بمزيد من تفكيك مجتمعات السكان الأصليين. فقد حثت دراسة نشرها معهد فريزر المؤثر على خصخصة الأراضي المحمية:

هذه المساحات الكبيرة من الأراضي، وما فيها من موارد طبيعية، لن تحقق أقصى فائدة لسكان كندا الأصليين طالما أنها مملوكة كملكية جماعية خاضعة لإدارة سياسية الملكية الجماعية هي طريق الفقر، والملكية الخاصة هي طريق الرخاء. (Fraser 2002: 16-17)

وهذا ليس مجرد موقف يميني. فقد أعلنت الحكومة الفيدرالية الكندية، التي رفضت التوقيع على إعلان الأمم المتحدة بشأن حقوق الشعوب الأصلية United Nations Declaration on the Rights of Indigenous Peoples، في عام 2007 أنها "ستعمل على تطوير أساليب لدعم تنمية الملكية الفردية في المحميات [محميات الهنود الحمر]" وأنشأت صندوقاً بقيمة 300 مليون دولار للقيام بذلك.

في عالم هاردن، فإن الفقر لا علاقة له بقرون من العنصرية والاستعمار والاستغلال: فالفقر أمر لا مفر منه وطبيعي في كل زمان ومكان، وهو نتاج الطبيعة البشرية الثابتة. ويجلب الفقراء ذلك على أنفسهم من خلال إنجاب عدد كبير جدًا من الأطفال والتشبث بالجماعية collectivism المدمرة للذات.

إن مأساة المشاعات عبارة عن خرافة سياسية مفيدة — وهي طريقة تبدو علمية للقول بأنه لا يوجد بديل للنظام العالمي المهيمن.

وبعد تجريده من الإسهاب الزائد، أكدت مقالة هاردن، دون أي دليل، على أن البشر أسرى عاجزون للبيولوجيا والسوق. وما لم يتم ضبطنا، فسوف ندمر حتمًا مجتمعاتنا وبيئتنا مقابل بضعة قروش إضافية من الربح. لا يوجد شيء يمكننا القيام به لجعل العالم أفضل أو أكثر عدلاً.

في عام 1844، وصف فريدريك إنجلز حجة مماثلة بأنها "تجديف مثير للاشمئزاز ضد الإنسان والطبيعة". تنطبق هذه الكلمات بكل قوة على خرافة مأساة المشاعات.

المراجع المذكورة في النص

Appell, G. N. 1993. ["Hardin's Myth of the Commons: The Tragedy of Conceptual Confusions."](#)

Boal, Iain. 2007. ["Interview: Specters of Malthus: Scarcity, Poverty, Apocalypse."](#) CounterPunch, September 11, 2007.

Bromley, Daniel W. and Cernea Michael M. 1989. ["The Management of Common Property Natural Resources: Some Conceptual and Operational Fallacies."](#) World Bank Discussion Paper.

Cox, Susan Jane Buck. 1985. ["No Tragedy on the Commons."](#) Environmental Ethics 7.

Engels, Friedrich. 1892. ["The Mark."](#)

Engels, Friedrich. 1844. [Outlines of a Critique of Political Economy.](#)

Fraser Institute. 2002. [Individual Property Rights on Canadian Indian Reserves.](#)

Hardin, Garrett. 1966. *Biology: Its Principles and Implications*. Second edition. San Francisco. W.H. Freeman & Co.

Hardin, Garrett. 1968. ["The Tragedy of the Commons."](#)

Marx, Karl. [1867] 1998. *Marx Engels Collected Works Vol. 37 (Capital, Vol. 3)*. New York: International Publishers

Neeson, J.M. 1993. [Commoners: Common Right, Enclosure and Social Change in England, 1700-1820](#). Cambridge University Press.

* إيان أنغاس (من مواليد 1945)، ناشط كندي في مجال الاشتراكية البيئية، محرر مجلة المناخ والرأسمالية، وعضو تنفيذي مؤسس في الشبكة الاشتراكية البيئية العالمية. للمزيد من المعلومات راجع: [https://en.wikipedia.org/wiki/Ian_Angus_\(activist\)](https://en.wikipedia.org/wiki/Ian_Angus_(activist))

يمكن قراءة النص الإنجليزي للمقال بالنقر على الرابط التالي:

Ian Angus, 'The Myth of the Tragedy of the Commons'

<http://mrzine.monthlyreview.org/2008/angus250808.html>

بيتر دولاك*: مراجعة كتاب إيان آنغاس*: الحرب ضد المشاعات: السلب والمقاومة في صنع الرأسمالية

نشرت هذه المراجعة في موقع المناخ والرأسمالية Climate & Capitalism تحت عنوان "إذا كانت الرأسمالية "طبيعية، فلماذا استُخدم كل هذا القدر من القوة لبنائها؟"

Ian Angus. [THE WAR AGAINST THE COMMONS: Dispossession and Resistance in the Making of Capitalism](#), Monthly Review Press, 2023

إذا كانت الرأسمالية نتيجة طبيعية للطبيعة البشرية، فلماذا كان العنف المنهجي والقوانين الصارمة ضرورية لتأسيسها؟ وإذا كان الجشع greed هو الدافع الأساسي للبشر، فكيف يمكن أن تكون الغالبية العظمى من الوجود البشري في مجتمعات الصيد وجمع الثمار حيث كان التعاون هو السلوك الأكثر قيمة؟

إن المصنفين للرأسمالية — الذين يطرحون حججاً لا نهاية لها بأن الجشع ليس أمراً جيداً فحسب، بل هو الدافع البشري السائد — يميلون إلى عدم الخوض في الحديث عن نشأة النظام، مفترضين أنه كان موجوداً دائماً أو أنه نتيجة "طبيعية" للتطور. ومن المثير للاهتمام أن منتقدي الرأسمالية يبدون أكثر اهتماماً بأصول النظام من اهتمام مؤيديه. ولعل التاريخ الدموي لكيفية حلول الرأسمالية ببطء محل الإقطاع في شمال غرب أوروبا، ثم انتشارها من خلال العبودية والغزو والاستعمار والضربات الروتينية للقوة الغاشمة، يجعل الصورة أقل جاذبية. وليس من قبيل الصدفة أن كتب ماركس¹: "إذا جاء المال إلى العالم عند الولادة ببقعة دم على خده، فإن رأس المال يأتي مقطراً من الرأس إلى القدم، من كل مسام، بالدم والتراب."

ومن بين هذا العنف الذي مارسه النخب في تلك الأوقات والحكومات التي كانت تخدم نخب مجتمعاتها، كما هو الحال الآن، هو أن الفلاحين والعمال الأوائل لا بد أنهم قاوموا. وبالفعل فعلوا ذلك. هناك تاريخ طويل من مقاومة الهجمات الرأسمالية، على الرغم من أن الحركات، المنظمة وغيرها

¹ [Marx wrote](#)

Karl Marx, *Capital*, Volume One, Chapter Thirty-One: Genesis of the Industrial Capitalist.

الكثير التي كانت عفوية، لم تكن قادرة على تحقيق عالم أكثر إنسانية وإنصافاً، إلا أن هذه تواريخ تستحق المعرفة. الكتاب الجديد الصادر من دار النشر Monthly Review Press، بعنوان **الحرب ضد المشاعات، السلب والمقاومة في صنع الرأسمالية**، بقلم إيان أنغاس، يعيد الحياة إلى الكثير من هذا التاريخ.²

من خلال التركيز على مسقط رأس الرأسمالية، إنجلترا، كان السيد أنغاس صريحاً بشأن التفاصيل العنيفة التي تكشف منذ القرن الخامس عشر وحتى الثورة الصناعية، "وركّز على الحالة الأولى والأكثر اكتمالاً، وهي الحرب التي استمرت قروناً ضد المشاعات الزراعية، المعروفة باسم التسييج enclosure [استملاك المشاعات من خلال التسييج] في إنجلترا والتطهير clearances [الإخلاء القسري لسكان المرتفعات والجزر الغربية في اسكتلندا، بدءاً من منتصف إلى أواخر القرن الثامن عشر] في اسكتلندا. في فجر الرأسمالية (التي يُنظر إليها على أنها نشأت في القرن السادس عشر على الرغم من أنها لم تترسخ حتى وقت لاحق)، كانت إنجلترا واسكتلندا مأهولة بأغلبية ساحقة من المزارعين، مثل بقية العالم. على الرغم من وجود العمل المأجور، إلا أن عددًا قليلاً جداً من الأشخاص كانوا يعتمدون عليه، ولم يحدث الاعتماد الشامل على العمل المأجور إلا في ظل الرأسمالية.

وبالتالي فإن الإبعاد القسري عن الأرض، والحيلولة دون الوصول إلى الأراضي المشاعة ووضع حد للقدرة على العيش دون العمل من أجل الآخرين، كان ضرورياً لتطور الرأسمالية، وهذا هو موضوع الحرب ضد المشاعات. في مقدمته، يوضح السيد أنغاس ذلك بلغة واضحة لا لبس فيها:

"لكي ينتصر العمل المأجور، كان لا بد من وجود أعداد كبيرة من الناس الذين لم يعد الاكتفاء الذاتي خياراً متاحاً لهم. إن التحول، الذي بدأ في

² [Monthly Review | New! The War Against the Commons: Dispossession and Resistance in the Making of Capitalism](#)

يبدو أنه ليس هناك حدود فاصلة في ترجمة كلمة commons إلى اللغة العربية، فتارة هي "المشترك" وتارة "المشاعة/المشاعات" أو منسوخة كمقابل للمفردة الأجنبية "كومونة" أو "كوميون". وقد وجدنا في أحد الدراسات مبادلاً لاستخدام كلمة "المشترك" لكونه "مرادفاً لكلمة "الشيوخ" مع فرق أساسي هو أن الاشتراك يفترض أناس وأشخاص متشاركين، والشيوخ يعني الأشياء المتشارك فيها". راجع: المشترك: نظام الاشتراكية الديمقراطية في ضوء تاريخ المجتمع الإسلامي وخبرة الثورات الاشتراكية الحديثة (منشورات الحزب الشيوعي العراقي-القيادة المركزية، 1983)، ص 13.

إنجلترا في القرن الخامس عشر، لم يقتصر على إلغاء الاستخدام المشاعي للأرض فحسب، بل وأيضاً إلغاء الحقوق المشتركة التي سمحت حتى لأشد الناس فقراً بالوصول إلى وسائل العيش الأساسية. إن الحقوق في الصيد أو صيد الأسماك من أجل الغذاء، وجمع الحطب والنباتات الصالحة للأكل، وجمع الحبوب المتبقية في الحقول بعد الحصاد، ورعي بقرة أو اثنتين في الأراضي غير المطورة — قد تم محو تلك الحقوق وغيرها من الحقوق المشتركة، وحل محلها الحق الحصري لأصحاب الأملاك في استخدام ثروات الأرض.

لم توجد الرأسمالية إلا منذ بضعة قرون، بينما جاب البشر الأرض منذ مئات الآلاف من السنين. هذه بالطبع ليست حجة مفادها أننا يجب أن نعود إلى حياة الصيد وجمع الثمار — وهو أمر مستحيل تماماً نظراً لحجم السكان حتى لو كان ذلك مرغوباً — ولكنه ببساطة اعتراف بأن الرأسمالية ليست "طبيعية"؛ إن وجودها ليس إلا غمضة عين في تاريخ البشرية.

قلب مأساة المشاعات على قدميها

بطبيعة الحال، يتعين على السيد أنغاس أن يزيل أولاً المفاهيم الخاطئة التي تم نشرها بشكل جيد. في البداية، قام بإسقاط "مأساة المشاعات" tragedy of the commons، وهي عبارة عن نموذج من الهراء النيوليبرالي الذي نواجهه كثيراً. إن صاحب مفهوم "مأساة المشاعات"، وهو حجة إيديولوجية لخصخصة كل شيء، هو أستاذ لعلم الأحياء الذي ناقش في كتابه المدرسي ضرورة "السيطرة على تناسل" الأشخاص "من ذوي العيوب الوراثية".

ويشير السيد أنغاس إلى أن هذا الأستاذ "لم يكن لديه أي تأهيل أو معرفة خاصة بالتاريخ الاجتماعي أو الزراعي" عند كتابة مقالته، التي نُشرت في عام 1968. لكن "الأطروحة" كانت مفيدة سياسياً، حيث تم استخدامها لتبرير سرقة أراضي الشعوب الأصلية، وخصخصة الرعاية الصحية والخدمات الاجتماعية، وغير ذلك الكثير. إن ما توكده "أطروحة" "مأساة المشاعات" هو أن الأراضي المملوكة والمستخدمية بشكل مشاعي سيتم حتماً الإفراط في استخدامها وتدميرها لأن الجميع سيرغبون في استخدام المزيد من الموارد المشاعة، مثل إدخال المزيد من الحيوانات إلى المرعى، بحيث يكون "الخراب المشترك" هو النتيجة.

يشير كتاب **الحرب ضد المشاعات** إلى غياب أي دليل في هذه المقالة؛ إذ اكتفى صاحبها بمجرد التأكيد على أطروحتها. لكن الزراعة القائمة على المشاعات استمرت لعدة قرون؛ هذا النجاح في حد ذاته يدحض هذه الأطروحة. أولئك الذين درسوا بالفعل كيفية استخدام المشاعات وقدموا أدلة فعلية لأعمالهم يثبتون أن الفلاحين كان لديهم أنظمة متطورة لإدارة المشاعات وتنظيم تربية الحيوانات.

في أوائل القرن السادس عشر، كان 80% من المزارعين الإنجليز يزرعون لأنفسهم بينما أرسل الـ 20% المتبقين بعضًا من إنتاجهم إلى الأسواق، لكن القليل من هؤلاء استخدموا العمالة. ومع ذلك، بدأت الاختلافات في الظهور، حيث بدأ سماع الشكاوى حول التسييج في ثمانينيات القرن الخامس عشر، وتسارعت العملية في القرن السادس عشر. كتب السيد أنغاس أن مستشار الملك هنري الثامن أدان عمليات التسييج، وتم إقرار سلسلة من القوانين ضد هذه الممارسة، ولكن لم يكن لها أي تأثير. (يبدو أن الملك لم يأخذ أي نصيحة من هذا القبيل؛³ فقد تم شنق عشرات الآلاف خلال فترة حكمه [1509-1547] باعتباره "متشردين" أو "لصوصًا" خلال فترة انتفاضات الفلاحين المتكررة).

يجادل السيد أنغاس بأن فشل تشريعات ملوك تيودور⁴ Tudor المناهضة للتسييج كان بسبب استهداف التشريعات للعواقب وليس الأسباب، وأن الحكام كانوا من طبقة الأعيان gentry المحليين الذين وقفوا باستمرار إلى جانب زملائهم. ومهما يكن الأمر، أجرى هنري الثامن مصادرة واسعة النطاق لأراضي الكنيسة ثم باع معظمها إلى اللوردات، وذلك لأنه كان في حاجة إلى جمع الإيرادات لحروبه. إن دمج المزارع الكبيرة يعني أنه سيكون هناك مساحة لعدد أقل من المزارع الصغيرة. كانت معارضة الملكية الخاصة للأرض والجشع في إنجلترا في القرن السادس عشر في كثير من الأحيان دينية، لكن الدعاة البروتستانت كانوا يدينون الجشع من جانب وفي نفس الوقت يدينون كل تمرد.

ومع ذلك، كان هناك تمرد. فقد حارب المحرومون العمل المأجور، والذي كان يُنظر إليه عادةً على أنه "أفضل قليلاً من العبودية" و"الملاذ الأخير" لهم عندما تم استبعاد جميع الخيارات الأخرى. في أواخر القرن الخامس

³ "Opening our eyes to how capitalism began" Systemic Disorder website. [tens of thousands were hung](https://www.systemicdisorder.com/10-thousands-were-hung)

⁴ حكم ملوك تيودور بريطانيا في الفترة 1485-1603 (المترجم)

عشر وحتى القرن السادس عشر، كانت معظم المسيجات عبارة عن عمليات إخلاء مادي، وغالبًا ما كانت عمليات الإخلاء تشمل قرى بأكملها؛ بعد عام 1550، كان مُلاك الأراضي يتفاوضون في كثير من الأحيان مع أكبر المزارعين المستأجرين tenant farmers لديهم، والذين تم إدخالهم الآن في الأسواق الرأسمالية، لتقسيم المشاعات والأراضي غير المطورة فيما بينهم. ولم يحصل المعدمون وأصحاب الحيازات الصغيرة smallholders على شيء؛ وتضاعف عدد العمال الزراعيين الذين لا يملكون أرضًا أربع مرات من عام 1560 إلى عام 1620. واستُكملت الضغوط الاقتصادية بالإكراه من قبل الدولة لإجبار المحرومين على العمل المأجور. فقد تم ترجمة سلسلة من التدابير الوحشية إلى قوانين. وعلى الرغم من عدم وجود فرص عمل كافية لأولئك الذين أُجبروا على العمل بأجر، فقد تم تصنيف أولئك الذين ليس لديهم عمل على أنهم "متسعون" و"متشردون" ويخضعون لعقوبات صارمة.

على سبيل المثال، وفقًا لقانون صدر عام 1547 فإن أي فرد "متشرد" يرفض عرضًا للعمل يُوسم بالكَيّ بحديد ساخن و "يُستعبد حرفيًا لمدة عامين". وكان العبد الجديد يخضع لوضع حلقات حديدية حول رقبته وأرجله ويتعرض للضرب. وينص قانون صدر عام 1563 على أنه يمكن إجبار أي رجل أو امرأة حتى سن 60 عامًا على العمل في أي مزرعة تقوم بتشغيلهم، وأي شخص يعرض أو يقبل أجورًا أعلى من تلك التي حددها أصحاب العمل المحليون الذين يعملون كقضاة يمكن أن يُزج بهم في السجن. وكان هناك حاجة إلى إذن كتابي لتترك العمل تحت وطأة الجلد والسجن. وتنص قوانين أخرى على "الجلد في الشوارع حتى إراقة الدماء" مع إعدام مرتكبي الجرائم المتكررة. وتم إرسال العديد من المدانين بشكل متزايد إلى المستعمرات كخدم بالسخرة indentured servants ، تحت رحمة أسيادهم في العالم الجديد.

كانت هذه هي الرحمة الرقيقة التي أظهرها الرأسماليون الناشئون والدولة الموجهة بشكل متزايد نحو خدمة مصالح الرأسماليين.

القوة تصنع الحق كأساس

ومع الصعود المتزامن لصناعاتي الفحم الحجري والنسيج، كانت هناك حاجة للعمال، وكانت القوانين الصارمة هي الطريق لإجبار الناس على العمل بأجور منخفضة، وساعات طويلة، وظروف خطيرة في بعض

الأحيان. لقد أدى تعدد الفهم نفسه إلى ظهور المزيد من المناطق المسيجة في القرن السادس عشر. ووجد بعض الملاك أن تعدد الفهم كان أكثر ربحية بالنسبة لهم من استئجار الأراضي الزراعية، مما يتطلب نزع ملكية المستأجرين، ويمكن أن يُسرق أصحاب الحيازات الصغيرة المتبقين من أراضيهم لأنهم مُنعوا من رفض السماح [للملاك] للوصول إلى المعادن الموجودة تحت أراضيهم. إن التجليات المبكرة لـ "حقوق الملكية" في الوقت الحالي اتخذت صيغة مفادها: إذا كنت قويًا بما يكفي، فإن القوة تصبح حقًا.⁵

على الرغم من أن الكثير من المقاومة كانت عبارة عن انتفاضات عفوية، إلا أنه كانت هناك حملات منظمة. كانت هناك حركتان هما الحفّارون Diggers والمساواتيون Levellers. يرجع أصل كنيّة المساواتيون إلى "تسوية" الأسيجة والأسوار الحجرية التي استخدمها أصحاب الأراضي لترسيم حدود الأراضي التي قاموا بتسييجها؛ فقد قامت هذه المجموعات المنظمة بإزالة هذه الحدود بشكل متكرر. وكان الحفّارون عبارة عن حركة جماعية أسسها جيرارد وينستاني⁶ Gerrard Winstanley والتي سعت إلى تطبيق النظرية في ممارسات أفضل. فقد أنشأ الحفّارون كومونات communes على الأراضي المشاعة، في البداية على تل بالقرب من لندن. جميع الأعضاء يحصلون على حصة من الإنتاج مقابل المساعدة في زراعة الأرض.

وضع وينستاني برنامجًا انتقد فيه وحشية الأثرياء، وذكر أن الطريق إلى الحرية يمرّ عبر الملكية المشتركة للأرض. ووفق البرنامج تم حظر العمل المأجور والملكية الخاصة للأراضي وشراء وبيع الأراضي في مجتمعات الحفّارين. كان على الجميع أن يساهموا في إنتاج المشترك وأن يأخذوا فقط ما هو ضروري؛ وتم تصميم جميع العقوبات المفروضة على المستفيدين مجانيًا free riders لإعادة التأهيل بدلاً من العقاب. رأى وينستاني والحفّارون أن الملكية الخاصة للأرض هي سبب الفقر والاستغلال، وكان أحد مطالبهم هو منح جميع الأراضي لأولئك الذين سيعملون فيها، بما في

⁵ "When you are on top, 'might makes right' is 'rule of law,'" Systemic Disorder website, [might makes right](#)

⁶ من الدراسات التي اطلعنا عليها حول الموضوع كتاب الباحث الكندي بينغورسكي وكان أصلاً موضوع أطروحته للدكتوراه:

David W. Petegorsky, *Left-Wing Democracy in the English Civil War: Gerrard Winstanley and the Digger Movement* (Sandpiper Books, 1999. First published by Victor Gollancz Ltd, 1940).

ذلك الأراضي المصادرة من الكنيسة. لقد كانوا، بعد كل شيء، يعيشون الأيام الأولى للرأسمالية الزراعية، وكان الكثير من حولهم يعانون من الفقر والاستغلال.

ومن اللافت للنظر أن مفهوم وينستائلي، الذي تم ابتكاره قبل قرنين من مفهوم ماركس للشيوعية على أنه "من كل حسب قدرته، ولكل حسب حاجته"، كان يحمل تشابهات كبيرة مع أفكار الأخير، على الرغم من أن ماركس لم يكن من الممكن أن يعرف وينستائلي ذلك لأن أفكار الحفارين تم القضاء عليها بلا رحمة ولم يتم إعادة اكتشافها إلا في أواخر القرن التاسع عشر. لم يكن العنف الموجه من قبل الدولة ضد مجتمعات الحفارين بعيداً. كان الملاك مصممين على القضاء على الحفارين. اتهم القضاة المحليون، وهم أنفسهم ملاك الأراضي، الحفارين بالتعدي على ممتلكات الغير والتجمع غير القانوني، وفرضوا عليهم غرامات كبيرة جداً بحيث لا يمكن دفعها؛ وعمل الغوغاء الذين نظمهم ملاك الأراضي على تدمير المحاصيل والمنازل [العائدة للحفارين] حتى تم التخلي عن الكومونات.

بحلول النصف الأخير من القرن السابع عشر، كتب السيد أنكاس، "تمكن كبار ملاك الأراضي والتجار من السيطرة بشكل حاسم على الدولة الإنجليزية". "في القرن الثامن عشر، استخدموا هذه السلطة لمواصلة تجريد عامة الناس من ملكية الأرض وتعزيز ملكيتهم المطلقة للأرض". ومع بدء الثورة الصناعية في التطور، بدأت جولات جديدة من التسييج، هذه المرة من خلال القوانين التي سنها البرلمان، لتجريد الناس من قدراتهم المتبقية على تحقيق الاكتفاء الذاتي وعدم إجبارهم على العمل بأجر بأجور منخفضة وساعات طويلة من الكدح.

الدولة الطبقية تعزز المصالح الطبقية

منذ ما يسمى "الثورة المجيدة" عام 1689 وحتى صدور قانون الإصلاح العظيم عام 1832، كانت بريطانيا تحت سيطرة أقطاب الزراعة والرأسماليين التجاريين؛ وكانت الدولة تعمل لصالح الأثرياء. وبهذا الشأن كتب المؤلف:

"لقد حكم الأثرياء البرلمان من خلال هيمنتهم المطلقة على مجلس اللوردات، وسيطرتهم الفعالة على السلطة التنفيذية، وتأثيرهم القوي على الأعضاء الأقل ثراءً في مجلس العموم. كان مجلس النواب منتخباً، لكن لم

يتمكن سوى 3% فقط من السكان (جميعهم من الذكور) من التصويت، وكانت المؤهلات العقارية العالية تضمن أن الأثرياء فقط هم من يمكنهم الترشح. وعلى حد قول [المؤرخ البريطاني] إي بي طومسون E.P. Thompson، "لقد اتفق جميع المشرعين في القرن الثامن عشر على أن الدولة البريطانية وجدت للحفاظ على الممتلكات، وعرضًا، حياة وحريات أصحاب الممتلكات".

أصدر البرلمان أكثر من 4000 قانون للتسييج في الفترة من 1730 إلى 1840، وهي قوانين أثرت على ربع إجمالي الأراضي المزروعة. كانت القوانين منحازة بشدة لصالح العقارات الكبيرة والطبقة الأرستقراطية. قاوم الفلاحون، ولكن تم حشد الكثير من القوة ضدهم. وأصبح النازحون، ما لم يهاجروا، عمالاً بأجر في المصانع الجديدة. لقد كانت التنمية في إنجلترا مبنية على العبودية، حيث وفرت الأرباح الضخمة من المنتجات الزراعية التي يزرعها العبيد وتجارة الرقيق نفسها رأس المال للانطلاقة الصناعية. وكان العديد من أصحاب العقارات الكبار في وضع يسمح لهم بشراء الأراضي بسبب الأرباح التي جنوها مباشرة من عمل العبيد. لقد

كان إلغاء تجارة الرقيق مجرد خطوة أخرى للانتفاع الاقتصادي. كتب السيد أنغاس الآتي:

"يحب المدافعون عن الإمبريالية البريطانية التفاخر بأن بريطانيا حظرت تجارة الرقيق في عام 1807، لكن هذا يشبه الإشادة بقاتل متسلسل لأنه تقاعد في نهاية المطاف. وجاء الحظر بعد قرون من ثراء المستثمرين البريطانيين من خلال المتاجرة بالبشر، ولم يفعل أي شيء لصالح 700 ألف أفريقي ظلوا مستعبدين في مستعمرات بريطانيا في منطقة البحر الكاريبي. إن النزعة الإنسانية التي تتبجح بها بريطانيا تتناقض مع المذبحة التي ارتكبتها الجيش البريطاني للعبيد المتمردون في غويانا Guyana — بعد سبعة عشر عامًا من إعلان تجارة الرقيق بأنها غير قانونية."

ولم يكن البرلمانيون البريطانيون، الذين نفذوا مصالحهم الطبقية، أقل ميلاً إلى التشريعات الصارمة من أسلافهم. من عام 1703 إلى عام 1830، تم إصدار 45 قانونًا يتعلق بحظر الصيد على جميع ملاك الأراضي باستثناء النخبة؛ يجب النظر إلى هذه القوانين في سياق وقتهم عندما كان صغار المزارعين ومن لا يملكون أرضًا بحاجة إلى الصيد لضمان حصولهم هم وأسره على ما يكفي من الغذاء للبقاء على قيد الحياة. فقد شَخَّص القانون

الأسود لعام 1723 350 جريمة تستحق عقوبة الإعدام؛ وبالفعل، كان الشنق والجلد والطرْد إلى أستراليا والأشغال الشاقة مدرجًا في لوائح الجرائم البسيطة. وحتى قطع شجرة يمكن أن يؤدي إلى الشنق.

إن إقرار مثل هذه القوانين الصارمة بشكل متكرر على مدى فترات طويلة من الزمن يدل على أن الرأسمالية ليست "طبيعية" ولا يمكن فرضها إلا بالقوة، كما يوضح كتاب **الحرب ضد المشاعات** بشكل مقنع. هذا كتاب مفيد للغاية لأولئك الذين يعرفون هذا التاريخ الدموي ويرغبون في الحصول على المزيد من المعرفة، بما في ذلك حركة وينستون وحركة الحفارين التي لا تزال غير معروفة إلى حد كبير، ولكن أيضًا لأولئك الذين ليس لديهم هذه المعرفة والذين يرغبون في التعرف على تاريخ الرأسمالية. إن المؤلف يكتب بلغة واضحة ومفهومة دون اللجوء إلى المصطلحات، وينتج عملاً لا يتطلب معرفة مسبقة ولكنه مفيد لأولئك الذين لديهم معرفة بالموضوع. أي شخص مهتم بفهم ديناميكيات الرأسمالية، ويهتم بتناول الموضوع بعقل متفتح، سوف يستفيد من الكتاب.

* بيتر دولاك Pete Dolack، ناشط وكاتب في موقع [Systemic Disorder](#)، له كتابان:

[It's Not Over: Learning From the Socialist Experiment,](#)

[What Do We Need Bosses For?](#)

** إيان أنغاس (من مواليد 1945)، ناشط كندي في مجال الاشتراكية البيئية، محرر مجلة المناخ والرأسمالية، وعضو تنفيذي مؤسس في الشبكة الاشتراكية البيئية العالمية. للمزيد من المعلومات

راجع: https://en.wikipedia.org/wiki/Ian_Angus_activist

مايكل روبرتس: نابليون واقتصاد الحرب¹

تعرّض فيلم ريدلي سكوت Ridley Scott الجديد عن نابليون بونابرت لانتقادات من عدة زوايا.² كفيّلم، يعتقد البعض أنه ممل، وبعض أجزاءه غير قابل للفهم وفي أجزاء أخرى فإن الكلام غير مسموع. ويزعم النقاد التاريخيون أن الفيلم ليس صحيحاً من الناحية التاريخية، وهو ما رد عليه سكوت قائلاً: "عفوًا يا صديقي، هل كنت هناك؟ لا؟ حسنًا، اصمت إذن." من الواضح أن سكوت لديه فهم كبير لأهمية البحث التاريخي.

لكن انتقادي للفيلم هو أنه يفتقر إلى تفسير حقيقي لسبب صعود نابليون إلى القمة في الثورة الفرنسية، ولماذا انتصر في معاركه، ولماذا خسر الحرب في النهاية. علاوة على ذلك، وكما أشار آخرون،³ فإن الفيلم يتبنى وجهة نظر مفادها أن الثورة تحولت إلى إرهاب ثم إلى دكتاتورية، وهذا هو حال كل الثورات التي يشارك فيها "الغوغاء".⁴ هذه النظرة الرجعية التقليدية تتجاهل بعض التغييرات الرئيسية التي حققتها الثورة وأدخلها نابليون.

¹ نشرت هذه المقالة بتاريخ 9 كانون الأول/ديسمبر 2023 في موقع مايكل روبرتس. يمكن قراءة النص الإنجليزي للمقالة بالنقر على هذا الرابط:

<https://thenextrecession.wordpress.com/2023/12/09/napoleons-war-economy/>

² [Napoleon \(2023 film\) - Wikipedia](#)

³ [Ridley Scott's Napoleon Is Mediocre Filmmaking in the Service of Centrist Politics \(jacobin.com\)](#)

⁴ Keelan Kellegher, Review: 'Napoleon' – World spirit on a mule, [Review: 'Napoleon' – World spirit on a mule | Socialist Appeal](#), December 5, 2023

Napoleon's Economic Reforms

- 1800 – Bank of France created – for government and upper class
- New stable currency and public credit
- Balanced budget
- Lowered taxes on peasant farmers, allowed them to keep land seized in Revolution – helped strengthen peasantry, gain their loyalty
- Kept food prices low with price controls

الإصلاحات الاقتصادية لنابليون

- في عام 1800 تم إنشاء بنك فرنسا لخدمة الحكومة والطبقة العليا
- استحداث عملة مستقرة وائتمان عام
- موازنة متزنة
- تخفيض الضرائب على الفلاحين المزارعين، والسماح لهم بالاحتفاظ بالأراضي التي استولوا عليها خلال الثورة – مما ساعد على تقوية الفلاحين، وكسب ولائهم
- إبقاء أسعار المواد الغذائية منخفضة مع مراقبة الأسعار

في الواقع، إن اقتصاد الحرب لبونابرت ضد القوى الملكية الرجعية في بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا هي ما يفتقده فيلم السيرة الذاتية البدائي لسكوت الذي يركز على المعارك وشخصيته وعلى علاقته الجنسية مع جوزفين دي بوهارنيه Joséphine de Beauharnais، ابنة مزارع السكر المالك للعبيد. نعم، يمكن للأفراد التأثير على سير التاريخ، ولكن كما أشار ماركس في بحثه الثامن عشر من برومير لويس بونابرت 5 (عند تحليل وصول ابن أخ نابليون "الإمبراطور" لويس إلى السلطة المطلقة في عام 1852):

"إن الناس يصنعون تاريخهم بيدهم؛ إنهم لا يصنعونه على هواهم. إنهم لا يصنعونه بظروف يختارونها هم بأنفسهم بل بظروف يواجهون بها وهي معطاة ومنقولة لهم مباشرة من الماضي."

⁵ 18th Brumaire of Louis Bonaparte. Marx 1852 (marxists.org)

لقد بدأ نابليون حياته كثوري راديكالي يدعم حكم اليقاقبة Jacobin regime⁶، وانتهى به الأمر باعتباره "إمبراطورًا" (مما أثار اشمئزاز الديمقراطيين مثل المؤلف الموسيقي بيتهوفن الذي ألغى إهداءه لإحدى سمفونياته⁷ لنابليون احتجاجًا على ذلك). وصل نابليون إلى السلطة كمدافع عن الجمهورية، لكنه حول حرب الدفاع إلى حروب غزو لتأسيس إمبراطورية في أوروبا للتعويض عن الإمبراطورية التي فقدتها فرنسا في الهند ومنطقة البحر الكاريبي وأمريكا الشمالية في الجزء الأخير من القرن الثامن والعشرين.

لقد صاغ ماركس مصطلح البونابرتية Bonapartism لوصف كيف يمكن لرجل واحد أن يحصل على السلطة المطلقة في وضع تكون فيه القوى الطبقيّة متوازنة وغير مستقرة لدرجة أن القوى الطبقيّة التقدمية غير قادرة على الحكم مباشرة في مواجهة معارضة القوى الطبقيّة الرجعية.

قبل بونابرت، كان هناك بونابرت آخرون. كان هناك الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر [100 ق.م.-44 ق.م.]، وهو قائد عسكري اعتمد على جماهير الفلاحين والجماهير الحضرية ضد الأرستقراطيين في مجلس الشيوخ، وفي النهاية (ولو لفترة وجيزة) اكتسب سلطة استبدادية. ثم في إنجلترا في أربعينيات القرن السابع عشر، كان هناك [أوليفر] كرومويل [1599-1658]، وهو مزارع من ملاك الأراضي، أصبح قائدًا عسكريًا لقوات البرلمان التي هزمت الرجعية الملكية ثم حكم بصفته "اللورد الحامي" Lord Protector لمدة عشر سنوات. ثم كان هناك ستالين [1878-1953]، الثوري البلشفي الذي أسس في نهاية المطاف دكتاتورية الرجل الواحد الشريرة القائمة فوق وبين الديمقراطية العمالية الضعيفة وقوى الرجعية الرأسمالية المحيطة بروسيا.

⁶ كان اليقاقبة يتسمون أصلاً باسم جمعية أصدقاء الدستور، تأسست سنة 1789 وتحت قيادة مكسيميليان روبسبير Maximilian Robespierre (1758-1794) تحولوا إلى تنظيم راديكالي في الفترة التي تشير إليها كتب التاريخ أنها عهد الإرهاب، 1789-1794.

⁷ السمفونية الثالثة من أربع حركات (1803) تحمل عنوان إيروكا Eroica. بعد إعلان نابليون بونابرت نفسه إمبراطورًا سحب بيتهوفن الإهداء.

في كتابه الثامن عشر من برومير اعتبر ماركس "كاميل ديمولان Camille Desmoulins، ودانتون Danton، وروبسبير Robespierre، وسان جوست Saint-Just، ونابليون" "أبطال الثورة الفرنسية القديمة وكذلك أحزابها وجماهيرها" وقد "قاموا بمهمة.... فك القيود وإقامة المجتمع البرجوازي الحديث. كانوا الأوائل في تحطيم الأساس الإقطاعي وجزء الرؤوس الإقطاعية التي نمت عليه. أما الآخر [نابليون - مايكل روبرتس] فقد خلق داخل فرنسا الظروف التي يمكن في ظلها وحدها تطوير المنافسة الحرة، واستغلال ملكية الأراضي المقسمة *parceled landed property*، واستخدام القوة الإنتاجية الصناعية المتحررة للأمة؛ وخارج الحدود الفرنسية، أزاح المؤسسات الإقطاعية من كل مكان، بقدر ما كان ذلك ضرورياً لتزويد المجتمع البرجوازي في فرنسا ببيئة مناسبة وحديثة في القارة الأوروبية.

يمكن لرجل واحد أن يصنع التاريخ ولكن فقط ضمن الشروط القائمة. لقد كانت الظروف الاقتصادية وتوازن القوى هي التي قررت "الحروب النابليونية". فاز نابليون بالعديد من المعارك، لكنه خسر الحرب رغم ذلك. لماذا؟ تكشف الأدلة أن فرنسا لم يكن لديها موارد القوة البشرية، والأسلحة، وقبل كل شيء، التمويل لشحن حرب طويلة ضد القوى المشتركة للملكيات المطلقة المدعومة بقوة النيران والثروة لبريطانيا المهيمنة الصاعدة.

إن استمرار الحرب يعتمد على أمرين: الموارد الاقتصادية المتاحة لتمويل الحرب والقدرة على الحصول على الأسلحة والرجال المناسبين لساحة المعركة. من عام 1789 إلى عام 1815، واجهت فرنسا سبعة تحالفات معارضة وتمكنت من هزيمة ستة منها. وكما قال أحد المحللين: "غالباً ما يُعزى هذا العمل الفذ إلى التفكير التكتيكي والاستراتيجي لنابليون بونابرت. ومع ذلك، فقد هُزمت البلاد في نهاية المطاف تحت ضغط القوى الاقتصادية والديموغرافية والصناعية المتفوقة للحلفاء."

واجهت الجمهورية الثورية الفرنسية بعد عام 1789 على الفور ثورة مضادة رجعية من الملكيين في الداخل وغزوًا أجنبيًا من الخارج. ولم يكن لديها المال لتمويل الدفاع عن الجمهورية. كان قادة اليعاقبة يأملون في أن تؤدي مصادرة ثروة الكنيسة والممتلكات الملكية إلى تحقيق ذلك. لكن ما تم جمعه لم يكن كافياً لبناء جيش قتالي ناجح وتلبية الاحتياجات

الاجتماعية للسكان الذين يعانون من الجوع. لذا قامت الحكومة الثورية بطباعة النقود – وبالفعل كانت هناك طباعة خاصة للنقود private printing خارجة عن سيطرتها.⁸ ارتفع المعروض النقدي بشكل كبير وكذلك التضخم.

في عام 1793، في ظل حكومة اليقاقة، قُدِّر إجمالي الأموال المتداولة بحوالي 3 مليارات فرنك، أي أكثر من ضعف المبلغ الأصلي الذي تم جمعه من مصادرات [الممتلكات] confiscations. نهب السكان الجائعون المحلات التجارية للملابس والمواد الغذائية. ثم قامت الحكومة بدفع الإعانات الاجتماعية لاستعادة الاستقرار. بحلول عام 1795، ارتفع إجمالي المعروض النقدي إلى 4.4 مليار فرنك وانخفض سعر صرف الفرنك مع الجنيه البريطاني بنسبة 45%. بحلول لحظة الإطاحة بقيادة اليقاقة من قبل الثورة المضادة وإنشاء حكومة المديرين [1799-1795] Directory ، تضاعف المعروض النقدي إلى 20 مليار فرنك، علاوة على ذلك أصدرت الحكومة سندات بقيمة 50 مليار فرنك أخرى.

لكن هذا الوضع لم يكن كله كارثيًا، على عكس آراء المؤرخين اليوم. إذ كان الاقتصاد الجمهوري الفرنسي قد بدأ بالفعل في التحرك. فقد تضاعف إنتاج الفحم بين عامي 1794 و1800 عندما تولى نابليون السلطة. وارتفع إنتاج الحديد بنسبة 50% والملح بنسبة أكبر. وكانت هذه هي المنتجات الرئيسية لاقتصاد صناعي وحضري ناشئ. كان هذا الإنتاج الصناعي مدفوعًا باحتياجات اقتصاد الحرب. لقد كانت صناعة الدفاع الفرنسية تتطور بسرعة. وفي المقام الأول من الأهمية، تعافى الإنتاج الزراعي والغذائي – إن لم يكن بالقدر الكافي لوقف ارتفاع أسعار المواد الغذائية. في حين تمكن اقتصاد الحرب في بريطانيا من تحقيق زيادة بنسبة 25% في الإنتاج الزراعي في العقد الأول من القرن التاسع عشر، قامت فرنسا تحت حكم نابليون برفع الإنتاج الزراعي بنسبة 500% – لكن هذه الزيادة بدأت من مستوى منخفض، وحتى هذه الزيادة لم تكن كافية لتلبية احتياجات الجيش والمواطنين.

⁸ Michael D Bordo, Eugene N White, 'British and French Finance during the Napoleonic Wars, National Bureau of Economic Research, 1990. [w3517.pdf](https://www.nber.org/papers/w3517) (nber.org)

وفي نهاية المطاف، أفسحت حكومة المديرين اليمينية المجال أمام انقلاب بونابرتي في الفترة من 1799 إلى 1800، مما أعطى نابليون سلطات عليا "لإنقاذ الثورة" وهزيمة الرجعية الملكية في الداخل والخارج. مثل كل "بونابرتي" جيد، كان نابليون يوازن بين القوى الطبقيّة للبرجوازيين والتجار و"جماهير" الفلاحين والحرفيين (بلا سراويل) *sans culottes*.⁹ لقد كان نابليون في السابق "نصيرًا" fellow traveller لليعاقبة في حكم روبسبير، وقد وصل إلى السلطة داعيًا إلى الرخاء للجماهير على حساب مصالح كبار التجار والأرستقراطيين، وانتهى به الأمر كإمبراطور لأوروبا.

لقد وقف نابليون دائمًا إلى جانب نمط الإنتاج الرأسمالي ضد نمط الإنتاج الإقطاعي والنظام القديم، على الرغم من إعلان نفسه إمبراطورًا في عام 1805. ومن ناحية أخرى، كان يعارض بشدة أي بدائل "اشتراكية" تقترحها بعض القوى الأكثر راديكالية بين اليعاقبة.¹⁰ وكان نابليون يرى أنه في أي مجتمع "سوف تحكم الأقلية الأكثر قدرة الأغلبية وتستوعب الجزء الأكبر من الثروة"؛ وكما هو الحال بالنسبة للطبيعة البشرية: "إن الجوع هو الذي يجعل العالم يتحرك". وعلى حد تعبيره: "في حين أن المالك الفردي، الذي لديه مصلحة شخصية في ممتلكاته، يكون دائمًا يقظًا تمامًا، ويحقق خطئه، فإن المصلحة الجماعية هي بطبيعتها خاملة وغير منتجة، لأن المشروع الفردي هو مسألة غريزة، والمشروع الجماعي هو مسألة تتعلق بالروح العامة، وهو أمر نادر."

يقول [هيبولايت] تين Hippolyte Taine: "قبل عام 1789، كان الفلاح يدفع من دخله الصافي 100 فرنك، 14 فرنكاً للسيد الإقطاعي

⁹ Sans-Culottes عامة الناس من الطبقات الدنيا في فرنسا في القرن الثامن عشر، والذين كانوا يقاسون من الظروف المعيشية السيئة في فترة النظام القديم وأصبحوا من أكثر أنصار الثورة الفرنسية الراديكاليين احتجاجًا.

¹⁰ أحد أبرز الناشطين بهذا الصدد فرانسوا نويل بابوف (1760-1797) François-Noël Babeuf، المعروف أيضًا باسم غراتشس بابوف Gracchus Babeuf، وكان شبيوعيًا في تفكيره إذ دعى إلى إلغاء الملكية الخاصة، وثوريًا، وصحفيًا في الفترة الثورية، وكرّس جريدته منبر الشعب Le tribun du peuple لمناصرة الفقراء والدعوة إلى ثورة شعبية ضد حكومة فرنسا. أعدم لدوره فيما يعرف بمؤامرة الأنداد Conspiracy of the Equals

للمزيد من التعريف راجع:

<https://www.britannica.com/biography/Francois-Noel-Babeuf>

<https://www.marxists.org/history/france/revolution/conspiracy-equals/index.htm>

seignior، و14 فرنكاً لرجال الدين، و53 فرنكاً للدولة، ولا يحتفظ لنفسه إلا بـ 18 أو 19 فرنكاً؛ وبعد عام 1800 لم يعد يدفع شيئاً من دخله البالغ 100 فرنك للسيد أو لرجال الدين؛ إنه يدفع القليل للدولة، 25 فرنكاً فقط للبلدية commune والمقاطعة département، ويحتفظ بـ 70 فرنكاً لجيبه. " قبل عام 1789 كان العامل اليدوي يعمل من 20 إلى 39 يوم عمل في السنة لدفع ضرائبه؛ وبعد عام 1800، صار يعمل من ستة إلى 19 يوماً، و"من خلال الإعفاء شبه الكامل [من الضرائب] لأولئك الذين ليس لديهم ممتلكات، يقع عبء الضرائب المباشرة الآن بالكامل تقريباً على عاتق أولئك الذين يمتلكون الممتلكات".

قدم نابليون بإنشاء سجل خاص للأراضي، والذي سجّل، بحلول عام 1814، 37 مليون قطعة أرض وأسماء أصحابها. وكان نابليون يرى أن "مالية الدولة القائمة على نظام زراعي جيد لا تفشل أبداً". وأدخل التعريفات الحمائية، والتمويل الموثوق، ووسائل النقل الجيدة الصيانة كالطرق والقنوات، مما أدى إلى تشجيع الفلاحين على العمل بشكل مطرد، وشراء الأراضي، وزراعة المزيد والمزيد منها، وتوفير شباب أقوىاء لجيوشه. وكان عدد كبير للغاية من المزارعين الفرنسيين مزارعين مأجورين أو عمال مزارع مستأجرين، ولكن بحلول عام 1814، كان نصف مليون منهم يمتلكون الأفدنة التي يزرعونها.

وصفت سيدة إنجليزية كانت مسافرة إلى فرنسا في ذلك العام الفلاحين بأنهم يتمتعون بدرجة من الرخاء غير معروفة لطبقاتهم في أي مكان آخر في أوروبا. وقد نظر هؤلاء الفلاحون إلى نابليون كضامن حي لسندات ملكيتهم وظلوا مخلصين له لحين انحطاط أراضيهم في غياب أبنائهم المجندين.

وكما قال ماركس في الثامن عشر من برومير: "بعد أن حولت الثورة الأولى الفلاحين شبه الإقطاعيين إلى ملاك أحرار، أكد نابليون ونظم الظروف التي يمكنهم من خلالها استغلال أراضي فرنسا التي اكتسبوها للتو دون إزعاج، وإطفاء شغفهم الناشئ للملكية في عهد نابليون، كان تجزئة الأرض في الريف مكماً للمنافسة الحرة وبداية الصناعة الكبيرة في المدن. كانت طبقة الفلاحين بمثابة الاحتجاج الشامل ضد الطبقة الأرستقراطية المالكة للأرض التي أطيح بها مؤخراً. إن تأصيل جذور الملكية الصغيرة في الأراضي الفرنسية حرمت الإقطاع من كل

مصادر الانتعاش. شكلت معالم هذه الملكية التحصين الطبيعي للبرجوازية ضد أي هجوم مفاجئ من قبل أسيادها القدامى.¹¹

ولم يُسمح للعمال الذين حفروا القنوات، ورفعوا أقواس النصر، وأداروا المصانع، بالإضراب، أو تشكيل نقابات للمساومة من أجل ظروف عمل أفضل أو أجور أعلى. ومع ذلك، حرصت حكومة نابليون على أن تكون الأجور متوافقة مع الأسعار، وأن يكون الخبازون والجزارون وأصحاب المصانع خاضعين لتنظيم الدولة للأسعار، وأن يتم توفير ضروريات الحياة — خاصة في باريس. حتى السنوات الأخيرة من حكم نابليون، ارتفعت الأجور بشكل أسرع من الأسعار، وكانت البروليتاريا تشارك (بتواضع) في الرخاء العام وتفخر بانتصارات نابليون. لم تكن هناك بطالة، وبالتالي لم تكن هناك ثورة سياسية. قال الرجل العظيم: "لا أحد مهتم بإسقاط حكومة يعمل فيها كل المستحقين".

وبينما قامت الملكيات الرجعية بتمويل حربها من خلال طباعة النقود والاعتماد على خزائن الحرب الإمبراطورية الضخمة في الخزانة البريطانية، كان على فرنسا نابليون أن تعتمد على الضرائب المحلية،¹¹ التي لم تكن كافية على الإطلاق، وعلى الغنائم من الفتوحات في هولندا وإيطاليا والنمسا وإيطاليا وبروسيا. وفي فرنسا، قام نابليون بترتيب الأمور المالية. إذ تم التوقف عن طباعة النقود وانحسر التضخم. وحتى عام 1812 على الأقل، كانت غنائم الحرب تجلب عادةً أكثر من تكلفة المعارك. وتم فرض رسوم عالية على الدول المهزومة.

في عام 1811، تفاخر نابليون بأن لديه 300 مليون فرنك ذهبي في أقبية [قصر] التويلري Caves des Tuileries. استخدم هذا الصندوق لتخفيف القيود في الخزانة، ولتصحيح التقلبات في سوق الأوراق المالية، وتمويل الأشغال العامة أو التحسينات البلدية ولدفع تكاليف شرطته السرية. بقي ما يكفي للتحضير للحرب القادمة وإبقاء الضرائب أقل بكثير من مستواها في عهد لويس السادس عشر. في عام 1805، أعاد نابليون تنظيم بنك فرنسا، الذي أنشئ عام 1800 تحت إدارة خاصة. افتتح بنك فرنسا الجديد Banque de France فروعًا في

¹¹ أورد الكاتب مصدرًا لهذه الفقرة ولكنني عند محاولتي فتح الرابط الخاص بالمصدر تضرر جهاز الكمبيوتر (وأصبح غير قابل للاستخدام) ولم أستطع اقتباس الرابط. أرجو عدم فتح الرابط في حال قراءتكم للنص الإنجليزي.

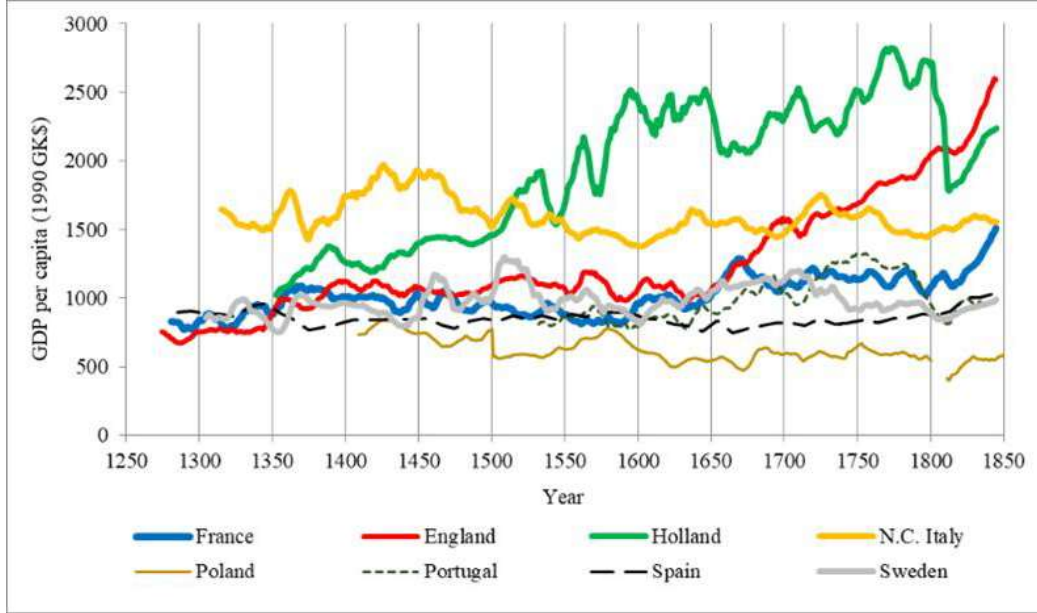
ليون Lyons وروان Rouen وليل Lille وبدأ دوره الرئيسي في خدمة الاقتصاد الرأسمالي الفرنسي والدولة.

عندما عاد لا كاز Las Cases، وهو من المهاجرين، في عام 1805 من جولة شملت ستين مقاطعة، ذكر أن "فرنسا لم تكن في أي فترة من تاريخها أكثر قوة، وأكثر ازدهاراً، وأفضل حكماً، وأكثر سعادة". وفي عام 1813، ادعى الكونت دي مونتاليفيه Comte de Montalivet، وزير الداخلية، أن هذا الازدهار المستمر كان بسبب "قمع الإقطاع، والألقاب، والوقفات غير القابلة للانتقال mortmain، والرهانيات؛ ... [وبفضل] إلى توزيع أكثر عدالة للثروة، وإلى وضوح القوانين وتبسيطها.

لكن الاقتصاد الفرنسي كان لا يزال غير فعال بالمقارنة مع اقتصاد بريطانيا. لم تتمكن الصناعة الفرنسية من تلبية متطلبات الحرب الطويلة التي بدأها نابليون، مما أجبر الجيش العظيم على الاعتماد بشكل كبير على غنائم الحرب. والمفارقة هي أن بريطانيا هي التي طبعت النقود وأصدرت السندات لدفع تكاليف الحرب. لكن بريطانيا كانت تستطيع أن تفعل ذلك لأن حاملي السندات على ثقة من أن عائدات التصنيع في بريطانيا والإمبراطورية الكولونيالية الضخمة بعد الحرب سوف تخدم بسهولة مثل هذا الدين. ولم يكن لدى فرنسا مثل هذه المصادقية الاقتصادية.

والحقيقة هي أن الوضع المالي الفرنسي الإجمالي كان أقل بكثير مقارنة بالوضع في بريطانيا. وفي عام 1805، كانت الميزانية الفرنسية 27 مليون جنيه إسترليني فقط، في حين كانت الميزانية البريطانية 76 مليون جنيه إسترليني. وفي عام 1813، ارتفع الإنفاق الفرنسي إلى 46 مليون جنيه إسترليني، لكن الميزانية البريطانية وصلت إلى 109 ملايين جنيه إسترليني. وعلى الرغم من الاستغلال المستمر للبلدان المحتلة، ارتفع الدين الحكومي الفرنسي خمس مرات بين عامي 1809 و1813.

وفي عام 1800، كان نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي في إنجلترا ضعف نظيره في فرنسا.



نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي Per capita GDP

بالنسبة لفرنسا، كانت الغنائم هي الحل. لكن هذه المبالغ بدأت تجف مع تزايد المقاومة من جانب الملكيات الأوروبية ورغم انتصاراتها. لقد كانت العلامات واضحة على أن الوضع سيصبح صعباً للغاية أو غير سار. لم تتمكن فرنسا نابليون من الفوز في الحرب مهما كان عدد المعارك التي انتصرت فيها. كان الانسحاب من روسيا [تشرين الأول/أكتوبر 1812] بمثابة الإشارة إلى النهاية حيث واجه نابليون تحالفاً جديداً يضم بروسيا وبريطانيا بمساعدة السويد والنمسا. أصبحت مناورة نابليون الأخيرة في واترلو ممكنة بفضل تعبئة ضخمة للدعم والاقتراض المالي. بحلول حزيران/يونيو 1815، بعد ثلاثة أشهر فقط من وصول نابليون من منفاه في ألبي، زادت قوة الجيش الفرنسي من 224,000 رجل إلى 662,331 رجل. لكنها لم تكن كافية.

لقد نجح نابليون في هزيمة جميع أعداء فرنسا في القارة الأوروبية تقريباً بما في ذلك النمسا وبروسيا وروسيا وإيطاليا في معظم الاشتباكات. ومع ذلك، فشلت مهاراته التكتيكية والاستراتيجية في التغلب على اثنين من أوجه القصور الفرنسية الرئيسية. أولاً، أدى النهب الاقتصادي لأوروبا إلى إجهاد الأراضي التي تم احتلالها ودفعها إلى التمردات القومية ضده. ثانياً، كان هناك خلل هائل في توازن القوة الاقتصادية بين بريطانيا وفرنسا. ربما احتلت فرنسا أوروبا، لكن بريطانيا كانت وراءها مستعمرات أمريكا وكندا وأفريقيا والهند وآسيا.

تستطيع بريطانيا، استنادا إلى تجارتها الدولية، تعبئة المزيد من الموارد الاقتصادية والمواد الخام والعمالة أكثر من فرنسا. وفي حرب طويلة، يمكن لبريطانيا البقاء لفترة أطول وأفضل من فرنسا.

الدرس الذي يتعين علينا أن نتعلمه الآن هو – أيهما يتمتع باقتصاد الحرب الأقوى: أوكرانيا أم روسيا؟¹²

* مايكل روبرتس، اقتصادي ماركسي بريطاني، عمل في الحي المالي في لندن لأكثر من أربعة عقود.

¹² Michael Roberts, 'Russia's war economy.' [Russia's war economy – Michael Roberts Blog \(wordpress.com\)](https://michaelrobertsblog.wordpress.com/2014/05/12/russias-war-economy/)

براينت سكولوس: الاشتراكية والدخل الأساسي الشامل¹

خلاصة

لقد اكتسبت فكرة الدخل الأساسي الشامل حياة جديدة حيث يعاني الناس من قذّر أكبر من عدم المساواة واستغلال أكبر من أي وقت مضى — إلى جانب تكرار الخوف الدوري التاريخي من البطالة الجماعية المرتبطة بالتقدم السريع في تقنيات التشغيل الآلي. لكن فكرة تزويد كل شخص بمبلغ معين من المال، بغض النظر عن وضعه الاجتماعي والاقتصادي أو (عدم) قدرته على العمل أو (عدم اهتمامه به)، بعيدة عن أن تكون مقبولة عموماً من قبل الاشتراكيين. يقدم هذا المقال إجابات على ثلاث انتقادات اشتراكية شائعة لمختلف مقترحات الدخل الأساسي، في محاولة للدفاع عن الإمكانات الجذرية للدخل الأساسي الشامل؛ إمكانات تتوافق مع الهدف الأساسي للمشروع الاشتراكي، وهو تحقيق عالم ديمقراطي غير استغلالي يتجاوز الرأسمالية.

تبدو فكرة تقديم راتب لكل شخص في بلد معين — أو حتى في جميع أنحاء العالم — وكأنها مشروع سيحبه الاشتراكيون. وبينما هناك بالتأكيد عدد كبير من الاشتراكيين الذين يدعمون أو سيدعمون إنشاء دخل أساسي شامل، هناك العديد من الانتقادات اليسارية للدخل الأساسي الشامل التي أنتجت قذراً كبيراً من الشكوك حول الفكرة.

يتعامل معظم منتقدي الدخل الأساسي الشامل مع مؤيديه كما لو كانوا يعتقدون أن الدخل الأساسي الشامل سيحل كل أو معظم المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، على الأقل في الشمال العالمي.² لم أواجه بعد أي مؤيد جاد للدخل الأساسي الشامل يتخذ مثل هذا الموقف الموسع.

¹ تفاصيل النشر والرابط:

Recommended Citation Sculos, Bryant W. (2018) "Socialism & Universal Basic Income," Class, Race and Corporate Power: Vol. 6: Iss. 1, Article 9. DOI: 10.25148/CRCP.6.1.007552 Available at:

<https://digitalcommons.fiu.edu/classracecorporatepower/vol6/iss1/9>
<https://digitalcommons.fiu.edu/cgi/viewcontent.cgi?article=1120&context=classracecorporatepower>

² إن البحث البسيط على محرك البحث Google عن الدخل الأساسي الشامل "UBI" سيكشف عن العشرات والعشرات من المقالات التي تقدم وجهات نظر مماثلة من مختلف ألوان الطيف السياسي. للاطلاع على بعض الأمثلة اليسارية، انظر: آدم بوث، "الدخل الأساسي العالمي: حلم طوباوي أو كابوس تحرري؟ في موقع دفاعاً عن الماركسية In Defence of Marxism (10 فبراير 2017)، <https://www.marxist.com/universal-basic-venueutopian-dream-or-libertarian-nightmare.htm>

ستكون وجهة نظري هنا هي تقديم الأسباب التي تجعل الاشتراكيين يدعمون مفهومًا سميكًا (عميقًا)³ thick conception للدخل الأساسي الشامل كنوع من الإصلاح الجذري من داخل الرأسمالية، كجزء من أجندة يسارية أوسع.⁴

من أجل إثبات هذه القضية، سيركز هذا المقال على ثلاثة ادعاءات رئيسية يثيرها عمومًا النقاد اليساريون للدخل الأساسي الشامل: (1) سيتم استخدام الدخل الأساسي الشامل لتفكيك برامج الرعاية الاجتماعية القائمة، مما يترك الفقراء في وضع أسوأ مما كانوا عليه من قبل؛ (2) الدخل الأساسي الشامل لا يفعل أي شيء للعاملين في مكان العمل؛ و(3) الدخل الأساسي الشامل لا يتحدى الرأسمالية.

(1) أولاً، من الصحيح تمامًا أن برامج الدخل الأساسي الشامل ليست جميعها تستحق الدعم. من المؤكد أن أي برنامج للدخل

أليسا باتيستوني، "الوعد الكاذب للدخل الأساسي الشامل"، في مجلة Dissent (ربيع 2017)، <https://www.dissentmagazine.org/article/false-promise-universal-basic-venue-andy-sternruger-bregman>؛ ومارك بول وآخرون، "لماذا نحتاج إلى ضمان فيدرالي للوظائف"، في مجلة Jacobin (4 فبراير/شباط 2017)، <https://www.jacobinmag.com/2017/02/federal-job-guarantee-universal-basic-venue-investment-jobsunemployment/>.

³ أي مصطلح يعبر عن مفهوم سميك (عميق) thick conception هو الذي يُعبر عن مفهوم تقييمي محدد ويكون أيضًا وصفيًا إلى حد كبير. إنها مسألة خاضعة للنقاش حول كيفية تفكيك هذه الرواية التقييمية، لكن الأمثلة يمكن أن تساعد في إيصال الفكرة الأساسية وراء المفهوم. غالبًا ما يتم توضيح المفاهيم السمكية باللجوء إلى مفاهيم الفضيلة مثل الشجاعة والكرم، ومفاهيم الفعل مثل القتل والخيانة، والمفاهيم المعرفية مثل دوغاناي وحكيم، والمفاهيم الجمالية مثل المبهرج والرائع. ويبدو أن هذه المفاهيم التقييمية، على عكس المفاهيم الوصفية البحتة مثل الأحمر والماء. لكنها تبدو أيضًا مختلفة عن المفاهيم التقييمية العامة. على وجه الخصوص، عادةً ما تتناقض المفاهيم السمكية مع المفاهيم الرقيقة مثل الخير والخطأ والمسموح والواجب، وهي مفاهيم تقييمية عامة لا تبدو وصفية إلى حد كبير.

للمزيد من الشرح أنظر Internet Encyclopaedia of Philosophy

<https://iep.utm.edu/thick-co/#:~:text=Thick%20concepts%20are%20often%20illustrated,such%20as%20red%20and%20water> (المترجم)

⁴ للتعرف على دفاع بديل، وإن كان مشابهًا إلى حد ما، عن الدخل الأساسي الشامل من منظور اشتراكي، انظر: David Calnitsky: "مناقشة الدخل الأساسي" في مجلة كاتاليست Catalyst (خريف 2017)

الأساسي الشامل من شأنه أن يترك الفقراء والضعفاء في حال أسوأ، يجب أن يعارضه أي اشتراكي أو تقدمي. هذا النوع من الدخل الأساسي الشامل لاستبدال دولة الرفاهية هو النوع الذي يدعمه غالباً زعيم الفكر المحافظ تشارلز موراي Charles Murray وغيره من الليبراليين.⁵

ومع ذلك، وببساطة لأنه ليست كل برامج الدخل الأساسي الشامل تستحق الدعم، فهذا لا يعني أنه لا توجد مفاهيم سمكية (عميقة) أو موسعة للدخل الأساسي الشامل تستحق الدعم تمامًا. أحد الأمثلة على مفهوم الدخل الأساسي الشامل الذي يجب على الاشتراكيين دعمه هو المفهوم الذي يكون — كما يتطلب الاختصار في العرض — شاملاً ويتم تحديده أيضاً عند مستوى الكفاف أو فوقه. وهذا يعني أن جميع الناس، بغض النظر عن قدرتهم أو استعدادهم للعمل، سيكون من المرجح على الأقل أن يعيشوا حياتهم دون الافتقار إلى أي من الضروريات الأساسية.

من المرجح أن يكون الدخل الأساسي الشامل (أو الأعلى من الأساسي) قادراً على تحقيق هدف القضاء على الفقر المدقع فقط إذا تم دمجه أيضاً مع الرعاية الصحية الشاملة ونظام التعليم العالي العام الخالي من الرسوم الدراسية. وإذا كان الفقراء لا يزالون مضطرين إلى الدفع أو الدخول في ديون ضخمة من أجل تحمل تكاليف الرعاية الصحية الأساسية والتعليم، فإن الدخل الأساسي الشامل للكفاف سيكون غير ذي صلة من الناحية الوظيفية تقريباً — أو ما هو أسوأ من ذلك.

(2) ثانيًا، ليس صحيحاً ببساطة أن الدخل الأساسي الشامل لا علاقة له بالعمال ومكان العمل، شريطة أن نناقش مرة أخرى نسخة سمكية (عميقة) من الدخل الأساسي الشامل. هناك سببان رئيسيان وراء الدخل الأساسي الشامل من شأنهما أن يساعدوا العمال في مكان العمل. فأولاً، إذا لم يعتمد العمال بشكل كامل على أجورهم من أجل معيشتهم، فمن المرجح أن يتمكنوا من

⁵ Charles Murray, "A Guaranteed Income for All Americans," in *The Wall Street Journal* (June 3, 2016), <https://www.wsj.com/articles/a-guaranteed-income-for-every-american-1464969586>.

اتخاذ مواقف أكثر جرأة في المفاوضات الجماعية [مع أرباب العمل] (أشار أندي ستيرن، الرئيس السابق لنقابة Service Employees International Union (SEIU)، إلى الدخل الأساسي الشامل باعتباره "صندوق الإضراب الوطني")⁶.

ومن شأن الدخل الأساسي الشامل القائم على الكفاف أن يقلل من تكاليف الفرصة البديلة opportunity-costs للتفاوض المتشدد من أجل أجور أعلى، ومزايا أفضل، وساعات عمل أقل، وظروف عمل أفضل. ويمكن للعمال، في مثل هذا الموقف، أن يطالبوا أيضًا بحقوق ديمقراطية أكبر داخل مكان العمل. وهذا لا يعني أن الأجور لن تصبح موضع خلاف. بل على العكس من ذلك، فمن خلال توفير أساس أقوى تمكن من التفاوض على الأجور والمزايا، ستكون هناك فرصة لزيادة النضالات العمالية.

الطريقة الثانية التي سيساعد بها الدخل الأساسي الشامل العمال في مكان العمل هي طريقة أكثر تحزّرية speculative. إذا كان من المقرر تحقيق الدخل الأساسي الشامل للمعيشة القائم على الكفاف، فلا توجد طريقة تقريبًا لتخيل حدوث ذلك دون دعم منظم هائل من العمال. يجب أن يكون هذا الدخل مطلبًا جماعيًا يتطلب في حد ذاته تنظيم وتعبئة العمال، جنبًا إلى جنب مع العاطلين عن العمل والمشردين، وحتى الأمهات والآباء المقيمين في المنزل. إن نوع التضامن الاجتماعي الذي يتطلبه مثل هذا الموقف السياسي الراديكالي مثل الدخل الأساسي الشامل على مستوى الكفاف سيكون له بلا شك عواقب مهمة على تنظيم مكان العمل.

(3) إن فكرة أن برنامج الدخل الأساسي الشامل الموسع لا يمكن أن يشكل تحديًا مباشرًا للرأسمالية هي فكرة مثيرة للضحك بصراحة. هناك سببان رئيسيان يجعلان الدخل الأساسي الشامل (أو الأعلى) يشكل تحديًا للرأسمالية، ولكن من المهم أن نلاحظ أنه على المدى القصير جدًا هناك فرصة حدوث بعض الزيادة في الاستقرار للنظام الرأسمالي من خلال التأثيرات الكينزية لهذه السياسة [برنامج الدخل الأساسي الشامل]، إذا تم سنّها حتى في

⁶ في كتابه استنهاض الهمة: كيف يمكن للدخل الأساسي الشامل أن يجدد اقتصادنا ويعيد بناء الحلم الأمريكي، يعزو ستيرن هذه الرؤية إلى تيموثي روسكو كارتر (Public Affairs, 2016: pg. 188).

اقتصاد واحد ذو أهمية عالمية مثل الولايات المتحدة، أو الاتحاد الأوروبي، أو غيرها وحتى الصين أو الهند.⁷ إن هذا الاستقرار سيكون قصير الأمد ويمكن أن يؤدي إلى التقدم نحو الاشتراكية للأسباب التالية.

⁷ وهذا مهم بشكل خاص عندما يتعلق الأمر بالتكهنات حول تكاليف تنفيذ برنامج الدخل الأساسي الشامل في مختلف البلدان. إن التكلفة سوف تكون مرتفعة إلى حد غير عادي، ولكن هذا لا يشكل سوى حكم الإعدام على الدخل الأساسي الشامل إذا افترض المرء معدلات نمو مماثلة نسبياً كما لدينا اليوم (بين 1% تقريباً و 4% اعتماداً على الاقتصاد المعني أو المقياس المستخدم). ومن المرجح أن يكون النمو المتزايد، مقترناً بضريبة مخصصة على أصحاب الدخل المرتفع، والميراث، والعقارات الفاخرة (على سبيل المثال، امتلاك منازل ثانية وثالثة، وسيارات، و/أو قوارب)، وإيرادات الاستثمار كافيين [أي الضريبة وإيرادات الاستثمار] لرفع تكاليف الدخل الأساسي الشامل الكبير مع تأثير سلبي بسيط على أي شخص. وفي يومنا هذا، فإن الاعتماد على إمكانية النمو القائم على المستهلك يُعدُّ اقتراحاً خطيراً يتعين على اليسار أن يقبله نظراً للأضرار الكوكبية التي حدثت بالفعل بسبب المنطق الاقتصادي الرأسمالي الموهوس بالنمو.

ومع ذلك، إذا تم توجيه النمو القائم على المستهلك على المدى القصير، مدفوعاً بالدخل الأساسي الشامل، من خلال التقنيات والعمليات الخضراء جنباً إلى جنب مع المطلب المتمثل بإعادة تنظيم الإنتاج الحالي تدريجياً لتلبية متطلبات المستهلكين المختلفة بدلاً من الرغبات التي يتم التلاعب بها والتي تنتجها الرأسمالية بنفس الطريقة التي تنتج بها المنتجات المادية، فمن الممكن أن يتم تخفيف المزيد من الأضرار الإيكولوجية بشكلٍ كافٍ (خاصة عند مقارنتها بالاتجاهات الحالية).

ومن المرجح أيضاً أن يتحقق الاقتصاد المنخفض الكربون مقارنةً بالاقتصاد الخالي من الكربون الذي نحتاج إليه، ولكن يبدو من المعقول أن نفترض أن التقدم نحو اقتصاد منخفض الكربون من شأنه أن يجعل تحقيق اقتصاد خالٍ من الكربون في نهاية المطاف أكثر ترجيحاً. هذه ليست تكهنات أو مؤهلات متجذرة في التفاؤل. إن الكوكب وسكانه المختلفين — وخاصة أولئك الذين تضرروا بالفعل بشكل مفرط من النظام القائم — هم بالفعل في مواجهة اختياريين صعبين (دافئ ورطب). ولا يمكن لأي قدر من التمني أن يغير ذلك.

ومن الممكن أن يخلق النمو الاستهلاكي المنخفض الكربون زيادة في القاعدة الضريبية بالقدر الكافي لدعم الدخل الأساسي الشامل ليضعة عقود من الزمن، وفي تلك العقود سيتم شن النضال الأوسع ضد الرأسمالية. من المهم أيضاً ملاحظة أن البديل النموذجي للدخل الأساسي الشامل الذي بشر به اليسار هو مزيج من التوظيف الكامل وأسبوع عمل أقصر (انظر "القضية ضد الدخل الأساسي" لدانيال زامورا، في مجلة جاكوبين [28 ديسمبر 2017] للاطلاع على تكرار حديث لهذا البديل الخاطئ).

إذا كان المرء مهتماً في المقام الأول بالتأثير البيئي لاقتصاد النمو، فإن التوظيف الكامل وأسبوع عمل أقصر يفشلان في تقديم أي مسار أكثر جدوى بالضرورة نحو اقتصاد تراجع النمو مما يفعله الدخل الأساسي الشامل. وكلاهما يتطلب خفض النمو باعتباره مطلباً إضافياً. ويبدو أننا عالقون في اقتصاد النمو في الأمد القريب، فلماذا لا نحاول — قدر الإمكان — التأكد من تقاسم عمليات ومنتجات النمو بشكل أكثر إنصافاً وتحديدتها بشكل ديمقراطي؟ ومع ذلك، إذا لم يحدث هذا النمو الاستهلاكي، فكل ما سيحدث هو أن الرأسمالية سوف تنهار تحت وطأة التناقض بين مطالب الناس بحصة عادلة من إنتاج المنتج الاجتماعي وعدم قدرة الرأسمالية على توفير ذلك. وبهذا المعنى، فإن عجز الرأسمالية عن استيعاب الدخل الأساسي الشامل لأي فترة من الزمن يدل على الراديكالية الانتقالية للطلب نفسه.

يعتمد السبب الأول على النقاط التي تم ذكرها في القسم السابق: إن الدخل الأساسي الشامل للكفاف UBI subsistence الذي لم يحل محل برامج الرعاية الاجتماعية الحالية، أو تم تنفيذه جنباً إلى جنب مع برامج الرعاية الاجتماعية الموسعة، سيتطلب حركة جماهيرية من أجل تحقيقه. كما أنه سينقل العمال بأعداد هائلة من عالم الضرورة إلى عالم الحرية (كما وصفها ماركس). ومع الدخل الأساسي الشامل للكفاف، لن يضطر العمال بعد الآن إلى العمل في أعمال منخفضة الأجر أو مهينة أو غير آمنة أو تافهة. ومن المرجح أن تصبح هذه الأعمال هي المواقع الأولى للأتمتة الكاملة. إذا كان العمل المأجور القسري بشكل منهجي هو شرط لا غنى عنه لنمط الإنتاج الرأسمالي، فإن الدخل الأساسي الشامل للكفاف أو أعلى منه سيكون تحدياً مباشراً لأساس الرأسمالية.

ثانياً، يمكن للدخل الأساسي الشامل أن يغير طريقة تفكير الناس حول قيمتهم في المجتمع. من خلال الإعلان، ليس بالخطابة فحسب، بل من خلال سياسات جادة، أن جميع الناس، بغض النظر عن المركز أو الجهد أو مكان الميلاد أو الجنس أو العرق أو الجنسية sexuality أو أي فئة أخرى، يستحقون كرامة وسائل إعالة أنفسهم، وعندها تنهض فرصة قوية لدى المجتمع للتطور في اتجاه أكثر عدالة وديمقراطية. إن هذا التحول لن يكون بالضرورة انتقالاً سلساً، لكنه سيوفر بالتأكيد الأساس لتحول عملي من الرأسمالية إلى ما بعد الرأسمالية الديمقراطية القائمة على المساواة (أي الاشتراكية).

هاتان النقطتان تتعارضان بشكل مباشر مع الموقف الذي عبر عنه دانيال زامورا⁸ Daniel Zamora في مجلة جاكوبين Jacobin⁹. يرى زامورا أن الدخل الأساسي الشامل يعزز

⁸ نشر موقع شبكة الاقتصاديين العراقيين ترجمة مراجعة لكتاب أنطون ييغر و دانيال زامورا: كيف أصبح الدخل الأساسي الشامل يوتوبيا المتشائمين: [UBI.pdf \(iraqueconomists.net\)](http://www.ien.net/iraqueconomists/UBI.pdf) (المترجم)

⁹ Daniel Zamora (trans. Jeff Bate Boerop), "The Case Against Basic Income," in Jacobin (Dec. 28, 2017), <https://www.jacobinmag.com/2017/12/universal-basic-income-inequality-work>

أيديولوجية السوق من خلال السماح لعدد أكبر من الناس بالمشاركة في الاستهلاك.

ما يفتقده زامورا (على الرغم من أن هذا ينطبق بشكل أساسي على معظم منتقدي الدخل الأساسي الشامل) هو التفكيك التدريجي للعمل والحياة بشكل عام والذي يمكن أن يساهم فيه الدخل الأساسي الشامل. إذا لم أكن مضطراً إلى العمل أو لا أرغب في العمل في ظل ظروف غير ديمقراطية أو غير آمنة، فلن أضطر إلى ذلك. صحيح أن العمل سيظل يتحول إلى سلعة إلى حد ما — ولكن ليس بشكل شامل universally أو بالضرورة. بنفس الطريقة التي يمكننا أن نتخيل بها عالمًا لا يتم فيه تحويل الضروريات الأساسية إلى سلعة، يمكننا أن نتخيل تحويل الأشياء الفاخرة إلى سلع كذلك. ومع الدخل الأساسي الشامل الموسع، لن أضطر إلى بيع عملي من أجل البقاء. وبينما سيظل هناك بالتأكيد سوق للسلع الاستهلاكية في هذه المرحلة، فإن شراء السلع في السوق ليس السمة المميزة للرأسمالية. مع الدخل الأساسي الشامل الموسع expansive UBI، سيتم بشكل تدريجي قطع العلاقة بين العمل القسري هيكلياً وقدرة الفرد على عيش حياة (كريمة) — وهي العلاقة التأسيسية لنمط الإنتاج الرأسمالي.¹⁰ تخيل "العمل" الإبداعي الذي يمكن للناس المشاركة فيه بمحض إرادتهم إذا لم يضطروا إلى "الحصول على عمل" من أجل البقاء.

¹⁰ يبدو أيضًا أن زامورا أخطأ في قراءة الحجة الاشتراكية للدخل الأساسي الشامل من حيث صلته برغبة الناس في العمل. إن الدخل الأساسي الشامل لا يركز بالضرورة على أي افتراض يتعلق برغبة الناس في العمل (على الرغم من أن ماركس اقترح أن ظروف العمل المستتلبة alienated والاستغلالية في ظل الرأسمالية هي التي تنتج عدم الاهتمام بالعمل)، وبالتالي في ظل ظروف ديمقراطية وغير استغلالية، سيكون لدى الناس زيادة في الدخل (اهتمام بالعمل). إذا كان الناس لا يريدون العمل، فلن يحتاجوا إلى ذلك (وهذا يعتمد على تحقيق الدخل الأساسي الشامل استجابةً أو جنباً إلى جنب مع التطورات في تقنيات الأتمتة التي تسمح بإنتاج كميات كبيرة من السلع الأساسية مع الحد الأدنى من الحاجة إلى العمالة البشرية).

ومع ذلك، إذا أراد الناس العمل، فيمكنهم ذلك. على الرغم من أن منتقدي الدخل الأساسي الشامل يتعاملون مع الفئة الأولى [عدم الاهتمام بالعمل] عادةً على أنها أكثر إشكالية، إلا أن الفئة الأخيرة [الاهتمام بالعمل] هي التي يعترض عليها زامورا. ويبدو أنه يشعر بالقلق من عدم وجود أعمال كافية للأشخاص الذين يرغبون في العمل. وفي حين أن هذا قد يكون صحيحاً على المدى القصير، إذا كان دافعنا كاشتراكيين هو تجاوز الرأسمالية، فإن جزءاً كبيراً من هذه العملية سوف يستلزم بلا شك إعادة تنظيم وإعادة صياغة مفهوم العمل نفسه. إذا كان الناس يريدون العمل، ولكنهم لا يستطيعون العثور على "عمل" كي يعملوا، فما الذي يمنعهم من متابعة عمل لا يتخذ شكل ما يمكن أن نعتبره "عملاً" اليوم؟ وجرياً وراء نهج ماركس، يجب أن نفترض أن معظم الناس سيرغبون في العمل، لكن هذا ليس نفس الشيء مثل الرغبة في عمل).

تذكّر، ليس كل مقترحات الدخل الأساسي الشامل متساوية، وبالتالي لا ينبغي دعم جميع خطط الدخل الأساسي الشامل من قبل أولئك الموجودين على اليسار. ومع ذلك، هناك أسباب وجيهة للغاية تجعل المفهوم العميق للدخل الأساسي الشامل جزءاً من أي مشروع اشتراكي يهدف إلى ما هو أبعد من الرأسمالية ولكن يتحرك للأمام من داخل الرأسمالية. لا توجد ضمانات هنا، ومن الضروري أن نفكر في الدخل الأساسي الشامل ضمن برنامج يساري أوسع بكثير. في نهاية المطاف، لا يوجد سبب وجيه للاعتقاد بأن أي خطة سياسة أو خطتان سياسيتان أو مطلبين سينجحان بمفردهما، لا سيما بدون الحركة الجماهيرية التي سيحتاج أي منها بالضرورة إلى دعمها من أجل تحقيقها.

* د. براينت ويليام سكولوس حاصل على درجة الدكتوراه في النظرية السياسية والعلاقات الدولية. وهو حالياً زميل ما بعد الدكتوراه في برنامج أمهرست للنظرية النقدية The Amherst Program in Critical Theory، وأستاذ مساعد في جامعة فلوريدا الدولية، وكاتب مساهم في معهد هامبتون، ومحرر قسم سياسة الثقافة لمجلة الطبقة والعرق وسلطة الشركات.

بيدرو ميدفورد: الكل للواحد والواحد للكل – هل الدخل الأساسي الشامل قابل للتطبيق؟

نشرت هذه المقالة بتاريخ 5 تشرين الأول 2023 في الاكتواري، مجلة معهد وكلية الاكتواريين في بريطانيا
Institute and Faculty of Actuaries بعنوان

“All for one and one for all – is Universal Basic Income workable?”

[https://www.theactuary.com/2022/12/01/road-](https://www.theactuary.com/2022/12/01/road-understanding?utm_source=Adestra&utm_medium=email&utm_term=)

[understanding?utm_source=Adestra&utm_medium=email&utm_term=](https://www.theactuary.com/2022/12/01/road-understanding?utm_source=Adestra&utm_medium=email&utm_term=)

جميع الهوامش من وضع المترجم.

لقد تم اقتراح وتجريب مفهوم الدخل الأساسي الشامل – وهو عبارة عن دفعة نقدية منتظمة يحصل عليها كل فرد في البلاد، دون شروط – بأشكال مختلفة على مدى العقود الماضية. وقد عادت هذه الفكرة إلى الظهور مؤخراً كفكرة شعبية، حيث تفكر العديد من البلدان في تطبيق برامج تجريبية.

وعلى وجه الخصوص، يكتسب الدخل الأساسي الشامل زخماً كحل محتمل للتحديات الاقتصادية وأوجه عدم المساواة الاجتماعية. فهو يمثل طريقة مبتكرة ومن المحتمل أن يكون وسيلة تغيير للحد من الفقر وتحفيز النمو الاقتصادي وتعزيز الرفاه الاجتماعي، وخاصة في البلدان النامية الصغيرة. ومع ذلك، فإن التنفيذ الناجح يتطلب تخطيطاً دقيقاً، وتمويلًا مستداماً، ونهجاً شاملاً يأخذ في الاعتبار الاحتياجات والظروف الخاصة بكل بلد.

لمحة تاريخية

كان الزوجان البريطانيان من طائفة الكويكرز Quaker، دينيس ومايبل ميلنر Dennis and Mabel Milner، من أوائل المؤيدين للدخل الأساسي الشامل، حيث نشرنا مخطط علاوة الدولة Scheme for a State Bonus في عام 1919.¹ لقد أرادوا إنشاء طريقة عقلانية لحل مشكلة عدم

¹ العنوان الكامل للكراس هو: Scheme for a State Bonus: A rational method of solving the social problem

للمزيد من المعلومات حول الخلفية التاريخية للمحاولات الفكرية والتطبيقية في بريطانيا للحد من الفقر راجع الموسوعة الحرة:

https://en.wikipedia.org/wiki/Universal_basic_income_in_the_United_Kingdom

المساواة في الدخل من خلال توفير الدعم المالي غير المشروط لجميع المواطنين. وبموجب هذا المخطط تقوم الحكومة بتمويل ذلك من خلال جباية ضريبة الدخل، وإعادة توزيعها بالتساوي بين كل أفراد في المجتمع.

في أواخر الستينيات، اقترحت هيذر روس Heather Ross، وهي طالبة دراسات عليا في الاقتصاد بجامعة معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا في الولايات المتحدة، أن يقوم المكتب الوطني للفرص الاقتصادية Office of Economic Opportunity بإجراء تجربة الدخل الأساسي الشامل في ولاية نيويورك، لاختبار تأثير الدخل المضمون على العائلات ذوي الدخل المنخفض. وقد تم تنفيذ ذلك، وفي الفترة بين عامي 1968 و1972، وتلقت 1357 أسرة مدفوعات نقدية غير مشروطة لتلبية احتياجاتها الأساسية. وكانت النتائج واعدة وأظهرت آثارًا إيجابية على الحد من الفقر وعلى الرفاه الاجتماعي.

في سبعينيات القرن الماضي، نفذت الحكومة الكندية برنامجًا تجريبيًا يسمى "منكوم" Mincome في مدينة دوفين، مانيتوبا Dauphin, Manitoba، أعطى بموجبه كل شخص بالغ في المدينة دخلًا سنويًا مضمونًا. وكانت النتائج مختلطة، لكن بعض الدراسات وجدت أنها أدت إلى انخفاض الفقر وتحسين الصحة العقلية.²

والآن، بعد عقود من السبات، تعود مناقشات الدخل الأساسي الشامل إلى الظهور من جديد في جميع أنحاء العالم. فخلال الانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام 2020، دافع المرشح أندرو يانغ Andrew Yang عن الفكرة. وأدت جائحة كوفيد إلى تسريع خطاب الدخل الأساسي الشامل حيث سعت الحكومات إلى إيجاد طرق لدعم المواطنين خلال الأزمة. (وفق استطلاع عام أجرته شركة YouGov في المملكة المتحدة).

وفي عام 2020، وجد أن 51% يؤيدون الدخل الأساسي الشامل؛ وقد تم إطلاق برامج تجريبية للدخل الأساسي الشامل في دول مثل كينيا، في حين ناقشت دول أخرى مزايا تنفيذ هذا المفهوم على نطاق أوسع.

² للمزيد من المعلومات، راجع: <https://en.wikipedia.org/wiki/Mincome>

تحالف قوي

يمكن أن يختلف تصميم الدخل الأساسي الشامل وتعقيده بشكل كبير بناءً على الكيان الذي يقدم المقترح. فالبعض يدعو إلى توفير مبلغ ثابت لجميع المواطنين، ويقترح آخرون أساليب يتم اختبارها من خلال الوسائل التي تقوم على اختبار الحاجات means-tested على أساس العوامل الاجتماعية والاقتصادية وعوامل أخرى مثل الحالة الصحية والجغرافيا. تتضمن الطريقة الأخرى دمج المبادئ المشابهة للدخل الأساسي الشامل في النظام الضريبي من خلال ضريبة الدخل السلبية negative income tax.³

يمكن أن يلعب الخبراء الاكثوريون دورًا حاسمًا في تصميم وتقييم نماذج الدخل الأساسي الشامل التي تتوافق مع الاحتياجات المحددة للبلد. وستكون خبرتنا في النمذجة المالية financial modelling والتحليل الديموغرافي وتقييم المخاطر حاسمة في ضمان جدوى البرنامج وفعاليته.

في عام 2022، شرعنا أنا وشوبهاش غوزين Shubhash Gosine، وكلانا عضوان في الرابطة الاكثورية الكاريبية، في مشروع بحث اكثوري لتقييم جدوى مخططات الدخل الأساسي الشامل للدول النامية

³ نقرأ في الموسوعة الحرة أن ضريبة الدخل السلبية هي نظام يعكس الاتجاه الذي يتم فيه دفع الضريبة على الدخل الذي يقل عن مستوى معين؛ وبعبارة أخرى، فإن أصحاب الدخل فوق هذا المستوى يدفعون أموالاً [ضريبة دخل] للدولة بينما يحصل أصحاب الدخل الأدنى منه على مساعدة مالية من الدولة. وبهذا المعنى فإن هذه الضريبة هي بمثابة برنامج رعاية اجتماعية لمساعدة الأفراد والأسر ذات الدخل المنخفض أي أنها شكل من أشكال الرعاية الاجتماعية تهدف إلى مساعدة الأشخاص المحتاجين.

قد تكون ضريبة الدخل السلبية أحد مخرجات نظام الضرائب التصاعدية، ففي هذا النظام يتم فرض ضرائب أقل على الأشخاص ذوي الدخل المنخفض، ويتم فرض ضرائب على الأشخاص ذوي الدخل الأعلى مقارنة بأولئك من ذوي الدخل المنخفض. والنتيجة الطبيعية لمثل هذا النظام هي أن الأشخاص الذين يكسبون القليل جداً سيحصلون أيضاً على المساعدة في دخلهم.

ويرد في بعض الأدبيات أن نظام ضريبة الدخل السلبية يتوافق مع الفكرة التحررية libertarian المتمثلة في عدالة التوزيع، بينما يتبع الدخل الأساسي فكر المساواة egalitarian.

https://en.wikipedia.org/wiki/Negative_income_tax#:~:text=In%20economics%2C%20a%20negative%20income,blue%20arrows%20in%20the%20diagram.

أنظر كذلك:

Joseph E. Stiglitz, *Economics of the Public Sector* (New York: W. W. Norton, 1986), 406-408.

الصغيرة. لم ننشر بحثنا بعد، لكننا قدمنا نتائجنا الأولية في المؤتمر الدولي للخبراء الاكتواريين لعام 2023 في سيدني، أستراليا.

كان الدافع وراء إجراء هذا البحث هو دراسة حكومة بربادوس لفكرة الدخل الأساسي الشامل، والذي ستقدمه باعتباره أرباحًا dividend للمواطن. كما اقترحت اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي التابعة للأمم المتحدة الدخل الأساسي الشامل كوسيلة محتملة لتلبية احتياجات الناس الأساسية بعد عصر كوفيد في تلك المنطقة.

وكانت ردود الفعل في بربادوس على فكرة الحكومة متباينة، حيث سأل عدد قليل من المواطنين والمسؤولين وأعضاء البرلمان ذوي النفوذ الضوء على الضغوط المالية المحتملة على المدى الطويل، والتكاليف المرتفعة وعدم استدامة مثل هذا البرنامج.

يقوم بحثنا على نموذج اكتواري ديناميكي: باستخدام البيانات الديموغرافية demographic والتعداد السكاني census، وجدول الوفيات الاكتوارية والبيانات الاقتصادية، ويمكننا توقع التكاليف المحتملة لخطط الدخل الأساسي الشامل غير القائمة على التحقق من الموارد المالية non-means-tested في ظل سيناريوهات مختلفة. وينطوي ذلك على استخدام التقنيات الاكتوارية لتسعير المعاشات السنوية الفورية والمؤجلة immediate and deferred life annuities المرتبطة بالتضخم على مدى أي فترة زمنية، استنادًا إلى التنبؤات السكانية لبربادوس.

قرارات مستنيرة

إن قرار تنفيذ الدخل الأساسي الشامل قرار معقد، نظرًا للتوازن الذي يجب على صناع السياسات تحقيقه بين إفادة الفئات الأكثر ضعفًا في المجتمع والعيوب المحتملة. ويمكن أن تشمل هذه العيوب تحديات التمويل خلال فترات الركود المالي، وانقطاع الإيرادات بسبب الكوارث الطبيعية، ومخاطر التضخم على استدامة المخطط، والتصورات غير المناسبة بين مواطني البلاد.

أحد الأمثلة على الدخل الأساسي الشامل الزائف مع بيانات يمكن ملاحظتها في بربادوس هو التعليم العالي المجاني لجميع الطلاب الجامعيين في جامعة جزر الهند الغربية. تم سحب هذا البرنامج من قبل حكومة سابقة لأنه

اعتبر غير قابل للتحمل unaffordable وغير مستدام، ولكن تم إعادة تقديره في عام 2018 من قبل الإدارة الحالية.

ولمحاكاة هذه الفائدة في النموذج الاكتواري، فإننا نأخذ في الاعتبار المنفعة غير الخاضعة لاختبارات الدخل non-means tested لتغطية الرسوم الدراسية، والتي يتم إصدارها سنوياً لجميع الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين 18 إلى 23 عاماً ويتم معاييرها وفقاً لمعدلات الالتحاق بالجامعة. تتوافق نفقات الرسوم الدراسية الفعلية لحكومة بربادوس للعام 2018-2022 بشكل جيد مع النتائج الاكتوارية المتوقعة.

وعلى المدى القصير، تبدو المنافع التي تعود على هذه المجموعة في المتناول affordable. ومع ذلك، سلّطت توقعات النماذج طويلة المدى الضوء على بعض نقاط الضعف - خاصة بسبب مخاطر التضخم، والتي يمكن أن تشهد زيادة في التكلفة اسمياً بأكثر من 32% خلال السنوات العشر المقبلة. والتكلفة الحقيقية مرتفعة بنفس القدر مع تعافي بربادوس من أكثر من عقد من انخفاض نمو الناتج المحلي الإجمالي، وانخفاض عائدات السياحة، والخسائر المرتبطة بالمناخ. ففي عام 2021، على سبيل المثال، عانت البلاد من خسائر الكوارث الطبيعية وحدها بقيمة 200 مليون دولار - أي ما يعادل حوالي 4% من ناتجها المحلي الإجمالي.

بالإضافة إلى ذلك، لكي يكون البرنامج منصفاً وشاملاً حقاً، يمكن القول إنه يجب أن يمتد ليشمل الشباب الذين لا يتابعون التعليم الرسمي أو الذين يلتحقون بكليات أو مدارس مهنية أخرى. وإذا حدث هذا، أو في حالة زيادة معدلات الالتحاق بالتعليم العالي، فقد تتوقف الاستفادة من كونها مستدامة أو ميسورة التكلفة على المدى القصير دون زيادة الضرائب أو خفض الإنفاق في مجالات أخرى.

في ميزانية 2023-2024، أوضح رئيس وزراء بربادوس أن البلاد تتوقع إيرادات بقيمة 3.5 مليار دولار ونفقات بقيمة 4.2 مليار دولار - وهو عجز يبلغ حوالي 750 مليون دولار، سيتم تمويله خلال السنة المالية المقبلة. وتم تخصيص حوالي 97.5 مليون دولار لوزارة تمكين الناس وشؤون المسنين Ministry of People Empowerment and Elder Affairs. توفر ميزانية الرعاية الاجتماعية هذه الدعم لحوالي 11500 أسرة تعيش في فقر مدقع (أولئك الذين يبلغ دخل الأسرة 8500 دولار أو أقل سنوياً). وبتوسيع نطاق نتائج النموذج الاكتواري لتمثيل

السكان الذين يعيشون في فقر مدقع، تبدو هذه المنفعة القائمة على الوسائل معقولة وممكنة على المدى القصير. ومع ذلك، كما هو الحال مع سيناريو التعليم العالي، يتوقع النموذج أن التكلفة الاسمية يمكن أن ترتفع بأكثر من 30% على مدى السنوات العشر المقبلة، على افتراض أن الظروف الاجتماعية والاقتصادية في بربادوس ستظل دون تغيير. ويرجع ذلك أساساً إلى مخاطر التضخم، حيث من المتوقع أن تستمر الزيادات في تكلفة المعيشة في تجاوز الزيادات الاسمية في الأجور.

يجب النظر بعناية في آلية التمويل طويلة الأجل والقدرة المالية على تحقيق مكاسب للمواطنين. وينبغي أن يشمل ذلك تحليل الحساسية sensitivity analysis للصدمات الاقتصادية مثل الركود التضخمي، والمخاطر المرتبطة بالمناخ والتحويلات الديموغرافية (على سبيل المثال، انخفاض معدلات المواليد وشيخوخة السكان)، واستكشاف استراتيجيات التخفيف مثل متطلبات الأهلية التدريجية progressive eligibility requirements للحصول على المنافع، وزيادات التمويل من خلال الضرائب الهامشية، وغيرها.

عمل متوازن

توفر الأبحاث الجارية حول الدخل الأساسي الشامل للدول النامية الصغيرة مثل بربادوس رؤى قيمة حول المزايا والعيوب. وفي حين يبدو الدخل الأساسي الشامل مفيداً من الناحية النظرية، فإن تنفيذه في بلد يعاني بالفعل من قيود مالية يأتي مصحوباً بتحديات تمويل فريدة من نوعها. ومع ذلك، فهو يستحق دراسة جدية لقدرته على الحد بشكل ملموس من الفقر المدقع، وتحفيز النشاط الاقتصادي، وتبسيط أنظمة الرعاية الاجتماعية.

ويتعين على الحكومات المهتمة بتنفيذ الدخل الأساسي الشامل أن تقوم بتقييم قدراتها المالية على المدى الطويل ومراقبتها بشكل مستمر، وأن تستكشف آليات تمويل مبتكرة لضمان استدامة مثل هذه المخططات.

* بيدرو ميدفورد، مدير اكتواري، شركة مانوليف، كندا

Pedro Medford is actuarial manager at Manulife, Canada

مايكل روبرتس: 50 عامًا من نظرية التبعية

نشر النص الإنجليزي للمقال في موقع الاقتصادي الماركسي مايكل روبرتس بتاريخ 4 تشرين الثاني 2023

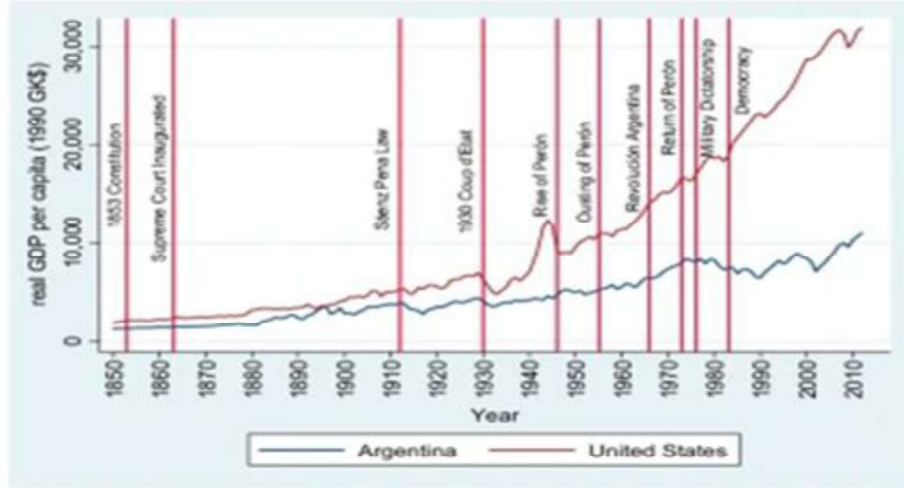
<https://thenextrecession.wordpress.com/2023/11/04/50-years-of-dependency-theory/>

في مقالات قادمة، سأقوم بمراجعة عدد من الكتب التي نشرت في العام الماضي حول الجوانب الرئيسية للنظرية الاقتصادية الماركسية. أبدأ بنظرية التبعية dependency theory.

ظهرت نظرية التبعية dependency theory في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي كنقد لنظرية "التحديث" 'modernisation'، التي زعمت أن الدول الفقيرة يمكن أن تتطور من خلال اتباع نفس المسار الذي تتبعه الدول الغنية. ويقول منظرو التبعية إن هذا لم يكن ممكنًا لأن الدول الفقيرة تتعرض للاستغلال المنهجي من قبل الدول الغنية. تمّ تطوير النظرية بشكل رئيسي في أمريكا اللاتينية، عندما انتهى ما يسمى بالعصر الذهبي للتنمية الرأسمالية المزدهرة بعد الحرب العالمية الثانية في الاقتصادات الرأسمالية المتقدمة الكبرى.

ويبدو أن التنمية الاقتصادية كما هي الحال في "الغرب" لا تنطبق على الاقتصادات في أمريكا الجنوبية أو الشرق الأوسط أو أفريقيا. في عام 1945، كان دخل الفرد في دول أمريكا اللاتينية مثل الأرجنتين والبرازيل لا يتخلف كثيرًا عن نظيره في الاقتصادات الرأسمالية الأضعف في جنوب أوروبا، وكان من المتوقع أن تزدهر أمريكا اللاتينية في ظل الحكومات التي تتطلع إلى اتباع الاقتصادات الصناعية في الشمال. تبخر هذا الأمل في ظل تراجع الربحية والاستثمار الذي أعقب ذلك في أواخر الستينيات وخلال بقية القرن العشرين.

Panel a Long-Run Development of Argentina and the United States



في كتابه، الذي نشر الآن باللغة الإنجليزية، يقدم لنا كلاوديو كاتز Claudio Katz، الأستاذ في جامعة بوينس آيرس ومؤلف العديد من الكتب حول الاقتصاد والمجتمع في أمريكا اللاتينية، وصفاً شاملاً لنظرية التبعية كما تم شرحها بشكل رئيسي في أمريكا اللاتينية على مدى السنوات الـ 50 الماضية. فاز الكتاب بجائزة ليبرتادور Libertador للفكر النقدي عام 2018.

أعتقد أنه يمكننا البدء في النظر في نظرية التبعية اعتماداً على عبارة مختصرة كتبها ماركس في مقدمة المجلد الأول من كتاب رأس المال عام 1867. لقد كتب: "إن الدولة الأكثر تقدماً صناعياً لا تكشف للأقل تقدماً إلا صورة مستقبلها." وقد كتبها ماركس عندما كانت بريطانيا في قمة قوتها الاقتصادية والصناعية. وكان رأس المال تحليلاً لمثل هذا الاقتصاد الرأسمالي. واعتقد ماركس أن الرأسمالية ستنتشر عالمياً حتى تظهر قوى رأسمالية منافسة أخرى، وكان على حق. لحقت ألمانيا وفرنسا، ولا سيما الولايات المتحدة (بصورتها الخاصة)، ببريطانيا بحلول نهاية القرن التاسع عشر.

لكننا نعلم الآن أن مجموعة صغيرة فقط من الاقتصادات الرأسمالية الصناعية والتجارية هي التي حققت توقعات ماركس. وتمكنت تلك القوى بعد ذلك، من خلال القوة العسكرية والمالية والتكنولوجية، من عرقلة تقدم

الرأسماليين وعمالهم في معظم أنحاء العالم. كتب لينين في عام 1915 أنه لم يكن هناك سوى عدد قليل من البلدان التي تسيطر على التكنولوجيا والتمويل والموارد في العالم. وبعد مرور مائة عام، لا تزال تلك الاقتصادات "الإمبريالية" على حالها إلى حد كبير، ولا تزال مهيمنة على نطاق واسع. ومن ثم يمكننا الحديث عن كتلة إمبريالية مهيمنة وبقية العالم "التابع".

لكن "التبعية" يمكن أن تتخذ معانٍ مختلفة، ويوضح لنا كاتز أن الأمر هو كذلك من خلال مناقشته للمتغيرات داخل مدرسة التبعية. إذ يحدد منظرو التبعية مجموعتين رئيسيتين من البلدان في النظام الاقتصادي العالمي: المركز core والأطراف periphery. دول المركز هي الدول الغنية التي تسيطر على الاقتصاد العالمي. الدول الطرفية هي دول فقيرة تعتمد على دول المركز في التجارة والاستثمار والتكنولوجيا. في الواقع، تبدو لي كلمة "الأطراف" أفضل من كلمة "التابعة". يمكن أن يعني هذا الأخير أن الطبقة الرأسمالية في الأطراف لا تلعب دورًا مستقلًا في استغلال الطبقة العاملة الخاصة بها وأن الاستغلال هو نتيجة الهيمنة الإمبريالية والشركات الأجنبية.

تلعب نظرية التبعية دورًا تفسيريًا إيجابيًا في فكرة أن الموارد تتدفق من "أطراف" الدول الفقيرة والمتخلفة إلى "مراكز" الدول الغنية، مما يؤدي إلى إثراء الأخيرة على حساب الأولى. ترفض هذه النظرية النظرية السائدة حول "اقتصاديات التنمية" التي تقوم عليها المؤسسات الدولية للأمم المتحدة (الأونكتاد - "التجارة والتنمية") والبنك الدولي وصندوق النقد الدولي، والتي ترى أن جميع المجتمعات تتقدم عبر مراحل مماثلة من التنمية وبالتالي فإن المناطق المتخلفة اليوم هي في وضع مماثل لوضع المناطق المتقدمة اليوم في وقت ما في الماضي. ولذلك، فإن مهمة مساعدة المناطق المتخلفة على "الخروج من الفقر" تتمثل في تسريعها على هذا المسار المشترك المفترض للتنمية الرأسمالية، بوسائل مختلفة مثل الاستثمار، ونقل التكنولوجيا، والاندماج الوثيق في السوق العالمية. وهكذا توصف بلدان الأطراف بأنها اقتصادات "ناشئة" أو "نامية".

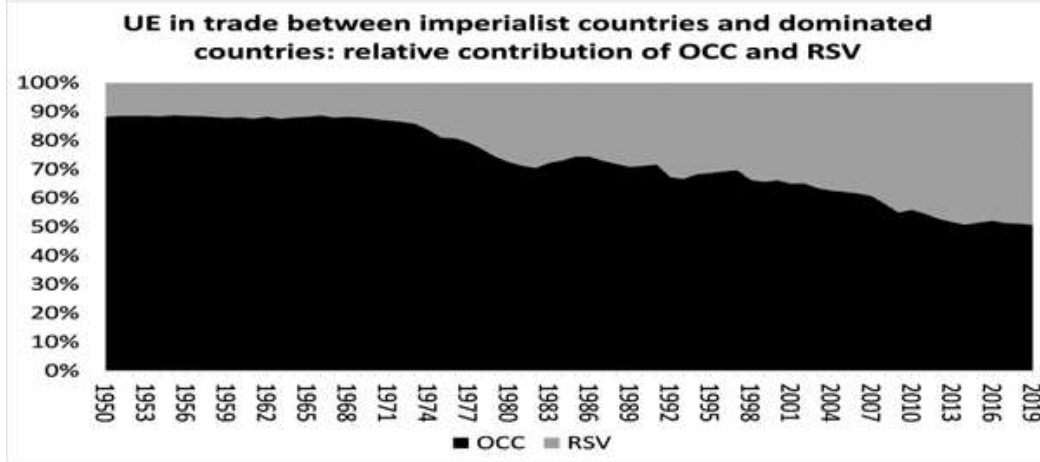
سيكون من الخطأ الاعتقاد بأن ماركس اعتمد "اقتصاديات التنمية" بهذا المعنى كما في العبارة المقتبسة من رأس المال. فهو آنذاك كان يشير إلى الاقتصادات الرأسمالية الصناعية القائمة في عصره. وفي كتاباته اللاحقة، أكد كيف تم استغلال الدول الأكثر سكانًا مثل الهند وروسيا والصين وقمع قدرتها في نهاية المطاف على الانضمام إلى الدول الصناعية الرائدة.

يركز كاتز تفسيره لنظرية التبعية على نسختها الماركسية، بدلاً من النظرية السائدة التي تجادل بأن التبعية يمكن التغلب عليها من خلال السياسات الوطنية للإنفاق الحكومي على النمط الكينزي، واستبدال الواردات بالسلع الأجنبية، والتنظيم المالي regulation. وقد أثبت هذا البديل فشله عملياً في نقل دول مثل الأرجنتين أو البرازيل إلى الطبقة العليا من الاقتصادات الرأسمالية. وبدلاً من ذلك، تقول نظرية التبعية الماركسية إن هذه البلدان ستظل "تابعة" بسبب الاستخراج الضخم للقيمة من العمالة في اقتصاداتها إلى الكتلة الإمبريالية من خلال التجارة والتمويل والتكنولوجيا.

يُعد "التبادل غير المتكافئ" في التجارة الدولية عنصراً أساسياً في نظرية القيمة لماركس. ومع ذلك، في إطار نظرية التبعية، تنشأ اختلافات حول طبيعة هذا التبادل غير المتكافئ: هل يرجع ذلك إلى الاختلافات في الأجور أم إلى الاختلافات في الإنتاجية المدفوعة بالتكنولوجيا؟ هل تحصل البلدان الإمبريالية، من خلال شركاتها المتعددة الجنسيات، على فائض أرباح من العمالة الرخيصة في البلدان الطرفية أم من التكنولوجيا المتفوقة وتكاليف الوحدة المنخفضة lower unit costs في التجارة الدولية؟

ويعتقد كاتز أن أبرز منظري التبعية الماركسيين في أمريكا اللاتينية، روي ماورو ماريني [1997-1932] Ruy Mauro Marini، "كان لديه ارتباطات أكبر بأولئك الذين أرجعوا التبادل غير المتكافئ إلى الاختلافات في الإنتاجية بدلاً من الأجور." وأكد هذا أن الفجوات في الأجور تم تفسيرها بالفوارق في تطور القوى الإنتاجية وليس العكس. "إن الأجر هو نتيجة وليس عاملاً محدداً للتراكم، بحجة أن مستويات الأجور في كل بلد تعتمد على الإنتاجية، والدورات، وأسهم رأس المال capital stock، وشدة الصراع الطبقي."

إذا كان هذا هو موقف ماريني فأنا أوافق عليه. فدراستي التجريبية empirical بالاشتراك مع غولييلمو كارچيدي Guglielmo Carchedi حول الإمبريالية الحديثة توصلت إلى أن نقل القيمة من الأطراف إلى اقتصادات المركز من خلال التبادل غير المتكافئ في التجارة يرجع بشكل أساسي إلى الاختلافات في الإنتاجية والتفوق التكنولوجي (OCC في الرسم البياني أدناه)، وفقط إلى بدرجة أقل بسبب ارتفاع معدلات الاستغلال في الأطراف (Rate of Surplus Value-RSV) وليس بسبب انخفاض الأجور في حد ذاته.



ومع ذلك، فإن ماريني اقترح مفهوم الاستغلال المفرط -super exploitation، أي عندما تنخفض الأجور في الأطراف عن قيمة قوة العمل labour power أو أقل من متوسط الأجر الدولي. ووفقا لكاتز، فإن ذلك كان "الأطروحة المركزية لنظرية التبعية المستوحاة من ماريني". لكن كاتز يرى أن "الاستغلال المفرط" لا يمكن أن يكون العامل الرئيسي المحدد لنقل القيمة بين البلدان الغنية والفقيرة. "إنه يضعف منطق فائض القيمة" ويقترح المفهوم البرودوني [نسبة إلى Pierre-Joseph Proudhon] للسرقة¹ بدلا من "المنطق الموضوعي للتراكم". وكما يشير كاتز، فإن الاستغلال المفرط موجود أيضًا في الاقتصادات الإمبريالية النيوليبرالية مع "العمالة غير المستقرة" 'precarious employment' وعقود العمل صفرية الساعات² zero-hours contracts وما إلى ذلك.

من وجهة نظري، فإن النقطة المهمة هي أن تحويل القيمة إلى الشمال الإمبريالي يتم بسبب التكنولوجيا المتفوقة وإنتاجية العمل. وهذا يمكن الشمال الإمبريالي من بيع بضائعه في الأسواق العالمية بتكاليف أقل من المتوسط العالمي. ويحاول الرأسماليون في الأطراف التعويض عن انخفاض مستواهم الفني وإنتاجيتهم من خلال خفض أجور عمالهم. لذا فإن ارتفاع معدل الاستغلال في الجنوب، سواء عن طريق الاستغلال المفرط أم لا، هو رد فعل على الفشل في التنافس ضد الشمال.

¹ في كتابه ما هي الملكية (1840) شخّص جوزيف برودون، المفكر الاشتراكي الفرنسي، الملكية على أنها سرقة property is theft (المترجم)

² zero-hours contracts عقود عمل دون الالتزام بساعات عمل، منتشرة حاليًا في المملكة المتحدة، يستطيع العامل أو رب العمل بموجبها إنهاء العقد (الفصل التعسفي من العمل) دون إعطاء إنذار مسبق. (المترجم)

هل كانت القوة الاحتكارية هي السبب الرئيسي لهيمنة الشركات الإمبريالية؟ يدّعي بعض مُنظري التبعية ذلك. ومع ذلك، يعتقد كاتز أن هذا لم يكن الحال مع ماريني. كان ماريني دائماً أقرب إلى المفكرين الماركسيين مثل [إيرنست] ماندل [Ernest Mandel] الذي سلط الضوء على ديناميكية المنافسة المتباينة بين الاحتكارات. لقد حافظ على مسافة أكبر منه وبين بعض المنظرين مثل [بول] سويزي [Paul Sweezy] الذي أكد على القدرة غير المقيدة للشركات الكبيرة على إدارة الأسعار. لكن ماريني لم يذهب إلى حد أن شيخ [Anwar Shaikh]، الذي يقول كاتز، بأنه ينفي "الوجود الواضح لشركات عملاقة تحصل على أرباح غير عادية في أسواق معينة على حساب الشركات الأصغر."

يعتقد كاتز أن ماريني كان لديه ما يمكن أن أسميه فهمًا انتقائيًا لنظرية القيمة لماركس. "لقد كان ينتمي إلى تقليد في الاقتصاد الماركسي الذي اختلف مع المناهج التي تركز حصريًا على تحليل القيمة في مجال الإنتاج. هذا النهج يحدد القيمة فقط في المرحلة الأولية من خلق فائض القيمة، ويشير بإصرار إلى الوزن الذي وضعه ماركس على منطق الاستغلال ويستنتج كل تناقضات الرأسمالية من هذا المجال." لقد أراد ماريني إدراج "الاختلالات الموجودة في مجال الطلب". ولخص كاتز وجهة نظر ماريني بشأن الأزمات الاقتصادية باعتبارها "نهجًا متعدد الأسباب للتعامل مع الأزمات، يجمع بين اختلالات [تحقيق الفائض] imbalances of realization وميل معدل الربح نحو الانخفاض." يعرف قراء هذه المدونة أنه باعتباري مؤيدًا للتحليل "أحادي السبب" 'monocausal' للأزمات، فإنني أعتقد أن وجهة نظر ماريني تتركنا دون نظرية للأزمات على الإطلاق.

وهذا ليس نقطة الضعف الوحيدة في نسخة ماريني من نظرية التبعية. لقد رُوج بقوة لفكرة "الإمبريالية الفرعية" 'sub-imperialism'، وهي فئة من البلدان الوسيطة بين الأطراف المهيمن عليها والمركز الإمبريالي. يفرد كاتز عدة فصول لمناقشة أهمية هذه الفئة. وباختصار، يقول إنه "يساعد على فهم البنية الهرمية للرأسمالية المعاصرة" مع "قمة القوى المركزية وقاعدة من البلدان الخاضعة للسيطرة... وما بينهما تحاول هذه القوى الإمبريالية الفرعية الحصول على الهيمنة الإقليمية."

أنا أشك في أن الإمبريالية الفرعية تساعدنا على فهم الرأسمالية المعاصرة. فهذا المقترح يُضعف الخط الفاصل بين الكتلة الإمبريالية المركزية والبلدان الطرفية الخاضعة للسيطرة. إذا كانت كل دولة "إمبريالية إلى حد ما"، وإذا

انخرطت في حرب مع أحد جيرانها على الأسواق والموارد والأراضي، فإن الإمبريالية تبدأ في فقدان صلاحيتها كمفهوم مفيد. إن ما يسمى بالدول الإمبريالية الفرعية لا تملك تحويلات مستدامة وضخمة للقيمة والموارد إليها من الاقتصادات الأضعف. في عملنا حول الإمبريالية وفي العمل التجريبي للآخرين، لم يتم الكشف عن هذا الهيكل الهرمي لتحويل القيمة. إن الهند والصين وروسيا تُحوّل في الواقع كميات أكبر بكثير من القيمة إلى الكتلة الإمبريالية مقارنة بأمريكا الجنوبية. أنظر أدناه على النتائج التي توصل إليها أندريا ريتشي Andrea Ricci في التحويلات الأمريكية.

Table 2. Per capita unequal exchange, 1995-2019.
Source: own elaborations on World Bank and Ricci (2021b) data.

Annual per capita transfers	in current dollars			in % of per capita GDP		
	1995	2007	2019	95-19	95-07	07-19
North America	761	1,965	2,680	3.9	3.7	4.1
EMU	1,720	4,939	4,836	10.3	8.5	12.2
West Europe	2,429	7,531	6,921	12.7	10.6	14.8
East Asia	1,984	1,766	2,540	5.8	5.9	5.7
Oceania	526	2,626	3,638	7.1	4.5	9.8
China	-196	-810	-426	-14.1	-19.0	-10.0
Russia	-767	-1,108	-1,850	-29.7	-40.9	-17.2
East Europe	-901	-615	-1,309	-14.7	-18.9	-9.9
South America	-269	-472	-490	-6.1	-8.4	-3.9
Central America	-471	-379	-454	-11.9	-13.6	-9.8
Middle East	-1,443	-1,502	-950	-18.9	-24.8	-12.8
South Asia	-77	-220	-351	-21.5	-20.2	-23.0
Southeast Asia	-463	-1,350	-1,631	-46.8	-53.9	-40.3
Central Asia	-272	-380	-924	-11.9	-13.6	-9.8
North Africa	-426	-1,099	-1,034	-30.7	-31.6	-30.4
S. Sahara Africa	-65	-120	-132	-10.0	-11.6	-8.3

لنأخذ على سبيل المثال مجموعة البريكس BRICS، وهي أفضل المرشحين لكونهم "إمبرياليين فرعيين". لا يوجد دليل على حدوث تحويلات قيمة كبيرة وطويلة الأمد إليها من الاقتصادات الأضعف أو الاقتصادات المجاورة. إنهم لا يملكون التفوق المالي والتكنولوجي والعسكري للحصول على مثل هذه التحويلات. هل يمكن اعتبار الحروب بين الدول الطرفية (مثل إيران ضد العراق، وأذربيجان ضد أرمينيا) إمبريالية بأي طريقة مفيدة؟ أليس من الأفضل أن يُنظر إلى هذه الحروب على أنها حروب بين دول رأسمالية ضعيفة لتحقيق مكاسب اقتصادية وسياسية؟

في الواقع، يشير كاتز إلى أن البرازيل ليست دولة إمبريالية فرعية كما يراها ماريني. ولم تصبح قوة صناعية صاعدة تهيمن على شبه القارة. لقد ثبت أن الأمل الكبير الذي ساد في فترة التسعينيات، والذي روج له التيار الرئيسي لاقتصاديات التنمية، في انضمام البرازيل وروسيا والهند والصين وجنوب أفريقيا (بريكس) قريباً إلى رابطة الدول الغنية بحلول القرن

الحادي والعشرين، كان مجرد سراب. وتبقى هذه البلدان أيضاً خاضعة للهيمنة والاستغلال من قبل المركز الإمبريالي. والفجوة بين الاقتصادات الإمبريالية وبقية الاقتصادات لا تضيق، بل على العكس من ذلك. وهذا يشمل الصين، التي لن تنضم أيضاً إلى النادي الإمبريالي.

ومع ذلك، يريد كاتز الحفاظ على مفهوم ماريني: "في هذا السياق، تحتل التشكيلات الوسيطة مكاناً مهماً يكسر التوازي الصارم بين قوى الإمبريالية الفرعية وشبه-الأطراف الاقتصادية، حيث يختلف الوزن الجيوسياسي لبعض البلدان عن الاندماج في الإنتاج المعولم" الذي حققه الغير. تعتبر نظرية التبعية مفيدة جداً لفهم هذا التنوع في المواقف. فهي تشرح منطق التخلف وتهميش الأطراف دون أن يقتصر تحليلها على الأقطاب العالمية، كما تحلل التشعبات bifurcations والاختلافات بين التشكيلات الوسيطة المتميزة. لست متأكداً من أن النظرية نجحت بهذا الشأن.

وما يظهره المسح الشامل الذي أجراه كاتز لخمسین عاماً من نظرية التبعية هو أن نظرية القيمة التي وضعها ماركس حول "العولمة الإنتاجية القائمة على استغلال العمال تعيد تشكيل الانقسامات بين المركز والأطراف من خلال تحويلات القيمة الفائضة." وأن "إغفال تلك الآلية يمنع منتقدي التبعية من فهم منطق التخلف."

لذا فإن "إعادة دمج نظرية القيمة في تفسير التبعية أمر حيوي أيضاً لكشف الهيكل الخفي للرأسمالية الحالية. فلا توجد يد خفية توجه الأسواق، ولا توجد مؤسسة دولة حكيمة توجه الاقتصاد. فأساس النظام هو التنافس على الأرباح الناتجة عن الاستغلال، ومضاعفة ثروات الأقليات ومعاناة الأغلبية. إن نفس السخط والتمرد الذي كان وراء دراسة التخلف في الماضي يوجّه البحث في الحاضر."

إلينا فيدوتا: بعض الدروس حول التخطيط للقرن الحادي والعشرين من أول اقتصاد اشتراكي في العالم

نشرت هذه المقالة في مجلة مونثلي ريفيو، نيويورك، الولايات المتحدة الأمريكية:

Elena Veduta, "Some Lessons on Planning for the Twenty-First Century from the World's First Socialist Economy," *Monthly Review*, October 2022 Volume 74, Number 5)

[Monthly Review | Some Lessons on Planning for the Twenty-First Century](#)

نظرة عامة موجزة عن تاريخ التخطيط السوفيتي

إن النجاحات التي حققها الاتحاد السوفياتي بفضل الثورة الاشتراكية لعام 1917 - التي حوّلت بلدًا متخلفًا زراعيًا غنيًا بالمواد الخام وله ديون خارجية ضخمة، إلى قوة علمية وتكنولوجية متقدمة حددت عالماً ثنائي القطب - هي نجاحات ساحقة.¹ ومع ذلك، بعد الثورة المضادة عام 1991، عادت روسيا إلى ماضيها. لقد أصبحت مرة أخرى ذليلاً منتجاً للمواد الخام للمجتمع الرأسمالي العالمي وتستمر في الانزلاق إلى الأسفل.

اعتمادًا على الظروف الناشئة وتراكم الخبرة في تخطيط الاقتصاد، تغير نموذج الاقتصاد الاشتراكي في الاتحاد السوفيتي. يمكن تمييز الفترات التالية في بنائها: شيوعية الحرب، والسياسة الاقتصادية الجديدة، ومسار التصنيع، وتفكيك التخطيط الاقتصادي.

شيوعية الحرب (1918-1921)

أسست ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى لعام 1917 سلطة سوفيات نواب العمال والجنود والفلاحين في روسيا بحلول آذار/مارس 1918. وطورت الدولة السوفيتية أول التوازنات balances لتوصيف الموارد (في البداية، المواد الغذائية بشكل أساسي) واستخدامها من أجل إدامة حياة الناس. في سنواتها الأولى المضطربة والفوضوية - كانت هناك حرب أهلية وحرب على حد سواء ضد تدخل العديد من دول الوفاق - تمكنت روسيا السوفيتية، تحت قيادة في. أي. لينين، من الحفاظ على سلطتها في البلاد، وعدم السماح

¹ هناك دراسات نقدية عديدة لتجربة التخطيط الاشتراكي ومنها على سبيل المثال:

Michael Ellman, *Socialist Planning* (Cambridge: Cambridge University Press, 2014)

لها بالانهيار. وأثناء حل المهمة الصعبة المتمثلة في الاحتفاظ بالسلطة، كان لينين يطور فكرته عن التقدم: كهربة البلد بأكمله.

في عهد لينين، فرضت الدولة احتكارًا على التجارة الخارجية ومعاملات العملات الأجنبية؛ تأمين الأراضي والمؤسسات الصناعية والنقل والبنوك؛ حظر التجارة الخاصة في المنتجات الأساسية؛ وأدخلت التجنيد العمالي العام؛ وأدخلت تحكم العمال المتقدم في إنتاج وتوزيع المنتجات الحيوية. كان المجلس الأعلى للاقتصاد الوطني مسؤولاً عن تنسيق أنشطة الشركات لتنفيذ الخطط الربعية، ولاحقاً الخطط السنوية.⁽¹⁾

في عام 1920، أنشأت الحكومة مفوضية الدولة لكهربة روسيا (غوليرو GOELRO). واعتبرت الكهرباء "عاملاً قوياً" في نمو إنتاجية العمل. استندت GOELRO إلى تحليل الاحتياجات الاجتماعية، وتحقيق التوازن بينها وبين الموارد المتاحة مع الإشارة إلى خطط التنمية الإقليمية. كان الهدف منه إعادة الاقتصاد إلى مستويات ما قبل الحرب في غضون عشرة إلى خمسة عشر عامًا. ولتحقيق ذلك تم عام 1921 إنشاء لجنة الدولة للتخطيط (GOSPLAN)² لتطوير وتنفيذ خطة اقتصادية وطنية قائمة على مشروع الكهرباء.⁽²⁾

واجهت GOELRO تعقيدات. لم تكن المعلومات حول الوضع الحالي للاقتصاد والمعرفة بالتخطيط الاقتصادي كافية. لقد تطلب بناء محطات الطاقة توفير الآلات والأدوات والمواد الخام، والتي بدورها كان لابد من إنتاجها. لكي يتم هذا الإنتاج، كانت هناك حاجة إلى دعم مادي. كان من الضروري أيضًا النظر في الترابط بين الشركات المصنعة المشاركة في تنفيذ أهداف GOELRO. ومع ذلك، حدث هذا الفهم للتخطيط في وقت لاحق. أدى الغياب في المراحل الأولى للحسابات المخططة لجميع علاقات الإنتاج لدعم أهداف GOELRO إلى توقف البناء الذي بدأ، بما في ذلك إغلاق المصانع التي تزود المنتجات الأساسية، مما أدى بدوره إلى أزمة اقتصادية. أدت أخطاء الجدولة إلى زيادة الاختلالات وإغلاق الإنتاج وإغلاق المصانع. وهكذا اضطرت البلاد إلى التحول إلى السياسة الاقتصادية الجديدة.

² Gosplan، اختصار Gosudarstvennyy Planovyy Komitet، لجنة الدولة للتخطيط. وكانت الهيئة المركزية المشرفة على جوانب مختلفة من الاقتصاد المخطط للاتحاد السوفيتي من خلال ترجمة الأهداف الاقتصادية العامة، التي كان الحزب الشيوعي والحكومة يشتركان في تحديدها، إلى خطط وطنية محددة.

السياسة الاقتصادية الجديدة (1921-1927)

كانت السياسة الاقتصادية الجديدة، القائمة على اقتصاد مختلط بأشكال مختلفة من الملكية مع الحفاظ على الاقتصاد الموجه من الدولة، خطوة إلى الوراء. لكن كان من الضروري بناء شكل عملي للاشتراكية يفهم أهمية الأشكال المختلفة للملكية لأن الدولة السوفيتية، وهي لا تزال في مهدها، لم تكن قادرة على إدارة كل شيء بشكل فعال.

تم تقديم مبدأ "الحد الأقصى للحزب" في حزيران/يونيو 1921 لأعضاء الحزب الذين كانوا موظفين تنفيذيين في المؤسسات والشركات. جاءت الفكرة من كومونة باريس عام 1871. ووفقاً لهذا المبدأ، لن تتجاوز رواتب الموظفين التنفيذيين 150 في المائة من متوسط الراتب في الشركات الخاضعة لسيطرتهم.(3)

كان الهدف من السياسة الاقتصادية الجديدة هو استعادة الاقتصاد الوطني من خلال الحفاظ على السيطرة على الصناعات الثقيلة والنقل والبنوك وتجارة الجملة والتجارة الدولية، مع إدخال ريادة الأعمال الخاصة وزيادة رأس المال الأجنبي. تنافست الشركات المملوكة للدولة ضد بعضها البعض. وكانت الزراعة وتجارة التجزئة والخدمات والصناعات الخفيفة في الغالب في أيدي القطاع الخاص.

بدأت GOSPLAN في تطوير الموازنات balances من أجل تزويد المنتجين بالشروط المسبقة للأغذية والثروة الحيوانية، فضلاً عن الوسائل اللازمة لصنع المطاط والمعادن والمواد الأخرى. تم تجميع موازنات عام 1924 التي طورتها GOSPLAN في جدول واحد - موازنة الاقتصاد الوطني، والتي تغطي تدفقات المنتجات الأكثر أهمية. في مقدمة هذا المطبوع الذي يظهر فيه هذا الجدول، كتب ب. بوبوف P. Popov أنه "لم تكن هناك لا في الأدب الإحصائي ولا في الأدبيات الاقتصادية ولا في الأدبيات الروسية ولا في الأدبيات الأوروبية الغربية، أمثلة على مثل هذه الأعمال، وكان علينا أن نقرر بأنفسنا في عملية تشكيل ليس فقط الطريقة التقنية للبحث، ولكن أيضاً المتطلبات المنهجية الأساسية."(4)

الطريقة المعروفة باسم "تحليل المدخلات والمخرجات"، التي طورها فاسيلي ليونتيف [1906-1999] Wassily Leontief في الولايات

المتحدة في ثلاثينيات القرن الماضي، استخدمت في الأصل الجبر الخطي لبناء نموذج اقتصادي ورياضي وتحليل هيكل الاقتصاد الأمريكي.

انتقد جوزيف ستالين هذا النهج، واصفا إياه بأنه "العبة أرقام." (5) ويجادل البعض بأن رد فعل ستالين السلبي على هذا العمل كان لأن التوازن يتعارض مع سياسة التصنيع القسري، التي حطمت النسب الحالية للاقتصاد - ولكن في الواقع، كان السبب مختلفاً تماماً. كان ستالين، بصفته مديراً لتطوير بلد ضخم، مهتماً بالخوارزميات لحل المشكلات الاستراتيجية، بدلاً من مجرد وصفها.

في عام 1926، تم استعادة الاقتصاد الوطني إلى مستويات عام 1913، لكن النمو الاقتصادي بدأ في التباطؤ وازدادت البطالة. أدى ما يسمى بـ "مقص الأسعار" "price scissors" بين ارتفاع أسعار المنتجات الصناعية وانخفاض أسعار المنتجات الزراعية إلى توقف المناطق الريفية عن التجارة مع المدن، مما أدى إلى مجاعات في المدن. في مواجهة المشكلات الاقتصادية المتزايدة بحلول عام 1926، بدأ البلاشفة في مناقشة نموذج تخطيط قادر على ضمان ارتفاع معدل التصنيع. (6)

اعتقد أولئك المصطفين على اليمين، مثل نيكولاي بوخارين [1888-1938] N. Bukharin وفلاديمير بزاروف [1874-1939] V. Bazarov ونيكولاي كوندراتيف [1892-1938] N. Kondratyev، أن السوق هي التي تقرر، ويجب على الدولة أن تتدخل فقط لتصحيح العواقب السلبية التي تنبأت بها النماذج. عارض اليساريون، بضمنهم غليب كرزانونوفسكي [1872-1959] G. Krzhizhanovsky وفاليريان كوبايشف [1888-1935] V. Kuibyshev وستانيسلاف ستروميلين [1877-1974] S. Strumilin هذا الموقف مفضلين اقتصاداً مُداراً a managed economy لضمان أن البلاد يمكن أن تتقدم بسرعة نحو التصنيع. (7) اقترحت هذه المجموعة تنفيذ التقريبات المتتالية successive approximations (التكرارات iterations) من أجل تنسيق الأوامر الحكومية مع قدرات الإنتاج. كانت هذه هي فكرة التخطيط السيبراني للاقتصاد، بالاعتماد على ردود الفعل من الشركات المصنعة والتعديلات على الطلبات الحكومية اعتماداً على قدرات الشركات المصنعة.

مسار التصنيع واقتصاد الحرب والانتعاش الاقتصادي (1928-1950)

قام اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية بالانتقال من السياسة الاقتصادية الجديدة إلى مسار التصنيع في نهاية العشرينيات. كانت الخطة المقصودة موجهة إلى التخطيط طويل الأجل للاقتصاد من خلال تنسيق حسابات المدخلات والمخرجات على جميع مستويات التسلسل الهرمي للإدارة من خلال التكرارات. وأصبحت الاستثمارات المعامل القابل للقياس parameter لإدارة الخطة.

كانت نقاط البداية للتخطيط هي الأوامر الحكومية لإعطاء الأولوية لتطوير الصناعات الرئيسية والصندوق المخطط لوقت العمل العام. وتم حساب المواد والعمالة والموارد المالية من خلال نمذجة سلاسل الإنتاج اللازمة لتحديد الاستثمارات الرأسمالية لإنشاء قدرات تصنيعية إضافية. بعد إجراء جميع الحسابات داخل القطاعات، يتم تقديم طلبات المواد والعمالة والموارد المالية إلى هيئة التنسيق العليا: GOSPLAN. مع الأخذ في الاعتبار القدرات الحقيقية للمصنعين، يتم تصحيح التخصيصات لأوامر [طلبات] الدولة، وتبدأ جولة جديدة من الحسابات. وتستمر هذه العملية لحين الحصول على خطة المدخلات والمخرجات المتوازنة ضمن الدقة المحددة القابلة للحساب. بعد ذلك فقط يتم إبرام العقود وتتحول الخطة إلى توجيه directive. لقد مكن مبدأ التخطيط المستمر الحكومة من إجراء التعديلات في الوقت المناسب على الخطة.

بين عامي 1929 و 1934، احتل الاتحاد السوفيتي المرتبة الأولى في أوروبا والثاني في العالم من حيث نمو الإنتاج الصناعي والدخل القومي. (8)

توضحت مزايا هذه الطريقة من خلال الاقتصاد المركزي لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية خلال الحرب العالمية الثانية. وأصبحت عمليات إعادة الحساب ربع السنوية والشهرية وكل عشرة أيام الشكل الرئيسي للتخطيط. على سبيل المثال، بينما كان صهر الفولاذ أقل بثلاث مرات تقريباً وإنتاج الفحم أقل بخمس مرات من ألمانيا، صنع الاتحاد السوفيتي ضعف عدد الأسلحة والمعدات العسكرية أثناء الحرب. (9)

بعد الحرب، استمر مسار تصنيع الاقتصاد السوفيتي. فقد شهد كل عام بين عامي 1947 و 1954 زيادة في الدخل الحقيقي للسكان، حيث ارتفع بنسبة تصل إلى 34 في المائة مقارنة بمستويات ما قبل الحرب.

بدأت المنافسة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في الحرب الباردة. كانت استراتيجية الولايات المتحدة هي تصدير الاستثمارات إلى البلدان الرأسمالية الأخرى، مع بناء عالم أحادي القطب من الهيمنة القائمة على الدولار ينظمه صندوق النقد الدولي. وفي الوقت نفسه، حافظ الاتحاد السوفيتي على مسار التصنيع الذي ينظمه التخطيط الاقتصادي للصناعات الرئيسية.

في "الصراع" بين القوى العظمى، كانت ظروف بداية كل منها غير متكافئة. فخلال الحرب، تضاعفت الصناعة الأمريكية، وبحلول عام 1945، شكلت احتياطات الذهب الأمريكية أكثر من 70 في المائة من احتياطات العالم بشكل عام.⁽¹⁰⁾ لقد كان الإنجاز الرئيسي للولايات المتحدة هو تطوير السيبرنطيقا [علم التحكم الآلي] cybernetics، الذي يقوم على دراسة عمليات المعلومات من أجل إنشاء أنظمة تحكم آلية. بعد الانتعاش الاقتصادي في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، كان ينبغي على قيادة الاتحاد السوفيتي أن تدرك أهمية علم التحكم الآلي في تطوير التخطيط الاقتصادي. بدلاً من ذلك، تم وصف هذا العلم الجديد بشكل غير صحيح بأنه علم زائف، مما أدى إلى إبطاء تطوره في الاتحاد السوفيتي.³

انهيار مشروع الاقتصاد الاشتراكي لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية (1950-1991)

لم يكن تحقيق التكافؤ العسكري مع الولايات المتحدة كافيًا لتمكين الاتحاد السوفيتي من الانتصار في الحرب الباردة. فقد أدى استمرار مسار التصنيع بعد الحرب إلى تطور غير متناسب للاقتصاد، مما أدى إلى أزمة اقتصادية. كان الاتحاد السوفياتي بحاجة إلى الانتقال من إعطاء الأولوية لتطوير الصناعات التي تحدد التقدم التكنولوجي إلى تحسين نوعية حياة مواطنيها.

³ قارن أيضًا تطوير أجهزة الكمبيوتر في الاتحاد السوفيتي مقارنة بالولايات المتحدة الأمريكية:

Why the Soviet Computer Failed

<https://www.youtube.com/watch?v=dnHdqPBrH8>

بحلول الخمسينيات من القرن الماضي، واجه اقتصاد اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية مشكلة معالجة كمية هائلة من المعلومات لتخطيط الاقتصاد الوطني. لقد زاد حجم الإنتاج وأصبحت العلاقات بين المنتجين أكثر تعقيداً، مما تطلب العديد من التكرارات iterations لوضع الخطط. لم يكن هذا ممكناً مع التخطيط اليدوي. لقد تطلب التخطيط أتمتة إدارة الدولة للاقتصاد وتطوير الأعمال الصغيرة في الصناعات المرتبطة مباشرة بتلبية الاحتياجات المحلية.

أدى تجاهل علم التحكم الآلي إلى دفع البلاد إلى المناقشات حول المشكلات الاقتصادية للاشتراكية، والتي استمرت بعد وفاة ستالين وتبعها فرض نظرية ضارة لإنتاج السلع في ظل الاشتراكية، مما أدى إلى تشويه اقتصاد الاتحاد السوفيتي من خلال بدء الفوضى الاقتصادية وفي النهاية استعادة الرأسمالية في عام 1991.

تتطلب السيطرة المعقدة والمخططة لبلد ضخم الأتمتة. بعد المناقشات التي جرت من 1956 إلى 1957 في معهد الاقتصاد في موسكو تحت قيادة الأكاديمي كونسـتانتين أوسـتروفتيانوف [1882-1969] K. Ostrovityanov تم اعتماد نمط مضطرب من إنتاج السلع في ظل الاشتراكية رسمياً، بما يتعارض مع كتابات كارل ماركس حول ممارسة التخطيط الاقتصادي. عملت الشركات المملوكة للدولة وفقاً للخطّة، وفي نفس الوقت، من أجل الربح. قسمت هذه العقيدة الاقتصادييين في البلاد إلى ماركسيين (دعاة اقتصاد غير سلعي)، الذين أنكروا الطبيعة السلعية للإنتاج في ظل الاشتراكية، ومُجددي الرأسمالية (مروجي الاقتصاد السلعي). تلقى الصراع الأيديولوجي بين هؤلاء الاقتصادييين دفعة جديدة مع إدراك أن علم التحكم الآلي ضروري لحل المشكلات الاقتصادية.

ومع ذلك، بينما كان علماء التحكم الإلكتروني الآلي منشغلين في حل المشكلة المعقدة المتمثلة في أتمتة الإدارة الاقتصادية، فرض النومنكلاتورا nomenklatura في الحزب،⁴ الخائفين من فقدان الامتيازات التي جاءت

⁴ يمكن النظر إلى النومنكلاتورا على أنها قائمة تعيينات لدى لجنة حزبية معية وفي نفس الوقت نفسه سلطتها لتعيين الأشخاص من هذه القائمة. ويُقصد بنظام النومنكلاتورا ملء جميع المناصب المهمة من قبل لجنة الحزب المناسبة من الأشخاص الموجودين على قائمة هذه اللجنة وبغض النظر إن كان إشغال المنصب المعين خاضعاً للتعيين أو الانتخاب.

من التحكم اليدوي المخطط له، "إصلاحات" اقتصادية من الخمسينيات وحتى التسعينيات. في الوقت نفسه، تم خلق شحة في السلع في السوق الاستهلاكية لخدمة المصالح قصيرة الأجل للنومكلاتورا من خلال تحديد الأسعار، مما أدى إلى زيادة المضاربة والفساد. تم استبعاد نظام أسعار التوازن - آلية التغذية العكسية الضرورية للسوق الاستهلاكية والتي تلعب دوراً مهماً في تحسين هيكل العرض - من عملية التخطيط الاقتصادي. أدى هذا الوضع إلى هزيمة الروبل أمام الدولار. لقد هدفت الإصلاحات إلى منح المزيد والمزيد من الحقوق للشركات، والسماح لها بالتركيز على الربح، وزادت من حدة الفوضى في الإدارة العامة وأدت في النهاية إلى انهيار البلاد في عام 1991، مع استعادة الرأسمالية ونقل إدارة تنمية البلاد للقوى الرأسمالية العالمية.(11)

كيف نفسر لماذا انتهى الأمر بالنومكلاتورا لاختيار تفكيك الاشتراكية؟ من الضروري أن نلاحظ أن ستالين قضى على مبدأ الحد الأقصى [للرواتب والمنافع] party maximum في الحزب في عام 1932. وفقاً للأكاديمي فارغا E. S. Varga فإن إلغاء مبدأ الحد الأعلى في الحزب ساهم في تفكك المجتمع السوفيتي إلى طبقات مع وجود اختلافات كبيرة في الدخل والإثراء الشخصي لأعضاء الصفوة nomenklatura المعينين من قبل الحزب. وجرى استنساخ هذا الترتيب في الجهاز البيروقراطي والشرائح الأدنى، وتجلّى في الوصولية في تحقيق التقدم المهني والمكائد ضد المنافسين والسرقة والفساد. إن التناقض بين الأخلاق الشيوعية المعلنة رسمياً والأيدولوجية الحقيقية للدوائر الحاكمة أدى إلى اتساع الفجوة بين النخب والشغيلة، وشجع التشاؤم والوصولية في المجتمع.(12)

لم يكن التحول المستمر لدولة العمال إلى دولة بيروقراطية بإلغاء ستالين لمبدأ الحد الأقصى للحزب عملية خطية. كان هناك صراع أيديولوجي من قبل أولئك الذين، على الرغم من الاستعادة الزاحفة للرأسمالية، استمروا في العمل من أجل التنفيذ العملي للمثل الشيوعية. خلال الحرب الوطنية

يذكر ميخائيل فوسلينسكي، مؤلف كتاب النومكلاتورا: الطبقة الحاكمة في الاتحاد السوفيتي (الترجمة العربية لسناء مصطفى الموصلي، نشرت بعنوان سقوط الامبراطورية الحمراء، الدار البيضاء: منشورات الزمن، 2001): "إن 'نومكلاتورا' حصر للمناصب الأكثر أهمية للمرشحين المأخوذين بعين الاعتبار والذين يوصي بهم ويصادق عليهم من قبل اللجان الحزبية صاحبة الشأن (محلية، مدينية، منطقية ... الخ). وتتضمن النومكلاتورا العاملين في المناصب الحاكمة والحساسة." ص 16. وقد أطلق ميلوفان جيلاس اسم "الطبقة الجديدة" على النومكلاتورا.

أشكر د. سناء مصطفى على إهدائه لنسخة من ترجمته المنشورة لكتاب فوسلينسكي.

العظمى (الحرب العالمية الثانية)، ليس هناك شك في أن ستالين وسلطات الحزب عكسوا تمامًا تطلعات الجماهير. إنها حقيقة تاريخية لا يمكن إنكارها أن القيادة السوفيتية تحت قيادة ستالين - على الرغم من التكلفة البشرية الهائلة - قدمت مساهمة هائلة في إنشاء أول اقتصاد اشتراكي في العالم، والذي تمكن من هزيمة الفاشية وأصبح أحد مراكز العالم ثنائي القطب. في هذه الفترة، نفذ الاتحاد السوفياتي أول برنامج تصنيع مخطط له، والذي ضمن الانتصار في الحرب العالمية الثانية وتمكين الانتعاش الاقتصادي بعد الحرب.

المشاريع الرقمية للاقتصادات الرأسمالية والاشتراكية

المشاريع الرقمية للاقتصاد الرأسمالي

تشكل الأزمة الاقتصادية الحالية، المستمرة منذ عام 2008 والتي تخللها التباطؤ المرتبط بالجائحة [كوفيد-19] مؤخرًا، أعمق تراجع في فترة ما بعد الحرب. من المتوقع حدوث تقدم غير مسبوق في كل من علم التحكم الآلي والذكاء الاصطناعي (AI). ومع ذلك، فإن إدخال التقنيات الرقمية في مجالات التجارة والخدمات المالية وسير العمل والسيطرة على السكان، يحدث في سياق الفوضى الاقتصادية، ويقلل من الإنتاجية الاجتماعية ويدمر المجتمع مع زيادة قوة الشركات متعددة الجنسيات.

إن الناقل المادي للذكاء الاصطناعي هو جهاز كمبيوتر أو شبكة حوسبة توفر تبادل البيانات لخدمة المستخدمين. وتحدد مصالح الطبقات الاجتماعية المهيمنة وظائف الذكاء الاصطناعي والخوارزميات. فالشركات متعددة الجنسيات، التي تسعى جاهدة للحفاظ على الرأسمالية والحفاظ على السلطة، واللجوء إلى أدوات المضاربة مثل المشتقات "الخضراء" والعملات المشفرة، حددت مسارًا للتدمير الإبداعي "السلمي" للإنتاج وزادت بشكل كبير الفائض السكاني النسبي [القادر على العمل] من خلال إدخال الذكاء الاصطناعي. لقد استخدموا فترة الجائحة لتطوير الذكاء الاصطناعي الذي يتحكم في سلوك الناس بسرعة وإنشاء ما يسمى المسار الأخضر الذي يهدف إلى "تحرير" الكوكب من الاحتياجات البشرية الحقيقية.

تفتقر جميع المشاريع العالمية الحالية والمتصورة المنبثقة من الشركات متعددة الجنسيات والولايات المتحدة، مثل "الرأسمالية الشاملة" والصفة

الخضراء الجديدة، إلى استراتيجيات قابلة للتطبيق للتغلب على الأزمة العالمية، وبالتالي فهي تهدف ببساطة إلى الحفاظ على الرأسمالية.(13)

هناك أفكار ساذجة حول إمكانية تحقيق التخطيط الاقتصادي باستخدام المنصات الرقمية القائمة على الخوارزميات التي تركز المعلومات وتديرها دون أن تخضع لتأثير المصالح الفاسدة. يشير مقال كتبه جون ثورنهيل John Thornhill في عام 2017 إلى إمكانية استخدام المنصات الرقمية الحكومية لتخطيط الإنتاج. ونقل المقال عن جاك ما Jack Ma، مؤسس على بابا⁵ Alibaba، الذي أكد أن "البيانات الضخمة" ستجعل السوق أكثر ذكاءً وفي النهاية تبني اقتصادًا مخططًا.(14)

لكن ما يسمى بالبيانات الضخمة هو في الواقع مجموعة تلقائية من المؤشرات التي لن تحل أبدًا مشكلة التنمية الاقتصادية غير المتكافئة. بدون القضاء على أسباب الأزمة العالمية، فإن توسع البيانات الضخمة لا يؤدي إلا إلى زيادة استغلال الأفراد وفوضى المعلومات، مما يؤدي إلى مجتمع آلي به بطالة هائلة وسيطرة كاملة على سكانه من خلال الذكاء الاصطناعي.(15) في تصوره للثورة الصناعية الرابعة والنظام الجديد العابر للإنسانية، يستبدل كلاوس شواب⁶ Klaus Schwab الديمقراطية بديكتاتورية الشركات متعددة الجنسيات، ساعيًا إلى استخدام إنجازات الثورة الرقمية لتأسيس سيطرة رقمية كاملة على البشرية.(16)

إن الوضع القائم في الوقت الحاضر يؤكد كلمات عالم التحكم الإلكتروني العظيم نوربرت وينر⁷ Norbert Wiener: "لنتخيل أن الثورة

⁵ هي شركة تكنولوجيا صينية متعددة الجنسيات متخصصة في التجارة الإلكترونية وتجارة التجزئة والإنترنت والتكنولوجيا. تأسست عام 1999 في مدينة هانغتشو بمقاطعة تشجيانغ، الصين الشعبية. وتوفر الشركة خدمات المبيعات من المستهلك إلى المستهلك، ومن الشركات إلى المستهلكين، وخدمات مبيعات من شركة إلى شركة عبر بوابات الشبكة العنكبوتية، بالإضافة إلى خدمات الدفع الإلكتروني ومحركات بحث التسوق وخدمات الحوسبة السحابية. تمتلك وتدير مجموعة متنوعة من الشركات حول العالم في العديد من قطاعات الأعمال.

https://en.wikipedia.org/wiki/Alibaba_Group

⁶ كلاوس مارتن شواب؛ من مواليد 30 مارس 1938. وهو مهندس وخبير اقتصادي ألماني ومؤسس المنتدى الاقتصادي العالمي (WEF-World Economic Forum). شغل منصب رئيس المنتدى الاقتصادي العالمي منذ تأسيسه في عام 1971. https://en.wikipedia.org/wiki/Klaus_Schwab

⁷ نوربرت وينر (1894-1964) عالم رياضيات وفيلسوف أمريكي. كان أستاذًا للرياضيات في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. https://en.wikipedia.org/wiki/Norbert_Wiener

[الصناعية] الثانية قد انتهت. عندها لن يتمكن الشخص العادي ذو القدرة المتوسطة أو حتى صاحب القدرة الأقل من عرض أي شيء للبيع يستحق دفع المال مقابله. لا يوجد سوى مخرج واحد - بناء مجتمع قائم على قيم إنسانية تختلف عن البيع والشراء. إن بناء مثل هذا المجتمع يتطلب الكثير من الإعداد والكثير من النضالات، والتي، في ظل ظروف مواتية، يمكن إجراؤها على المستوى الأيديولوجي، وبخلاف ذلك - من يدري كيف؟" (17)

تعتمد أيديولوجية شواب على نموذج علم التحكم الآلي الاقتصادي. هذا النموذج نفسه يكمن وراء إنشاء نظام إدارة آلي للاقتصاد الاشتراكي لصالح الناس. وُلد هذا العلم في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية - البلد الوحيد الذي لديه تاريخ من المحاولات المتفانية لاستخدام القوة الحاسوبية لتحسين نوعية حياة الناس، وليس فقط أرباح شريحة من الأقليات في المجتمع.

المشاريع الرقمية في الاقتصاد الاشتراكي

نُشر كتاب وينر Wiener علم التحكم الآلي Cybernetics في الاتحاد السوفيتي في عام 1958، بعد عقد من كتابتها لأول مرة. في نفس العام، تم إنشاء مختبر الاقتصاد والطرق الرياضية في موسكو (لاحقًا، المعهد المركزي للاقتصاد والرياضيات [CEMI]) ومعهد الاقتصاد والمنظمة الصناعية في نوفوسيبيرسك بتوجيه من عالم الإحصاء فاسيلي نيمشينوف [1964-1894] V. Nemchinov. كان مصدر الإلهام لهاتين المؤسستين هو نموذج الاقتصاد القياسي للمدخلات والمخرجات لليونتيف Leontief، والذي كان يعتمد على استخدام الإحصاء والرياضيات. وقد تم تصميمه للتنبؤ بالسيناريوهات التي لا علاقة لها بالتخطيط المباشر للاقتصاد. (18)

هناك طريقة تكنوقراطية أخرى لإنشاء نظام تحكم آلي، تتجاهل قوانين التنمية الاقتصادية، كانت الأساس لتطوير إدارة النظام الآلي الوطني في معهد علم التحكم الآلي في كييف. تأسس المعهد عام 1962 تحت قيادة فكتور غلوشكوف [1982-1923] V. Glushkov، افترض أن أنظمة التحكم المؤتمتة الوطنية ستشمل شبكة كمبيوتر حكومية تربط مراكز جمع البيانات الموجودة في جميع مناطق الدولة، وتكون بمثابة أساس للانتقال إلى التخطيط الأمثل.

كتب غلوشكوف ورئيس CEMI نيكولاي فيدورونكو [1917-2006] N. Fedorenko مقالا مهما عام 1964 حول العقبات التي تحول دون دمج تقنيات الحوسبة على الصعيد الوطني في اقتصاد اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية وذكر أن إنشاء نظام تحكم آلي للاقتصاد من عدمه سيقدر مصير البلاد وانتصارها في الحرب الباردة. عرض هذا المقال هدف التنسيق الصارم للجهود المتبادلة لإنشاء نظام التحكم الآلي على مستوى البلاد، ورسم الخطوط العريضة للمزايا المحتملة الضخمة مقارنة بنظام الولايات المتحدة، حيث تسعى كل شركة إلى تحقيق مصالحها الخاصة. (19)

لوحظ هذا أيضًا في الولايات المتحدة. ففي عام 1962، كتب مستشار جون كينيدي مذكرة سرية مفادها أن "القرار السوفيتي بالمرافقة على علم التحكم الآلي" من شأنه أن يمنح الاتحاد السوفياتي ميزة كبيرة. وخلص المستشار إلى أنه إذا استمرت الولايات المتحدة في تجاهل علم التحكم الآلي، "فإننا سننتهي". (20)

وعلى أي حال، في الممارسة العملية، في الاتحاد السوفياتي، وضعت المصالح الأنانية الضيقة لمؤسسة معينة فوق مصالح الدولة. لا يزال هذا هو الوضع اليوم. لم يكن لدى غلوشكوف Glushkov أي فكرة عما يجب أن يكون عليه برنامج نظام التحكم الآلي، فقد قام بتثبيت الأجهزة التي لم تعمل. كانت هناك تكاليف باهظة لإدخال أجهزة الكمبيوتر باهظة الثمن في جميع أنحاء البلاد. لهذا السبب، أوقفت وزارة المالية تمويل المشروع المكلف. اليوم، يكرر جميع مطوري الاقتصاد الرقمي خطأ غلوشكوف.

بدأت CEMI ومعهد نوفوسيبيرسك بالتركيز على دراسة النماذج الاقتصادية والرياضية الغربية. اعتمد نظام الأداء الأمثل للاقتصاد الذي أنشأته CEMI على نماذج رياضية هرمية للمهام المباشرة والمزدوجة للبرمجة الخطية وغير الخطية. لم يكن لهذه النماذج الرياضية والنمذجة الاقتصادية القياسية للتوازن بين القطاعات في المصطلحات الرسمية التي طورها ليونتيف Leontief أي شيء مشترك مع ممارسة التخطيط لـ GOSPLAN، والتي اضطرت إلى الاستمرار في استخدام طريقة التخطيط التكراري اليدوي.

هذه المؤسسات الثلاث، التي تعمل بشكل منفصل، لم تكن قادرة على تطوير منهجية ونموذج للتخطيط الأمثل بسرعة كافية لأن الاهتمامات الضيقة

الأفق للباحثين وضعت فوق المصلحة العامة. انعكس عدم وجود نهج علمي في تنافس المؤسسات على التمويل لتطوير نماذج رياضية لنظام التحكم الآلي. أثر هذا على أنشطة مركز الحوسبة الرئيسي التابع لـ GOSPLAN، والذي تم إنشاؤه في عام 1959 لأتمتة الحسابات المخططة للنظام system-planned calculations.

في غياب نموذج ديناميكي للتوازن بين القطاعات من شأنه أن ينسق الحسابات لجميع الصناعات والقطاعات الاقتصادية لضمان التطور في الاتجاه المطلوب، لم يكن هناك تفاعل بين أنظمة التحكم المؤتمتة القطاعية وأتمتة الحسابات المخططة للنظام. وُحِّدَ مركز الحوسبة الرئيسي أنظمة حوسبة الفروع وحولها إلى هيئة للدعم التحليلي لإصلاح أليكسي كوسيجين [1980-1904] عام 1965. في حين طلبت GOSPLAN تسريع تطوير أتمتة الحسابات المخططة للنظام، طالبت الوزارات القطاعية بمزيد من الصلاحيات. (21)

في ظل الغياب الخطير لنموذج التوازن بين القطاعات، تم تقليل أتمتة الحسابات المخططة للنظام إلى مجموعة من الجداول التحليلية التي تم إنشاؤها لمختلف أقسام GOSPLAN ونظام إدارة المستندات الآلي Dokument. كانت مهمتها تتبع عملية وضع خطة، ولكن ليس لأتمتة حسابات التخطيط الفعلية. علاوة على ذلك، تم تقليص نشاط مركز الحوسبة الرئيسي إلى توحيد شبكات GOSPLAN، مع تفاعل أنظمة الكمبيوتر للجمهوريات والوزارات والإدارات في الوقت الفعلي. إن مرض أتمتة سير العمل workflow automation - بدلاً من أتمتة الحسابات التي تضمن نمو الدخل الحقيقي - متأصل اليوم في جميع بلدان العالم. واليوم، يميز هذا النهج البدائي المركز التحليلي للحكومة الروسية، الذي يسمى هذه العملية مشروع الحكومة الإلكترونية. (22)

إذا عدنا إلى أصول المشكلة في مجال النمذجة الاقتصادية والرياضية وأتمتة الإدارة الاقتصادية، فعلينا أن نتذكر إنشاء معهد البحوث المركزي لإدارة التقنية تحت قيادة عالم السيبرنطيقا نيكولاي فيدوتا⁸ Nikolai Veduta عام 1962 في مينسك. قدم هذا المعهد أنظمة مؤتمتة لإدارة الاقتصادية في عدد من مصانع بناء الآلات الكبيرة. كان فيدوتا ممارسًا في

⁸ نيكولاي فيدوتا (1913-1998). للتعريف به راجع: https://en.wikipedia.org/wiki/Nikolay_Veduta

مجال التخطيط الاقتصادي. لكن نجاحه الرئيسي كان في إنشاء أول نظام تحكم آلي في البلاد، مما أدى إلى نموذج ديناميكي للتوازن بين القطاعات. هذا النموذج هو نظام من الخوارزميات الرياضية التي تصف عملية التنسيق بين أوامر المستهلكين النهائيين (الحكومة والأسر والمصدرين) وقدرات المنتجين، بما في ذلك إجراء تعديل التخصيصات الأولية assignments لتحقيق التوازن المناسب بين المدخلات والمخرجات. (23)

في سياق العمليات الحسابية، وفقاً للنموذج، يتم تحسين هيكل المنتج النهائي لزيادة الملاءمة الحقيقية للعملة الوطنية والفعالية في اختيار الأساليب التكنولوجية الجديدة للإنتاج من أجل تعظيم معدل النمو الاقتصادي، ويتم من خلالها ضمان تحقيق نسب الاقتصاد الكلي والتوظيف. إن نتيجة هذه الحسابات هي بناء سلاسل الإنتاج وتوزيع الاستثمارات بين الصناعات من أجل تعزيز مسار النمو في نوعية الحياة. يمكن القول إن النموذج الديناميكي للتوازن بين القطاعات هو التكنولوجيا الرقمية الوحيدة في العالم القادرة على "بناء" المستقبل، وضمان تنمية الاقتصاد في اتجاه التقدم الاجتماعي الذي يحقق القيم الإنسانية.

إن الاختلافات الرئيسية بين نموذج فيدوتا Vedula الإلكتروني للتوازن بين القطاعات ونموذج الاقتصادي القياسي لليونتيف Leontief هي كما يلي:

- **طريقة بناء النموذج.** يتطلب علم التحكم الآلي الاقتصادي لـ Vedula دمج إجراءات القوانين الاقتصادية الموضوعية عند نمذجة التوازن بين القطاعات. يعتمد نموذج الاقتصاد القياسي الخاص بـ Leontief ببساطة على الإحصاء والرياضيات.

- **تكنولوجيا التخطيط.** عند إنشاء التوازن السيبراني بين القطاعات، يتم استخدام طريقة التقريبات المتتالية لحساب الخطة، وعند القيام بذلك يتم تنفيذ مبادئ التناسب وكفاءة الإنتاج وتحسين هيكل الاستهلاك. تضمن هذه الطريقة تقارب الحلول واستقرارها. يستخدم النموذج الاقتصادي القياسي لليونتيف للتوازن بين القطاعات تنبؤات السيناريو المحسوبة على أساس أنظمة المعادلات، مع معلمات التنبؤ الاقتصادي التي تم الحصول عليها بواسطة طرق الإحصاء الرياضي. الحلول الناتجة غير مستقرة.

■ **الاستثمارات كمعامل إداري أو تنبؤي.** الاستثمارات هي المعيار الحاكم للخطة في النموذج السيبراني للتوازن بين القطاعات. يتم تحديد تخصيص الاستثمارات بشكل متكرر أثناء حسابات الخطة. في الاقتصاد القياسي، تعد الاستثمارات معيارًا تنبؤيًا لا يتعارض مع المصالح المتنافسة التي تمارس الضغط للحصول على دعم الدولة.

■ **جمع المعلومات.** يعتمد الروبوت الاقتصادي (الذكاء الاصطناعي في الاقتصاد، أو أنظمة التحكم الآلي لإدارة الاقتصادية) على نموذج سيبراني للتوازن بين القطاعات الذي ينظم تدفقات المعلومات حول طلبات المستهلك النهائية، وديناميكيات أسعار توازن السوق الاستهلاكية، وعلاقات الإنتاج، والأساليب التكنولوجية الجديدة للإنتاج، وميزان التجارة الخارجية، وميزان الاستثمارات الرأسمالية وإيرادات وانفاقات السكان، وموازنة الدولة في وضع التخطيط المتداول (عبر الإنترنت). يستخدم النموذج الاقتصادي القياسي للميزان بين القطاعات الإحصائيات بأثر رجعي (ex-post) من نظام المحاسبة الوطني.

يلاحظ العالم الفيلسوف بيخوروف فيج V. Pikhorovich في الوقت نفسه أن غلوشكوف Glushkov، على عكس فيدوتا Veduta، حصل على دعم هائل من قيادة البلاد وكان منشغلًا باستمرار في الترويج لفكرته. في نفس الوقت على الرغم من احتلاله مناصب مهمة وموثوقة مماثلة، فإن فيدوتا كان المتحمس الوحيد لتطوير مبادئ الأتمتة. ومع ذلك، كان لديه ميزة كبيرة على غلوشكوف: فهو لم يكن خبيرًا في علم السيبرنطيقا فحسب، بل كان أيضًا خبيرًا اقتصاديًا سياسيًا جادًا ومبدئيًا. ومع ذلك، لم يتم تصنيف أي منهما بين كبار الاقتصاديين السوفييت. (24)

لقد حان الوقت لإلغاء حظر التخطيط السيبراني لـ Veduta لإنشاء اقتصاد اشتراكي. إن الاشتراكية هي المشروع الإلكتروني العالمي الوحيد القادر حاليًا على تنفيذ خطة للتقدم الاجتماعي تحقق القيم الإنسانية. إن أتمتة الإدارة الاقتصادية تعني تنسيق الأنشطة في جميع الصناعات وقطاعات الاقتصاد، وكذلك جميع تقنيات الذكاء الاصطناعي، وذلك لتحسين كفاءة قرارات الإدارة.

قال لينين ذات مرة أن الاشتراكية هي القوة السوفيتية بالإضافة إلى كهربة البلد بأكمله. اليوم، يمكن إعادة صياغة هذا الشعار ليكون الاشتراكية هي الديمقراطية بالإضافة إلى أتمتة الإدارة الاقتصادية للبلاد. ويعد إدخال

الذكاء الاصطناعي الاقتصادي، الذي يعمل على أتمتة العمل الإداري، شرطاً ضرورياً للانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية دون إمكانية استعادة السابق.

عشرة استنتاجات

(1) منذ القرن السادس عشر، اتسمت السياسة الاقتصادية للدول بالطبيعة الدورية لـ "الميركنتالية، والحرب، والليبرالية". في القرن العشرين، مع تنامي قوة الشركات متعددة الجنسيات، تحول ذلك إلى دورة من "التضخم والحرب والاستقرار المالي". عندما تم تأسيس هيمنة هذه الشركات، تم إضافة التضخم والنظام النقدي العالمي القائم على استخدام العملات الاحتياطية الرئيسية والسوق العالمية لرأس المال المقترض إلى الأدوات الاقتصادية من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر. هذه الأدوات المالية، باستخدام تدفقات رأس المال الوهمي، تعيد توزيع الدخل والأصول لصالح الشركات متعددة الجنسيات، مما يزيد من عدم المساواة التكنولوجية والاجتماعية في العالم. بعد انهيار الاتحاد السوفيتي في عام 1991، تم إنشاء نظام أحادي القطب، مما أدى إلى إغراق العالم في أزمة أعمق.

(2) تنتهي ألعاب المضاربة بتأكيد القوة المهيمنة والاستعدادات لحل عسكري جديد للأزمة المتفاقمة. مع وصول الرئيس الأمريكي دونالد ترامب إلى السلطة في عام 2017، دخل العالم في مرحلة أخرى من المذهب التجاري mercantilism لما قبل الحرب، والذي تجلى في زيادة حادة في حروب التجارة والعقوبات - وهو سباق تسلح جديد. بالنظر إلى الإمكانيات النووية للبلدان النامية، ومحاولة تجنب الصراع العسكري المباشر، أضافت الشركات متعددة الجنسيات إنجازات الثورة الرقمية إلى مجموعة أدواتها المالية.

(3) لقد كشفت الجائحة أن الشركات متعددة الجنسيات تسعى إلى استخدام إمكانيات الثورة الرقمية للحفاظ على الرأسمالية من خلال فرض سيطرة كاملة على السلوك البشري، وتقريب نهاية التاريخ البشري.

(4) البديل الوحيد للرأسمالية هو الاشتراكية. إن أول محاولة لتنظيم اقتصاد غير رأسمالي متطور نسبياً في اتجاه مستقبل مزدهر قام به الاتحاد السوفيتي. يوضح التحليل التاريخي لتطور السياسة الاقتصادية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، من الشيوعية الحربية إلى السياسة

الاقتصادية الجديدة إلى مسار التصنيع، كيف تراكمت للبلاد تدريجياً تجربة متوازنة في التخطيط الاقتصادي وتحركت لاستخدام طريقة تكرارية لوضع خططها الاقتصادية. كانت أهم مبادئها هي التغذية الاسترجاعية feedback لتنسيق العمليات الحسابية المخططة، والمداخلات والمخرجات، والتخطيط المتداول (تعديل الحسابات المخططة المباشر online). بفضل هذا التخطيط السيرياني المبكر للاقتصاد، انتصر الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية وأصبح قوة رئيسية في العالم ثنائي القطب، وحدد اتجاه التنمية العالمية.

(5) أسباب هزيمة اتحاد الجمهوريات السوفيتية في الحرب الباردة

■ الصعوبات الموضوعية والذاتية في أن تكون أول دولة في العالم تنفذ التخطيط الاقتصادي الوطني من خلال تكرارات متتالية وإجراء التحولات اللازمة [في التخطيط] يدوياً، من أهداف التصنيع إلى نمو الدخل الحقيقي للمواطنين.

■ إقصاء ستالين لمبدأ الحد الأقصى للحزب، مما ساهم في انهيار المجتمع السوفيتي إلى طبقات اجتماعية مع وجود اختلافات هائلة في الدخل؛ إثراء الـ nomenklatura المعين للحزب؛ ازدهار التشاؤم والوصولية؛ والفساد في المجتمع. لذلك فإنه أدى إلى قيام أولئك الذين سيدمرونه، ثم الاتحاد السوفيتي كاقصاد مخطط.⁹

■ اعتماد نظرية الإنتاج السلعي في ظل الاشتراكية في عام 1956 كعقيدة رسمية للإصلاحات الاقتصادية، والتي أعطت الشركات المزيد والمزيد من الاستقلال في توجيهها الربحي وساهمت في استعادة الرأسمالية لصالح الـ nomenklatura الحزبية.

■ تم التقليل من الدور الريادي لعلم التحكم الآلي الاقتصادي في تطوير نظرية وممارسة التخطيط الاقتصادي مع مراعاة الانتقال من التخطيط اليدوي إلى التخطيط الآلي من حيث قدرته على زيادة كفاءة قرارات الإدارة وضمان نمو الدخل الحقيقي للمواطنين.

⁹ للتعريف بجوانب أخرى من إثراء النومنكلاتورا راجع الفصل السادس: النومنكلاتورا: الطبقة المتميزة في الاتحاد السوفيتي، فوسلينسكي، مصدر سابق.

■ إن الاستمرار في نفس مسار التصنيع دون تخطيط فعال يعني التنمية غير المتناسبة، والإصلاح الاقتصادي، وتكثيف الفوضى الاقتصادية، وسوق الظل بسبب تثبيت الأسعار في السوق الاستهلاكية، مما أدى بالاتحاد السوفيتي إلى أزمة اقتصادية عميقة انتهت بانتهاء من البلاد في عام 1991.

(6) في سياق الوباء، تمت إضافة التقنيات الرقمية إلى الأدوات المالية للشركات متعددة الجنسيات في مجال التجارة والخدمات المالية، وسير العمل، واستخدام الذكاء الاصطناعي كأداة للسيطرة على الناس، بدلاً من إدارة اقتصاد. إدراكًا للحاجة إلى تقليل المخاطر الكامنة في تنسيق علاقات الإنتاج من خلال التجارة الدولية، يعلق الخبراء الغربيون الأمل على ما يسمى بتكنولوجيا البيانات الضخمة. وهذا، في رأيهم، سيؤدي بالعالم إلى استخدام التخطيط الاقتصادي القائم على الربح بمساعدة الخوارزميات وبدون الفساد الذي ظهر في الاتحاد السوفيتي. تشهد مثل هذه الأفكار على عدم فهم الخبراء الغربيين لجوهر التخطيط السيرياني في الاتحاد السوفياتي والتناقضات التي يفرضها نظام الربح والسلع، وبالتالي، استحالة إنشاء خوارزميات يمكن أن تخدم هذه الأهداف وتوفر مخرجًا من الأزمة العالمية.

(7) يجب البحث عن مفتاح لإيجاد مخرج من الأزمة العالمية في التجربة البديلة للتخطيط الاقتصادي الاشتراكي في الاتحاد السوفيتي. إن تحسينه يتطلب الانتقال من نظام يدوي إلى نظام آلي لإنشاء نظام تحكم آلي (أو روبوت اقتصادي)، ويجب استخدام معرفة علم التحكم الآلي الاقتصادي كعلم عمليات المعلومات في الإنتاج الاجتماعي لتطوير خوارزميات لتنسيق حسابات المدخلات والمخرجات، أي التخطيط السيرياني.

(8) أدرك كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة أنه إذا كان لدى الاتحاد السوفيتي الوقت لإنشاء نظام تحكم آلي للاقتصاد، فإن العالم اليوم سيتجه نحو مستقبل مختلف وأكثر ازدهارًا. أدت الصعوبات في تطوير نموذج ديناميكي للتوازن بين القطاعات والمصالح الأنانية الضيقة للمؤسسات المسؤولة عن تنفيذ أنظمة التحكم المؤتمتة إلى التنافس على تمويل الأبحاث غير المرتبطة بالتخطيط المحسن للاقتصاد الاشتراكي.

(9) بفضل معرفة رأس المال، وماركس، والخبرة السوفيتية في إدارة الاقتصاد على مستويات مختلفة، طور نيكولاي فيدوتو نموذجًا ديناميكيًا

للتوازن بين القطاعات. نموذج هو التكنولوجيا الرقمية الوحيدة في العالم التي تبني وتوجه تطور الاقتصاد نحو مستقبل مزدهر.

(10) لقد أقفل الباب في الوقت الحاضر على النهج السيبراني للتخطيط الاقتصادي. في الوقت نفسه، تُنفق أموال الدولة الضخمة لصالح الاحتكارات الرقمية التي تقود العالم إلى أوقات عصيبة. لقد حان الوقت لتنفيذ التخطيط الاقتصادي السيبراني الذي ينسق أنشطة جميع الصناعات والقطاعات نحو مستقبل مزدهر ومستدام. وسيعني تنفيذه ثورة إدارية من شأنها أن تزيد بشكل كبير من كفاءة الإدارة الحكومية والعالمية. فمثلاً أدى إدخال الآلات إلى الثورة الصناعية الأولى، وبالتالي تأكيد الرأسمالية، فإن إدخال الروبوت الاقتصادي سيولد ثورة صناعية ثانية حقيقية ويؤسس الاشتراكية دون إمكانية استعادة الرأسمالية.

الحواشي

1. N. Veduta, *Strategy and Economic Policy Governance* (Moscow: Akademicheskii proekt, 2003).
2. Council of People's Commissars, "Management of Sovnarkom," Assembly of Legislation and Deployment of Laws for 1921, no. 106, *Statement of the Governmental Commissariat* (1944).
3. "Stalinskoye nevravensko (Stalinist Inequality)," 1917.com (blog) (2015).
4. G. Eljmeev and V. G. Ovsjnnikov, *Applied Sociology: Opinions of Theories* (St. Petersburg, University of St. Petersburg), 35.
5. Joseph Stalin, *Works*, vol. 12 (Moscow: Pravda, 1929).
6. Stephen Cohen, *Bukharin and the Bolshevik Revolution: A Political Biography, 1938–1988* (New York: Alfred A. Knopf, 1988).
7. S. Autonomov, O. I. Ananin, and N. A. Makasheva, "Economic Discussions of the 1920s on the Nature of the Planned Economy" in *The History of Economic Doctrines*, ed. V. S. Autonomov (Moscow: INFRA-M, 2002).
8. Raymond Barr, *Political Economy* (Moscow: International Relations, 1995).
9. Veduta, *Strategy and Economic Policy Governance*.
10. Veduta, *Strategy and Economic Policy Governance*.
11. Poteryaiko, "Professor Veduta: There Is No 'Digitalization' That Can Help, If the Direction of Economic Policies Is Corrupt," *Svobodnaya Pressa* (December 19, 2019).

12. ↵ Politburo Central Committee, "Protocol No. 87 of the Sessions of the Politburo Central Committee VKP" (February 8, 1932): 9; "Stalinskoye nevravensko (Stalinist Inequality)."
13. ↵ N. Veduta, "Manifesto for Inclusive Capitalism: 'Trust Us, and You Will Be Happy,'" REGNUM News Agency, December 2, 2021; E. N. Veduta, "New 'Green' Course Called to End Our Economics," Business Online, May 26, 2021.
14. ↵ Veduta, "New 'Green' Course Called to End Our Economics"; John Thornhill, "The Big Data Revolution Can Revive the Planned Economy," *Financial Times*, September 4, 2017.
15. ↵ Guy Standing, *The Precariat: The New Dangerous Class* (New York: Bloomsbury Academic, 2011).
16. ↵ Klaus Schwab and Thierry Malleret, *COVID-19: The Great Reset* (Zurich: Agentur Schweiz, 2020).
17. ↵ Norbert Wiener, *Cybernetics, or Control and Communication in the Animal and the Machine*, (Cambridge, Mass.: MIT Press, 1948), 77.
18. ↵ Wiener, *Cybernetics*.
19. ↵ Glushkov and N. Fedorenko, "Problemy shirokogo vnedreniya vychislitel'noj tehniki v narodnoe hozjajstvo," *Voprosy jekonomiki* (1964).
20. ↵ Pikhovich, *Essays on the History of Cybernetics in the USSR* (Moscow: Lenand, 2019).
21. ↵ Safronov, "Pionery cifrovizacii Analiticheskij centr pri Pravitel'stve Rossijskoj Federacii" (2019).
22. ↵ N. Veduta, S. Evtushenko, and Ju Haritonov, "Smogut li politiki upravljat' jekonomikoj," REGNUM News Agency, 2019.
23. ↵ Veduta, *Strategy and Economic Policy Governance*.
24. ↵ Pikhovich, *Essays on the History of Cybernetics in the USSR*.

* إيلينا فيدوتا، أستاذة ورئيسة قسم التخطيط الاستراتيجي والسياسة الاقتصادية في كلية الإدارة العامة في جامعة لومونوسوف موسكو الحكومية، روسيا الاتحادية.

لمزيد من التعريف بها وبوالدها نيكولاي فيدوتا، راجع:

<http://www.strategplan.com/en/about/veduta.php>

ديميتريس فاسفاليس: ماركس في عصر الرأسمالية الوبائية

نشر بتاريخ 17 نيسان/أبريل 2020 في موقع MR Online

<https://mronline.org/2020/04/17/marx-in-the-era-of-pandemic-capitalism/>

نقلاً عن <https://socialistproject.ca/2020/04/marx-in-the-era-of-pandemic-capitalism/>

كيف يمكن أن يساعدنا كارل ماركس (1818-1883) في تفسير الأزمة الحالية؟ تقدم نظرية ماركس للتاريخ موارد مهمة لتفسير الأزمة غير المسبوقة التي تهزُّ العالم اليوم، بينما تشير في الوقت نفسه إلى أن "العالم بعد" الأزمة الذي يكثر ذكره لا يمكن إلا أن يكون معادياً للرأسمالية.

قبل معالجة مشكلة الروابط والوساطة المتعددة بين النظام الرأسمالي العالمي ووباء كوفيد-19، لنعد أولاً إلى ماركس والإطار النظري الذي اقترحه لفهم الأزمات التاريخية العظيمة. في 1845-1846، كتب ماركس، المنفى السياسي في بروكسل، في *الإيديولوجيا الألمانية* هذه الكلمات التي سيتم تناولها لاحقاً وستشكل ملخصاً لما سيطلق عليه فريدريك إنجلز بعد وفاة ماركس "المادية التاريخية":

في مرحلة معينة من تطور قوى الإنتاج، نرى ظهور قوى إنتاجية ووسائل للتجارة التي لا تسبب، في ظل الظروف القائمة، إلا الكوارث. إنها لم تعد قوى إنتاجية، بل قوى تدمير (آلات وأموال).

في عام 1859، تناول ماركس هذه الفكرة حرفياً تقريباً في "المقدمة" الشهيرة لكتابه *نقد الاقتصاد السياسي*. وفيها نقرأ:

في مرحلة معينة من تطورها، تصطدم القوى الإنتاجية المادية للمجتمع بعلاقات الإنتاج القائمة، أو بعلاقات الملكية التي تطورت [هذه القوى] من خلالها حتى الآن، والتي هي مجرد تعبير قانوني عنها. إن هذه العلاقات تتحول من أشكال تعمل على تطور القوى الإنتاجية إلى قيود عليها. عندئذ يبدأ عصر من الثورة الاجتماعية.

إن المقتطف من الإيديولوجيا الألمانية أكثر عمومية في نطاقه، في حين أن مقتطف "المقدمة" لعام 1859 أكثر توجهاً نحو الاقتصاد. بادئ ذي بدء، من المهم التأكيد على أن ماركس حاول تفسير "الكوارث" منذ منتصف أربعينيات القرن التاسع عشر. اعتماداً على دراساته التاريخية والاقتصادية التي قام بها في السنوات 1840-1844، حدّد فواصل breaks في الرؤية الطويلة للتاريخ التي يحدث فيها تغيير جذري في النظام العالمي. إنه تغيير جذلي يُحوّل القوى المنتجة (التكنولوجيا، وسائل الاتصال، رأس المال، العمال، أماكن العمل، العلوم، إلخ) من قوى للتنمية أو التقدم إلى "قوى للتدمير": إنها "تسبب الكوارث فقط".

كوفيد-19 والرأسمالية الحديثة

تضم جائحة كوفيد-19 عدة جوانب لا يمكن فصلها عن الرأسمالية، بدءاً من سياسات الدولة في مواجهة الوباء التي تهدف إلى الحفاظ على النشاط والتجارة، مروراً بعدم وجود خطة وقائية، وعدم المساواة في الصحة الإقليمية، وانتهاءً بالعواقب التي لا يمكن التنبؤ بها لكساد عالمي كبير. كل هذا يمكن أن يكون بالفعل موضوعاً للتحليل لإظهار الروابط مع الرأسمالية.

ومع ذلك، فإن الاهتمام بالمقتطفات المذكورة أعلاه هو تقديم فهم، بطريقة علائقية أو هيكلية، للأسباب العميقة أو الجذور، لما يمكن للمرء أن يسميها بالأسباب أو الجذور التاريخية، للأزمة الحالية. إن هذه الأزمة لا علاقة لها بحادث عرضي على الرغم من العوامل العشوائية المتعددة التي قد تكون ساهمت في إحداثه وتضخيمه. وللاقتناع [بصحة هذا الموقف]، فإن المقالة الممتازة التي كتبها Jade Lindgaard و Amélie Poinssot بعنوان "الفيروس التاجي، يرتد إلينا مرة أخرى ويصفعنا في وجهنا" (Mediapart، 22 آذار) يسمح لنا برسم الأساسيات للتذكّر، حيث يجري وصف العديد من العمليات المتجذرة في النظام systemic processes فيما يتعلق بالعواقب التي جعلت الوباء الحالي ممكناً.

يمكننا تلخيص هذه الأساسيات بطريقة مكثفة للغاية بالقول إن إزالة الغابات والانخفاض الكبير في التنوع البيولوجي الذي تسببه المحاصيل الصناعية في المزارع (المطاط أو نخيل الزيوت أو القهوة أو الكاكاو) تُعرّض النظام البيئي للخطر وتكون في صالح انتشار الفيروس إلى المجتمعات البشرية. مثلما يسهم البحث عن الأراضي الزراعية في إزالة الغابات، فإن التحضر والامتداد الحضري المتواصل يشارك أيضاً في نفس عملية إزالة الغابات،

مما يعطل البيئات المعيشية للعديد من أنواع الحيوانات. وأخيرًا، فإن عولمة التبادلات، التي تتكون من تدفقات وحركات ضخمة، والتي توجهها الشبكات العابرة للحدود الوطنية والمستقطبة من قبل المتروبولات العالمية، تحوّل بسرعة أي وباء إقليمي إلى جائحة عالمية كما نرى اليوم في الوقت الحقيقي على الخريطة التي طورها الباحثون في جامعة جونز هوبكنز في الولايات المتحدة.



خريطة الحالات المؤكدة لكوفيد-19 طورها باحثون من جامعة جونز هوبكنز (التقطت بتاريخ 13 نيسان 2020).

تُظهر الخريطة بوضوح أن كوفيد-19 يتركز في أقطاب العالم الثلاثة التي تهيمن على النظام العالمي الرأسمالي: شرق آسيا وأوروبا الغربية وأمريكا الشمالية. وبشكل أكثر تحديدًا، يبدو أن هناك علاقة بين الوباء وكثافة التدفقات والحراك في المدن الكبرى في العالم.

وقد بيّن العالم الجغرافي والمؤرخ الأمريكي مايك ديفيس في السابق الروابط النظامية بين الرأسمالية المعولمة وأنفلونزا الخنازير. واليوم، من الواضح أن جائحة كوفيد-19 توضح أن القوى المنتجة المترابطة على نطاق عالمي أصبحت قوى دمار تدفعنا إلى بربرية ما بعد الحداثة. وللخروج منها، يجب علينا إعادة الاتصال، كما تفعل العديد من الحركات الاجتماعية، بالسعي الراديكالي لمسارات أخرى غير تلك التي تتبعها الدولة ورأس المال، لاختراع المجهول، خارج رأسمالية الكوارث.

المقتطفات المقتبسة مأخوذة من ماركس، *Philosophie*، طبعة أنشأها Rubel Maximilien، باريس، غاليمار، 1965 و 1982، ص 390، 488-489.

كتبت هذه المقالة باللغة الفرنسية ونشرت عبر الإنترنت على مدونة Mediapart يوم 25 آذار. يمكن الاطلاع على النسخة الأصلية هنا: blogs.mediapart.fr

ديميتريس فاسفاليس Dimitris Fasfalas مدرس تاريخ. يعيش حاليًا في باريس وقد كتب لعدد من المطبوعات اليسارية، بما في ذلك *Socialist Voice, Links, Presse-toi à gauche, Z Mag and Europe solidaire sans frontières.*

جاك هيرشلايفر: الكوارث والانتعاش الاقتصادي¹

جاك هيرشلايفر (1925-2005)
كان لحن وفاته أستاذاً للاقتصاد في جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس

هُزمت ألمانيا واليابان في الحرب العالمية الثانية وتعرضتا إلى القصف والدمار بالقنابل، ومع ذلك فقد شهدتا انتعاشاً بعد انتهاء الحرب أذهل العالم. ففي غضون عشر سنوات أصبحت هاتان الدولتان، مرة أخرى، قوتان اقتصاديتان كبيرتان. وبعد عقد من الزمان، استعاد كل منهما ليس فقط الازدهار ولكن تجاوزتا أيضاً، من الناحية الاقتصادية، وفي نواح مهمة، بعض المنتصرين في الحرب.

شهدت العصور السابقة أيضاً السرعة المفاجئة للتعافي من الكوارث. فقد علق جون ستيوارت ميل [1873-1806]

إن ما يثير العجب غالباً السرعة الكبيرة التي تتعافى فيها البلدان من حالة الدمار، والاختفاء، في وقت قصير، لكل أثر للخسائر التي تحدثها الزلازل والفيضانات والأعاصير، وويلات الحرب. عدوٌ يخرّب بلداً بالنار والسيف، ويدمر أو ينهب تقريباً جميع الثروات المنقولة الموجودة فيها، ويلحق الأضرار بجميع السكان ولكن في غضون سنوات قليلة بعد ذلك يعود كل شيء كما كان عليه من قبل. (ميل 1896، الكتاب 1، الفصل 5، الفقرة 1.5.19)

ومع ذلك، فإن الانتعاش الناجح هو بأي حال من الأحوال ليس أمراً عاماً. حضارة كريت القديمة ربما دمرها الزلزال أو لم يدمرها، وحضارة المايا دمرتها أو لم تدمرها الأمراض، ولكن في الحالتين كلتيهما فإن هاتين الحضارتين لم تشهدا انتعاشاً بعد الويلات التي لحقتهم. وأشهر مثال، بطبيعة الحال، هو العصور المظلمة التي تلت سقوط روما والتي استمرت لعدة قرون.

¹ Jack Hirshleifer, Disaster and Recovery, *The Concise Encyclopaedia of Economics*, Liberty Fund Inc, 2008. This article is translated, with permission, from David R. Henderson, ed., *The Concise Encyclopedia of Economics*, Liberty Fund, 2008.

تمت ترجمة هذه المقالة بإذن خطي من ديفيد آر هندرسون، صاحب الحقوق، الموسوعة الوجيزة للاقتصاد، صندوق الحرية، 2008. نشرت الترجمة العربية كفصل من كتاب مقالات ومراجعات حول الخطر والتأمين، ترجمة وإعداد مصباح كمال، تحرير تيسير التريكي (بيروت: منتدى المعارف، 2019)، ص 79-90.

لقد قام علماء الاجتماع وعلماء النفس والمؤرخون ومخططو السياسات بدراسات مستفيضة لطبيعة ومصادر وعواقب الكوارث والانتعاش اللاحق، لكن الأدبيات الاقتصادية لم تُولِ الموضوع حقه من الاهتمام إلا بشكل غير منظم وهو أمر مقلق. وكمثال واضح على ذلك المجلدات الأربعة السميكة لقاموس بالغريف الجديد: قاموس الاقتصاد *The New Palgrave: A Dictionary of Economics* (1987) التي أهملت هذه المواضيع تماماً حتى أن عبارة "كارثة" و "انتعاش" لا تظهر في فهرس هذا العمل الموسوعي. وفوق ذلك، فإن الكوارث هي تجارب اقتصادية طبيعية، وهي موازية لاختبارات درجة الدمار التي يقوم بها المهندسون وعلماء الطبيعة لمعرفة قوة المواد والآلات. إن فهم السلوك تحت وطأة الظروف الشديدة التوتر تلقي الكثير من الضوء على الحياة الاقتصادية العادية.

السجل التاريخي

على الرغم من أن المآسي اليومية الصغيرة الحجم مثل حوادث السيارات والأمراض المعوقة وخيمة بما فيه الكفاية بالنسبة لأولئك الذين يتعرضون لها، فإن ما يعيننا هنا هو الأحداث الأكبر حجماً. ومن المفيد أن نميز ابتداءً بين المصائب (متوسطة الحجم) التي تلحق بمجتمع محلي مثل الأعاصير والفيضانات أو الغارات الجوية، وبين الكوارث (كبيرة الحجم) التي تلحق بالمجتمع الأكبر كتلك المرتبطة بالمجاعة واسعة الانتشار والثورة الاجتماعية المدمرة، أو الهزيمة والقهر بعد حرب شاملة. ففي المجتمع المحلي فإن نسيج النظام الاجتماعي الأوسع يوفر شبكة أمان ضد المصائب، في حين أن وقوع الكوارث الواسعة النطاق التي تلحق بالمجتمع الأكبر تهدد النسيج الاجتماعي نفسه برمته. قد تؤدي المصائب في المجتمع المحلي إلى وقوع مئات أو آلاف القتلى، في حين أن الكوارث التي تصيب المجتمع الأكبر تؤدي إلى وقوع مئات الآلاف أو الملايين من القتلى. (كحالة خاصة، تعتبر حالات التضخم الجامح والكساد الاقتصادي الكبير أحداثاً تمتد آثارها على نطاق المجتمع الأكبر لا تؤدي مباشرة إلى خسائر بشرية كبيرة ومع ذلك فإن لها عواقب وخيمة).

تعتبر الكوارث متوسطة الحجم التي تصيب المجتمع المحلي أحداثاً متكررة نسبياً، مما يجعل التعميم التجريبي ممكناً. فقد لوحظ في مثل هذه الكوارث تكيف الأفراد والمجتمعات المحلية مع آثارها. فالناجين من الضحايا ليسوا مغلوبين على أمرهم، فبعد وقت قصير جداً من الصدمة يبدأون بمساعدة

أنفسهم وبعضهم البعض. وفي الفترة التي تلي وقع الصدمة مباشرة يكون التماهي مع المجتمع قوياً، مُعززاً للجهود التعاونية والإيثارية الرامية إلى الإنقاذ والإغاثة والإصلاح. بعد زلزال سان فرانسيسكو عام 1989، على سبيل المثال، هُرع سكان حي فقير عفوياً للمساعدة على إنقاذ سائقي السيارات المحاصرين بسبب انهيار طريق سريع. وبعد الزلزال الذي أصاب مدينة أنكورج [في ولاية ألاسكا] عام 1964 خَفَضَت محلات السوبرماركت المحلية أسعار المواد الضرورية في حين تعاون المستهلكون عموماً مع هذا السلوك من خلال تقنين المشتريات.

من ناحية أخرى، هناك بعض الحالات الخطيرة للسلوك المعادي للمجتمع. ففي حين أن حسن النية والتعاون ساد في مدينة نيويورك خلال انقطاع التيار الكهربائي عام 1965، فإن انقطاع التيار الكهربائي ثانية في عام 1977 جلب معه العنف والنهب الكبير. تجارب سيئة مشابهة وقعت بعد إعصار هيوغو Hurricane Hugo الذي ضرب الجزر العذراء Virgin Islands عام 1989. ومع ذلك، وكما بيّن راسل دينز وتوماس درايبك Russel Dynes & Thomas Drabek، فإن السلوك الاجتماعي الإيجابي كان، تاريخياً، هو الغالب في مثل هذه الحالات. وفي حين أن الحالات المعاكسة ليست نادرة فإن لهذه الحالات عادة جذوراً واضحة إلى حدٍ ما - ومنها، على سبيل المثال، وجود شعور قوي سابق بالظلم لدى أعضاء المجتمع المحلي. وكتعميم أكثر موثوقية فإن الأزمات تُطلق دائماً تقريباً تدفقاً للدعم من خارج المنطقة المنكوبة، وهي الظاهرة التي أصبحت تعرف بـ "السلوك التآزري" "convergence behavior".² والمثير للدهشة في كثير من الأحيان، أن المجتمعات التي تسير صوب التعافي تتجاوز المعدلات السابقة للتقدم نظراً لظهور قادة جدد، وتعزز التماسك الاجتماعي، وإبطال العمل بالمواقف والقواعد التي عفا عليها الزمن.

وكمثال محدد، فإن الغارات بالقنابل على هامبورغ في تموز/يوليو وأغسطس 1943 كانت كوارث مكثفة للغاية أصابت المجتمع الأكبر. وكما يحدث عادة في مثل هذه الحالات، أثبت الناس أنهم أشد صلابة من الهياكل المادية. دمرت الغارات نحو 50 في المائة من المباني في المدينة، في

² هذا السلوك نجد ما يماثله في البلدان العربية تحت عنوان "الفرعة" أو "العونة" التي تتجسد بتأثير من القيم الاجتماعية غير المكتوبة في قيام الجماعة بالتكاتف والتعاوض أمام المصائب والرزايا الطبيعية والبشرية لتقديم الإغاثة للمحتاج والمصاب والمتضرر. ولطالما ذكرت الفرعة كشكل بدائي لفكرة التأمين: تعاون الجماعة لإغاثة الفرد. وهو تحرك، سلوك، غير رسمي، وتحرك تلقائي من قبل الناس نحو منطقة الكارثة لتقديم ما يستطيعون. (المترجم)

حين أن الأربعين ألف شخص الذين قتلوا كانوا يشكلون أقل من 3 في المائة من السكان المعرضين للخطر. غادر المدينة حوالي نصف الناجين وعاد حوالي 300,000 منهم في فترة التعافي، في حين أن حوالي 500,000 تم إجلاؤهم بشكل دائم إلى مناطق أخرى في أنحاء ألمانيا. وأغلقت "المنطقة الميتة" "dead zone" من المدينة للتركيز على الإصلاحات في المناطق التي كانت أقل تعرضاً لأضرار بالغة. الكهرباء والغاز والخدمات البرقية أصبحت كلها كافية في غضون بضعة أيام بعد انتهاء الهجمات. وظلت إمدادات المياه مشكلة صعبة واستخدمت الشاحنات الصهرجية لتوفير المياه. نظام النقل تعافى جزئياً فقط بسبب الأضرار الجسيمة وحركة المرور الكثيفة، ولكن خدمات الخطوط الرئيسية للسكك الحديدية استؤنفت في غضون أيام قليلة. في اليوم السابع أعيد فتح البنك المركزي لهامبورغ وبدأ نشاط الأعمال يجري بشكل طبيعي. هامبورغ لم تكن مدينة ميتة، ففي غضون بضعة أشهر، حسبما ذكرت الهيئة الأمريكية لمسح القصف الاستراتيجي US Strategic Bombing Survey، استعادت المدينة 80 في المائة من طاقتها الإنتاجية السابقة.

لننظر الآن إلى كارثة واسعة النطاق حقاً: المحاولة البلشفية لفرض "شيوعية الحرب" "War Communism" في روسيا بدءاً من 1917 حتى 1921، بالاستغناء عن الأسواق³ وحتى استخدام النقود. لقد كان الاقتصاد الروسي يسير نحو الانحدار الشديد خلال الحرب الأهلية السابقة فقد انخفض الإنتاج الصناعي إلى 20 في المائة فقط من مستوى ما قبل الحرب، وتقلصت المساحة المزروعة في القطاع الزراعي إلى نحو 70 في المائة. وبعد الانتصار الأحمر النهائي فإن الاقتصاد، بدلاً من أن يتعافى، دخل في دوامة الانحدار الكلي. وبهذا الصدد يستشهد ألكسندر بايكوف بلينين:

على الجبهة الاقتصادية، وفي محاولتنا للتحويل نحو الشيوعية، عانينا، مع حلول ربيع عام 1921، هزيمة أكثر خطورة من أي وقت سابق لحقت بنا من قبل كولچاك ودينيكين و بيلسودسكي Denikin، Kolchak، Pilsudsky. إن الاستيلاء الإلزامي في القرى والنهج الشيوعي تجاه مشاكل إعادة الإعمار في المدن - هذه هي السياسة التي ... أثبتت أنها

³ لقد كانت المدن والقوات المسلحة على حافة الجوع خلال الحرب الأهلية، وأدى الحرب بالتزامن مع انهيار العملة، وشلل النقل، وانهيار التجارة الدولية إلى استحالة استمرار علاقات السوق العادية. وهذا الوضع هو الذي دفع الحكومة السوفيتية الفتية إلى إرسال فرق الاستيلاء الإلزامي على الحبوب ومكافحة الكولاك (الفلاحين الأغنياء) وخزنهم للحبوب لتوفير الغذاء للمدن. (المترجم).

السبب الرئيسي لأزمة اقتصادية وسياسية عميقة. (Baykov 1947، ص 48)

يبدو التفسير أنه، في البداية، كان البلاشفة قد أسسوا السيطرة المباشرة فقط على "الصروح الشامخة" للصناعة (أي السيطرة على عدد صغير نسبياً من المصانع الكبيرة الموجودة أساساً في المدن الكبرى). خارج هذا القطاع، حافظت طائفة متنوعة من المشروعات الخاصة والتعاونية على استمرار سير الصناعة والتجارة في حدها الأدنى على الأقل. لقد سمح الانتصار العسكري للشيوعيين توجيه انتباههم إلى تصفية هذه المشروعات المتبقية. إضافة إلى ذلك، فإن العديد من الرأسماليين الصغار الذين بقوا في البلاد على أمل هزيمة السوفيت رحلوا في النهاية وتخلوا عن أعمالهم ومشاريحهم. وهكذا نرى قيام مفارقة الانهيار الاقتصادي بعد الانتصار السياسي والعسكري.

التحول في منتصف عام 1921 إلى السياسة الاقتصادية الجديدة New Economic Policy (NEP) (النيب)، واستعادة التبادل النقدي، وتوسيع المجال أمام المشاريع الخاصة، أدى على الفور تقريباً إلى انتعاش كبير. إن هذا الانتعاش نفسه، بوصفه سمة ملحوظة، والذي خلق طلباً على العملة كوسيلة للتبادل، سمح للسوفيت استخدام المطابع للحصول على الأموال من خلال الزيادة الكبيرة في كتلة النقود في التداول. لقد وفرت السياسة الاقتصادية الجديدة للاقتصاد فرصة لالتقاط الأنفاس قبل الشروع في الخط الخمسية الستالينية، والدفع نحو العمل الجماعي والتصنيع.

العوامل المساعدة والمعوقة للانتعاش

أحد العوامل المواتية للانتعاش هو الانكماش الحتمي للطلب على الحاجات الأقل ضرورة، الذي يحرر الموارد للإنقاذ العاجل والإصلاح وإعادة التأهيل. وفي جانب العرض، تتدفق الموارد المستوردة (الهدايا، وعائدات التأمين، والقروض التجارية، وغيرها) من مناطق الدعم الخارجي إلى المناطق المتضررة. والأكثر أهمية، وخاصة في المدى الطويل، هو احتياطي الطاقة الإنتاجية. فالعمال يعملون لساعات أطول، والأطفال يتركون المدرسة، ويعود كبار السن المتقاعدون إلى العمل. كما يمكن تشغيل المكنان وهياكل الإنتاج ب طاقتها القصوى. وكذلك إحلال البدائل، مثل الخيام بدلاً من المنازل، أو الشاحنات بدلاً من الحافلات والقطارات - والتي تساهم في التوسع في توفير الضروريات. وأخيراً، يمكن الاسترخاء

في تطبيق الضوابط الرقابية التي تخنق التجارة والصناعة أو تعليق هذه الضوابط. كما يمكن وضع الأنشطة الضارة اجتماعياً، مثل الجريمة والتقااضي الطفيلي، تحت سيطرة أكثر صرامة.

بالنسبة للكوارث متوسطة الحجم فإن المشاكل الرئيسية تكنولوجية وتوزيعية (على سبيل المثال، ندرة الموارد المحلية أو توفر تعويض عادل). ولكن بالنسبة للمصائب واسعة النطاق فإن بقاء النظام الاجتماعي نفسه هو الذي يكون على المحك. إن انتشار المجاعات والأوبئة والثورات الاجتماعية المدمرة، والحروب المدمرة، وحتى الكساد التجاري الحاد وحالات التضخم النقدي الجامح جميعها تهدد شبكة الترتيبات التي تدعم التقسيم المحكم للعمل الذي تعتمد عليه الاقتصادات الحديثة.

تاريخياً، فإن الجانب الأكثر انكشافاً لأثار الكوارث على هذا التقسيم للعمل كان تبادل المواد الغذائية والسلع المصنعة، من خلال النقود، بين المناطق الريفية والحضرية. بالمقابل، فإن العلامة الأكثر وضوحاً على الانهيار [عقب الكوارث] هي حركة السكان من المدن إلى الريف، كما حصل بوضوح في العصور القديمة من إفراغ المدن من سكانها مع تدهور الإمبراطورية الرومانية. وفي العصور الحديثة انخفض سكان موسكو وبطرسبورغ بنسبة تزيد على 50 في المائة بين عامي 1917 و 1920، أثناء الحرب الأهلية الروسية. وبالمثل، ولكن ليس إلى ما يقرب من ذلك بدرجة كبيرة، انخفض عدد السكان في المناطق الحضرية الألمانية واليابانية على حد سواء انخفاضاً كبيراً في نهاية وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية. وحتى في الولايات المتحدة، فقد شهدت فترة الكساد 1929-1935 توقفاً، وإلى حد ما تغييراً في الاتجاه على المدى البعيد نحو التحضر.

لقد كان السبب وراء انهيار التبادل النقدي في ظل شيوعية الحرب الروسية يكمن في قرار مؤدلج لمحاولة تحطيم نظام الحوافز الخاصة التي سبق لها أن عملت لتغذية المدن [من قبل الريف]. وبالنسبة لليابان وألمانيا، فقد كانت هناك عملية مختلفة نوعاً ما، "تضخم مقموع"، كما كان يحدث غالباً في وقت سابق، وعلى سبيل المثال خلال الثورة الفرنسية والكونفدرالية الجنوبية خلال الحرب الأهلية الأمريكية.

وتبدأ عملية التدهور مع وطأة الضغوطات العسكرية أو الاقتصادية، كالخسائر الإقليمية، وتعطل وسائل النقل، أو التدابير التضخمية لتمويل الحرب، التي تستتبع معها بالضرورة ندرة في المواد الغذائية. والخطوة الحاسمة الخادعة إزاء ذلك هو اللجوء إلى وضع سقف أعلى لأسعار المواد

الغذائية، وذلك بهدف توزيع "الحصص بعدل" أو ببساطة كبح الاضطرابات في المناطق الحضرية. ولكن النتيجة هي أن المزارعين يعملون على الحد من إرسال المواد الغذائية إلى المدن. في ظل هذه الأوضاع تظهر آليات غير رسمية للتوزيع: الأسواق السوداء، والمقايضة، والرحلات المضيئية (رحلات يومية مضيئية لسكان المدن إلى الريف)، وكلها تنطوي على خسائر ناجمة عن ارتفاع تكاليف المعاملات transaction costs. ومع بدء فقد المدن لسكانها ينخفض الإنتاج الصناعي. في غضون ذلك قد تحاول الحكومة مصادرة المحاصيل الزراعية باستخدام القوة العسكرية. وهذا يهدد بالتسبب في انهيار عام لإنتاج الغذاء. عند هذه النقطة، إن لم يكن قبلها وكما يشهد التاريخ، تتنازل الحكومات عن سياستها. على سبيل المثال، عندما وقعت الحكومة البلشفية تحت الضغط لجأت إلى إدخال السياسة الاقتصادية الجديدة. في ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية، ولحسن الحظ، فإن دوامة الانحدار لم تتقدم بما يكفي نحو القاع قبل قيام إيرهارد Erhard (انظر المعجزة الاقتصادية الألمانية) وإصلاحات دوج [Joseph Morell Dodge Dodge] باستعادة سير العمل بنظام الأسعار.

قضايا السياسات العامة: دور الحكومة

هناك اتفاق واسع النطاق على أن الحكومة يجب أن تتحمل مسؤولية صيانة وترميم البنية التحتية الاقتصادية - نظام القانون ونسق الانضباط، بالإضافة إلى وسائل النقل الأساسية والاتصالات.

وبالنسبة للكوارث متوسطة الحجم التي تلحق بمجتمع محلي، فإن السؤال الرئيسي لخطة العمل هو مدى الأنشطة الإضافية التي يتعين على الحكومة القيام بها، سواء في مرحلة التخطيط أو مرحلة التعافي، والتي قد تعرقل أو تحل محل جهود القطاع الخاص. فالمنح أو القروض المدعومة تعمل على تخريب البواعث للحماية الذاتية لدى القطاع الخاص. على سبيل المثال، فإن التأمين على الفيضانات المدعوم من الحكومة يدفع نحو الإفراط في البناء في المناطق المعرضة للفيضانات. وبالمثل، فإن بعض أشكال الإغاثة الحكومية يعيق تعافي النشاطات التجارية العادية. فالتوزيع المجاني للأغذية، على سبيل المثال، قد يؤدي إلى إبطاء استعادة قنوات التسويق العادية. وهناك أمر آخر، وهو أيضاً قابل للمناقشة، وهو إلى أي مدى يجب على الحكومة تقديم حوافز إضافية للاستعداد لمواجهة الكوارث فضلاً عن توفيرها، كراعية، شبكة أمان بالنسبة لأولئك الذين كانوا في وضع يسمح

لهم بالتصرف الخاص لكنهم فشلوا في القيام بذلك [بسبب خطط الحكومة]. وكما ذكر جورج هوروفيتش George Horwich، على الرغم من أن الحكومة خلقت المثبطات للتصرف الخاص، فقد ظهرت إلى حيز الوجود شركات تجارية لمجابهة الكوارث (على سبيل المثال، شركة Disaster Masters في مدينة نيويورك) جنباً إلى جنب مع إصدار نشرة خاصة بهذا النشاط تحت عنوان المجلة الشهرية للمخاطر Hazard Monthly.

عندما يتعلق الأمر بالكوارث كبيرة الحجم التي تطال المجتمع الأكبر، على أي حال، فإن أطراف القطاع الخاص بالكاد تستطيع أن تحمي نفسها ما خلا اللجوء ربما إلى الهجرة. وتشير التجربة التاريخية إلى أن التعافي والانتعاش يتوقف على قدرة الحكومة على صون أو استعادة حقوق الملكية جنباً إلى جنب مع نظام السوق الذي يدعم التقسيم الاقتصادي للعمل.

مع تبني نظرة أكثر اتساعاً، يمكن اعتبار موضوع الكوارث والتعافي منها كحالة خاصة ضمن المشكلة العامة للتنمية الاقتصادية. وكما برهنت الأحداث في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين بقوة، فإن الاشتراكية عرّضت دول أوروبا الشرقية لعقود من الكوارث الاقتصادية. بعضها، مثل بولندا وأستونيا وجمهورية التشيك، بدأت تتعافى بشكل جيد من هذه الكوارث، والبعض الآخر، مثل أوكرانيا، ما زالت تناضل.

مراجع إضافية للمزيد من الاطلاع

[هذه المراجع من وضع كاتب المقالة-المترجم]

- Anderson, J. L., and Eric L. Jones. "Natural Disasters and the Historical Response." *Australian Economic History Review* 28 (1988): 3-20.
- Baykov, Alexander. *The Development of the Soviet Economic System*. New York: Macmillan, 1947.
- Dacy, Douglas C., and Howard Kunreuther. *The Economics of Natural Disasters*. New York: Free Press, 1969.
- Douty, Christopher M. *The Economics of Localized Disasters*. New York: Arno Press, 1977.
- Drabek, Thomas E. *Human System Responses to Disaster*. New York: Springer-Verlag, 1986.
- Dynes, Russell R. *Organized Behavior in Disasters*. Lexington, Mass: Heath Lexington Books, 1970.
- Fritz, Charles E. "Disaster." In R. K. Merton and R. A. Nisbet, eds., *Contemporary Social Problems*. New York: Harcourt, Brace, Jovanovich, 1961.

- Hirshleifer, Jack. *Economic Behaviour in Adversity*. Chicago: University of Chicago Press, 1987.
- Horwich, George. "Disasters and Market Response." *Cato Journal* 9 (1990): 531-555.
- Iklé, Fred Charles. *The Social Impact of Bomb Destruction*. Norman: University of Oklahoma Press, 1958.
- Mill, John Stuart. *Principles of Political Economy*. New York: D. Appleton, 1896. Available online at: <http://www.econlib.org/library/Mill/mlp.html>
- Prince, Samuel Henry. *Catastrophe and Social Change*. New York: Columbia University Press, 1920.
- Sorokin, Pitirim A. *Man and Society in Calamity*. New York: Dutton, 1942.

Copyright ©2008
[Liberty Fund, Inc.](http://www.libertyfund.org)

تعليق المترجم

هذه الدراسة مكتوبة من موقف ليبرالي وقد أثرنا ترجمتها للعربية لأن لها بعض العلاقة بالحماية التأمينية وكذلك بالدمار متعدد الأوجه الذي حلّ بالعراق جراء سياسات النظام الدكتاتوري البائد وحروبه والغزو والاحتلال الأمريكي. تضم الدراسة أفكاراً مهمة بشأن الكوارث الطبيعية والبشرية من منظور اقتصادي وتأميني أيضاً.

والملاحظ أن رؤية كاتب الدراسة، رغم الإشارات التي يوردها بشأن التعاضد الاجتماعي عند وبعد وقوع الكوارث، تقوم على التقليل من دور الحكومات في مجابهة آثار الكوارث، والتأكيد على دور النشاط الفردي الخاص. فالكوارث من هذا المنظور تصبح سلعة قابلة للتسعير والتسويق من قبل شركات متخصصة يشير إلى إحداها بالاسم.

والكاتب بالطبع لا يستسيغ الاشتراكية ويستخدم تطبيقها السوفيتي كمثال للكوارث البشرية المدمرة.

ولو كان حياً في زماننا لربما أشار إلى الكساد المالي العظيم الذي أنتجه النظام الرأسمالي منذ عام 2008 ككارثة مالية كانت ستؤدي إلى عواقب وخيمة غير ما اختبرناه لولا تدخل الحكومات التي يحصر دورها بتحمل "مسؤولية صيانة وترميم البنية التحتية الاقتصادية - نظام القانون ونسق الانضباط، بالإضافة إلى وسائل النقل الأساسية والاتصالات."

هو لم يتحدث عن نهب "العالم الثالث" من المنظور التاريخي البعيد المدى *longue durée* كنمط من الكوارث البشرية التي ألحقت الدمار باقتصادات هذا العالم.

قد لا نختلف معه بشأن تقييمه لتطبيق الاشتراكية لكننا نود تقديم التعليق التالي. تقوم الاشتراكية، في نموذجها السوفيتي، على أساس اقتصاد مخطط مركزياً تسيطر فيه الدولة على جميع وسائل الإنتاج. وقد نشأت الاشتراكية تاريخياً كاستجابة للاختلال الاقتصادي والأخلاقي للرأسمالية. واقتترنت تطبيقات الاشتراكية في القرن العشرين أيضاً بخلل اقتصادي وقسوة أخلاقية. ومع ذلك فإن فكرة ومثل الاشتراكية ما زالت قائمة كبديل للرأسمالية، ولكن ليس معروفاً إن كانت الاشتراكية، في شكل ما، ستعود في نهاية المطاف كقوة تنظيمية كبرى للشؤون الإنسانية. ولكن لا يمكن لأحد تقييم آفاقها بدقة دون الأخذ في الاعتبار دراما نشوء وانهيار الاشتراكية في التطبيق.

بول دالزيل: حول تغيير تركيز الاقتصاد من النمو إلى الرفاهة

نشر النص الإنجليزي في مجلة الاكتواري The Actuary مجلة معهد وكلية الاكتواريين البريطانية بتاريخ 2 تشرين الثاني 2022

https://www.theactuary.com/2022/11/03/interview-professor-paul-dalziel-changing-focus-economies-growth-wellbeing?utm_source=Adestra&utm_medium=email&utm_term=

بعنوان: Interview: Professor Paul Dalziel on changing the focus of economies from growth to wellbeing وبهذه العبارة التمهيدية: تحدث بول دالزيل إلى أليكس مارتين حول الغرض الحقيقي من الاقتصاد والدروس التي يمكننا استخلاصها من ميزانية الرفاهة في نيوزيلندا لعام 2019.

في عام 1933، فَقَدَ جد البروفيسور بول دالزيل وظيفته في ذروة الكساد الكبير. حال زواجه من جدته اكتشفا أنهما كانا يتوقعان طفلهما الأول؛ بقيا بدون دخل لمدة ست سنوات.

إن أثر مثل هذه المكابدة ينتقل عبر الأجيال. بالنسبة لدالزيل، الذي تخرج حديثاً من المدرسة في أواخر السبعينيات، أثار ذلك سؤالاً سيقضي الخمسين عاماً القادمة في محاولة الإجابة عليه: "كيف تتعطل الأنظمة بحيث لا يتمكن الناس من خلق حياة جيدة لأنفسهم؟"

كجزء من سعيه للاستقصاء، أصبح خبيراً عالمياً في اقتصاديات الرفاهة wellbeing¹، وكان المؤلف الرئيسي لكتاب Wellbeing – Economics: The Capabilities Approach to Prosperity الذي يصنف كخامس أكثر كتب الناشر بالكريف ماكميلان تنزياً عن الاقتصاد في عام 2018.

ما الذي يعنيه اقتصاد الرفاهة؟

اعتقاد Dalziel الأساسي هو أن "الغرض الأساسي للاقتصاد هو المساهمة في تعزيز رفاهة الأشخاص." "الرفاهة" هو مصطلح واسع يغطي

¹ كلمة wellbeing لها ظلال متعددة من المعاني، فهي "خير؛ صالح؛ رفاهة؛ سعادة (حسب قاموس المورد)، وهي العافية، والرفاه أو الرفاهية وحالة شعور الإنسان بالراحة أو الصحة أو السعادة.

مجموعة متنوعة من الموضوعات، تمتد من الحد من فقر الأطفال أو العنف المنزلي إلى تحسين الصحة العقلية للأشخاص أو السعادة الذاتية. إنه واسع بشكل مقصود لأن الاقتصاد يمكن أن يساعد في تحسين العديد من مجالات حياتنا.

إن الهدف الرئيسي في الخطاب الاقتصادي الحالي هو المساهمة في نمو الاقتصاد - على وجه التحديد نمو الناتج المحلي الإجمالي GDP. ومع ذلك، فإن الناتج المحلي الإجمالي لا يضم التغيرات في معدلات فقر الأطفال أو قيمة العالم الطبيعي. ولا يأخذ في الاعتبار الكم الهائل من العمل التطوعي الذي يجري في جميع أنحاء البلاد أو العمل غير المأجور في المنزل - في الغالب من قبل النساء.²

يجادل Dalziel بأن "الاختبار النهائي فيما إذا كانت السياسة الاقتصادية تقوم بعمل جيد لا يكمن في مدى سرعة نمو الاقتصاد، ولكن ما هي نوعية الحياة التي يعيشها الناس. ما الذي يمكنهم خلقه باستخدام الموارد التي ينتجها الاقتصاد؟" إن اقتصاد الرفاهية يؤكد على أهمية هذه الأسئلة أكبر بكثير من أهمية نمو الناتج المحلي الإجمالي.

خيار نيوزيلندا

إن Dalziel ليس وحيداً في قناعاته بهذه الآراء. ففي عام 2019، قدمت حكومة العمال النيوزيلندية "ميزانية الرفاهية" 'wellbeing budget' الأولى في العالم استجابةً للمخاوف تجاه التقدم الضئيل في معالجة فقر الأطفال أو حالة الطوارئ المناخية، على الرغم من النمو الاقتصادي.

وفي حين أنه لا يريد الإفراط في إقحام التغيير في السياسات، فإن دلزايل رصد تحولاً في التركيز لدى جميع دوائر حكومة نيوزيلندا، مدفوعاً بإطار العمل الجديد ضمن ميزانية الرفاهية. وفقاً للنظام الجديد، يجب أن يضم أي اقتراح لسياسات الموازنة تحسن ثلاثة مجالات على الأقل من أصل 12 مجاًلاً. تتضمن هذه المجالات أموراً كالروابط الاجتماعية، والرفاهية

² نشرت الشبكة ترجمة لمراجعة لكتاب ستيفن جي ماسيكورا: سوء قياس التقدم: النمو الاقتصادي ونقاده، يلقي الضوء النقدي على اعتماد الناتج المحلي الإجمالي وعدم كفايته.

[pdf/مراجعة-كتاب-ستيفن-جي-ماسيكورا-سوء-قياس-التقدم-النمو-الاقتصادي-ونقاده](http://iraqieconomists.net/pdf/مراجعة-كتاب-ستيفن-جي-ماسيكورا-سوء-قياس-التقدم-النمو-الاقتصادي-ونقاده)
(iraqieconomists.net)

الذاتية، والإسكان، والصحة، والبيئة، والاستغناء عن "وسيط" النمو بحيث "يركز موظفو الخدمة المدنية ومجلس الوزراء الذين يتخذون القرارات على تأثير هذه القرارات على الرفاهية".

ومن الأمثلة على طريقة التفكير الجديدة هذه، حظر إصدار تصاريح جديدة للتنقيب عن النفط والغاز في المناطق البحرية. وفي حين أن زيادة إنتاج النفط والغاز قد تؤدي إلى تحسين النمو الاقتصادي، إلا أنها لا تتماشى مع تأثير تغير المناخ على الرفاهية في المستقبل.

بينما نناقش كيف تطور الاقتصاد النيوزيلندي في السنوات الثلاث منذ تقديم ميزانية الرفاهية، يوضح Dalziel أن أحد الانتقادات الرئيسية هو أن هذه الميزانية لم تنجح بما فيه الكفاية. وبالنظر إلى أن أحد المجالات هو "العمل" والآخر هو "الاستهلاك"، فمن السهل بناء سياسة "لا تختلف كثيرًا عما اعتدنا فعله - زيادة الناتج المحلي الإجمالي".

قد يستغرق التحول في التركيز بعض الوقت لإحداث فرق. ومع ذلك، يقترح Dalziel أننا بحاجة إلى إعادة تصميم النظم الاقتصادية الرئيسية. المصطلح الخاص به بهذا الشأن هو "الرفاهية 2.0"، وهو إطار عمل يتأسس على هضم دروس السنوات الثلاث الماضية. على أي حال، فإن الكثير سيعتمد على نتيجة انتخابات 2023 في نيوزيلندا.

إن اقتصاد نيوزيلندا ليس الاقتصاد الوحيد الذي يحاول نقل التركيز من الناتج المحلي الإجمالي إلى الرفاهية - يصف Dalziel كيف تتضمن البلدان ذات القادة الأقوياء إلى شراكة حكومة اقتصاد الرفاهية: "أيسلندا واسكتلندا وويلز وفنلندا ونيوزيلندا لديها قادة ذوو رؤية ملتزمين بممارسة تصميم السياسات الاقتصادية التي تحترم حدود الكوكب وتوسع القدرات للناس لخلق حياة جيدة".

دور الأعمال business [الشركات]

ليست الحكومات وحدها هي التي تقود التحول في التركيز من النمو إلى الرفاهية. يقول Dalziel: "إن المفهوم الأساسي للأعمال التي تجمع الموارد معًا لتوسيع القدرات من أجل الرفاهية أمر مهم حقًا." فالأسواق القائمة على اللامركزية تمنح اختيار كيفية تبادل السلع والخدمات إلى الشخص الذي هو في وضع أفضل لمعرفة ما هو الأفضل لرفاهته.

ولذلك، فإن الحكومات والشركات بحاجة إلى العمل معًا، كما يقول، و "الحيلة هي ألا تضع الحكومة نفسها في مواجهة الشركات." إن إنشاء شركات وحوافز لأشياء مثل "التكنولوجيا الخضراء" سيساعد على ضمان عمل الشركات على نفس المنوال مثل ميزانية الرفاهة.

فيما يتعلق بالقطاع المالي، يلاحظ دالزيل أن "الشركات المالية حساسة للغاية تجاه المخاطر، وأصبح من الواضح أن تغير المناخ يخلق مخاطر متجذرة في النظام systemic لا يكفي تنويع المحفظة لمواكبتها." بالنظر إلى تأثير الفيضانات الأخيرة في باكستان، يقدم دالزيل مثالاً. "إذا كانت لدينا عواصف مماثلة، يمكن أن تغرق سهول كانتربري [نيوزيلندا] بسهولة تحت الماء. ماذا يعني ذلك بالنسبة لأي من البنوك التجارية الكبرى التي نوّعت محافظها عبر سهول كانتربري؟ فجأة، يمكن أن يتعرض كل هذا [الاستثمار] للخطر إذا حصل حدث مناخي شديد بهذا الحجم."

الأمر لا يتعلق فقط بتغير المناخ ذلك أن تأثير اقتصاديات الرفاهة يمتد على قطاع التمويل ليشمل القضايا التي لا يعتبرها القطاع عادةً ضمن اختصاصه. يوضح Dalziel أنه مع تحول الدولة للتركيز من النمو إلى الرفاهة، فإنها تصبح أكثر وعياً بالممارسات السيئة للشركات.

يجب أن يبدأ المقرضون وشركات التأمين الأخذ بنظر الاعتبار "الرخصة الاجتماعية للعمل" 'social licence to operate' الخاصة بالمقرضين والعملاء. على سبيل المثال، تعمل صناعة الألبان في نيوزيلندا على التخلص من النترات في الأنهار والبحيرات، وبينما تساهم هذه الشركات في النمو الاقتصادي، هناك حاليًا رد فعل عنيف ضدها، مما يدفع إلى التنظيم regulation بما يتماشى مع إطار اقتصاديات الرفاهة. ستحتاج المجالس الإقليمية الآن إلى مراعاة جودة المياه لمصلحتها الخاصة - المُعبر عنها بلغة الماوري باسم Te Mana o te Wai، أو سلامة الممر المائي.

الاستثمارات التي تتجاهل مسؤولياتها الاجتماعية ستصبح على نحو متزايد مخاطر أعلى لشركات التأمين والمستثمرين على حد سواء. أحد مجالات الإبداع وريادة الأعمال التي ستكون مطلوبة في صناعة التأمين هو تعلم كيفية الاكتتاب بهذه المخاطر.

على الرغم من ذلك لا يعتقد Dalziel أن المهمة قد انجزت. قال "الفجوة الكبيرة، على الصعيد العالمي، هي كيف يمكننا الجمع بين قصة الرفاهية والمساهمة المميزة التي يجب أن تقدمها الشركات لتوسيع القدرات من أجل عيش حياة جيدة؟"

إعادة اكتشاف العلاقات

هناك أيضاً علاقة عميقة ومعقدة بين النمو الاقتصادي والرفاهية في حياتنا. يشير Dalziel إلى دراسة حديثة أظهرت زيادة في النسبة المئوية لكل يوم يقضيه الأمريكيون بمفردهم. "لقد أصبحنا معزولين عن الطبيعة وعن بعضنا البعض، وقمنا بهذه التضحيات باسم النمو الاقتصادي." إن جزءاً من الحركة نحو اقتصاديات الرفاهية هو إعادة اكتشاف علاقاتنا مع بعضنا البعض والبيئة الطبيعية.

كان العمال في نيوزيلندا هم الذين أسسوا أول نظام ضمان اجتماعي في العالم في الثلاثينيات. فعلى الرغم من الصعوبات المتزايدة، كانوا على استعداد لقبول ضريبة على أجورهم لتمويل دولة الرفاهية التي من شأنها أن تدفع تكاليف للتعليم الشامل والرعاية الصحية المجانية. في المقابل، بينما ننظر حول العالم اليوم، يبدو أن السؤال السائد هو "كيف يمكنني الحفاظ على مستواي المعيشي، أو كيف يمكنني تعزيز امتيازاتي؟"

يرى Dalziel أنه على الرغم من الثروة الإضافية الناتجة عن النمو الاقتصادي، "لم نصبح أشخاصاً أفضل ... ومع ذلك يمكننا أن نكون أفضل. فالبشر يتمتعون بهذه القدرة المدهشة على التضامن والكرم، ولكن عندما يتعلق الأمر بتصميم الاقتصادات الوطنية، يبدو أننا نفقد كل ذلك ويصبح الأمر مجرد سؤال "ما الفائدة من ذلك بالنسبة لي؟"

ويجادل دلزايل بأن "الحكومات يجب أن تمكّن الناس، بما في ذلك الأجيال القادمة، حتى يتمكن الناس من خلق حياة يقدرونها ولديهم سبب لهذا التقدير ضمن قيود تخوم الكوكب." وهو يتوقع أننا نفترّب من قمة منحنى S للنمو الاقتصادي وينبغي أن نتوقع أن الزيادة التي لا تنتهي في الناتج المحلي الإجمالي ستأخذ بالتباطؤ، أو حتى أن تكون مقلّحة. إنه مقياس ضعيف لمعظم الأشياء المهمة في بلد ما؛ ربما يجب أن نأخذ توجيهاً من نيوزيلندا وحركة اقتصاديات الرفاهية لإيجاد طريقة أفضل.

* يشغل بول دالزيل منصب أستاذ الاقتصاد بجامعة لينكولن منذ عام 2002، وتم تعيينه نائباً لمدير وحدة أبحاث الأعمال الزراعية والاقتصاد (AERU) في عام 2010. لمزيد من التعريف راجع:

<https://biography.omicsonline.org/new-zealand/lincoln-university-new-zealand/paul-dalziel-606833>

يمكن قراءة كتابه

Paul Dalziel, *Wellbeing Economics: The Capabilities Approach to Prosperity* (2018)

باستخدام هذا الرابط <https://link.springer.com/book/10.1007/978-3-319-93194-4>

تيد ترينر: جائزة نوبل في الاقتصاد لعام 2024: مثال على كيفية تحريف الاقتصاد التقليدي للواقع

مُنحت جائزة البنك المركزي السويدي في العلوم الاقتصادية تخليدًا لذكرى ألفريد نوبل لعام 2024 (يُحب الاقتصاديون الإشارة إليها على أنها جائزة نوبل خالصة - وهي ليست كذلك) إلى دارون عاصم أوغلو، وسيمون جونسون، وجيمس روبنسون.¹ ووفقًا للبيان الصحفي، مُنحت الجائزة لمساعدتنا على "فهم الاختلافات في الرخاء بين الدول".² يشتهر عاصم أوغلو وروبينسون (2013) على وجه الخصوص بكتابهما الأكثر مبيعًا لماذا تفشل الأمم - لماذا تزدهر بعض الدول الفقيرة بينما تفشل دول أخرى وتظل فقيرة. الموضوع الأساسي [للكتاب] هو أن التنمية تعتمد في المقام الأول على ما إذا كانت المؤسسات الوطنية لديها مؤسسات "شاملة" "inclusive" أو "استخراجية" "extractivist" institutions. وقد أثارت الجائزة الكثير من التعليقات النقدية. على سبيل المثال، نشرت صحيفة فاينانشال تايمز مقالًا بعنوان "جائزة نوبل للتفسير الاقتصادي".³

تقدم هذه المقالة مناقشة أعمق [لأطروحة المؤلفين]. فرغم أهمية العوامل التي ناقشها عاصم أوغلو وروبينسون، إلا أنها ليست العوامل الرئيسية التي تُحدد ما إذا كانت الدول ستتطور أم ستبقى فقيرة. إن الأسباب الرئيسية تكمن في الطبيعة الاستغلالية للاقتصاد العالمي، وفي نظام السوق المُسلَّم به ومفهوم "التنمية"، والإجراءات المُتخذة للحفاظ على هذه العوامل. تُعدّ هذه العوامل أساسية في النظرية والممارسة الاقتصادية الرأسمالية، وتُعطي

¹ For critique of the economics prize visit: <https://economicsociology.org/2024/10/12/the-economics-nobel-prizewhat-is-it-good-for/>.

² Visit: <https://www.nobelprize.org/prizes/economic-sciences/2024/press-release/>.
For a more detailed account of the reasons for the award see: <https://www.nobelprize.org/uploads/2024/10/advancedeconomicsciencesprize2024.pdf>.

³ Visit: <https://www.ft.com/content/1e2584d6-65ef-46de-bfb2-28811be65600>.
See also: <https://www.ipsnews.net/2024/10/another-nobel-anglocentric-neoliberal-institutionaleconomics/> and: <https://reddytoread.com/2024/10/16/why-nobelists-fail/> and <https://jacobin.com/2015/10/robinson-acemoglu-inclusive-extractive-poverty-wealth/>.

انطباعاً بعدم وجود مفهوم أو نهج آخر للتنمية. ستعرض المقالة آثارها السلبية على التنمية، وتُقدّم رؤية ونهجاً بديلين. وتُظهر هذه الحالة الطبيعة الأيديولوجية للنظرية الاقتصادية التقليدية، وكيف تولّد تفسيرات وتبريرات مُثيرة للجدل.

التفسير المقدم في كتاب **لماذا تفشل الأمم** يتعلق بمدى امتلاك الأمم لمؤسسات سياسية وقانونية واجتماعية وما إلى ذلك التي تُسهّل التنمية (التقليدية) وتُشجعها. وكما ذكر سابقاً، يُميّز نوعان أساسيان من أنظمة التنمية الوطنية. الأول، المسمى "الشامل"، يتميز بالمؤسسات التي تُقدّم مكافآت وأماناً للابتكار والاستثمار، مثل حماية براءات الاختراع، والأنظمة القانونية لتسوية النزاعات، وحرية الاستثمار. (2013: 76). والثاني، المسمى "الاستخراجي"، لأن المؤسسات مُصمّمة لاستخراج الدخل والثروة من فئة فرعية واحدة من المجتمع لصالح فئة فرعية مختلفة. وتتمثل أطروحة الكتاب في أن "قدرة المؤسسات الاقتصادية على تسخير إمكانات الأسواق الشاملة، وتشجيع الابتكار التكنولوجي، والاستثمار في الموارد البشرية، وتعبئة مواهب ومهارات عدد كبير من الأفراد أمر بالغ الأهمية للنمو الاقتصادي. ويشكّل تفسير سبب فشل العديد من المؤسسات الاقتصادية في تحقيق هذه الأهداف البسيطة الموضوع الرئيسي لهذا الكتاب". (2013: 81). "إن عدم المساواة العالمية اليوم موجودة لأن بعض الدول تمكنت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين من الاستفادة من الثورة الصناعية والتقنيات وأساليب التنظيم التي جلبتها بينما عجزت دول أخرى عن القيام بذلك". (2013: 271)

يُفسح الكتاب المجال للنقاش ضد النظريات البديلة. على سبيل المثال، "... ليست الجغرافيا أو الثقافة أو جهل المواطنين أو السياسيين هي ما يُبقي الكونغو فقيراً، بل مؤسساته الاقتصادية الاستخراجية. لا تزال هذه المؤسسات قائمة بعد كل هذه القرون لأن السلطة السياسية لا تزال مُركزة بشكل ضيق في أيدي نخبة لا تملك حافزاً يُذكر لفرض حقوق ملكية آمنة للشعب، أو لتوفير الخدمات العامة الأساسية التي من شأنها تحسين نوعية الحياة، أو لتشجيع التقدم الاقتصادي. بل إن مصالحها هي استخراج الدخل والحفاظ على سلطتها". (2013: 90-91)

ويجري توضيح هذه الأطروحة بشكلٍ مُفصّل، على مدار 540 صفحة، من خلال كمٍ وافٍ من الأدلة ودراسات الحالة، التي يتعمق معظمها في تفاصيل

تاريخ العديد من الأمم. الكتاب واضحٌ وجيدُ الصياغة، مُزوّدٌ بمراجعٍ مُكثّفة، وغنيٌّ بالمعلومات، وسهلُ الفهم للعامة.

ما المشكلة إذن؟ ليس أن الكتاب يُجادل فيما يبدو نتيجةً بديهية، وهي نتيجة لا تتميز بالفراة أو الريادة، ناهيك عن كونها جديرة بجائزة نوبل. المشكلة هي أنه لا يُشير إطلاقاً إلى الأسباب الجوهرية لفشل الأمم، وأسباب بقاء مليارات البشر "فقراء" ويعيشون في ظروف مُزرية لا تُغتفر. فالكتاب يُركّز على بعض العوامل ذات الصلة، دون العوامل الرئيسية، ويُخطئ في تحديد أهميتها السببية.

تأمل هذه العبارات:

"الفروقات الكبيرة في عدم المساواة العالمية واضحة للجميع... فهم أسباب هذه الاختلافات وأسبابها هو محور تركيزنا في هذا الكتاب." (2013: 41)

"السبب الأكثر شيوعاً لفشل الدول اليوم هو وجود مؤسسات استخراجية." (2013: 368)

"المؤسسات الاقتصادية والسياسية الاستخراجية،... هي دائماً أساس هذا الفشل... في جميع هذه الحالات، يكمن أساس هذه المؤسسات في نخبة تُصمّم مؤسسات اقتصادية لإثراء نفسها وترسيخ سلطتها على حساب الغالبية العظمى من أفراد المجتمع." (2013: 399)

تشرح هذه النظرية "... المعالم الرئيسية للتنمية الاقتصادية والسياسية في جميع أنحاء العالم منذ الثورة الزراعية." (2013: 429)

توضح هذه العبارات أنه يجري تشخيص آلية سببية، وأنها تتموضع داخل البلدان الفقيرة. وفي العديد من الحالات التي نوقشت، من الصحيح تماماً أن الظروف غير مواتية للتنمية وما إلى ذلك. لكن التفسير يتوقف عند هذا الحد، وبالتالي فهو مُضلل للغاية. إذ لا توجد أي إشارة إلى سبب وجود هذه الآليات، ومن يحافظ عليها، ومن هم المستفيدون النهائيون والرئيسيون منها. السبب الرئيسي لكون نصف سكان العالم على الأقل فقراء هو أن النظام الاقتصادي العالمي قد أنشأ مؤسسات "استخراجية" ويحافظ عليها، بهدف استنزاف تريليونات الدولارات من ثروات الموارد

من البلدان الفقيرة كل عام. إنه النظام العالمي الذي يمنعهم من الإفلات من هذا المصير. وتؤيد النظرية الاقتصادية التقليدية والممارسون هذا النظام وتشرع عنه وتروج له. هذا الكتاب هو مديح لهذا النظام. إنها صورة لنهاية التاريخ الاقتصادي على شاكلة نهاية التاريخ لفوكوياما؛ لو أن الدول الفقيرة اعتمدت الأسواق الحرة وجعلت الظروف جاذبة للمستثمرين الأجانب، لازدهرت التنمية وانتهى الفقر. صحيح أن هناك استخراجاً وهناك استخراجيون، لكن الكتاب يفشل في الإشارة إلى أن النظرية الاقتصادية والاقتصاديين والعالم الغني هم الأسباب الرئيسية والأضرار والمستفيدين من الاستخراج.

قد تبدو هذه الادعاءات للوهلة الأولى مبالغاً فيها، لذا من المناسب الدفاع عنها بإسهاب.

كيف تعمل "التنمية" (التقليدية)؟

لا يتساءل مؤلفو الكتاب عن معنى "التنمية"، بل يعتبرونها أمراً مسلماً به، كما يفعل جميع الاقتصاديين تقريباً، وهي أن التنمية تعني زيادة الثراء المادي، كدول وأفراد. يتعلق الأمر بالقدرة على شراء المزيد، وزيادة الإنتاج والبيع والاستهلاك، وبالتالي زيادة الناتج المحلي الإجمالي. هذه هي النظرة "أحادية البعد" للتنمية، حيث تتقدم الدول نحو الثراء. ويُفترض أن الثراء يُحسن جوانب أخرى كثيرة، كالصحة والرعاية الاجتماعية.

لا يُبدي الاقتصاديون التقليديون اهتماماً يُذكر بالتفكير فيما قد يُسهم أكثر في جودة الحياة، ناهيك عن قياسها، ناهيك عن إعطاء الأولوية للتطورات التي قد تُحسنها. إنهم يتجاهلون حقيقة أن ما يُسهم في جودة عالية للحياة، باستثناء الصحة، لا يتطلب سوى القليل، إن لم يكن لا شيء، إن هذه الجودة لا تتطلب "رخاء" مادياً. فُكر في الحصول على ما يكفي من الطعام والملبس والمأوى، والشعور بالمعنى والهدف، وتكوين الصداقات، والشعور بالتقدير، والعيش في مجتمع داعم، والحصول على عمل مُجزٍ، والتمتع بالأمان من البطالة والفقر، وعدم الاضطرار إلى الكدّ في العمل أو الكفاح، والشعور بقيمة المكان والبيت. يمكن، من حيث المبدأ، توفير هذه الظروف للجميع حتى في ظل مستويات منخفضة للغاية من الثروة المادية والإنتاج والتصنيع والاستثمار الرأسمالي والعولمة وتكنولوجيا المعلومات والتجارة الدولية و"مستويات المعيشة" والناتج المحلي الإجمالي. (انظر أدناه).

تكمّن المسألة الأساسية في كيفية تصوّر النظرية الاقتصادية التقليدية للتنمية. ولأنّها تُفهم في المقام الأول على أنها تهدف إلى زيادة الناتج المحلي الإجمالي، يجب أن ينصبّ التركيز على تسهيل الأنشطة الإنتاجية. وهذا يتطلب الاستثمار، ولأن الدولة الفقيرة تمتلك رأس مال محدود، فإن ذلك يعني الاقتراض وجذب الاستثمار الأجنبي. ويتمثل المجالان الرئيسيان لتحقيق ذلك في تصدير الموارد الطبيعية المادية وتصدير العمالة عبر المزارع والمناجم والمصانع. وبالتالي، يتعين على الدولة دخول السوق العالمية لبيع مواردها، ومنافسة العديد من الدول الفقيرة الأخرى التي تواجه نفس الوضع. ونظرًا لافتقارها إلى رأس المال اللازم لإنشاء المناجم وما إلى ذلك، يجب البحث عن الاستثمار الأجنبي. لكن المستثمرين يرغبون في الوصول إلى البنى التحتية مثل السكك الحديدية والموانئ، مما يستدعي الحصول على قروض كبيرة لبنائها. والنتيجة الشائعة ليست زيادة سريعة في الدخل لسداد القروض، بل تراكم ديون ضخمة، وهو ما يبدو أنه يتسارع في السنوات الأخيرة. فبين عامي 2020 و2023، تضاعف الدين العام للدول الأفريقية الفقيرة ليصل إلى 60% من الناتج المحلي الإجمالي، وارتفع إلى ما يقرب من 75% في أمريكا اللاتينية. (UN 2024, Fig 4)

عادةً ما يصبح الدين غير قابل للسداد. عند هذه النقطة، يُرتّب صندوق النقد الدولي إجراءات إنقاذ، تُعرف باسم "حزم التكيف الهيكلي" Structural Adjustment Packages، والتي تتضمن منح المزيد من القروض بشروط معينة. ويجري تصميم هذه الإجراءات "لإنعاش الاقتصاد" من خلال جعله أكثر جاذبية للمستثمرين الأجانب، وبيع الشركات الحكومية المربحة لهم، والضغط لتخفيض الأجور والمنافع الاجتماعية، وفرض سياسات "تقشفية" قاسية، وتوجيه الاقتصاد بشكل عام بما يخدم مصالح طبقة رجال الأعمال.

يشرح كتاب جون بيركنز John Perkins اعترافات قاتل اقتصادي (2023) كيف كانت مهمته إقناع الدول بأخذ قروض لا يمكنها سدادها أبدًا. وسواء كانت هذه ممارسة شائعة أم لا، فإن العواقب كانت حتمية. وهناك وفرة من الأدبيات التي توثق الآثار الضارة لهذه الإجراءات على أعداد كبيرة من الفقراء.

يُشير هذا الكتاب الطويل [لماذا تفشل الأمم] إلى صندوق النقد الدولي إشارتين موجزتين فقط، دون أن يُشير أيّ منهما إلى هذه القضايا. يعتبر الكتاب إجراءات الصندوق قيّمة، إلا أنه، وغيره من المؤسسات الدولية

الكبرى، لا يُنتقد إلا لتبنيه "منظورًا خاطئًا"، أي لعدم تركيزه على التمييز بين "الشمولية" و"النزعة الاستخراجية". (2013: 446-467)

تُسعد النخب المحلية في الدول الفقيرة بالتنمية التقليدية لأنها تُتيح لها فرصًا استثمارية. كما تُسعد البنوك لأنها تُنظم القروض وتحصّل على العمولات. على سبيل المثال، حصلت شركة غولدمان ساكس على عمولة قدرها 600 مليون دولار لترتيب قرض لليونان. في هذه الأيام، لم تعد الإمبريالية بحاجة إلى إرسال سفينة حربية لغزو العالم. إن انتصار الليبرالية الجديدة، كما شخّصه شوسودوفسكي Chossudovsky (2004) هو "أعظم عملية نقل للثروة في التاريخ"، باستخدام مفاتيح الكمبيوتر.

النتيجة هي أن اقتصادات الدول الفقيرة تقع في فخ توفير موارد رخيصة للدول الغنية لتحقيق أرباح مجزية للمستثمرين والشركات والبنوك، مع منع التنمية التي من شأنها أن تعود بالنفع الأكبر على الفئات الفقيرة والمُستغلة. يُقدّر هيكِل وسوليفان وزومكاوالا Hickel, Sullivan and Zoomkawala (2021) أن صافي تدفق الثروة من الدول الفقيرة إلى الدول الغنية يبلغ 2.5 تريليون دولار سنويًا. إضافةً إلى ذلك، تتحمل هذه الدول تكلفة الأضرار البيئية الناجمة عن المناجم وقطع الأشجار والمزارع والضباب الدخاني الصناعي smog، والأضرار الاجتماعية الناجمة عن ظروف العمل غير الآمنة وتدني الأجور وضعف الرعاية الصحية، إلخ.

إن جوهر أيديولوجية التنمية التقليدية التي تُبقي كل هذا قائمًا هو الالتزام التبعدي الراسخ بنظام السوق المُعجز. يُقدّس وزير الخارجية الأسترالي وونغ Wong باستمرار "النظام الدولي القائم على القواعد"، وأقدس قاعدة فيه هي أن تُحدّد قوى السوق ما يُنتج ومن يحصل عليه. لكن في نظام السوق، يُحدّد طلب الأطراف الأكثر ثراءً ما يُنتج ومن يحصل عليه. لهذا السبب تُطعم مئات الملايين من الأطنان من الحبوب للحيوانات في الدول الغنية سنويًا، بينما يُعاني حوالي 800 مليون شخص من الجوع. في نظام السوق، يكون إنتاج الحبوب لإنتاج لحوم الأبقار في حظائر التسمين في الدول الغنية أكثر ربحية بكثير من بيعها للسودانيين الجائعين. ولهذا السبب تُنتج مستحضرات التجميل والزهور المقطوفة في غواتيمالا للتصدير بدلًا من الغذاء الأساسي والسكن للفلاحين الفقراء. ولهذا السبب أيضًا، يبني المطورون في أستراليا مساكن فاخرة بدلًا من مساكن منخفضة التكلفة للفقراء. في نظام السوق، تُعدّ هذه المشاريع من النوع الذي يَعدّ بأكبر قدر من الربح لأصحاب رأس المال للاستثمار. وكما يُشير فرنانديز

Fernandes، فإن "النظام القائم على القواعد" هو كناية عن الإمبراطورية. (2022).

ومع ذلك، يجب بذل الجهود للحفاظ على عمل النظام الاقتصادي العالمي بهذه الطرق. أحيانًا يكون التدخل ضروريًا، على سبيل المثال لإخضاع الدول لسياسات تناسب الأغنياء والتعامل مع أولئك الذين يهددون بالخروج على القانون. أحيانًا تكفي مبيعات الأسلحة الضخمة؛ فكم من النفط سيحصل عليه الغرب من السعودية بدونها؟ أحيانًا يكون من الضروري غزو [بلد] والتخلص من زعيم مثل مُصدق الذي يهدد وصولنا إلى النفط، أو تزويد حليف بالأسلحة لقمع المعارضين الذين يهددون الأنظمة التي تُصدّر لنا الموارد. أحيانًا يكون من الضروري قتل لومومبا أو القذافي أو كاسترو (للأسف، 600 محاولة، العديد منها من قبل وكالة المخابرات المركزية فشلت هناك) لمنع الانحراف. ولكن في أحيان أخرى، يكون من الضروري اللجوء إلى الانتقائية في دعم الديكتاتوريين الوحشيين مثل سوموزا. لقد تفاخر سوموزا بأنه يصوت دائمًا مع الولايات المتحدة في الأمم المتحدة ولا يؤرقه ضميره أن جميع الأراضي الزراعية مملوكة للأجانب. قال وزير خارجية روزفلت، سومنر ويلز، ذات مرة: "سوموزا وغدا"، فردّ روزفلت: "أجل، لكنه وغدا". (Wikiquote 2024,) (Jewish Independent 2016, McAlpine 2016). أحيانًا يكون من الضروري غزو وقتل أعداد كبيرة. حاولت الولايات المتحدة "تغيير الأنظمة" أكثر من سبعين مرة منذ الحرب العالمية الثانية. وما كان لشعوب الدول الغنية أن تتمتع بمستويات معيشية عالية تعتمد على الموارد لولا هذه الإجراءات لتأمين إمبراطوريتها.

يعزو الكتاب فشل الدول إلى حكم الاستخراجيين، لكن ما يغفله الكتاب هو أن العديد منهم على الأقل وصلوا إلى السلطة لأن أثرياء العالم هم من وضعوهم في السلطة، أو ساعدوا أمثال سوموزا وبينوشيه على البقاء فيها، لأنهم مكنوا من تحقيق تنمية اقتصادية "طبيعية". إن الاستخراجيين الأكثر ذنبًا موجودين بين شركات العالم الغني وبنوكه ومسؤولي صندوق النقد الدولي. والأهم من ذلك، يغفل الكتاب تحديد هوية الاستخراجيين الرئيسيين حاليًا.

صحيح، كما يُبين هذا الكتاب، أن المؤسسات داخل الدولة التي تُسهّل أو تُعيق التنمية التقليدية تُعدّ بالفعل عوامل سببية تُسهم في نتائج مثل "فشل" الدولة والفقر الجماعي، لكنها ليست العوامل السببية السائدة. فهي ليست،

كما يُشير عنوان الكتاب، "...أصل الفقر" اليوم. إن العامل السببي الأهم اليوم هو النظام الاقتصادي العالمي الجائر والمُفتَرس الذي تقع جميع الدول في فخه، وهو نظام يُجبر الدول الفقيرة على السماح بتدفق صافي لكميات هائلة من الثروة إلى الدول الغنية، والتخلي عن التنمية لصالح شعوبها.

وهكذا، يُعدّ الكتاب مديحاً مُفصّلاً للرأسمالية. إنها الطريق الصحيح للتطور. الرسالة الضمنية الموجهة للدول الفقيرة هي أنه إذا مارست الاقتصاد بهذه الطريقة، فستزدهر كما ازدهرنا. ما عليك سوى تمكين وتشجيع القلّة، التي تملك معظم رأس المال، على الاستثمار في أي شيء من شأنه أن يزيد ثرواتها الهائلة أصلاً، وتوفير الظروف والحوافز القانونية الأمانة لهم، وسينمو الناتج المحلي الإجمالي. لكن هذه الثقة لا تخلو من بعض المشاكل الآن، وأهمها أن آخر ما يحتاجه الكوكب هو المزيد من النمو. (انظر أدناه).

لذا، لا يُشير الكتاب إطلاقاً إلى "الأسباب الرئيسية للفقر" اليوم. ليس الأمر أنه يسعى عمدًا إلى الإخفاء أو التضليل، بل إن الاقتصاديين التقليديين يبدون عاجزين عن فهم أن ما يعتبرونه اقتصادًا هو مجرد اقتصاد رأسمالي، وأن ما يعتبرونه تنمية هو مجرد تنمية رأسمالية. ويبدو أنهم لا يتصورون وجود أنواع أخرى. يكشف الكتاب ومنح الجائزة أن النظرية الاقتصادية التقليدية هي أسلوب تفسير، وأيديولوجية راسخة وقوية ومضللة، تُروّج وتُشرّع.

إحدى الطرق التي يتم بها ذلك هي التحليل من خلال التركيز على عامل واحد فقط، وهو القيمة النقدية، مما يعني أنه يفشل في مراعاة العديد من العوامل المهمة في إنتاج واستهلاك وتبادل وتوزيع السلع والخدمات، وفي تطوير أنظمة لتنفيذ هذه العمليات، ولتقييم مدى استصوابها. ويتم تصنيف عوامل مثل الضرر البيئي والاجتماعي على أنها "آثار خارجية" "externalities"، أي أنها ليست ظواهر اقتصادية في الواقع وبالتالي يمكن تجاهلها. كما أن الاعتبارات الأخلاقية والعدالة ليست ذات صلة بالاقتصاد، مثل الضرر النفسي الناجم عن البطالة والفقر أو تدمير مدن بأكملها عندما تنتقل الشركات إلى الصين. إذا لم يتمكن رأس المال من تعظيم الأرباح من خلال توظيف الناس هنا، فلا بأس من رميهم في كومة النفايات.

من الفرضيات الرئيسية الأخرى الاعتقاد بأن الاقتصاد يجب أن يقوم على نظام السوق. ومن الفرضيات الأخرى أنه من المناسب والمرغوب فيه أن

تُحدد المشاريع التي تُطور وتُنتج على أفضل وجه بما يعتقد قلة من أصحاب رؤوس الأموال للاستثمار أنه سيُعظم ثروتهم، على عكس ما قد يكون الأفضل للمجتمع أو أنظمتها البيئية. ومن الفرضيات الأخرى أن المستثمرين جديرون بالإعجاب، إذ يُسخّرون رؤوس أموالهم لمصلحة المجتمع؛ ولا يُؤخذ بعين الاعتبار حصولهم على دخل كبير دون الحاجة إلى بذل أي جهد، إلا عندما يُحاول الناس العاديون ذلك.

هذه بعض الطرق التي تُشوّه بها النظرية الاقتصادية التقليدية التفكير وتُضلّله، فتُصوّر الممارسات غير المرغوبة للغاية على أنها طبيعية ومبرّرة ومقبولة أخلاقياً، بينما هي في الواقع تُشرّع "النزعة الاستخراجية" لدى الأغنياء. يُقدّم هذا الكتاب، ومنح "جائزة نوبل"، أمثلة بارزة على مدى استخفاف هذه الأيديولوجية وهيمنة هذه الأيديولوجية.

البديل: التنمية "المناسبة"

هناك الآن حجة قوية على أن النظام الاقتصادي العالمي قد دخل مرحلة نهائية، وهي فترة من التدهور المتسارع إلى وقت من الاضطرابات الكبيرة. (Trainer 2020). إن أنماط الحياة للفرد في العالم الغني واستخدام الموارد والنواتج المحلي الإجمالي أعلى بعدة مرات مما يمكن أن يصل إليه جميع سكان العالم. إن التصميم على رفعها باستمرار ودون حدود هو الذي يولّد جميع المشاكل العالمية الكبرى التي تهدد وجودنا الآن، بما في ذلك أزمة المناخ وفقدان التنوع البيولوجي والأضرار البيئية الأخرى وحرمان المليارات وحروب الموارد وانهيار التماسك الاجتماعي حتى في أغنى البلدان. ونظرًا لأن سبب هذه "الأزمة المتعددة" هو الإفراط في الإنتاج والإفراط في الاستهلاك، فإن الحل يجب أن يكون النمو السلبي degrowth واسع النطاق في أنماط الحياة والأنظمة التي هي أبسط بكثير من الناحية المادية من تلك الموجودة في البلدان الغنية اليوم.

الرد الشائع على حجة حدود النمو limits to growth هو أن السعي وراء النمو والرخاء يمكن أن يستمر، لأن التكنولوجيا المتطورة وسياسات إعادة التدوير الأكثر صرامة، وما إلى ذلك، يمكن أن "تُفصل" "decouple" الاستهلاك عن الآثار الحالية على الموارد والبيئة. سيسمح ذلك باستمرار ارتفاع الناتج المحلي الإجمالي مع حل مشاكل الموارد والبيئة. لكن هناك الآن مراجعات واسعة النطاق تُظهر أن هذا لا يحدث،

ومن غير المرجح حدوثه على الإطلاق. (Parrique et al. 2019a,) (Hickel and Kallis 2020, Haberle et al. 2019).

لا يمكن حل المشكلات إلا بنمو سلبي هائل والتحول نحو أحد أشكال "الطريقة الأبسط" (TSW 2024) The Simpler Way، حيث يعيش معظم الناس في مجتمعات تعاونية صغيرة، تتمتع بقدر كبير من الاكتفاء الذاتي والحكم الذاتي، وتتحكم في اقتصادات محلية مدفوعة بالاحتياجات لا بالربح أو قوى السوق، وتسعد بالعيش بطرق مادية بسيطة. وتوضح دراسة لإمدادات البيض أجراها ترينر ومالك ولينزن Trainer, Malik and Lenzen (2019) الانخفاض الكبير الذي يُتيح هذا النمط العام في استخدام الموارد والضرر البيئي. فقد وجدوا أن التكلفة بالدولار وتكلفة الطاقة للإمدادات عبر حظائر الفناء الخلفية backyard pens والتعاونيات الصغيرة كانت في حدود 1% من تكلفة الإمداد من السوبر ماركت.

من الممكن إجراء تخفيضات مماثلة في العديد من العناصر الأخرى نظراً لصغر الحجم والقرب [الجغرافي] وتكامل الوظائف. على سبيل المثال، يمكن إغلاق حلقات المغذيات nutrient loops عن طريق نقل "النفايات إلى" الحدائق القريبة باستخدام الحيوانات ومُهضّات الميثان methane digesters، مما يلغي الحاجة إلى أنظمة الصرف الصحي أو النقل أو إنتاج الأسمدة. جاء في تقرير لقرية Dancing Rabbit Ecovillage في ولاية ميسوري عن معدلات مختلفة لاستخدام المواد والطاقة والوقود وما إلى ذلك تتراوح بين 5 و 10% مقارنة مع المتوسط الوطني (Trainer 2020a). ويُفصّل ترينر (2022) طرقاً منخفضة التكلفة للغاية تم تحقيقها في المزارع والقرى البيئية، بما في ذلك معدل استخدام الكهرباء للفرد بحوالي 1% من المتوسط الوطني للأسرة. وتُشارك التعاونية الإسبانية الكاتالونية المتكاملة Spanish Catalan Integral Cooperative (Trainer 2018) الآلاف في تعاونيات مكتفية ذاتياً بدرجة عالية وتوفر مجموعة واسعة من السلع والخدمات مع تجنب الاعتماد على السوق أو الدولة. يناقش ليهي Leahy (2009) وليهي وغوفورث Leahy and Goforth (بدون تاريخ) الحركات الأفريقية مثل حركة تشيكوكوا Chikukwa التي تعمل على تكريس الأراضي والعمالة والمعرفة التقليدية للتنمية التعاونية للقرى المكتفية ذاتياً، وهو ما يتناقض مع السياسات الرسمية غير المجدية التي تحثّ الفلاحين على الفوز بمبيعات التصدير.

تتضمن هذه المجتمعات عادةً تدابير عالية الجودة للحياة (Grinde et al. 2018) وهي ليست بحاجة لإشراك أي تخفيض في التقنيات المتقدمة المفيدة اجتماعيًا والجامعات والبحوث الطبية وما إلى ذلك. (للمزيد من التفاصيل، انظر TSW. 2023). تعمل القرى البيئية والمدن الانتقالية وحركة النمو السلبي وحركة الفلاحين والعديد من الحركات الأخرى اليوم على تحقيق هذا التحول. منذ زمن بعيد رأى غاندي أن المسار المناسب للهند هو مجتمعات من هذا النوع. من الواضح الآن أن قيود الموارد العالمية تمنع "التنمية" التقليدية للعالم الغني كثيف الموارد لجميع شعوب العالم. ومن هنا جاءت الحكمة في قوله "يجب على الأغنياء أن يعيشوا حياة أكثر بساطة حتى يتمكن الفقراء من العيش ببساطة".

هناك حجة قوية على أن انهيارًا كارثيًا للاقتصاد العالمي يقترب مع انهيار الرأسمالية ذاتيًا (Trainer 2020b). من المرجح أن يقضي هذا على أي أمل في انتقال مرغوب فيه إلى هذا الشكل البديل من التنمية، لكن الطريقة الأبسط The Simpler Way تمثل المفهوم الوحيد للتنمية الذي يبدو منطقيًا الآن. من يدرك هذا لن ينال على الأرجح جائزة نوبل من المؤسسة الاقتصادية الحاكمة.

* تيد ترينر محاضر متقاعد في كلية العلوم الاجتماعية، جامعة نيو ساوث ويلز، أستراليا.

المراجع

Acemoglu, D., and J. A.; Robinson, (2013), Why Nations Fail: The Origins of Power, Prosperity and Poverty. Profile. Kindle Edition.

Chossudovsky, M., (2004), The Globalisation of Poverty, London, Zed Books.

Fernandes, C., (2022), Subimperial Power, Melbourne University Press.

Grinde, B., et al., (2018), "The Quality of Life in Intentional Communities". Social Indictors Research 137(2): 625–640.

Haberle, H., et al., (2020), "A systematic review of the evidence on decoupling of GDP, resource use and GHG emissions, part II: synthesizing the insights", Environmental Research Letters, 15.

Hickel J. and G. Kallis, (2019), “Is Green Growth Possible?”, New Political Economy, April. DOI: 10.1080/13563467.2019.1598964.

Hickel, J., Sullivan, D., and H. Zoomkawala, (2021), “Rich countries drained \$152tn from the global South since 1960”. Al Jazeera. May 6.
<https://www.aljazeera.com/opinions/2021/5/6/rich-countries-drained-152tnfrom-the-global-south-since-1960>

Leahy, T., (2009), Permaculture Strategy for the South African Villages, Palmwoods, Qld., PI Productions Photography.

Leahy T. S., and M. Goforth, (Undated), Chikukwa and CELUCT: Sustainable Revolution; Permaculture in Ecovillages, Urban Farms and Communities Worldwide, North Atlantic Books, Berkeley, California.

McAlpine, S, (2016), “He Might Be a B@%#d, but He’s Our B@%#d”, Oct 10. Stay in the Know.
<https://stephenmc Alpine.com/he-might-be-a-bd-but-hes-our-bd/>

Jewish Independent, (2016), “Pragmatic, dirty choices”, April 8, 2016, No author. <https://www.jewishindependent.ca/tag/roosevelt/>

Parrique, T., J. Bath, F. Briens, J. Spanenberg, (2019), “Decoupling Debunked. Evidence and arguments against green growth as a sole strategy for sustainability”. A study edited by the European Environment Bureau, EEB, July, Brussels, Belgium. <https://eeb.org/library/decoupling-debunked/>

Trainer, T., (2018), “The Catalan Integral Cooperative – The Simpler Way revolution is well underway!”, FEASTA Admin, Feb..
28<https://www.feasta.org/author/admin/>, and by Resilience, Jan 17
<https://www.resilience.org/stories/2018-01-17/the-catalan-integral-cooperative-the-simpler-wayrevolution-is-well-underway/>

Trainer, T., (2020a), Dancing Rabbit ecovillage.
<https://thesimplerway.info/DancingRabbit.html>

Trainer, T., (2020b), “Simpler Way transition theory”, real-world economics review, issue no. 91, 96 – 112.

Trainer, T., (2022), “How Resource-Cheaply Could We Live Well?”, real-world economics review, issue no. 99, 64–79.

TSW (2023), The Simpler Way; The Alternative Society.
<https://thesimplerway.info/THEALTSOCLong.htm> TSW 2024.

United Nations, (2024), A World of Debt Report,
https://unctad.org/system/files/officialdocument/osgttinf2024d1_en.pdf

Wikiquote, (2024), Talk: Franklin D. Rooseveltd.
https://en.wikiquote.org/wiki/Talk:Franklin_D._Roosevelt.

مايكل روبرتس: لماذا يعتبر "اقتصاد العالم الحقيقي" مهماً؟

في نهاية الأسبوع الماضي، أقيمت محاضرة رئيسية لطلاب الاقتصاد في الجامعة المفتوحة البريطانية في يوم الاقتصاد الذي تنظمه. فيما يلي نسخة من العرض الذي قدمته.

طلب مني اليوم أن أتحدث عن موضوع: لماذا يعتبر "اقتصاد العالم الحقيقي" مهماً؟ يطرح هذا العنوان بعض الأسئلة: ما هو اقتصاد العالم الحقيقي؟ وهذا يعني أن هناك اقتصاد لا يتعلق بالعالم الحقيقي. وإذا كان هناك اقتصاد عالمي حقيقي، فما الذي يمكن أن يساهم به في صنع عالم أفضل لنا جميعاً؟

إن اقتصاد العالم الحقيقي يجب أن يدور حول فهم ما يحدث في العالم من حولنا: ما الذي يسبب التضخم والبطالة والفقر وعدم المساواة وتغير المناخ وما إلى ذلك. وما هي الإجابات السياسية الاقتصادية لهذه القضايا. لكن هناك مشكلة. إن ما أسميه الاقتصاد السائد mainstream economics لا يناقش أو يتعامل مع قضايا العالم الحقيقي هذه بشكل جيد للغاية.

أحد الأمثلة التي تتعلق بهذا المبنى الموجودين فيه الآن يتبادر إلى الذهن بشكل مباشر. في خضم ما أصبح يسمى الركود الكبير Great Recession في الفترة 2008-2009 عندما كانت جميع الاقتصادات الكبرى تعاني من انخفاض حاد وعميق في الناتج الوطني والتوظيف ومتوسط الدخل، بعد انهيار هائل في النظامين المصرفي والمالي، زارت الملكة إليزابيث كلية لندن للاقتصاد London School of Economics (LSE).

وعندما دخلت هذا المبنى بالذات، سألت جمع من الاقتصاديين البارزين الذين التقوا بها: "لماذا لم يتوقع أحد حدوث ذلك؟" وبعبارة أخرى، تساءلت: لماذا لم يتنبأ أحد بالانهيار المالي والركود الذي تلا ذلك، وهو الأسوأ منذ سنوات الكساد depression في الثلاثينيات. لقد اندهش الاقتصاديون البارزون من سؤال الملكة حول العالم الحقيقي. استغرق الأمر ثلاثة أشهر قبل أن يردوا على الملكة في رسالة منشورة من ثلاث صفحات.

أقتبس من الرد ما يلي: "يبدو أن الجميع يقومون بعملهم بشكل صحيح بناءً على جدارته. ووفقاً لمقاييس النجاح القياسية، فإنهم غالباً ما كانوا يقومون بذلك بشكل جيد. وكان الفشل متمثلاً في رؤية كيف أدى هذا بشكل جماعي إلى سلسلة من الاختلالات المترابطة التي لا تتمتع أي سلطة واحدة بالولاية عليها." أعتقد أن الاقتصاديين كانوا يقولون إن نظرياتهم تبدو جيدة، ولكن بعد ذلك اجتمعت الكثير من الأشياء المختلفة، التي كانوا يعرفون عنها بطريقة أو بأخرى، في عاصفة مثالية لتسبب الانهيار، ولم يكن بإمكانهم توقع ذلك.

وبعد ستة أشهر، زارت الملكة بنك إنجلترا وأوقف أحد كبار خبراء السياسة المالية في البنك الملكة ليقول إنه يود الإجابة على السؤال الذي طرحته لأول مرة على هؤلاء الاقتصاديين في كلية لندن للاقتصاد. وأخبر الملكة أن الأزمات المالية تشبه إلى حد ما الزلازل وأوبئة الأنفلونزا من حيث كونها نادرة ويصعب التنبؤ بها، وطمأنها بأن موظفي البنك متواجدون للمساعدة في منع حدوث أزمة أخرى. الأمير فيليب لم يفوت فرصته وسأل: "فهل هناك أزمة أخرى قادمة؟" لم تقدم أي إجابة.

ولكن هاكم وجهة نظري. لا يقتصر الأمر على أن الاقتصاديين لم يلاحظوا أن الأزمة جاءت فجأة مثل اصطدام كويكب بالأرض، وهو ما يمثل صدمة لنظام اقتصادي يعمل بشكل مثالي. لقد استبعدت نظرياتهم هذا الاحتمال بالكامل.

روبرت لوكاس Robert Lucas خبير اقتصادي بارز، وحائز بالفعل على جائزة نوبل في الاقتصاد. ففي عام 2003، قبل نحو خمس سنوات من الانهيار المالي العالمي، أعلن أن "الاقتصاد الكلي نجح: فقد تم حل مشكلته المركزية المتمثلة في الوقاية من الكساد، لجميع الأغراض العملية، بل لقد تم حلها في واقع الأمر لعقود عديدة من الزمن."¹

يوجين فاما Eugene Fama وهو حائز آخر على جائزة نوبل في الاقتصاد، وحصل على الجائزة لقاء إثبات أن الأسواق تعمل بكفاءة،

¹ ["macroeconomics has succeeded: Its central problem of depression prevention has been solved, for all practical purposes, and has in fact been solved for many decades."](#)

وطالما لدينا أنا وأنت وكل شخص ما يكفي من المعلومات حول ما يجري، فإن السوق سوف تضمن التشغيل الكامل للعمالة، والنمو المطرد، وارتفاع الدخل للجميع. وهذا ما يسمى بفرضية الأسواق الكفوة (Efficient Markets Hypothesis (EMH). بعد الركود الكبير، سُئل فاما عن الخطأ الذي حدث. فأجاب: "لا نعرف ما الذي يسبب الركود. لم نعرف قط. تستمر المناقشات حتى يومنا هذا حول سبب الكساد الكبير. إن الاقتصاد ليس جيدًا جدًا في تفسير التقلبات في النشاط الاقتصادي."

لقد تحدثت حتى الآن عن حدث اقتصادي واحد وفرع واحد من التفسيرات: ما أسميته الاقتصاد السائد وفشله في التنبؤ بهذا الحدث أو التعامل معه، أي الانهيار المالي العالمي للبنوك والانكماش العميق في تشغيل العمالة والدخول على مستوى العالم. إنها مشكلة حقيقية ولكن دون إجابة من التيار الاقتصادي السائد. ولكن هذا يطرح سؤالاً مفاده أنه إذا لم يتمكن الفكر الاقتصادي السائد من تفسير العالم الحقيقي بشكل جيد للغاية، فإننا بحاجة إلى نظريات جديدة لتوجيه قراراتنا المتعلقة بالسياسات.

هناك نظريات أخرى. في الواقع، يمكننا تصنيف الاقتصاد إلى مدارس مختلفة، مع التقسيم الرئيسي بين "التيار السائد" mainstream و"التيار المخالف له" heterodox. في التيار السائد، لدينا قسمان فرعيان عظيمان. الأول ويسمى المدرسة الكلاسيكية الجديدة. تنطلق أطروحة هذه المدرسة من افتراض أساسي وهو أن "السوق الحرة" أي السوق القائمة دون تدخل أو عيوب ناجمة عن الاحتكارات أو النقابات العمالية أو الحكومة، سوف تحقق تحسناً اقتصادياً متناغماً فيما يسمى "التوازن العام" 'general equilibrium'. وكما قال أحد الاقتصاديين الكلاسيكيين الجدد ذات مرة: "إن اقتصاد السوق يشبه بحيرة هادئة أو بركة سباحة." في بعض الأحيان يمكن أن تزعجه صخرة أو حجر، مما يشكل صدمة للبيئة الهادئة، ولكن في النهاية إذا توقفت تلك التدخلات، فسوف تهدأ التموجات في المسبح وسيعود المسبح هادئاً مرة أخرى.

ضمن التيار السائد، هناك أيضاً المدرسة الكينزية، التي سميت على اسم نظريات جون ماينارد كينز، الاقتصادي البريطاني العظيم في القرن العشرين. ترفض النظرية الكينزية فكرة التوازن المتمثلة في البركة

الهادئة للمدرسة الكلاسيكية الجديدة. يعتقد الكينزيون أن النموذج الكلاسيكي الجديد ليس اقتصاد "العالم الحقيقي". ويجادل الكينزيون بأن اقتصادات السوق تدخل أحياناً في حالة من "اختلال التوازن" مما يؤدي إلى الكساد والبطالة، والتي لا تخرج منها الاقتصادات ما لم تتدخل الحكومات بتدابير تشمل طباعة المزيد من النقود أو زيادة الإنفاق الحكومي لاستعادة التوازن.

لكن كلا من المدارس الكلاسيكية الجديدة والمدارس الكينزية تتفق على شيء واحد: وهو أن النظام القائم على السوق هو الشكل الوحيد القابل للحياة للاقتصاد. كل ما في الأمر أن إحدى المدرستين تعتقد أن النمو "المتناغم" يمكن تحقيقه من خلال السوق الحرة دون تدخل، بينما تعتقد المدرسة الأخرى أنه يجب على الحكومة والبنوك المركزية التدخل لتصحيح أي خلل في التوازن.

لكن الاقتصاد السائد يبدأ من افتراض لم يثبت بعد — أي أن اقتصاد السوق حيث تقوم الشركات بتوظيف أشخاص مثلنا لإنتاج السلع والخدمات لبيعها في السوق مقابل النقود — والأهم من ذلك هو تحقيق أرباح لأصحاب ومساهمي تلك الشركات — هي الطريقة الوحيدة لتنظيم إنتاج وتوزيع الأشياء التي نحتاجها نحن البشر.

ولكن اقتصاد السوق لم يكن موجوداً على الدوام — بل إنه لم يكن موجوداً إلا منذ نحو 250 عاماً فقط. قبل ذلك، كانت هناك اقتصادات إقطاعية حيث كان الفلاحون أو الأقنان يعملون في الأرض لصالح أسيادهم الذين يستهلكون المنتجات. كان هذا النظام موجوداً منذ أكثر من 1000 عام. قبل ذلك، كانت هناك اقتصادات العبيد حيث كان الأشخاص الذين تم أسرهم في الحروب يُجبرون على العمل لصالح مالكي العبيد — وكان هذا النظام موجوداً منذ آلاف السنين.

أطرح هذه النقطة لأننا يجب أن ندرك أن الطريقة التي تدار بها الاقتصادات الآن لم تكن موجودة دائماً وقد لا تستمر كأفضل طريقة لتلبية احتياجات البشرية. وفي اعتقادي أن اقتصاد السوق يُظهر علامات واضحة تشير إلى فشله في تحقيق هذه الغاية. لذلك قد تكون هناك طرق أخرى للتنظيم الاقتصادي.

على هذا النحو، هناك اقتصاديون لديهم انتقادات جديدة لاقتصاد السوق السائد. هناك ما يمكن أن نطلق عليه مدارس الاقتصاد غير التقليدية

heterodox — والمصطلح يعني ما يقوله، خارج التيار السائد. وضمن هذا النطاق الواسع، يسلط هؤلاء الاقتصاديون الضوء على السلوك غير العقلاني للأسواق وعدم الاستقرار المتأصل في اقتصاد السوق. وهي تشمل المدرسة الماركسية التي تقول إن اقتصاد السوق سيواجه دائمًا أزمات لا يمكن حلها عن طريق السوق، وبالتالي يجب استبدال اقتصاد السوق (الذي يطلق عليه الماركسيون الرأسمالية) باقتصاد مخطط يعتمد على الملكية المشتركة لجميع المنتجين.

المدرسة غير التقليدية تنتقد بشدة الاتجاه السائد. في الواقع، منذ ما يقرب من ست سنوات بالضبط، عقد كبار الاقتصاديين غير التقليديين ندوة هنا في كلية لندن للاقتصاد حول حالة الاقتصاد السائد، كما يتم تدريسه في الجامعات. لقد بدأوا ذلك² من خلال تثبيت ملصق يحتوي على 33 أطروحة تنتقد الاقتصاد السائد على باب هذا المبنى. (يمكنك قراءته باستخدام محرك غوغل). لقد كانت الذكرى السنوية الخمسمائة عندما قام مارتن لوثر [1483-1546] بتثبيت أطروحته الـ 95³ على كنيسة القلعة في فيتنبرج، والتي أشعلت بداية الإصلاح البروتستانتي ضد "الدين الحقيقي الوحيد" وهو الكاثوليكية.

كان الاقتصاديون من التيار المخالف heterodox economists يقولون لنا إن الاقتصاد السائد يشبه الكاثوليكية ولا بد من الاحتجاج عليه كما فعل لوثر في عام 1517. وعلى حد تعبيرهم: "إن الاقتصاد معطل. فمن تغير المناخ إلى عدم المساواة، لم يقدم الاقتصاد السائد (الكلاسيكي الجديد) الحلول للمشاكل التي نواجهها، ومع ذلك فهو لا يزال مهيمًا في الحكومة والأوساط الأكاديمية والمؤسسات الاقتصادية الأخرى. لقد حان الوقت لاقتصاد جديد."

ماذا ينبغي أن يكون هذا الاقتصاد الجديد؟ في الآونة الأخيرة، ألقى بينوا كوريه Benoit Cœuré، وهو عضو فرنسي بارز في المجلس التنفيذي للبنك المركزي الأوروبي، خطابًا، مثلما أفعل الآن معكم، لطلاب كلية باريس للاقتصاد وهي، إذا رغبتم بالتشبيه، الكلية الشقيقة لكلية لندن للاقتصاد. أخبر كوريه جمهوره من الطلاب أن "الاقتصاد

² [kicked this off by nailing a poster with 33 theses](#)

33 Theses for an Economics Reformation: [33 Theses for an Economics Reformation - New thinking for the British economy \(opendemocracy.net\)](#)

³ [95 theses](#)

هو علم اجتماعي. ولن تزيل النماذج عبء ومسؤولية إصدار الأحكام. ويتضمن علم الاقتصاد الكثير من التجربة والخطأ، حيث يتعين عليك اتخاذ قرارات في الضباب عندما لا تكاد ترى يدك أمام وجهك. وهذا يجعل مهنتنا مثيرة!"

بالنسبة لي، الاقتصاد علم — وإن كان علمًا اجتماعيًا يتعامل مع البشر، وليس علمًا فيزيائيًا. وكعلم، فإنه يتطلب المنهج العلمي. بالنسبة لي، هذا يعني أنك تبدأ بفرضية تحتوي على افتراضات واقعية تم "استخلاصها" من الواقع ثم بناء نموذج أو مجموعة من القوانين التي يمكن اختبارها مقابل الأدلة. يمكن للنموذج أن يستخدم الرياضيات لتحسين دقته، لكن الأدلة هي التي تقرر ذلك في النهاية. من وجهة نظري، كما هو الحال مع علماء الفيزياء والفلك، يجب على الاقتصاديين أيضًا أن يكونوا قادرين على تطوير نظريات حول الاقتصادات في العالم الحقيقي واختبارها تجريبيًا حتى نتمكن من وضع تنبؤات ونأمل أن نتجنب الأزمات الاقتصادية التي تعاني منها الاقتصادات الحديثة بشكل منتظم.

لقد ناقشت حتى الآن الأحداث الكبرى مثل الركود الكبير ومساهمة أو فشل الاقتصاد السائد في التنبؤ بها أو تفسيرها أو تقديم سياسات اقتصادية فعالة لمعالجتها وتجنب المزيد في المستقبل. لكن قسمًا كبيرًا من الاقتصاد السائد لا يدور حول هذه الأحداث الكبرى. فقد رفض بينوا كوريه Benoit Cœuré في محاضراته في باريس الانتقادات الموجهة إلى فشل الاقتصاديين في التنبؤ باندلاع الأزمة المالية. "هذا النقد هراء. هل نتوقع من الأطباء التنبؤ بالأمراض؟ نحن لا نفعل ذلك بالطبع. لكننا نتوقع منهم أن يساعدونا في علاج الأمراض. وعلى الاقتصاديين أن يفعلوا الشيء نفسه." لذا، فإن مهمة الاقتصاد ليست التنبؤ forecast [للمدى الطويل] أو التنبؤ predict [للمدى القصير]، بل وضع سياسات لعلاج أي فوضى قد تظهر.

وهذا موضوع مشترك بين الاقتصاديين. ترى إستر دوفلو Esther Duflo، الحائزة على جائزة نوبل مؤخرًا، أن الاقتصاديين يجب أن يتخلوا عن الأفكار الكبيرة والعمل بدلاً من ذلك على حل المشاكل مثل السباكين الذين "يمدون الأنابيب ويصلحون التسريبات". إن الاقتصاديين أشبه بالمهندسين أكثر من كونهم فيزيائيين. وقد طرح كينز نقطة مماثلة: مفادها أن خبراء الاقتصاد لابد وأن يكونوا مثل أطباء

الأسنان — حيث يقومون بفرز المشاكل المزعجة حتى يتسنى للرأسمالية أن تعمل بسلاسة.

وتعتقد دوفلو أن تشبيه السباكين يعني أن الطريقة العلمية البحتة لتحليل السبب والنتيجة كانت أقل أهمية من الحلول العملية. لذا، ينبغي لخبراء الاقتصاد أن يكونوا أقرب إلى الأطباء من الباحثين الطبيين. سباكون، وأطباء أسنان، ومهندسون، وأطباء، لكن ليس علماء اجتماع على ما يبدو.

ولكن هل الأطباء هم كل ما يهم في صحة الإنسان؟ في الواقع، إن تحسين المهارات الطبية في علاج المرضى بمجرد إصابتهم بالمرض يأتي من الاكتشافات العلمية حول الأمراض وعلم الأحياء والبيئة. كما أن الأدوية والممارسات الطبية الناجحة هي نتيجة معرفة سبب المرض.

في العصور الوسطى، استخدم الأطباء جميع أنواع العلاجات الخطيرة وغير المفيدة (دودة العلق وما إلى ذلك) لأنهم لم يعرفوا "الجراثيم" (البكتيريا أو الفيروسات). تم القضاء على الكوليرا في نهاية المطاف من خلال دراسة جغرافية في لندن أظهرت أنها منتشرة بالقرب من آبار الشرب غير الصالحة. وتم حل مشكلة الملاريا والجدي من خلال اكتشاف حاملات البكتيريا في الحيوانات المختلفة. ثم تبع ذلك العلاج من قبل الأطباء.

وبطبيعة الحال، هذا لا يعني أن الاقتصاد لا يدور حول فهم الاقتصاد على المستوى الجزئي أو الصغير والتوصل إلى سياسات لتغيير الأمور نحو الأفضل — الضرائب المناسبة لجمع الأموال للبرامج الحكومية وتحقيق مساواة أفضل؛ ووضع حدود قصوى مناسبة لأسعار الطاقة؛ الرسوم المناسبة المفروضة على الازدحام المروري لتقليل استخدام الوقود الأحفوري، وتحليل واضح للتكلفة والفوائد لقياس ما إذا كان ينبغي بناء خط السكك الحديدية HS2 [High Speed 2] أم لا. وهذا أيضًا جزء من الاقتصاد.

في الواقع، هذا هو نوع الاقتصاد وصنع السياسات الذي يفعله معظم الاقتصاديين وربما كيف ستكسب عيشك عندما تتخرج وتبقى في مجال الاقتصاد ويمكنك القيام بعمل جيد. أوضح كوريه Cœuré لطلابه في باريس أن تصبح خبيرًا اقتصاديًا هو أمر عظيم ويحمل معه أجرًا جيدًا.

"بالنسبة للكثيرين، تعتبر درجة الماجستير خطوة طبيعية نحو الدكتوراه. والدكتوراه هي في الأساس وعد بالتوظيف. ففي الولايات المتحدة، على سبيل المثال، يبلغ معدل البطالة بين الاقتصاديين الحاصلين على درجة الدكتوراه حوالي 0.8%، وهو الأدنى بين جميع العلوم. ليس مكاناً سيئاً للبدء منه." لكن كوريه قال إن المال أقل أهمية لأن "درجة الدكتوراه الخاصة بك يجب أن تغذيها شغفك وحبك للبحث، وليس الأمل في كسب المزيد من المال."

وأنا متأكد من أن هذا هو الحال بالنسبة لكم جميعاً أيضاً. ومع ذلك، يجب أن أكون صريحاً هنا. قد تكون تجربة كوريه Coeuré في القطاع العام مختلفة عن أولئك الذين عملوا في القطاع الخاص. بعد أن عملت في القطاع الخاص والبنوك والمؤسسات المالية الأخرى خلال "حياتي المهنية"، فإن تقديم المشورة بشأن السياسة الاقتصادية وجعل الأمور أفضل للجميع ليس هو الهدف، بل هو "كيفية كسب المال". الاقتصاد هناك موجه إما إلى استراتيجية الشركات لتحقيق الأرباح في الإنتاج والتجارة أو إلى استراتيجية الاستثمار لتحقيق الأرباح في المضاربة المالية.

من وجهة نظري، يجب على اقتصاد العالم الحقيقي أن ينظر إلى "الصورة الكبيرة". ولا ينبغي للاقتصاديين أن يكونوا مجرد أطباء، بل علماء اجتماع، أو بتعبير أكثر دقة، ينبغي لهم أن يعملوا على تطوير اقتصاد يعترف بالقوى الاجتماعية الأوسع التي تحرك النماذج الاقتصادية. وهذا ما يسمى الاقتصاد السياسي، ومعظمه لا يدرس في الجامعات. اسمحو لي أن أذكركم ببعض القضايا الاقتصادية ذات الصورة الكبيرة التي ستؤثر علينا جميعاً أكثر من أي شيء آخر مثل ما إذا كان سيتم بناء خط السكك الحديدية السريعة HS2 أو زيادة ضرائب الدخل أو تخفيضها.

أولاً، هناك ظاهرة الاحتباس الحراري وتغير المناخ. يجتمع مؤتمر Cop28 الدولي في دبي الآن لمناقشة كيفية الحد من انبعاثات الغازات الدفيئة — ما نحتاجه هو خفض الانبعاثات بنسبة 43% بحلول نهاية هذا العقد إذا كان للعالم أن يتجنب متوسط زيادة في درجة الحرارة العالمية أكثر من درجتين مئويتين فوق المستويات السائدة قبل الثورة الصناعية.

ما هي النظريات والسياسات الاقتصادية التي يمكن أن تحقق هذا التخفيض؟ من المثير للقلق أن نعرف كما أشار نيكولاس ستيرن Nicholas Stern، الخبير الاقتصادي الرائد في مجال المناخ في كلية لندن للاقتصاد، إلى أن: "الاقتصاد لم يساهم إلا بأقل القليل في المناقشات المتعلقة بتغير المناخ. على سبيل المثال، لم تنشر المجلة الاقتصادية الفصلية *Quarterly Journal of Economics* المرموقة، وهي حاليًا المجلة الأكثر استشهادًا في مجال الاقتصاد، مقالًا عن تغير المناخ!

ثم هناك قضية الفقر العالمي واتساع فجوة التفاوت في الثروة والدخل بين الدول في جميع أنحاء العالم وداخل الدول. ووفقًا للبنك الدولي، هناك حوالي 3.65 مليار شخص يعيشون على أقل من 6.85 دولار في اليوم. وهناك أكثر من 700 مليون شخص يواجهون الجوع يوميًا. وهناك أكثر من 3 مليار شخص لا يتناولون نظامًا غذائيًا صحيًا، وبالتالي يصابون بالمرض أو السممة أو حتى الهزال. فهل من الصواب من الناحية الأخلاقية، أو حتى من الناحية الاقتصادية الجيدة، أن يمتلك 1% من البالغين في العالم ما يقرب من 50% من إجمالي الثروات الشخصية في العالم، في حين يمتلك الـ 50% الأدنى 1% فقط؟ ماذا يمكننا أن نفعل حيال هذا؟

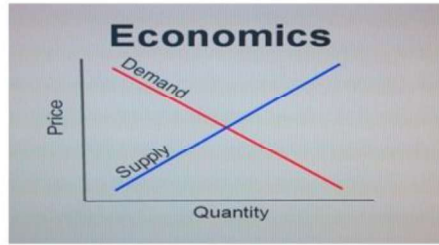
أنغاس ديتون Angus Deaton بريطاني حائز على جائزة نوبل في الاقتصاد وخبير في اقتصاديات الفقر، ويعمل في أمريكا. وفي كتاب له صدر مؤخرًا، قال ديتون بغضب: "يتجاهل التيار الرئيسي من خبراء الاقتصاد عمداً المستويات المتزايدة من التفاوت بين الناس والتأثير المروع الذي يخلفه الفقر، ويزعمون أن هذا ليس من اختصاص الاقتصاد.... هناك اعتقاد لبرتالي *libertarian* قوي للغاية بأن عدم المساواة ليس مجالاً مناسباً للدراسة بالنسبة للاقتصاديين. حتى لو كان لديك ما يدعو للقلق بشأن عدم المساواة، فمن الأفضل أن تظل هادئًا وتتعايش معه."

ثم هناك تكنولوجيا القرن الحادي والعشرين: الروبوتات، والأتمتة، والذكاء الاصطناعي، وخاصة ظهور نماذج تعلم اللغة *language learning models (LLMs)* فائقة الذكاء. هل استخدمت نماذج تعلم اللغة مثل ChatGPT حتى الآن لأغراض الترفيه — ولكن نأمل ألا تكون لكتابة أطروحات تلقائية لأساتذتك؟ ومن الواضح أن أربعة من

كل خمسة مراقبين بريطانيين يستخدمونها في واجباتهم المدرسية، وفقًا لما ذكرته هيئة تنظيم التكنولوجيا (Ofcom (Office of Communications). ماذا يعني كل هذا بالنسبة لفرص وظائف المستقبلية عندما تتخرج؟ هل سيحل الذكاء الاصطناعي محلّك قبل التخرج؟ يقدر بعض الاقتصاديين أن 300 مليون وظيفة ستختفي على مستوى العالم. وهنا مجال حيوي آخر لاقتصاد العالم الحقيقي.

وأختم كلامي بالقول لكم جميعاً: تذكروا أن هناك عالمًا يتجاوز منحنيات العرض والطلب والصيغ الرياضية.

Is this all there is to it?



يمكن قراءة النص الإنجليزي بالنقر على هذا الرابط:

<https://thenextrecession.wordpress.com/2023/12/03/why-real-world-economics-matters/>

* مايكل روبرتس: اقتصادي ماركسي عمل في المركز المالي لمدينة لندن لأكثر من ثلاثين سنة. له مدونة تحمل اسمه: Michael Roberts Blog وهذا هو الرابط للمدونة: <https://thenextrecession.wordpress.com>

مايكل روبرتس: دحض أطروحة دوامة الأجور-الأسعار

نشر النص الإنجليزي للمقال تحت عنوان The wage price spiral refuted في موقع الاقتصادي الماركسي مايكل روبرتس:

<https://thenextrecession.wordpress.com/2022/11/20/the-wage-price-spiral-refuted/>

هل الزيادات "المفرطة" في الأجور تؤدي إلى ارتفاع التضخم وبالتالي تدفع الاقتصادات إلى دوامة الأجور-الأسعار؟ سابقاً وفي عام 1865 دخل ماركس في نقاش، في جمعية العمال العالمية [الأممية الأولى، 1864-1976]، مع عضو مجلس الجمعية توماس ويستون. جادل ويستون، وكان قائد نقابة النجارين، بأن المطالبة بزيادة الأجور لا طائل من ورائها لأن كل ما سيحدث هو أن أرباب العمل سيرفعون أسعارهم للحفاظ على أرباحهم، وبالتالي فإن التضخم سيؤثر بسرعة على القوة الشرائية؛ وستظل الأجور الحقيقية راكدة وسيعود العمال إلى المربع الأول بسبب دوامة الأجور-الأسعار.

رد ماركس بحزم على حجة ويستون. وكان رده، الذي نُشر في النهاية ككراس بعنوان القيمة، السعر والربح [Value, Price and Profit](#)، في الأساس على النحو التالي. أولاً، "تحدث زيادات الأجور عمومًا في مسار ارتفاع الأسعار السابقة" - إنها استجابة للحاق بالركب، وليس بسبب المطالب "المفرطة" وغير الواقعية لأجور أعلى من قبل العمال. ثانياً، ليس ارتفاع الأجور هو سبب ارتفاع التضخم. إذ جادل ماركس أن هناك العديد من الأمور الأخرى التي تؤثر على تغيرات الأسعار: أي "مقدار الإنتاج (معدلات النمو - م.ر-مايكل روبرتس)، القوى الإنتاجية للعمال (نمو الإنتاجية - م.ر.)، قيمة النقود (نمو عرض النقود - م.ر.)، تقلبات الأسعار في السوق (تحديد الأسعار - م.ر.)، والمراحل المختلفة من الدورة الصناعية ("طفرة أو ركود - م.ر.).

علاوة على ذلك، "سيؤدي الارتفاع العام في معدل الأجور إلى انخفاض معدل الربح العام، ولكنه لا يؤثر على أسعار السلع." بعبارة أخرى، من المرجح أن تؤدي زيادة الأجور إلى خفض حصة الدخل التي تذهب إلى الأرباح وبالتالي خفض ربحية رأس المال في نهاية المطاف. وهذا هو السبب الذي يجعل الرأسماليين والمدافعين عنهم من الاقتصاديين يعارضون

زيادة الأجور. إن الادعاء بأن هناك دوامة في الأجور-الأسعار وأن ارتفاع الأجور يتسبب في ارتفاع الأسعار هو ستار أيديولوجي لحماية الربحية.

هل كان ماركس على حق؟ حسنًا، لقد استمر علم الاقتصاد السائد الحديث في الادعاء بأن الزيادات "المفرطة" في الأجور ستؤدي إلى ارتفاع التضخم وخلق دوامة الأجور-الأسعار. خذ هذه الآراء التالية في خضم تصاعد التضخم الحالي. أولاً، هناك البيان الأخير الذي أدلى به أندرو بيلي Andrew Bailey، محافظ بنك إنجلترا [البنك المركزي]. "أنا لا أقول أنه لا أحد يحصل على زيادة في الراتب، لا تفهموني خطأ. لكن ما أقوله هو أننا بحاجة إلى التحلي بضبط النفس في المساومة على الأجور pay bargaining، وإلا فإنها ستخرج عن نطاق السيطرة."

أو حتى بشكل أكثر وضوحًا واتباعًا لحجة توماس ويستون منذ أكثر من 150 عامًا، ما صاغه جيسون فيرمان Jason Furman، المستشار الاقتصادي السابق للرئيس الأمريكي أوباما، بالطريقة التالية. "عندما ترتفع الأجور فإن ذلك يؤدي إلى ارتفاع الأسعار. إذا ارتفعت أسعار وقود الطائرات أو مكونات الطعام، فإن شركات الطيران أو المطاعم ترفع أسعارها. وبالمثل، إذا ارتفعت أجور المضيفات أو النواذل في المطاعم، فإنهم يرفعون الأسعار أيضًا. إن هذا الوضع ينبع من الحس الجزئي والحس المشترك الأساسي basic micro & common sense."

حسنًا، قد ينبع ذلك من "الجزئي والحس المشترك الأساسي" في علم الاقتصاد السائد. لكنه مجرد خطأ واضح. وفي هذا الأسبوع، قام صندوق النقد الدولي بتجميع تحليل بيانات شاملة لحركة ارتفاع الأجور والأسعار [the IMF has compiled a comprehensive data analysis](#) يدحض بيلي وفيرمان. يتعامل صندوق النقد الدولي مع هذه الأسئلة من خلال وضع تعريف تجريبي لدوامة الأجور-الأسعار وتطبيق ذلك على قاعدة بيانات عبر الاقتصادات لأحداث ماضية episodes بين الاقتصادات المتقدمة التي تعود إلى الستينيات. أي يمتد إلى أكثر من 60 عامًا وفي العديد من البلدان.

ماذا وجد صندوق النقد الدولي: "من الصعب العثور على دوامات الأجور-الأسعار، تُعرّف على الأقل على أنها تسارع مستمر للأسعار والأجور، في السجل التاريخي الحديث. من بين 79 حدث تم تحديدها بالارتباط مع ارتفاع الأسعار والأجور التي تعود إلى الستينيات، شهدت أقلية فقط منها

مزيداً من التسارع بعد الربع الثامن eight quarters. علاوة على ذلك، من الصعب العثور على تسارع مستدام في الأجور-الأسعار عند النظر إلى أحداث مماثلة اليوم، حيث انخفضت الأجور الحقيقية بشكل كبير. في تلك الحالات، تميل الأجور الاسمية إلى اللحاق بالتضخم للتعافي جزئياً من خسائر الأجور الحقيقية، ومالت معدلات النمو إلى الاستقرار عند مستوى أعلى مما كانت عليه قبل حدوث التسارع الأولي. لقد كانت معدلات نمو الأجور في نهاية المطاف متوافقة مع التضخم ولوحظ تشدد سوق العمل. لا يبدو أن هذه الآلية تؤدي إلى ديناميكيات تسريع مستمرة يمكن وصفها بأنها دوامة الأجور-الأسعار."

وهناك المزيد: "نحن نعرّف دوامة الأجور-الأسعار على أنها حدث شهد على الأقل ثلاثة من كل أربعة فصول متتالية تسارعاً في أسعار المستهلك وارتفاع الأجور الاسمية." ووجد صندوق النقد الدولي أنه "ربما كان من المدهش أن أقلية صغيرة فقط من مثل هذه الأحداث قد أعقبها تسارع مستمر في الأجور والأسعار. وبدلاً من ذلك، مال التضخم ونمو الأجور الاسمي إلى الاستقرار، تاركين نمو الأجور الحقيقي دون تغيير على نطاق واسع. يشير تحليل ديناميكيات الأجور باستخدام منحنى فيليبس للأجور إلى أن نمو الأجور الاسمي يستقر عادة عند مستويات تتوافق مع التضخم الملحوظ وتشدد سوق العمل. عند التركيز على الأحداث التي تحاكي النمط الأخير المتمثل في انخفاض الأجور الحقيقية وتشديد أسواق العمل، يلاحظ أن انخفاض التضخم والنمو الاسمي في الأجور كانا يميلان إلى اتباعهما [أي اتباع انخفاض الأجور وتشدد سوق العمل] - وبالتالي السماح للأجور الحقيقية باللحاق بالركب."

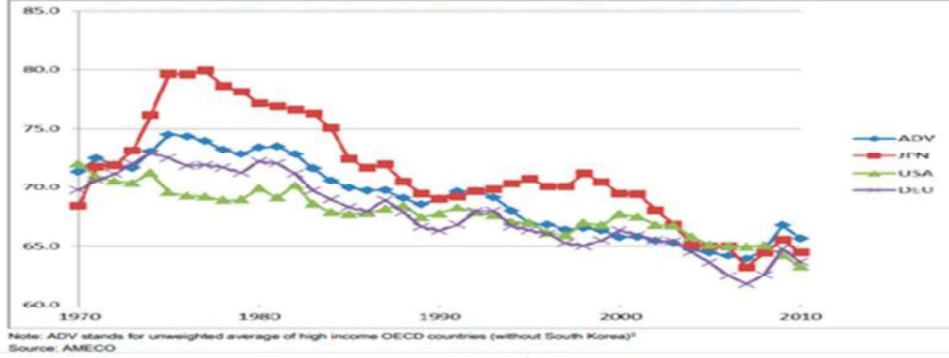
ماذا يستنتج صندوق النقد الدولي؟ "نستنتج أن تسريع الأجور الاسمية لا ينبغي بالضرورة أن يُنظر إليه على أنه علامة على أن دوامة الأجور-الأسعار تترسخ." في فترات التضخم، تحاول الأجور فقط اللحاق بالأسعار. ولكن حتى في ذلك الوقت، فإن ارتفاع الأجور لا يسبب دوامات في الأجور-الأسعار — وهكذا تأكدت وجهة نظر ماركس.

وإذا كنت تريد دليلاً فورياً على ذلك، فاستعن بتسوية الأجور هذا الأسبوع [this week's wage settlement](#) بين أرباب العمل الصناعيين الألمان واتحاد العمال IG Metall، الأكبر في ألمانيا. وفق هذه التسوية سيحصل العمال على زيادات في أجورهم هي أقل بكثير من معدل التضخم في ألمانيا، والذي يبلغ حالياً أعلى مستوى في 70 عامًا عند 11.6 في

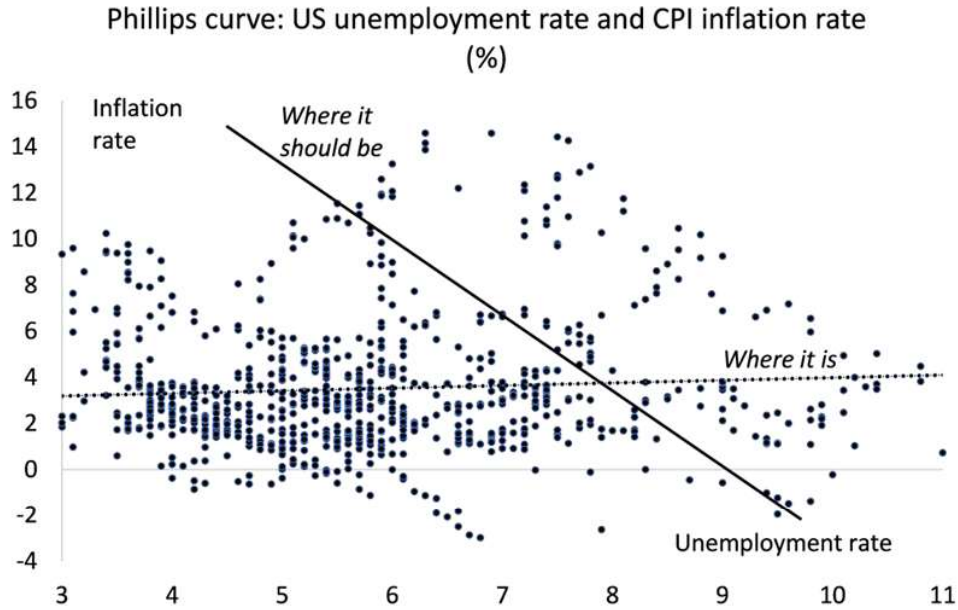
المائة، وسيحصلون على 5.2 في المائة في العام المقبل و 3.3 في المائة في عام 2024، بالإضافة إلى دفعتين بمبلغ إجمالي قدره 1500 يورو. قال يورگ كرامر Jörg Krämer، كبير الاقتصاديين في كومرس بنك Commerzbank، إن النقابات وأرباب العمل "توصلوا إلى حل وسط بشأن كيفية التعامل مع خسائر الدخل الناجمة عن الارتفاع الحاد في تكاليف واردات الطاقة". وأضاف: "ما كنت لأسمي هذا حتى الآن دوامة الأجور-الأسعار". في الواقع لا، لأن حتى أفضل العمال تنظيماً في ألمانيا سيتعين عليهم قبول التخفيضات في قوتهم الشرائية خلال العامين المقبلين.

يؤكد تحليل صندوق النقد الدولي فقط الكثير من الأعمال التجريبية الأخرى التي تم القيام بها سابقاً. في الواقع، كانت الأجور كحصة من الناتج المحلي الإجمالي في جميع الاقتصادات الرئيسية في انخفاض منذ الثمانينيات. بدلا من ذلك، ارتفعت حصة الأرباح. وطوال الفترة حتى عام 2019، ظلت معدلات التضخم لا تزيد عن 2-3% سنوياً.

Figure 1. Adjusted wage shares in advanced countries, Germany, the USA and Japan, 1970-2010



أيضاً، يبدو أنه لا توجد علاقة عكسية بين التغيرات في الأجور والأسعار والبطالة – فمنحنى فيليبس الكينزي الكلاسيكي الذي يزعم بوجود هذه العلاقة قد ثبت بأنها خاطئة. في الواقع، لوحظ هذا في السبعينيات عندما ارتفعت البطالة والأسعار معاً. وتظهر أحدث التقديرات التجريبية أن منحنى فيليبس مسطح على نطاق واسع – وبعبارة أخرى، لا توجد علاقة بين الأجور والأسعار والبطالة. ليس هناك دوامة أجور-أسعار.



على الرغم من هذه الأدلة التي تدحض دوامة الأجور-الأسعار، يواصل الاقتصاد السائد والسلطات الرسمية الادعاء بأن هذا هو الخطر الرئيسي للتضخم المستمر. والسبب في ذلك ليس حقًا لأن المدافعين الاقتصاديين عن الرأسمالية يعتقدون أن ارتفاع الأجور يسبب التضخم. ذلك لأنهم يريدون "ضبط الأجور" في مواجهة التضخم المتصاعد من أجل حماية الأرباح والحفاظ عليها. ولتحقيق هذا الهدف، فإنهم يدعمون رفع أسعار الفائدة من قبل البنوك المركزية التي من شأنها أن تسرع الاقتصادات في حالة ركود - قادم في العام المقبل.

كما قال جاي باول Jay Powell، رئيس مجلس الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي: "من حيث المبدأ ... ، من خلال تعديل moderating الطلب، يمكننا ... خفض الأجور ثم خفض التضخم دون الاضطرار إلى إبطاء الاقتصاد والركود وارتفاع معدل البطالة ماديًا. لذلك هناك طريق لذلك." والأكثر وضوحًا هو أن المعلم الكينزي وكاتب العمود في فاينانشيال تايمز، مارتن [وولف Martin Wolff] طالب: "ما يتعين على [محافظي البنوك المركزية] فعله هو منع دوامة الأجور-الأسعار، التي من شأنها زعزعة استقرار توقعات التضخم. يجب أن تكون السياسة النقدية محكمة بما يكفي لتحقيق ذلك. بمعنى آخر، يجب أن تخلق/تحافظ على بعض الركود في سوق العمل.

لذا فإن الهدف الحقيقي من زيادات أسعار الفائدة ليس وقف دوامة الأجور-الأسعار ولكن زيادة البطالة وإضعاف القدرة التفاوضية للعمال. أتذكر هنا تعليق آلن بود Alan Budd، كبير المستشارين الاقتصاديين لرئيس الوزراء البريطاني مارغريت تاتشر في ثمانينيات القرن الماضي: "ربما كان هناك أشخاص يتخذون القرارات السياسية الفعلية ... الذين لم يصدقوا أبدًا للحظة أن هذه هي الطريقة الصحيحة لتقليص التضخم. ومع ذلك، فقد رأوا أن [المذهب النقدي] سيكون وسيلة جيدة للغاية لرفع [مستوى] البطالة، وكانت زيادة البطالة وسيلة مرغوبة للغاية لتقليل قوة الطبقات العاملة."

* مايكل روبرتس، اقتصادي ماركسي بريطاني.

مايكل روبرتس: اقتصاد المنافع الهابطة من القمة إلى القاع¹

نشر النص الإنجليزي للمقال في موقع الاقتصادي الماركسي مايكل روبرتس:

<https://thenextrecession.wordpress.com/2022/09/30/trickle-down-economics/>

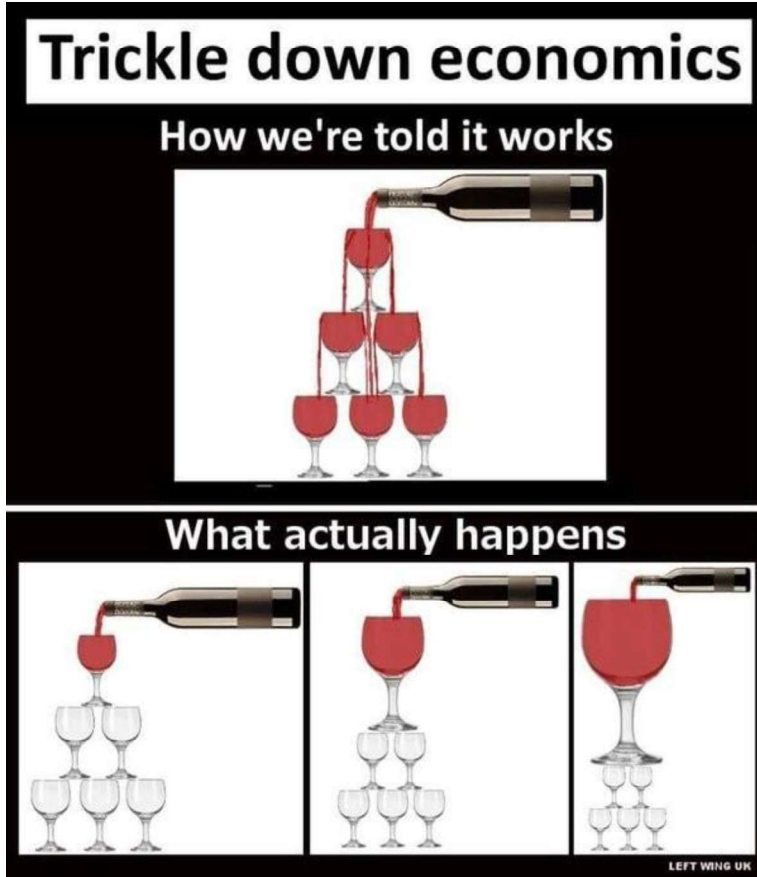
تسببت السياسات الاقتصادية لحكومة المملكة المتحدة في عهد رئيسة الوزراء الجديدة ليز تراس في إثارة ضجة، ليس فقط بين اليساريين، ولكن أيضاً بين الاقتصاديين العاديين. تقول الحكومة الجديدة إن الحل للركود والفشل في الإنتاج الرأسمالي البريطاني هو خفض الضرائب على الأغنياء والشركات الكبرى، إذ سيكون الدخل الإضافي المتدفق إليهم متاحاً بعد ذلك لتعزيز الاستثمار والإنفاق الذي يمكن أن يحقق النمو الاقتصادي.

هذا الحل هو عودة إلى فكرة قديمة جداً في علم الاقتصاد الكلاسيكي الجديد: اقتصاد المنافع الهابطة من القمة إلى القاع. نشأ هذا المصطلح على شكل مزحة من قبل الفكاهي ويل روجرز [Will Rogers](#) الذي استخدمه لانتقاد السياسات الاقتصادية التي تُفضل الأثرياء أو أصحاب الامتيازات بينما يتم تأطيرها على أنها تحمل منافع للمواطن العادي.

¹ ليس هناك ترجمة عربية مستقرة لما يعرف بالـ trickle down economics فتارة هو اقتصاد أو نظرية المنافع الهابطة من القمة إلى القاع، وتارة هو نظرية التقطر البطيء (للمنافع)، أو المنافع المترشحة، أو تدرج المنافع، أو تدفق المنافع إلى الأسفل، أو نظرية الأثر الانتشاري.

سنعتمد في هذه الترجمة بشكل عام "اقتصاد أو نظرية المنافع الهابطة من القمة إلى القاع"، واختصاره باقتصاد أو نظرية المنافع الهابطة.

أبقينا على جميع الروابط الأصلية في النص المترجم كي يستطيع القارئ المهتم الرجوع إلى المصادر التي استخدمها كاتب المقال.



غالبًا ما يُنظر إلى اقتصاد المنافع الهابطة من القمة إلى القاع على أنه جزء مما يسميه الاقتصاديون "سياسات اقتصاد العرض" [supply-side economic policies](#) التي تجادل بأن مشكلة الإنتاج الرأسمالي هي الفشل في الإنتاج، وليس الطلب. ما يريده المدافعون عن هذه السياسات هو قوة عاملة "مرنة" وإنتاجية أعلى من زيادة الاستثمار؛ وليس إدارة الطلب الكلي التي يدعي الكينزيون أنها الحل.

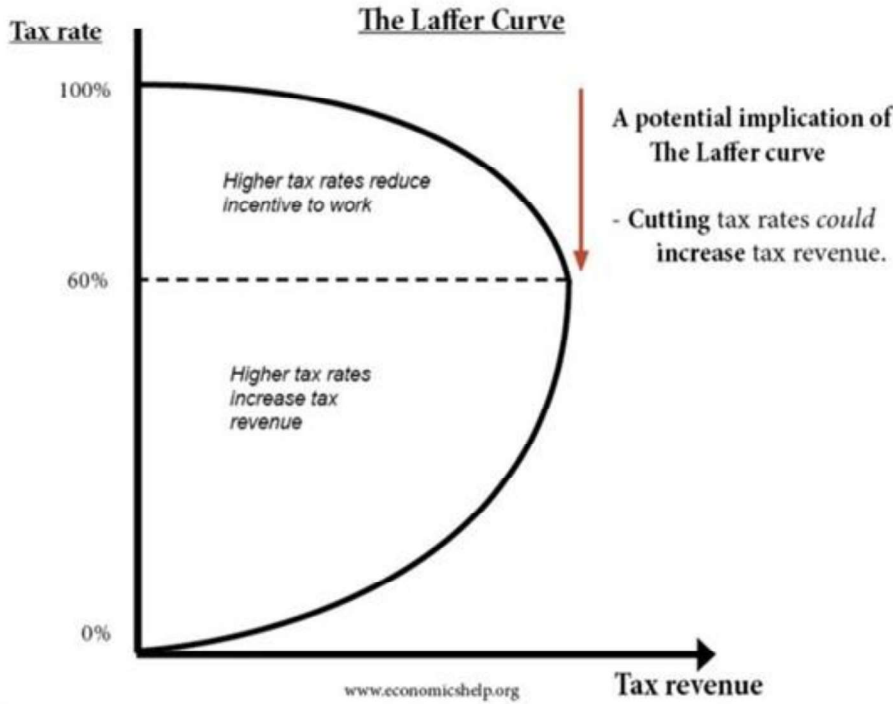
على وجه الخصوص، تؤيد نظرية المنافع الهابطة بشكل أكثر تحديدًا سياسة فرض عبء ضريبي أقل على الشرائح العليا من الطيف الاقتصادي [economic spectrum](#) من أجل زيادة الدخل لأولئك الذين سيدخرون ويستثمرون أكثر. هذا مجرد حديث عن زيادة أرباح الشركات على حساب الأجور من أجل تشجيع الاستثمار. ووفق النظرية سوف تتدفق زيادة الدخل والأرباح للأثرياء في النهاية إلى باقي الشرائح الأخرى عندما ينفق الأثرياء أموالهم أو يستثمرونها في أعمالهم.

يرفض الاقتصاديون البارزون في جانب العرض مثل توماس سويل [Thomas Sowell reject 'trickle down'](#) نظرية "المنافع الهابطة" كجزء من السياسات أو النظرية الاقتصادية القائمة على العرض. يقول سويل: "دعونا نفعل شيئاً غير متوقع تماماً: دعنا نتوقف ونفكر. لماذا يدافع أي شخص عن "إعطاء" شيء ما لـ "أ" على أمل أن يهبط [هذا الشيء] إلى "ب"؟ لماذا بحق لا يقوم أي شخص عاقل بإعطاء الشيء لـ "ب" ويلغي دور الوسيط؟ لكن كل هذا محل نقاش، لأنه لم تكن هناك نظرية للمنافع الهابطة حول إعطاء شيء ما لأي شخص في المقام الأول."

إن النظرية هي حقاً وليدة اقتصادية لفلسفة اليمين المتطرف لآين راند [Ayn Rand](#)، الأمريكية التي تعتقد أن الأغنياء يجب أن يحكموا دون قيود، ويجب أن تتبعهم الجماهير التي لا تعرف أي شيء، وأن الجشع أمر جيد. في الواقع، تغلغت هذه الفلسفة في أوساط المستشارين الاقتصاديين الجدد لرئيسة وزراء بريطانيا. أحد هؤلاء هو ماثيو سنكلير، الرئيس التنفيذي السابق لما يسمى جمعية تحالف دافعي الضرائب اليميني الممولة من قبل مانحين أجانب غير معروفين. كتب سنكلير كتاباً بعنوان **دعهم يأكلون الكربون**، قدم فيه حججاً ضد اتخاذ إجراءات لمنع الانهيار المناخي. وادعى أن: "المناطق الاستوائية قد تعاني، ولكن من الممكن تماماً أن يتم موازنة ذلك بمناطق مثل غرينلاند." حسناً، أولئك الموجودين في شمال الكرة الأرضية سيكونون بخير، حتى لو غرق أو احترق بلايين من الفقراء في جنوب الكرة الأرضية.

ومع ذلك، فإن النظرية القائلة بأن خفض ضرائب الدخل غالباً ما تحظى بدعم التيار الليبرالي السائد. فقد جادل جون إف كينيدي بأن معدلات الضرائب يمكن أن تكون مرتفعة للغاية بحيث يمكن أن يكون لها تأثير سلبي على الاقتصاد. في خطاب ألقاه أمام الكونغرس عام 1962 قال جون كينيدي، "إنها حقيقة متناقضة أن معدلات الضرائب مرتفعة للغاية اليوم وأن الإيرادات الضريبية منخفضة للغاية وأن أفضل طريقة لزيادة الإيرادات على المدى الطويل هي خفض المعدلات الآن." وقال جون مينارد كينز، في عام 1933، إن "الضرائب قد تكون عالية جداً بحيث أن هدفها يؤدي إلى غير ما هو مرجو منها"، وأن تخفيض معدل الضريبة على المدى الطويل "سيحظى بفرصة أفضل، بدلاً من الزيادة [زيادة الضريبة]، لموازنة الدخل."

ولكن هل هو صحيح أن خفض الضرائب يمكن أن يؤدي في الواقع إلى زيادة الإيرادات الحكومية بدلاً من تقليصها؟ تستطيع أن تدرك [ما تنطوي عليه] النظرية. يعتقد المدافعون اليمينيون عنها أن خفض الضرائب على الأغنياء سيجلب المزيد من الاستثمار والإنفاق وبالتالي المزيد من الوظائف والدخل للجميع، أي النمو الذي يقوده العرض. ويعتقد المدافعون الليبراليون أن خفض الضرائب (لجميع) سيعني "ارتفاعاً متوسطاً" [للدخل] حيث يرتفع متوسط الدخل وسيكون هناك المزيد من الإنفاق. وأن هذا الطلب الإضافي سيؤدي إلى توسع الأعمال: أي النمو الذي يقوده الطلب. ولكن ما هو الدعم التجريبي لـ "المنافع الهابطة" أو حتى "الارتفاع المتوسط" [للمنافع]؟ كان آرثر لافر Arthur Laffer، المدافع الاقتصادي الرائد عن النظرية القائلة بأن خفض الضرائب سيؤدي إلى مزيد من النمو، وبالتالي المزيد، وليس القليل، من الإيرادات الحكومية.² لكن حتى لافر كان يعتقد أن هذا صحيح فقط إذا كانت معدلات الضرائب أعلى من 50%. ويعتقد آخرون أن الأصح هو إذا كانت معدلات الضرائب أكثر من 70%.



في الواقع، في الخمسينيات من القرن الماضي، وصلت معدلات ضريبة الدخل الشخصي إلى 80-90% في فئة أعلى المعدلات. ولا يبدو أن هذه

² في إحدى مقالاته المنشورة في موقع شبكة الاقتصاديين العراقيين كتب الدكتور مظهر محمد صالح عن آرثر لافر ونظريته، لكنني لم أستطع الوصول إلى مقالته ليتعرف القارئ عليه.

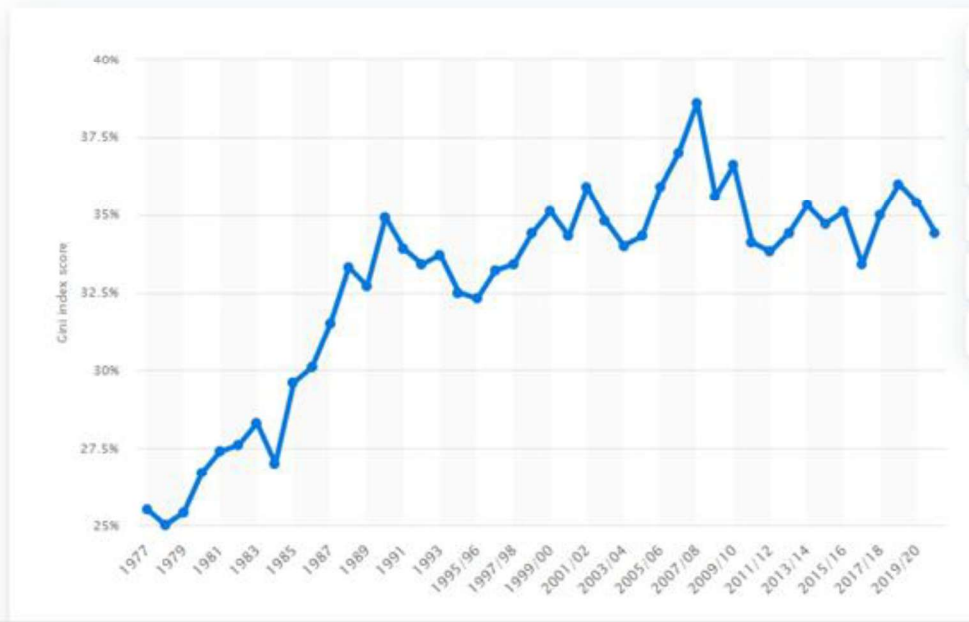
المعدلات أثّرت على معدلات النمو التي كانت الأسرع في التاريخ الاقتصادي الرأسمالي في أمريكا الشمالية وأوروبا في ذلك الوقت. ومع ذلك، تدّعي الحكومة البريطانية الجديدة الآن أن خفض المعدل الأعلى، المنخفض أصلاً، من 45% إلى 40% سيعزز النمو والإيرادات.

في الواقع، ليس هناك دليل تجريبي لـ "نظرية المنافع الهابطة أو منحني لافر". لقد توصل التحليل الذي نشرته خدمة أبحاث الكونغرس في عام 2012 [Congressional Research Service](#) أن التخفيضات في معدلات الضرائب المرتفعة لم تكن مرتبطة بالنمو الاقتصادي، وبدلاً من ذلك، كانت أكثر ارتباطاً بزيادة عدم المساواة في الدخل. وتشير دراسة أجرتها شبكة العدالة الضريبية [Tax Justice Network](#) في عام 2012 إلى أن ثروة فاحشي الثراء لا تترشح للقاع لتحسين الاقتصاد، ولكنها بدلاً من ذلك تميل إلى تجميعها وحمايتها في ملاذات ضريبية [tax havens](#) مع تأثير سلبي على الأسس الضريبية للاقتصاد الوطني. وجاء في ورقة بحثية أعدها باحثون من صندوق النقد الدولي عام 2015 [International Monetary Fund](#) بأنه لم يكن هناك ترشح للمنافع نحو القاع مع ازدياد ثراء الأغنياء: "إذا زادت حصة الدخل لأعلى 20 في المائة (الأغنياء)، فإن نمو الناتج المحلي الإجمالي ينخفض فعلياً على المدى المتوسط، مما يشير إلى أن الفوائد لا تتدفق إلى القاع. في المقابل، ترتبط الزيادة في حصة الدخل لأدنى 20 في المائة (الفقراء) بارتفاع نمو إجمالي الناتج المحلي."

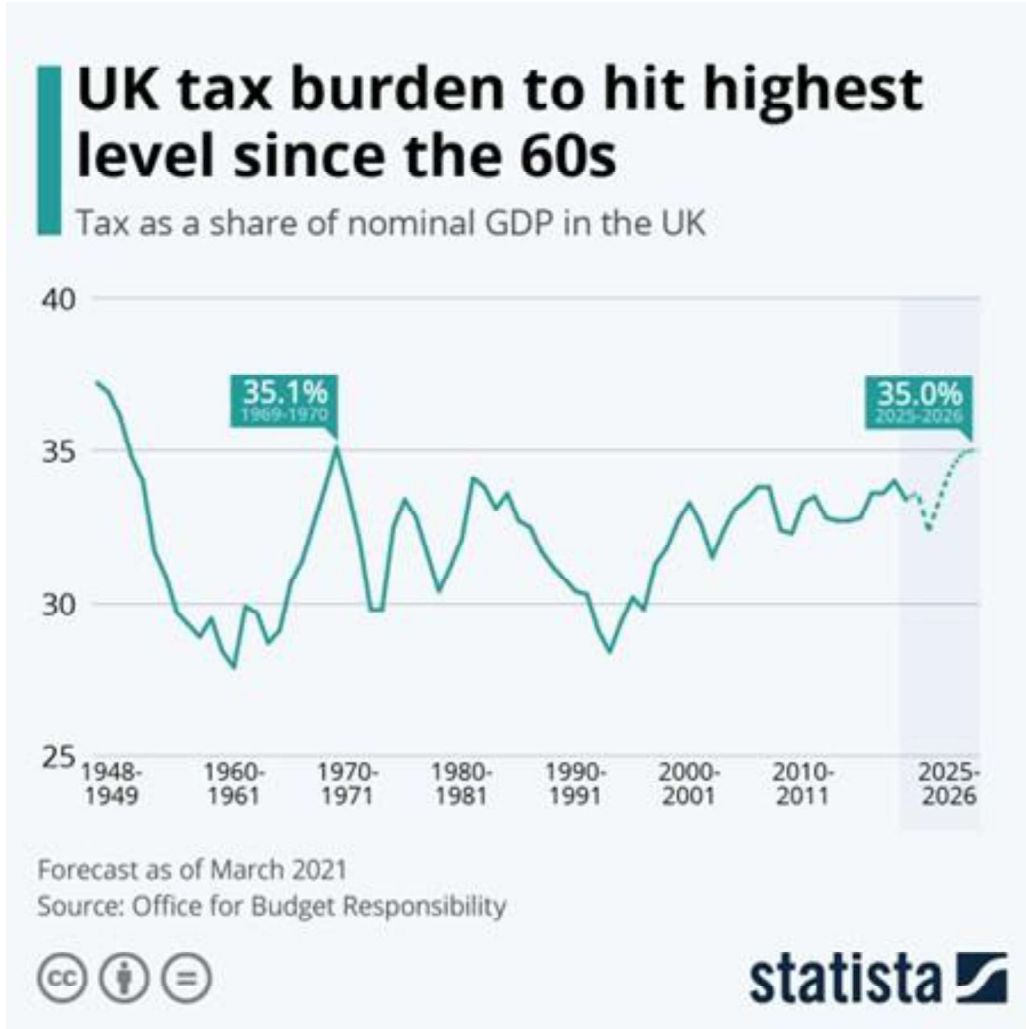
وجدت دراسة أجريت عام 2019 في مجلة الاقتصاد السياسي [Journal of Political Economy](#) تناقضاً لادعاءات نظرية نزول المنافع نحو القاع القائلة بأن "العلاقة الإيجابية بين التخفيضات الضريبية ونمو العمالة مدفوعة إلى حد كبير بالتخفيضات الضريبية للفئات ذات الدخل المنخفض وأن تأثير التخفيضات الضريبية على أعلى 10 في المائة من نمو العمالة صغير." أخيراً، قارنت ورقة عمل لعام 2020 أعدتها كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية نتائج البلدان التي أقرّت تخفيضات ضريبية في سنة معينة مع تلك التي لم تفعل ذلك، على مدى خمسة عقود من 1965 إلى 2015 في 18 دولة عضو في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية [Organisation for Economic Co-operation and Development](#). ووجدت أنه خلافاً لادعاءات نظرية المنافع الهابطة إلى القاع، فإن التخفيضات الضريبية للأثرياء لم يكن لها "تأثير كبير على التوظيف أو النمو الاقتصادي." إذ لم يجدوا أي دليل على أن التخفيضات أدت إلى "استجابات عرض العمالة" من الأفراد ذوي الدخل المرتفع (أي "تؤدي إلى المزيد من

ساعات العمل، والمزيد من الجهد، وما إلى ذلك") التي عززت النشاط الاقتصادي. ومن ناحية أخرى، وجدت دليلاً على زيادة "كبيرة" في عدم المساواة في الدخل. "لقد أدت التخفيضات الضريبية الكبيرة للأثرياء إلى زيادة حصة الـ 1% في القمة من الدخل القومي قبل الضرائب في السنوات التي أعقبت الإصلاح. إن حجم التأثير كبير؛ في المتوسط، فإن كل إصلاح رئيسي يؤدي إلى زيادة حصة الـ 1% في القمة من الدخل القومي قبل الضرائب بمقدار 0.8 نقطة مئوية." في الواقع، ارتفع التفاوت في الدخل إلى أقصى حد عندما قامت مارغريت تاتشر، بطلة رئيس الوزراء ليز تراس، بتخفيض الضرائب الشخصية وضرائب الشركات من 1979 إلى 1990.

Gini coefficient of the United Kingdom from 1977 to 2021



لم تؤد هذه التخفيضات الضريبية إلى نمو أسرع مما كانت عليه في فترة العصر الذهبي 1948-1964 عندما كانت معدلات الضرائب مرتفعة؛ ومن المفارقات أن العبء الضريبي كنسبة مئوية من الناتج المحلي الإجمالي لم ينخفض أيضاً لأن الناتج المحلي الإجمالي لم يرتفع بما يكفي لتجاوز الإيرادات المتزايدة من الضرائب الأخرى.



من وجهة نظري، من الواضح أن مجرد خفض ضريبة الدخل الشخصي أو حتى ضريبة أرباح الشركات لن يكون له تأثير يذكر على النمو الاقتصادي. ما يهم لتحقيق النمو هو زيادة إنتاجية العمل وهذا يعتمد على زيادة الاستثمار في التكنولوجيا. وهذا بدوره، في ظل الرأسمالية، يعتمد على زيادة الأرباح والربحية. إذا كانت الأرباح والربحية تميل إلى الانخفاض أو متدنية، فحتى التعديلات الكبيرة في ضريبة الدخل سيكون لها تأثير محدود مقارنة بالتغيرات في الربحية الإجمالية. وعلينا أن نتذكر أن الجزء الأكبر من عائدات الضرائب لم يعد يأتي من الضرائب الشخصية أو ضرائب الشركات، ولكن من ضرائب المبيعات أو القيمة المضافة والرسوم الجمركية وخصومات الضمان الاجتماعي وما يسمى بالضرائب المتخفية³. stealth taxes

³ للتعريف بهذه الضريبة راجع: <https://www.investopedia.com/terms/s/stealth-taxes.asp>

جادل صندوق النقد الدولي بأن "زيادة حصة الدخل للفقراء والطبقة الوسطى يزيد النمو فعلياً" وأنه "المعالجة عدم المساواة ... يجب أن تركز السياسات على زيادة رأس المال البشري والمهارات وجعل الأنظمة الضريبية أكثر تقدمية ...". إن ما يقوله صندوق النقد الدولي هنا نصفه على حق ونصفه على خطأ. قد يؤدي خفض الضرائب على العاملين إلى الحد بشكل هامشي من عدم المساواة في الدخل ولكن النمو الاقتصادي لا يعتمد على ارتفاع دخل الأسرة أو الإنفاق ولكن على الأرباح والاستثمار. إن السبب والنتيجة، هو من الأرباح إلى الاستثمار والنمو، وليس من الإنفاق إلى الأرباح والنمو. هبوط المنافع إلى الأسفل أو ارتفاعها المتوسط؟ لا يمكن لأي منهما أن يحدث تغييراً كبيراً عندما يتعلق الأمر بالنمو الاقتصادي.

* مايكل روبرتس، اقتصادي ماركسي بريطاني.

مايكل روبرتس: الأشياء غير الملموسة: هل تغير الأشياء؟

أثار مقال نُشر مؤخرًا في صحيفة فايننشال تايمز البريطانية¹ حماسًا كبيرًا بشأن صعود الأصول غير الملموسة.² وصرح الكاتب تيك باروخ Tek Parikh بأنه

"قبل 50 عامًا، كانت الأصول التي تمتلكها أكبر 500 شركة أمريكية في الغالب "لملموسة" — مصانع ومعدات ومخزون وما إلى ذلك. أما اليوم، فيُقدَّر أن معظم أصولها "غير ملموسة"، أي الملكية الفكرية (المعرفة والبرمجيات)، وقيمة العلامة التجارية، وشبكات التسويق."

في الولايات المتحدة، تجاوز الإنفاق على الأصول غير الملموسة الاستثمارات الملموسة كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي في أواخر التسعينيات، وقد اتسعت الفجوة منذ ذلك الحين.



¹ [A recent article in the UK's Financial Times](#)

² [intangibles](#)

في الواقع، هذا الخبر ليس جديدًا. ففي عام 2017، كتب جوناثان هاسكل من إمبريال كوليدج Jonathan Haskel of Imperial College وستيان ويستليك من نيسا Stian Westlake of Nesta كتابًا بعنوان "رأسمالية بلا رأس مال: صعود الاقتصاد غير الملموس".³ وأوضح حينها أن الاستثمار في الأصول غير الملموسة بدأ يتجاوز الاستثمار الملموس بحلول منتصف التسعينيات، على الأقل في الولايات المتحدة.

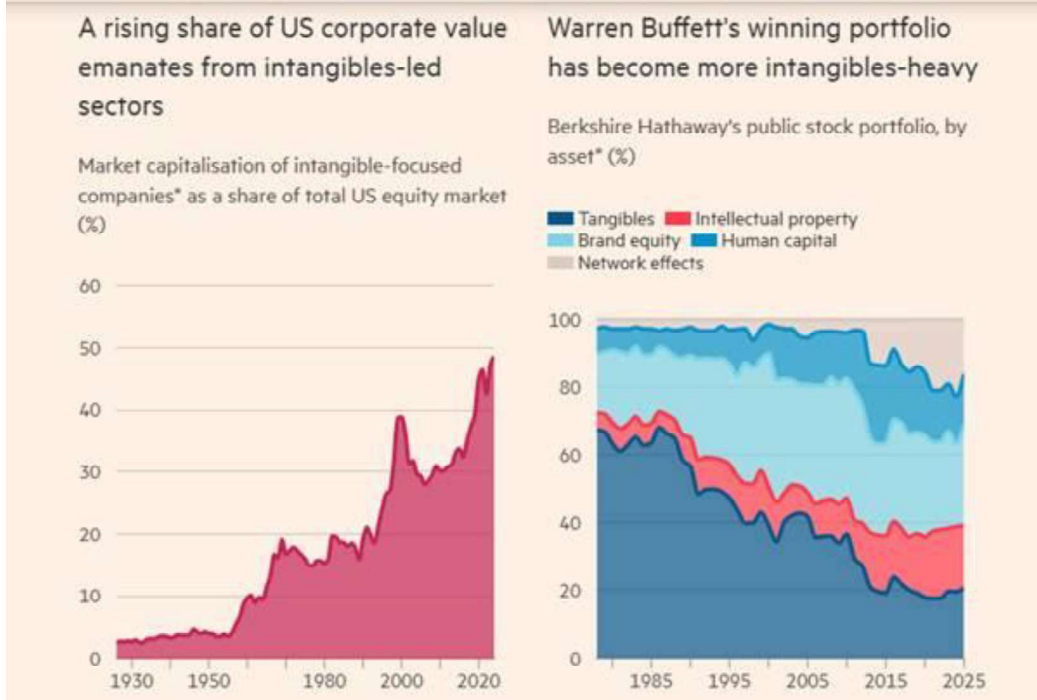
جادل هاسكل ويستليك بأن التأثير الرئيسي للاستثمار غير الملموس، مثل حقوق الملكية الفكرية، قد أدى إلى تفاقم عدم المساواة بين الرأسماليين.⁴ فمن خلال حقوق الملكية الفكرية، احتكرت الشركات الرائدة تطوير الأفكار والبحوث والتصاميم، وعرقلت أي "انتشار" 'spillover' لها. وهذا يفسر صعود الشركات السبعة الكبرى وشركات الأدوية الكبرى التي حققت أرباحًا طائلة، وحمتها بحقوق الاحتكار (الملكية الفكرية) على حساب ربحية الآخرين.

يقدم باروخ أحدث الأدلة على ذلك. فقد وجدت المنظمة العالمية للملكية الفكرية (الويبو) World Intellectual Property Organisation (WIPO) أن الأصول غير الملموسة تُشكل 90% من إجمالي قيمة الشركات الأمريكية الخمس عشرة الأكبر، وهي نسبة أعلى بكثير من قيمة قطاع الشركات الأمريكي الأوسع.

³ [Capitalism without Capital, the rise of intangible economy](#)

(المترجم) National Endowment for Science, Technology and the Arts (NESTA)

⁴ [Haskel and Westlake argued that the main impact of intangible investment like intellectual property rights \(IPR\) had led to increased inequality between capitalists.](#)



في مقاله في صحيفة فايننشال تايمز، يُجادل باريخ بحماس قائلاً:

"يساعد هذا التحول في تفسير أربع سمات سائدة في سوق الأسهم الأمريكية: التركيز العالي، والاستثنائية، والتقلب، والتقييمات الفقاعية." *concentration, exceptionalism, volatility and bubble like valuations*

ويشير إلى أن سوق الأسهم الأمريكية قد لا يكون مُبالغًا في تقييمه مقارنةً بالاستثمار الإنتاجي إذا ما أخذت الأصول غير الملموسة في الاعتبار بشكل صحيح. ويُقدّر وو من سباركلاين⁵ Wu of Sparkline أن احتساب الأصول غير الملموسة سيُخفّض أي تقدير مبالغ فيه بنسبة تتراوح بين 25 و50%. ويُضيف:

"مع أن السوق ليس رخيصًا بأي حال من الأحوال، فبمجرد منح الشركات الائتمان مقابل أصولها غير الملموسة، تبدو التقييمات أقل زيفًا بكثير مما تُوحي به العناوين الرئيسية."

⁵ شركة متخصصة بالتحليلات الرقمية. (المترجم)

والأهم من ذلك، أن عدم احتساب الأصول غير الملموسة يعني على الأرجح أن نمو الإنتاجية في الولايات المتحدة مُقدَّر بأقل من قيمته الحقيقية. وتقدر المنظمة العالمية للملكية الفكرية أن "الأصول غير الملموسة غير المقاسة" بلغت حوالي 2.7 تريليون دولار أمريكي بالقيمة الحالية العام الماضي في الولايات المتحدة، وكانت ستضيف أكثر من 0.2 نقطة مئوية إلى متوسط معدل نمو إنتاجية العمل في أمريكا بين عامي 2010 و2024 لو أدرجت في الناتج المحلي الإجمالي.

ولكن الاستنتاج القائل بأن الاستثمار غير الملموس سوف يغير أسلوب التراكم في الإنتاج الرأسمالي (هاسكل وويستليك)، ويقلل من المبالغة في تقييم سوق الأسهم (باريخ) ويرفع الإنتاجية (المنظمة العالمية للملكية الفكرية) يبدو لي مبالغاً فيه إلى حد كبير.

النقطة الأساسية هي أن الاستثمار في الأصول غير الملموسة يتطلب الاستثمار في الأصول الملموسة لتحقيق المزيد من الأرباح. وكما عبّر إد كونواي Ed Conway في كتابه الأخير "العالم المادي"⁶:

"على الرغم من كل ما قيل لنا، فإننا نعيش في عالم يتجه نحو اللا ماديّة *dematerialised* بشكل متزايد، حيث تكمن قيمة متزايدة في العناصر غير الملموسة — التطبيقات والشبكات والخدمات الإلكترونية — إلا أن العالم المادي لا يزال يدعم كل شيء آخر... فكل شيء تقريباً، من شبكات التواصل الاجتماعي إلى تجارة التجزئة والخدمات المالية، يعتمد كلياً على البنية التحتية المادية التي تُسهّلها وعلى الطاقة التي تُشغّلها. لولا الخرسانة والنحاس والألياف الضوئية، لما وُجدت مراكز بيانات، ولا كهرباء، ولا إنترنت. أجرؤ على القول إن العالم لن ينتهي إذا اختفى تويتر أو إنستغرام فجأة؛ أما إذا نفذ مخزوننا من الفولاذ أو الغاز الطبيعي فجأة، فسيكون الأمر مختلفاً تماماً."

لا يزال الجزء الأكبر من الاقتصاد العالمي يعتمد على إنتاج الأشياء، "الأشياء" التي يمكن تحويلها إلى سلع من خلال عمل مليارات البشر.⁷

⁶ [Material World:](#)

⁷ [The vast bulk of the world economy is still built on the production of things, 'stuff' that can be commodified from the labour of billions.](#)

يُتابع كونواي:

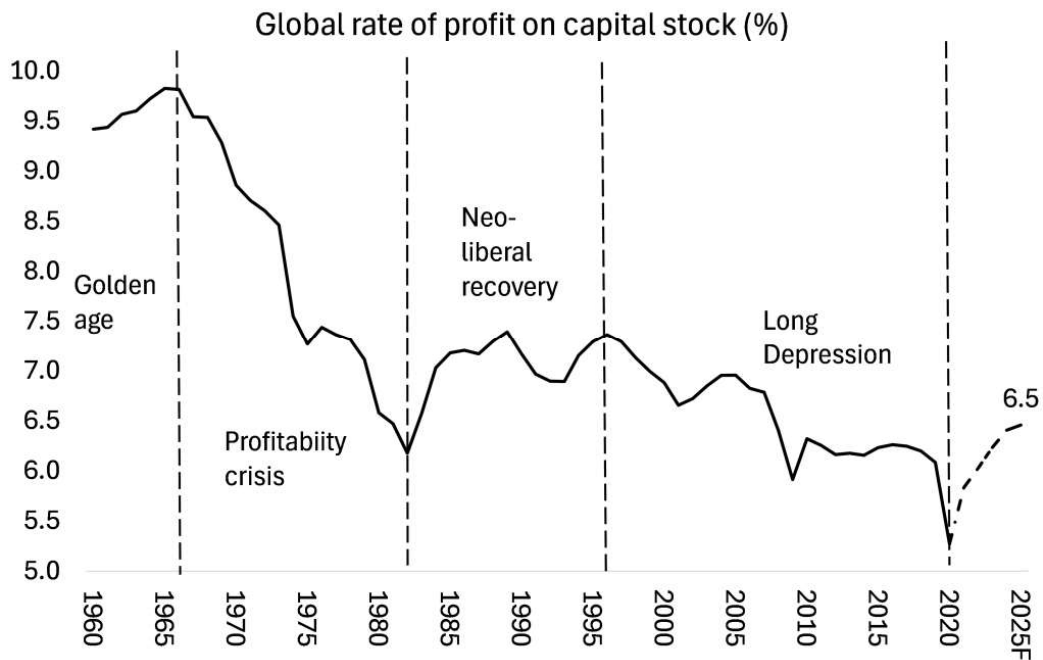
"إنه مكانٌ جميلٌ حقًا، عالمٌ مليءٌ بالأفكار. في هذا العالم الروحاني، نبيع الخدمات ونُدير أعمالنا؛ ننشئ التطبيقات والمواقع الإلكترونية؛ نُحوّل الأموال من قطاعٍ لآخر؛ نتاجر في الغالب بالأفكار والاستشارات، وقصات الشعر، وتوصيل الطعام. إذا كانت الجبال تُهدم على الجانب الآخر من الكوكب، فلا يبدو الأمر ذا أهمية تُذكر هنا في هذا العالم الروحاني."

يشير كونواي إلى أنه في عام 2019، استخرج العالم مواد من سطح الأرض، وحفرها، وفجرها، تفوق مجموع ما استخرجناه منذ فجر البشرية وحتى عام 1950.

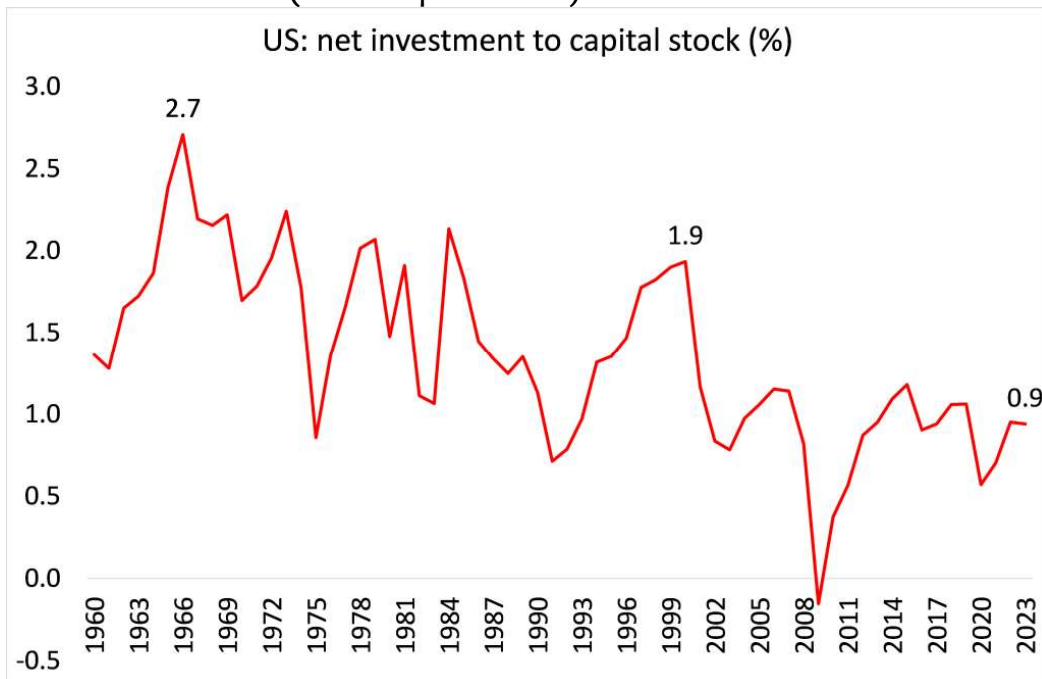
"تأملوا ذلك للحظة. في عام واحد، استخرجنا موارد أكثر مما استخرجته البشرية في معظم تاريخها — من بدايات التعدين إلى الثورة الصناعية، والحروب العالمية، وما إلى ذلك."

في حين أن استهلاك المواد يتراجع بالتأكيد في الدول ما بعد الصناعية مثل الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، إلا أنه على الجانب الآخر من العالم، في البلدان التي يستورد منها الأمريكيون والبريطانيون معظم سلعهم، يرتفع [هذا الاستهلاك] بمعدلات هائلة.

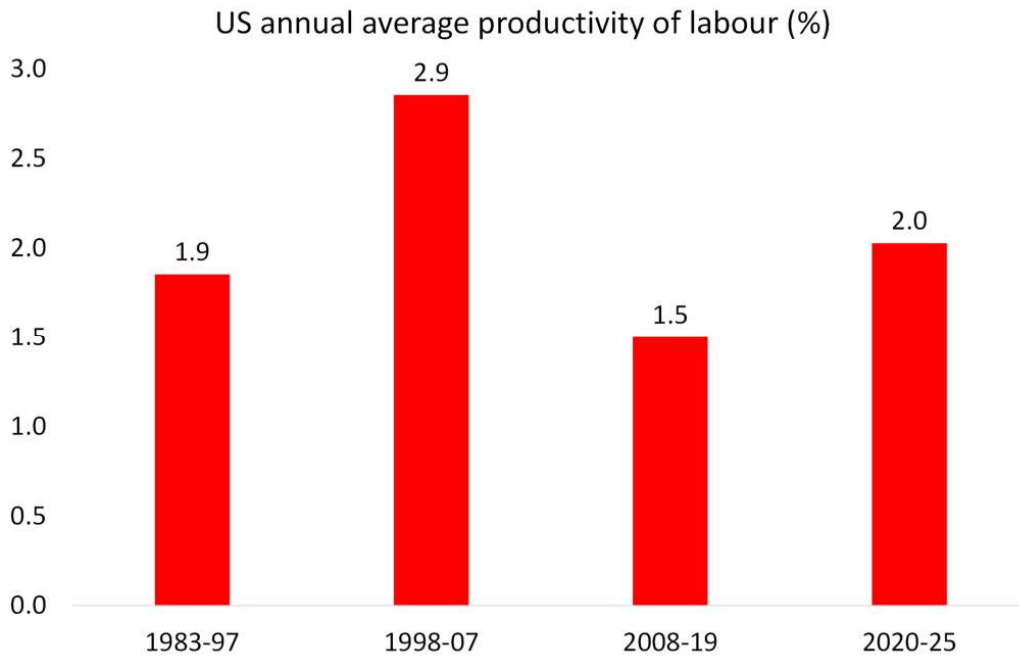
علاوة على ذلك، فإن جزءًا كبيرًا من قيمة الأصول غير الملموسة ليس إنتاجيًا productive على الإطلاق. فالعلامات التجارية والتسويق مجرد وسائل لتحويل الأرباح من الشركات الصغيرة إلى الشركات الكبيرة، وليس خلق قيمة جديدة. لذا، فإن الادعاء بأن الاستثمار غير الملموس intangible investment سيحل محل الاستثمار الملموس tangible investment، ويخفض التكاليف، ويرفع هوامش الربح لتبرير تقييمات سوق الأسهم وتعزيز نمو الإنتاجية، ليس ادعاءً ثابتًا. في الواقع، إذا صحّ أن الاستثمار غير الملموس قد تجاوز الاستثمار الملموس في الاقتصادات الكبرى، فإن البيانات تُظهر أنه لا يُغيّر طبيعة تراكم رأس المال والربحية. فمعدل الربح في الاقتصادات الكبرى أقل عمومًا الآن مما كان عليه في أواخر التسعينيات.



Source: Basu-Wasner, EWPT 7.0 series, author's calculations
US net investment (after depreciation) is lower.



Source: FRED, MR
and productivity growth is also lower.



Source: FRED, MR

ربما أدت الاستثمارات غير الملموسة إلى زيادة تركيز رأس المال وتمركزه concentration and centralisation في الشركات الكبرى، ولكن التراجع العام في الربحية والاستثمار ونمو الإنتاجية ما يزال مستمرًا.

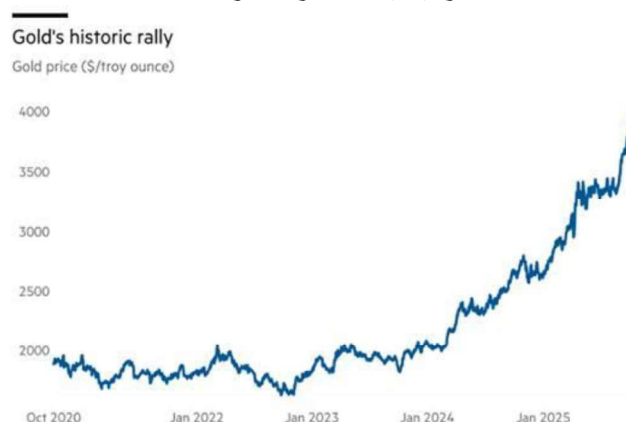
* مايكل روبرتس، اقتصادي ماركسي بريطاني، عمل في الحي المالي في لندن لأكثر من أربعة عقود.

نشر النص الإنجليزي للمقال في موقع مايكل روبرتس بتاريخ 14 آب 2025

<https://thenextrecession.wordpress.com/2025/08/14/intangibles-does-it-change-things/>

مايكل روبرتس: الذهب: ما الذي يقف وراء الطفرة؟

هذا الأسبوع، وصل سعر الذهب بالدولار الأمريكي إلى 4000 دولار للأونصة. وهذا رقم قياسي (على الأقل بالقيمة الاسمية للدولار). ولكن حتى هذا الرقم القياسي يُتوقع تجاوزه، إذ يتوقع بنك الاستثمار غولدمان ساكس أن يصل إلى 4900 دولار للأونصة بنهاية العام. كما يشهد سعر الذهب بالعملات الرئيسية الأخرى ارتفاعاً.



ما وراء هذا الارتفاع غير المسبوق؟ وهل له أهمية؟ قبل الإجابة على هذه الأسئلة، دعونا نُذكر أنفسنا بدور الذهب في الاقتصادات الرأسمالية. الاقتصادات الرأسمالية اقتصادات نقدية. يوظف الرأسماليون العمال لإنتاج سلع وخدمات للبيع في السوق لتحقيق ربح. لكن السلع والخدمات لا تُبادل فيما يُسمى بنظام المقايضة barter system. فتاريخياً، اختيرت سلع مختلفة لتكون مقبولة عالمياً كعملة، أي كوسيلة للتبادل، ووحدة حساب في المعاملات، وكمخزن للقيمة.

أصبح الذهب في نهاية المطاف سلعةً عالمية، أي سلعةً نقدية. كان الذهب مثالياً لأنه لم يكن قابلاً للتلف، بل كان قابلاً للطرق إلى عملاتٍ للتبادل أو سبائكٍ للاكتناز، ومقبولاً في كل مكان. وكما قال ماركس: "إن صحة القول القائل بأن الذهب والفضة ليسا بطبيعتهما نقوداً، فإن النقود بطبيعتها ذهب وفضة" تتجلى في ملاءمة الخصائص الفيزيائية لهذين المعدنين لوظائف النقود.

كان الذهب السلعة النقدية الرئيسية حتى قبل أن يهيمن نظام الإنتاج الرأسمالي على الاقتصادات الكبرى. لكن سرعان ما هيمن الذهب على النظام النقدي ونظام التبادل في ظل الرأسمالية، فأصبح مقياساً موثقاً للقيمة. ومع ذلك، مع توسع الرأسمالية في الإنتاج إلى آفاق جديدة، لم يكن هناك ما يكفي من الذهب أو العملات الذهبية لدعم التدفق المتزايد للمعاملات. لقد أصبح من الضروري إصدار "عملات إلزامية" fiat 'currencies أي العملات المعدنية أو الأوراق النقدية (أو ما يُعرف الآن بالودائع المصرفية بشكل رئيسي) تُصدرها البنوك أو الحكومات، ويمكن إصدارها بلا حدود لتلبية نمو إنتاج السلع والخدمات.

أصبحت الحكومات تتحكم في عرض النقود (وليس الطلب عليها)، وبالتالي أصبح بإمكانها "إجبار" الناس على قبول العملة الوطنية بدلاً من الذهب. ولتجنب تعارض العملات الورقية مع الذهب كقيمة عالمية، كانت العملات الوطنية عادةً مرتبطة بالذهب بسعر ثابت - وهو ما يُسمى بمعيار الذهب gold standard. وبذلك، أصبح بإمكان التجار الثقة بقيمة العملة الوطنية، بينما كانت المعاملات الدولية المتعلقة بتصدير واستيراد السلع والخدمات تُسوى بالذهب نفسه لأي اختلافات.

في القرن العشرين، هيمنت الرأسمالية عالمياً، وحلّت العملات الورقية محل الذهب كوسيلة للتبادل، حتى في المعاملات الدولية، وفي مخازن القيمة التي تحتفظ بها الشركات والبنوك والحكومات. وأصبحت احتياطات النقد الأجنبي الآن مُركزة بشكل رئيسي على العملة الإلزامية الوطنية السائدة، الدولار الأمريكي، مع تراجع دور الذهب. وجاءت نهاية الذهب كشكل رئيسي للنقود، أو حتى كمعيار نهائي للقيمة، مع قرار الحكومة الأمريكية في سبعينيات القرن الماضي بالتوقف عن استبدال الدولار بكمية ثابتة من الذهب. وهكذا، انتهى معيار الذهب، واستُبدل بمعيار الدولار.¹

كان الذهب لا يزال يُحتفظ به في احتياطات الحكومات الوطنية، ولكنه لم يعد "مالاً" money، بقدر ما أصبح أصلاً مالياً financial asset، مثل أسهم الشركات أو السندات. لقد أصبح الذهب "رأس مال وهمي" fictitious capital، لأغراض المضاربة يشتره المستثمرون أو يبيعونه لتحقيق مكاسب رأسمالية؛ أي المزيد من المال. لكن الذهب لم يفقد أبداً

¹ 'The gold standard was ended and replaced by the dollar' standard'.

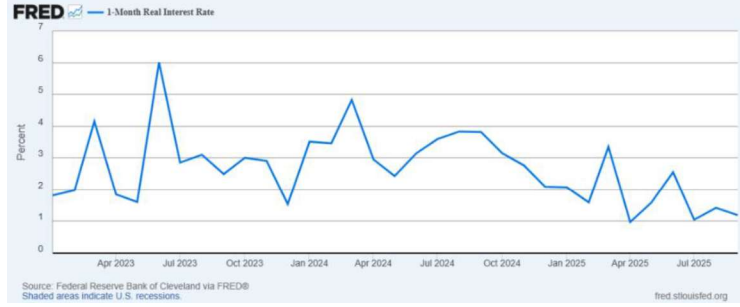
دوره التاريخي في ميمات² memes الرأسماليين، أي كسلعة عالمية أو عملة مقبولة للجميع. لذلك في الفترات التي بدت فيها قيمة العملات الورقية "منخفضة" debased، عاد المُكْتَزُونَ إلى الذهب. أصبح الذهب الأصل المالي الذي يُحتفظ به إذا بدأت العملة الورقية السائدة عالميًا، أي الدولار الأمريكي، في الضعف. كان الأمر بمثابة عودة إلى مخلفات الماضي الهمجى.

شهد سعر الذهب (مُقاسًا بالعملية الورقية الرئيسية، الدولار) ارتفاعات مفاجئة. إذا بدت الاقتصادات مُتجهة نحو الركود، أو إذا ارتفع التضخم فيها بشكلٍ حاد، أو إذا كان هناك خطر انهيار مالي، فإن كل هذه الأزمات في الإنتاج الرأسمالي ستؤدي إلى انخفاض قيمة العملة الوطنية، وعلى الصعيد الدولي، قيمة الدولار. وهكذا، يُصبح الذهب بديلًا جذابًا للعملة الحكومية. إذا لم تعد الشركات والأفراد والحكومات الأخرى تثق في أن الدولار سيحافظ على قوته الشرائية للسلع والخدمات، فإنها ستبدأ في بيع الدولار مقابل الذهب.

هذه المرة، ارتفع سعر الذهب بسرعة كبيرة نتيجةً لعدة عوامل. أولاً، عاد التضخم بقوة بعد ركود الجائحة. وأدى تسارع التضخم إلى انخفاض العائد الحقيقي (الفائدة) على حيازة العملات الورقية، على الرغم من رفع البنوك المركزية لأسعار فائدتها الرسمية. إن الذهب لا يُدرّ فائدة interest، ولكن مع بقاء العائد الحقيقي على "النقد" منخفضًا، أصبح الذهب أكثر جاذبية كأصل مالي.

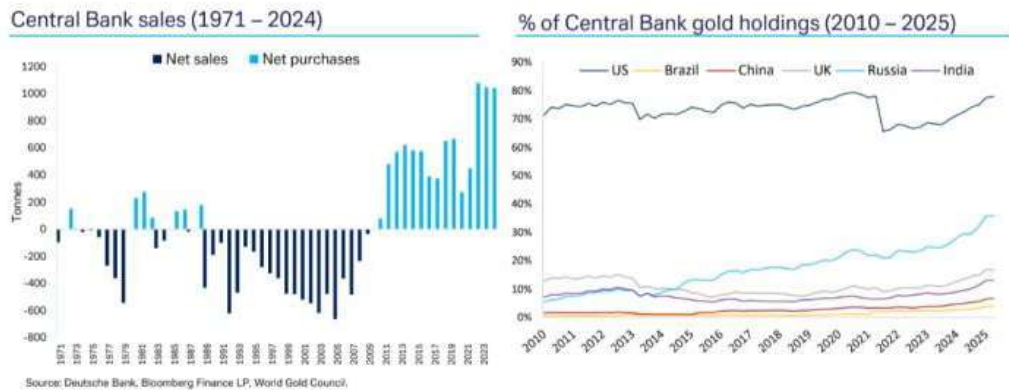
² الميم meme هو وحدة ثقافية للمعنى—فكرة أو سلوك أو أسلوب أو تعبير—ينتقل من شخص إلى آخر داخل الثقافة، وغالبًا ما يهدف إلى التعبير عن ظاهرة أو موضوع أو شعور معين. صاغ المصطلح عالم الأحياء التطوري ريتشارد دوكينز Richard Dawkins في كتابه الجين الأناني The Selfish Gene عام 1976، حيث وصف الميمات بأنها تشبه الجينات في طريقة تكاثرها وتطورها من خلال التقليد.

يشير مصطلح ميم في الاستخدامات الحديثة له إلى محتوى فكاهي أو ساخر—غالبًا صورة أو فيديو أو عبارة—يُشارك على نطاق واسع عبر الإنترنت. وتتطور الميمات بسرعة وتتكيف مع الأحداث الجارية والاتجاهات والثقافات الفرعية، كما هو الحال في منصات التواصل الاجتماعي حيث تُعتمد غالبًا كاختزال بصري، أو سخرية، أو مفارقة رمزية لإيصال الفكرة. (المترجم منقول بتصريف من منصات الذكاء الاصطناعي)



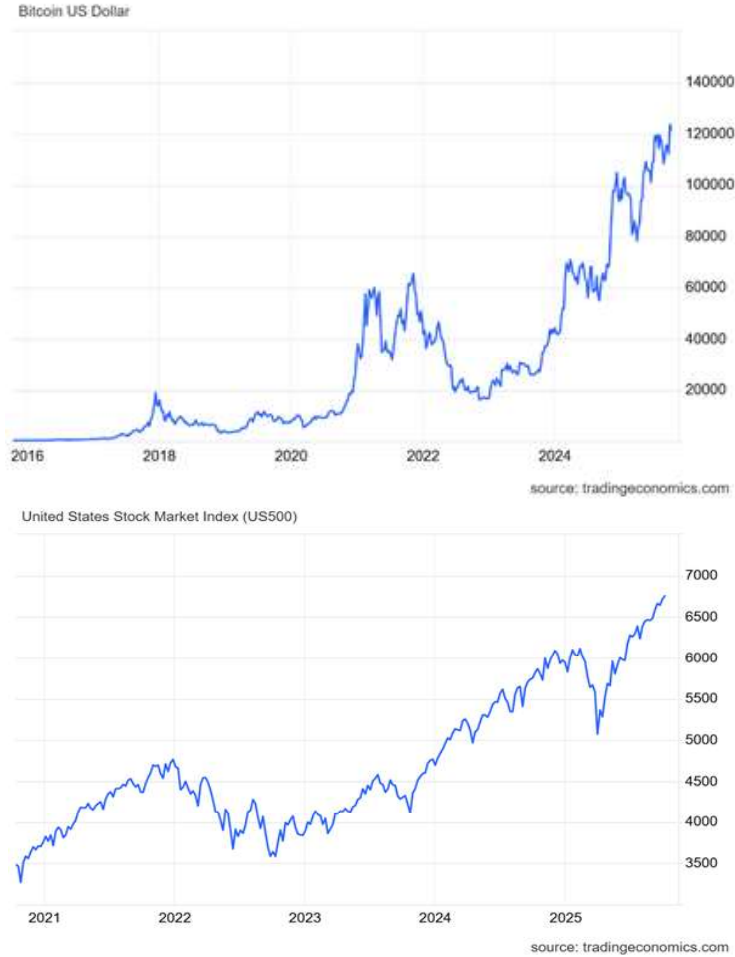
ثم جاء ترامب. أثارت ثورات ترامب بشأن الرسوم الجمركية حالة من عدم اليقين الشديد بشأن التجارة العالمية، وتحديدًا ما سيحدث في الاقتصاد الأمريكي. ولم تكن نوايا إدارة ترامب واضحة: هل أنها كانت موجهة نحو الحفاظ على قوة الدولار الأمريكي للحفاظ على استقرار أسعار الواردات، أم إضعاف الدولار لتعزيز الصادرات الأمريكية؟³ وهكذا، أصبح الذهب أكثر جاذبية. وانخفضت قيمة الدولار الأمريكي مقابل العملات الأخرى بأكثر من 10% في الأشهر الستة الأولى من رئاسة ترامب.

ولكن هناك سبب آخر لارتفاع الذهب وهو أن المعدن الأصفر يُنظر إليه على أنه وسيلة للتحوط ضد إجراءات التعريفات الجمركية التي فرضها ترامب، ولذلك قررت العديد من البنوك المركزية في ما يسمى بالاقتصادات الناشئة (الجنوب العالمي)، في مواجهة الرسوم الجمركية الأمريكية المتزايدة، زيادة احتياطياتها من الذهب مع انخفاض ضرورة الدولار في التجارة الدولية.



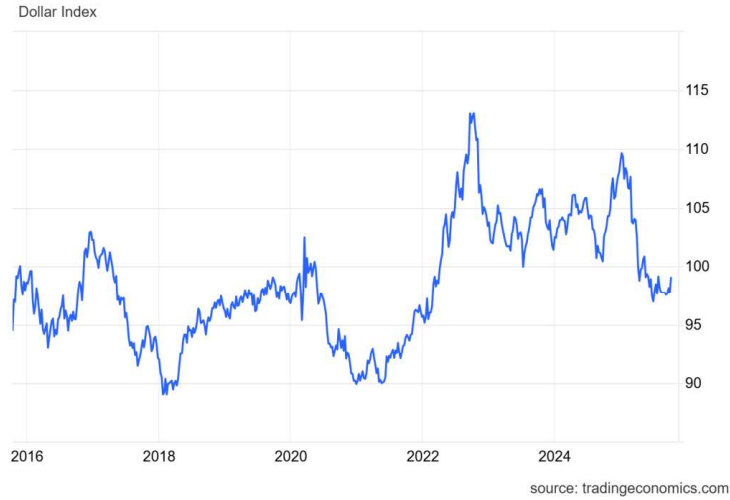
³ And it was not clear what the Trump administration's intentions were: did they want the US dollar to stay strong to keep import prices stable or weaken in order to boost US exports?

تكتسب المضاربة المالية زخمًا خاصًا بها. وكما هو الحال مع الارتفاع الصاروخي لسعر الدولار لل عملات المشفرة مثل بيتكوين bitcoin، يُعدّ الذهب شكلاً آخر من أشكال الاستثمار الرأسمالي الوهمي. كما يُعدّ الخوف من تفويت الفرصة (FOMO- fear of missing out) السمة الأساسية للمضاربة المالية، ويتصدر الذهب، إلى جانب بيتكوين⁴ (حيث عادت سوق الأسهم الأمريكية إلى مستويات قياسية)، هذا النوع من الخوف.



أين ينتهي كل هذا؟ أولاً، سينتهي إذا لم يستمر انخفاض الدولار الأمريكي – وبالفعل، منذ يوليو/تموز، استقر مؤشر الدولار مقابل العملات الأخرى عند مستوى قريب من متوسطه التاريخي.

⁴ [the classic characteristic of financial speculation and gold along with bitcoin](#)



ثانيًا، ينتهي هذا الوضع هذه المرة إذا دخل الاقتصاد العالمي في حالة ركود. سيؤدي ذلك إلى الحد من التضخم وبالتالي تعزيز قيمة الدولار. في فترات الركود، يمكن أن يرتفع سعر الذهب كأصل يُحتفظ به في الأزمات، في انتظار أوقات أفضل. لكن في ازدهاره الحالي، يزداد الطلب على الذهب من خلال المضاربة. ستتأثر هذه المضاربة في حالة الركود، وكذلك أسعار الأسهم والبيتكوين والذهب.

يمكن قراءة النص الإنجليزي في الموقع الإلكتروني لمايكل روبرتس باستخدام هذا الرابط:

<https://thenextrecession.wordpress.com/2025/10/09/gold-whats-behind-the-boom/>

* مايكل روبرتس، اقتصادي عمل في المركز المالي لمدينة لندن لأكثر من ثلاثين سنة. له مدونة تحمل اسمه: Michael Roberts Blog

مايكل روبرتس: بنك فيرست ريبابليك: جدل من أجل الملكية العامة

نشر النص الإنجليزي للمقال في موقع الاقتصاد الماركسي مايكل روبرتس بتاريخ 2023/5/2
<https://thenextrecession.wordpress.com/2023/05/02/first-republic-the-case-for-public-ownership/>

انهيار بنك فيرست ريبابليك First Republic Bank هو أحدث فصل في الأزمة المصرفية المستمرة في الولايات المتحدة. كان هذا ثاني أكبر انهيار مصرفي في التاريخ المالي للولايات المتحدة. وهو يوضح بشكل أكبر قضية الملكية العامة للنظام المصرفي.

فيرست ريبابليك هو ثالث بنك يفشل بعد بنك سيليكون فالي Silicon Valley Bank (SVB) وبنك سيغنيتشر Signature. نتيجة لهذا الفشل فقد اختفت، إجمالاً، أصول مصرفية بقيمة 47 مليار دولار، وتكبد المساهمون وحاملي السندات في هذه البنوك الخسائر جزئياً. ولكن كانت هناك أيضاً تكلفة على الأموال العامة تحملتها المؤسسة الفيدرالية للتأمين على الودائع (FDIC) Federal Deposit Insurance Corporation وهي هيئة عامة تمول من مساهمات تستوفي من جميع البنوك.¹ تقدر تكلفة ترتيب وتمويل تكلفة عمليات الإفلاس والاستحواذ هذه بنحو 20 مليار دولار (لبنك سيليكون فالي SVB)، و 13 مليار دولار (لبنك فيرست ريبابليك) و 2.5 مليار دولار (لبنك سيغنيتشر). لذا فإن حوالي ثلاثة أرباع الخسائر الإجمالية ستتحملها المؤسسة الفيدرالية للتأمين على الودائع. وسوف تفرض المؤسسة رسوماً جديدة على البنوك، لذلك سيتم تقاسم العبء في النهاية، ولكن على حساب تقليل الإقراض المصرفي للأسر والشركات وبتكاليف فائدة أعلى.

بنك واحد لن يخسر هو جي بي مورغان (JP Morgan (JPM. يبدو أن الاستيلاء takeover على بنك فيرست ريبابليك بمثابة صفقة كبيرة لشركة JPM إذ تدفع JPM للمؤسسة الفيدرالية للتأمين على الودائع مبلغ 10.6 مليار دولار، وتحصل مقابل ذلك على 185 مليار دولار بشكل قروض

¹ يقابلها في العراق الشركة العراقية لضمان الودائع التي تأسست سنة 2020 وتمارس عملها بترخيص من البنك المركزي العراقي.

وأوراق مالية بفائدة. وبدورها تتحمل JPM ودائع فيرست ريبابليك و قروضها المستحقة من بنك الاحتياطي الفيدرالي. لكن المؤسسة الفيدرالية للتأمين على الودائع تقدم حد ائتمان credit line بقيمة 50 مليار دولار إلى JPM على مدى خمس سنوات بحيث يتم تغطية أي انخفاض إضافي في الودائع أو التخلف عن سداد قروض فيرست ريبابليك. بعبارة أخرى، لن يضطر JPM إلى الحصول على اقتراض باهظ الثمن من بنك الاحتياطي الفيدرالي نظراً لأنه لديه قرض خاص من المؤسسة الفيدرالية للتأمين على الودائع بشروط أسهل. قد تتساءل البنوك الصغيرة عن سبب حصول أكبر بنك في الولايات المتحدة على تسهيل خاص للقرض الرخيص.

تتيح هذه الانهيارات المصرفية فرصة لأن يمتلك JPM القوي أصولاً لبنك فيرست ريبابليك مقابل 10.6 مليار دولار. يقول ديمون Dimon، رئيس JPM، إن البنك سيجني حوالي 500 مليون دولار سنوياً من هذه الأصول، والتي تستحقها لتحمل مخاطر ديون فيرست ريبابليك. ولكن من الواضح أن هذا المبلغ هو أقل من الواقع - فمن المرجح أن يحقق JPM ربحاً قدره مليار دولار سنوياً بمعدلات القروض الحالية للشركات وخاصة المعدل المنخفض للفائدة الذي رتبته المؤسسة الفيدرالية للتأمين على الودائع لاقتراض JPM. وهو ما كسبته فيرست ريبابليك في ربعها الأخير. لذلك سيضيف ذلك 2% إلى الأرباح السنوية لـ JPM. علاوة على ذلك، وافقت المؤسسة الفيدرالية للتأمين على الودائع على تحمل 80% من أي خسائر ناتجة عن التخلف عن سداد القروض! لقد ارتفع سعر سهم JPM بمقدار 11 مليار دولار في يوم واحد بعد انتشار هذه الأخبار. وبفضل ذلك تمت تغطية حتى مدفوعات JPM إلى المؤسسة الفيدرالية للتأمين على الودائع على الفور.

تقدم هذه الانهيارات المصرفية حجة قوية أخرى للملكية العامة للبنوك. إذا تم تأمين البنوك الثلاثة، فإن الـ 35 مليار دولار التي أنفقتها المؤسسة الفيدرالية للتأمين على الودائع لتسليم أصول هذه البنوك إلى البنوك الأكبر كان يمكن استخدامها بدلاً من ذلك لإعادة هيكلتها كبنوك عامة والتي كانت ستوفر، بمرور الوقت، دخلاً كافياً لتحقيق أرباح للحكومة (المؤسسة الفيدرالية للتأمين على الودائع)، وليس لأمثال JPM. الدرس الآخر من هذه الأزمة هو فشل التنظيم regulation كبديل للملكية العامة. في تقرير خاص بتكاليف من مجلس الاحتياطي الفيدرالي بشأن كارثة بنك سيلكون

فالي،² تم إلقاء اللوم على تقليص الضوابط التنظيمية على البنوك الأصغر في ظل إدارة ترامب. لقد أعجبت حكومة الحزب الديمقراطي بهذا الاستنتاج، لكن التقرير لم يقدم أي دليل على أن تغييرات ترامب أحدثت أي فرق في منع انهيار أي من هذه البنوك. لقد ثبت أن تاريخ التنظيم، سواء تم تطبيقه على البنوك الكبيرة أو الصغيرة، فشل تمامًا.³

لقد شهدنا الآن ثلاث حالات إفلاس مصرفية، مما جعل JP Morgan في مركز مهيمن أكثر في القطاع المصرفي، فليده الآن 12% من إجمالي ودائع العملاء في الولايات المتحدة. في الانهيار المالي لعام 2008، كانت هناك صرخة أن هناك العديد من البنوك الكبيرة التي كانت "أكبر من أن تفشل". بعد خمسة عشر عامًا، أصبحت البنوك الكبرى أكبر - لكنها ليست أكبر من أن تفشل كما أثبت انهيار بنك كريدي سويس السويسري Credit Suisse والاستيلاء عليه الشهر الماضي من قبل بنك يو بي إس. في الواقع، من المضحك أن يظل بنك يو بي إس UBS السويسري الضخم الآن ملكية خاصة، مدعومًا من الدولة، بدلاً من ملكيته العامة.

وطالما استمر الاحتياطي الفيدرالي والبنوك المركزية الأخرى في رفع أسعار الفائدة "الأساسية" interest rates 'policy' الخاصة بهم، مما يؤدي إلى ارتفاع تكلفة الاقتراض وتشديد الائتمان، فلا يزال هناك خطر متزايد من حدوث المزيد من الانهيارات المصرفية في المستقبل.⁴

إن قضية الملكية العامة دامغة، ليس فقط بالنسبة للبنوك متوسطة الحجم مثل فيرست ريبابليك التي تتعرض للمتعاب، ولكن أيضًا للبنوك الضخمة مثل JP Morgan، التي أصبحت احتكارات قوية بشكل متزايد. إن الملكية العامة، التي تدار بشكل ديمقراطي، ستنتهي العمل المصرفي باعتباره آلة جني الأموال، مبدرة وفاسدة وغير مستقرة، تدفع رواتب بشعة ومكافآت ومكاسب رأسمالية لمجموعة صغيرة من المضاربين فاحشي الثراء (المضاربة بودائنا) وبدلاً من ذلك تحويلها إلى خدمة عامة لعملائها وللأسر والشركات، مع تحويل أي أرباح إلى الدولة ككل.

² [In a special report commissioned by the Fed on the SVB debacle](#)

³ [The history of regulation, whether applied to large or small banks, has shown to be a total failure.](#)

⁴ [there remains the increasing danger of further bank collapses down the road.](#)

مايكل روبرتس: بن برنانكي: الشجاعة والارتباك

أصدر رئيس البنك الاحتياطي الاتحادي Federal Reserve السابق بن برنانكي، الذي تربّع على رأس الانهيار المالي العالمي والركود العظيم Great Recession الذي أعقب ذلك، كتاباً جديداً، بعد أن عاد إلى الوسط الأكاديمي. يركّز الكتاب، الذي يحمل عنواناً (الشجاعة على الإقدام: مذكرات أزمة وما بعدها) *The Courage to Act: A Memoir of a Crisis and its Aftermath* فيه غطسة دفاعية خاصة على أحداث الأزمة المالية، ولكنه يشمل أيضاً الحكايات الشخصية التي ترجع إلى قبل وقت برنانكي في الاحتياطي الفيدرالي، وحكايات يرجع تاريخها إلى طفولته في بلدة صغيرة في ولاية كارولينا الجنوبية.

يدافع برنانكي في الكتاب عن سياسات البنك الاحتياطي الفيدرالي تحت قيادته في أعقاب الأزمة المالية. ولا سيما قرار إنقاذ معظم البنوك الاستثمارية الرائدة من خلال تقديم الاعتمادات الضخمة وأموال دافعي الضرائب لها. يقول إنه "كانت هناك فرصة جيدة معقولة أن ينتهي بنا الوضع إلى كساد على غرار كساد الثلاثينيات باستثناء استقرار النظام المالي." ومن المثير للاهتمام، ادعاؤه أنه كان يود أن ينقذ بنك الاستثمار ليمان برادرز Lehman Brothers، في أيلول/سبتمبر 2008 أيضاً ولكنه اضطر للسماح لفشل البنك بسبب "كوننا قد استنفدنا الرصاصات في تلك المرحلة." لنفاد الأموال؟

ولكن ما سبب هذا الانهيار المالي في المقام الأول؟ هو يزعم الآن أن السبب يكمن في الجشع وحتى في الأفعال الإجرامية من قبل أولئك الذين يديرون البنوك الاستثمارية ومؤسسات إقراض الرهن العقاري. فقد قال لمجلة يو اس ايه توداي USA Today إن أكثر المصرفيين والمديرين التنفيذيين للشركات الذين ساهموا في إحداث الأزمة المالية ينبغي أن يكونوا في السجن. وقال بأن وزارة العدل ركّزت كثيراً، في أعقاب الانهيار meltdown، على فرض عقوبات على المؤسسات المالية والحصول على غرامات كبيرة. وقال انه لم يكن هناك جهداً كافياً لمعاقبة الأفراد. "كنت أفضل أن يكون هناك المزيد من التحقيق في الأفعال الفردية، لأنه من الواضح أن كل ما حدث من خطأ أو كان غير قانونياً قام به بعض الأفراد، وليس من قبل شركة مجردة abstract firm.... وقال "إن ما كنت أتحدث عنه هو أننا كنا نعرف ذلك ... العديد من البنوك الكبرى [اللافتباس غير

كامل في الأصل]، فرضت وزارة العدل المليارات والمليارات من الدولارات ضد الشركات عقاباً على أنواع مختلفة من السلوك السيئ". "إذا كان هناك عناصر سيئة، عليك أن تتال منهم كل على حدة." ومع ذلك، فإن برنانكي لم يتحدث في ذلك الوقت لأن البنك الاحتياطي الفيدرالي لم يكن يملك القدرة على سجن أي شخص. ولذلك فإن الفشل في اتخاذ الإجراء ضد الأفعال الإجرامية تقع على عاتق وزارة العدل.

لكنه يدافع عن خطة الإنقاذ bailout. رئيس الاحتياطي الفيدرالي السابق يقول: "إننا كنا سننتهي إلى كساد على غرار كساد الثلاثينيات." هذا القول مخادع على أقل تقدير. ما الذي كان يقوم به بنك الاحتياطي الفيدرالي في حين أن أولئك المشاركين في حفلة الطفرة في الائتمان المصرفي الاستثماري كانوا يرقصون جنباً إلى جنب من أي وقت مضى مع تصاعد الرهون العقاري الثانوي sub-prime mortgages والمشتقات derivatives - الأسلحة المالية للدمار الشامل، كما سماها وارن بوفيت Warren Buffet؟ لا شيء.

على الرغم من أنه خبير أكاديمي بطبيعة وأسباب الكساد العظيم في الثلاثينيات، فإن برنانكي (مثل كل الاقتصاديين التقليديين mainstream تقريباً) فشل في رؤية الانهيار المالي القادم. ففي بيانه إلى الكونغرس في أيار/مايو 2007، عندما كان انهيار الرهن العقاري الثانوي كان قد بدأ لتوه، قال برنانكي "في هذه المرحلة يبدو من المرجح أن يتم احتواء تأثير مشاكل أسواق الرهون العقارية على الاقتصاد عموماً وعلى الأسواق المالية. والأهم من ذلك، هو أننا لا نرى انتشاراً أوسع وخطيراً على البنوك أو مؤسسات الادخار thrift institutions بسبب المشاكل في السوق الثانوي subprime market". وذهب إلى تقدير أن الخسائر المحتملة للقطاع المالي من أزمة الرهن العقاري في الولايات المتحدة سيكون "بين 50 مليار دولار و100 مليار دولار. وقد اتضح أن هذه الخسائر هي 1,5 ترليون دولار في الولايات المتحدة إضافة إلى 1,5 ترليون دولار عالمياً.

بعد ان انتهى الانهيار في أيلول/سبتمبر 2010، أبدى برنانكي رأيه في أسباب الانهيار المالي في عام 2008 والركود العظيم اللاحق في شهادته أمام هيئة التحقيق المالي في الولايات المتحدة. وخلص إلى أن [السبب] كان الاعتماد المفرط على التمويل قصير الأجل من المؤسسات الرئيسية مما تسبب في عدم الاستقرار في النظام. هذه النظرية، التي يعود تاريخها

إلى والتر باجيت¹ Walter Bagehot في القرن التاسع عشر، تقول إن البنوك لا ينبغي أن تقترض الأموال على المدى القصير، وبدلاً من ذلك عليها الحصول على رأس المال على المدى الطويل. ولكن إذا اعتمدت البنوك فقط على الودائع الادخارية للعملاء أو على السندات طويلة الأجل وعلى المستثمرين في الأسهم لتمويلها، فهل أن ذلك كان سيوقف الأزمة المالية؟ أنا لا أعتقد ذلك.

ذلك لأن سبب الأزمة المالية يكمن في زيادة الصعوبة بالنسبة للشركات الرأسمالية للحفاظ على ربحيتها في الاستثمار الإنتاجي في الفترة التي سبقت وقوع الانهيار in the lead-up to. ونتيجة لذلك، فقد تحول القطاع المالي أكثر وأكثر للاستثمارات القائمة على المضاربة في العقارات والأدوات النقدية (لـ "الدمار الشامل"). ولكن بغية تمويل الطلب المتزايد للمضاربة، كان عليها اقتراض المزيد من الأموال. وهكذا ارتفعت "الرافعة المالية"² Leverage، أو الديون بشكل حاد. وعندما بدأت قيمة جميع هذه الأصول غير المنتجة (الرهون العقارية، والمشتقات الائتمانية وما إلى ذلك) في الانخفاض، نجمت بعدها الأزمة المالية. ولم يكن للأزمة علاقة أبداً بالـ "التمويل قصير الأجل". وبان تأثير ذلك [التمويل قصير الأجل] فقط عندما هرعنا البنوك للحصول على المزيد من الأموال لخدمة ديونها، واكتشفت بأنها لن تقترض بعضها البعض. وكما أوضح ماركس منذ زمن بعيد، عندما تكون هناك أزمة، فجأة تتحول تخمة الأموال إلى مجاعة وعندها ينشأ اندفاع يأس إلى التمسك بها.

يعود برنانكي مرة أخرى في كانون الثاني/يناير عام 2014 إلى الموضوع، عندما أنهى فترة ولايته، ختمها بكلمة ألقاها في الاجتماع السنوي للجمعية الاقتصادية الأمريكية. وحسب رأيه فإن الانهيار المالي العالمي "يحمل شبيهاً قاربياً قوياً لحالة الذعر المالي financial panic التقليدي، مع الفارق أنه وقع في البيئة المعقدة للنظام المالي العالمي في القرن الواحد والعشرين." وهكذا فإن الأزمة، بالنسبة لبرنانكي، كانت أزمة مالية بحتة في الأصل. فلم يكن لها أية علاقة مع أي عيوب أو تناقضات في نمط الإنتاج الرأسمالي، ولكنها جاءت كنتيجة للاسترخاء في قروض الرهن العقاري التي أدت إلى فقاعة الإسكان التي انفجرت؛ والإكثار من

¹ والتر باجيت (1826-1877)، كان محرراً لمجلة الإيكونوميست البريطانية. (المترجم)

² "الرافعة المالية" ترجمة حرفية مختلفة لا أدري مدى فائدتها في نقل المعنى. نترجم الكلمة leverage أيضاً على أنها نسبة رأسمال الشركة المُقترض إلى رأسمالها الكلي. كما نترجم لتعني معدل الاقتراض.

معدل (الاقتراض) للمضاربة؛ واستخدام الأدوات المالية "الغريبة" 'exotic' التي لم تعمل على "تنويع" مخاطر الإقراض كثيراً، بدلاً من إعادة توزيعها على الصعيد العالمي. إن هذا الشرح للطبيعة الواسعة والعميقة لـ "الذعر المالي" من الواضح أنه صحيح في وصف محركات triggers الانهيار المالي العالمي ولكنه لا يفسر لماذا حدث ما حدث ولماذا حدث في ذلك الحين.

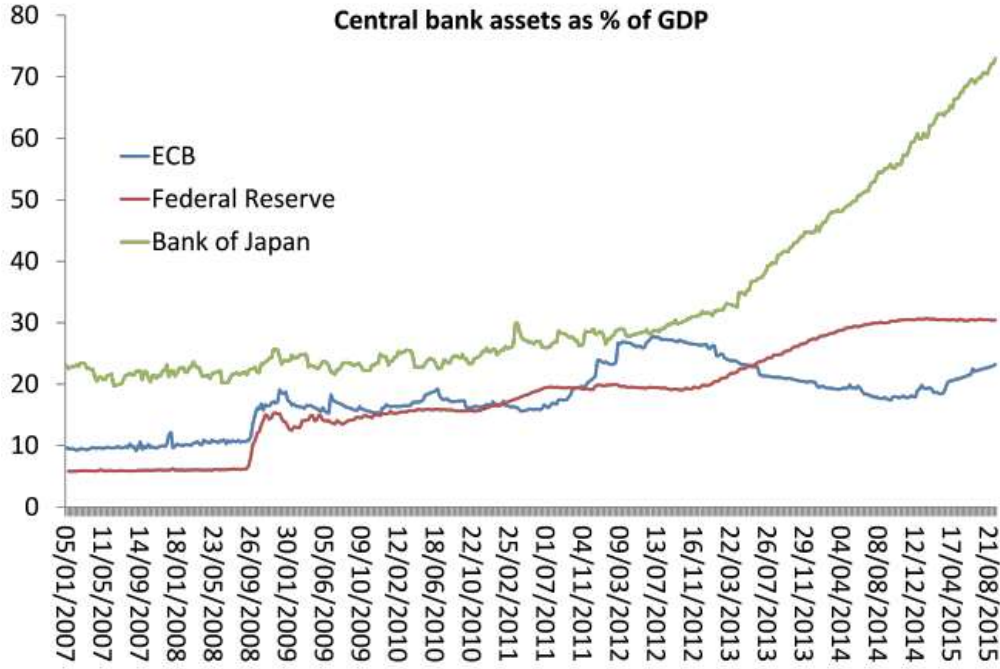
إن برنانكي، في وضعه الأكاديمي، قد أنشأ سمعته كمؤرخ اقتصادي رائد للكساد العظيم في الثلاثينيات. ومن رأيه، جرياً وراء مثله الأعلى، ميلتون فريدمان، أن الكساد العظيم كان نتيجة للسياسات الخاطئة التي اعتمدها البنك الاحتياطي الاتحادي. أولاً، سمح الاحتياطي الفيدرالي في العشرينيات بالإقراض المفرط وإبقاء أسعار الفائدة منخفضة جداً. ثم في الثلاثينيات أخذ بتطبيق سياسة نقدية متشددة ورفع أسعار الفائدة. وكانت النتيجة فقاعة سوق الأسهم وبعد ذلك الكساد الواسع في النمو والعمالة.

هناك بعض الحقيقة في هذا التحليل. كما يشرح جي كارجيدي G Carchedi، في ورقة غير منشورة: "إن السلطات النقدية غالباً ما تتدخل عن طريق تقليص كمية النقود و/أو رفع سعر الفائدة الاتحادي. هذه السياسات التقييدية تُفاقم الوضع المالي للشركات الضعيفة اقتصادياً. إذ أنها لا تستطيع خدمة ديونها. والنتيجة هي إفلاسها، وبالتالي الأزمة التي تتبعه."

في هذه الأزمة، فإن برنانكي، كما جاء في كلمته أمام الجمعية الاقتصادية الأمريكية، طبق "بشجاعة" سياسات نقدية لتجنب أخطاء مماثلة. خفف البنك الاحتياطي الاتحادي سعر الإقراض إلى ما يقارب الصفر، قدم مساعدات مالية ضخمة للنظام المصرفي، وعلى وجه الخصوص لأكبر البنوك الاستثمارية التي كانت "أكبر من أن تفشل" ³ 'too big to fail'، ومن ثم طبق سياسات نقدية "غير تقليدية"، وهي توسيع كمية النقود (التيسير الكمي quantitative easing) عن طريق شراء سندات

³ حجم المصارف الكبير وعملياتها المعقدة والتداخل في الارتباط مع بعضها قد تمنع الحكومات من التصدي لتقليص أعمال المصارف التي تعاني من مشاكل أو اللجوء إلى تصفيتها خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى خلق مشاكل واضطرابات عامة في النظام المالي أو الاقتصاد برمته. إزاء هذا الوضع، أي خطر المؤسسات التي توصف بأنها "أكبر من أن تتعرض للفشل"، تتجه الحكومات إلى انتشالها من أزمتها باستخدام الضرائب التي يدفعها المواطنون لحماية الاقتصاد والنظام المالي من الانهيار. (نقلاً عن: إيرنست بالتينسبرغر وآخرين، الرقابة على صناعة التأمين: قضايا أساسية (بيروت: منتدى المعارف)، ترجمة: تيسير التريكي، مراجعة: مصباح كمال. هامش المراجع، ص 44.

الحكومة، والشركات والرهن العقاري من البنوك لتحفيز الاقتصاد. لقد تضاعفت الميزانية العمومية للبنك الاحتياطي الفيدرالي ثلاث مرات من خلال الشراء لأغراض التيسير الكمي للنقد إلى 30% من الناتج المحلي الإجمالي الأمريكي.

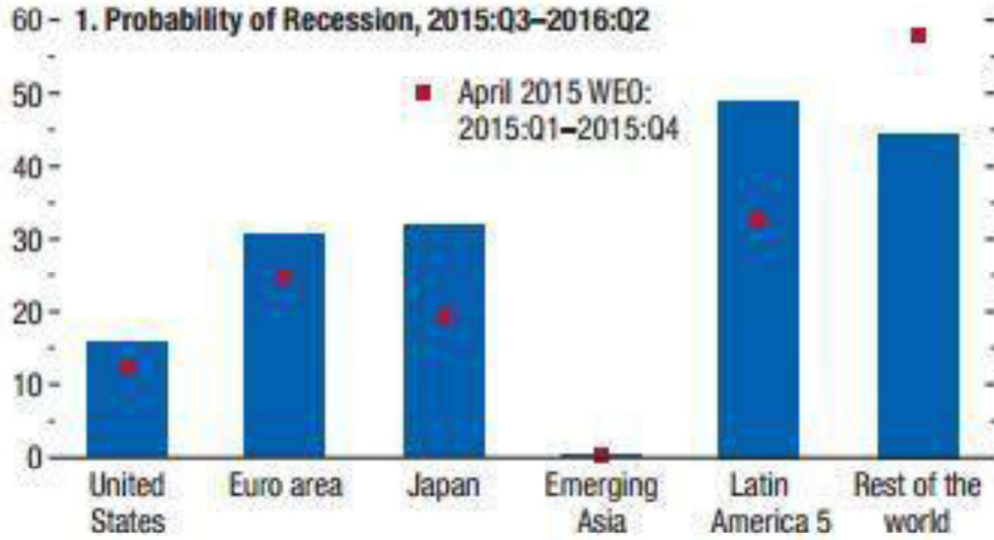


برنانكي على قناعة بأن هذه السياسة كانت ناجحة في إنقاذ الاقتصاد الرأسمالي. ولكن هل كانت حقاً ذلك؟ أولاً، انها في الواقع لم تحل دون تجنب انهيار مالي. بالتأكيد، أن بنوكاً كـكولدمان ساكس ومورغان ستانلي أو جي بي مورغان لم تتعرض للإفلاس. بيرس ستيرنز Bears Stearns، أي أي جي AIG، وليمان بروذرز Lehman لم تفلت من الإفلاس (وميريل لينش كانت على وشك أن تفلت). مثلما لحق بهم معظم كبار المقرضين للرهن العقاري. وعلاوة على ذلك، فإن المئات من البنوك والمقرضين الصغار في جميع أنحاء الولايات المتحدة تعرضت للإفلاس.

ثانياً، إن السياسات النقدية الكبيرة لبرنانكي المضادة للكساد لم تنجح في استعادة النمو الاقتصادي والعمالة في الولايات المتحدة والعالم إلى مستويات ما قبل الأزمة. في خطابه أمام جمعية الاقتصاد الأمريكية، ادعى برنانكي أن "المشككين أشاروا إلى أن وتيرة الانتعاش لا تزال بطيئة بشكل مخيب للآمال، مع نمو الناتج المحلي الإجمالي المعدل لأغراض التضخم أن هذا النمو كان في المتوسط أعلى قليلاً فقط من المعدل السنوي 2 في المئة

على مدى السنوات القليلة الماضية، والتضخم تحت نسبة 2 في المئة المستهدفة من قبل اللجنة على المدى الطويل. لكن، وكما سأناقش، فإن الانتعاش واجه رياحاً معاكسة قوية، مما يشير إلى أن النمو الاقتصادي ربما كان بالفعل أضعف بكثير، أو حتى سلبياً، من دون دعم كبير من السياسة النقدية."

قد يكون هذا الدفاع المغاير صحيحاً، ولكننا نحن هنا بعد ما يقرب من عامين والاقتصاد الأمريكي ما زال ينمو أقل بكثير من مستويات ما قبل الأزمة والاقتصاد العالمي يظهر علامات متزايدة من الهبوط مرة أخرى إلى ركود جديد – أنظر أحدث تقديرات صندوق النقد الدولي.



في الواقع، ان برنانكي يعتقد الآن أنه غير متأكد من ان اقتصاد الولايات المتحدة يمكن أن يتعامل مع ارتفاع السعر [سعر الفائدة] بربع نقطة مئوية four quarter-point على النحو الذي اقترحه بعض الاقتصاديين ومسؤولي الاحتياطي الاتحادي. ربما يظل سعر فائدة البنك الاحتياطي الفيدرالي قريباً من الصفر إلى الأبد.

طرح برنانكي المشكلة لمنظري استراتيجيات رأس المال في مؤتمر صندوق النقد الدولي في عام 2013: "لدينا تحدياً مستمراً هو جعل وقوع الأزمات المالية أقل احتمالاً، وإذا وقعت، علينا أن نجعلها أقل تكلفة بكثير. إن ما يزيد من تعقيد المهمة هو واقع أن كل ذعر مالي له ميزات فريدة من نوعها تعتمد على سياق تاريخي معين، وعلى تفاصيل الإطار المؤسسي."

إن ما يتعين علينا القيام به هو "تجريد الأزمات الفردية من خصوصياتها بأمل الكشف عن العناصر المشتركة" لـ [حالات] "الذعر". وعندها يمكننا "تحديد وعزل العوامل المشتركة للأزمات، مما يسمح لنا منع الأزمات عندما يكون ذلك ممكناً والاستجابة بفعالية عندما لا يكون ذلك ممكناً".

حقاً! ولكن لا يبدو أن برنانكي نفسه قد واجه التحدي الذي وضعه بنفسه. ومع ذلك كانت هناك مثل هذه القرائن في خطاب برنانكي أمام الجمعية الاقتصادية الأمريكية. فقد قال: "مثل العديد من حالات الذعر الأخرى في القطاع المالي، بما في ذلك أحدثها، فإن الذعر عام 1907 حصل بينما كان الاقتصاد يميل نحو الضعف؛ ووفقاً للمكتب الوطني للبحوث الاقتصادية، فإن الركود قد بدأ في أيار/ مايو 1907".

بالضبط. وكان بوسع برنانكي أن يضيف أن الركود عام 2008 سبقه أزمة الائتمان عام 2007 وقبل ذلك هبوط حاد في كتلة الأرباح المتحققة من أوائل عام 2006 وما بعده. وكانت الحكاية هي ذاتها قبل الذعر أو الانهيار لعام 1929 الذي أدى إلى الكساد العظيم. فالانخفاض في الأرباح والإنتاج بدأ قبل عام. لذلك كان هناك أزمة في الإنتاج وراء "الزناد" المالي للمضاربة المفرطة "في النحاس (1907)؛ والأسهم (1929)؛ والعقارات (2008). لقد كانت المضاربة "مفرطة" وفي نهاية المطاف "خطرة" لأن القيمة المتولدة لتحقيق مكاسب من مثل هذه الاستثمارات لم تتحقق.

هذا هو تفسير أكثر تماسكاً بكثير عن تكرار الأزمات، وهو أن ميل الربحية في الإنتاج الرأسمالي نحو الانخفاض يؤدي في نهاية المطاف إلى سقوط تام في الأرباح. ثم تتحول الطفرة القائمة على الائتمان إلى حالة من ذعر المضاربة أو الانهيار.

أن برنانكي يريد منا أن نعتقد أنه أنقذ العالم بشجاعة من خلال تبني سياسات نقدية غير تقليدية تعلمها من دروس الكساد العظيم ورغم أنف المعارضة التقليدية. لكنه لم ينقذ العالم، بل فقط البنوك (الكبيرة منها) وسياسته النقدية غير التقليدية لم ينعش الاقتصاد الأمريكي، ناهيك عن إنعاش الاقتصاد العالمي، ودعم فقط سوقاً جديداً للأسهم والسندات يقوده الائتمان وازدهاراً للـ 1%. إن "الشجاعة" في أزمة لن ينقذ العالم في ظل الارتباك.

Michael Roberts, “Ben Bernanke: courage and confusion,” in *Michael Roberts Blog*

<https://thenextrecession.wordpress.com/2015/10/07/ben-bernanke-courage-and-confusion/>

مايكل روبرتس: التعددية في علم الاقتصاد: الرئيسي، وغير الأرثوذكسي، والماركسي

يمكن قراءة النص الإنجليزي في موقع الكاتب باستخدام هذا الرابط:

<https://thenextrecession.wordpress.com/2019/04/03/pluralism-in-economics-mainstream-heterodox-and-marxist>

كان مؤتمر إعادة التفكير بالاقتصاد [Rethinking Economics conference](#) الذي عقد في نهاية الأسبوع الماضي [30-31 آذار 2019، جامعة غرينيچ] حول التعددية في الاقتصاد ممتازاً، إذ قام المنظمون في Greenwich Rethinking Economics بعمل رائع في جمع مجموعة من كبار المتحدثين حول العديد من جوانب الأفكار الاقتصادية الحديثة: المالية وعدم المساواة والإمبريالية وقضايا الجندر. وحتى أنهم تمكنوا من إقناع مايكل كومهوف [Michael Kumhoff](#) كبير الاقتصاديين في بنك إنجلترا بالتحدث عن التطورات التعددية في الاقتصاد. وكان الإقبال على المؤتمر بأكمله ينافس التجمعات الأكثر شهرة للاقتصاد الراديكالي.

لكن التطور الأكثر تشجيعاً بالنسبة لي كان عقد جلسة منفصلة حول مساهمة ماركس في الاقتصاد الحديث. لقد استهدف إعادة التفكير في الاقتصاد [Rethinking Economics](#) على الصعيدين الوطني والدولي إلى توسيع نطاق الاقتصاد بما يتجاوز أورثودوكسية الكلاسيكية الجديدة السائدة والتي فشلت بشكل كبير في توقع أو تفسير أو حل الانهيار المالي العالمي والركود العظيم الذي تلا ذلك. ولكن حتى الآن فإن البديل في إعادة التفكير كان تحت هيمنة الكينزيين وما بعد الكينزيين مع غياب الاقتصاد الماركسي عموماً.

لذلك كان رائعاً أنني دُعيت لعرض أطروحة مساهمة الاقتصاد الماركسي، جنباً إلى جنب مع كارولينا ألفيس [Carolina Alves, the Joan Robinson fellow at Girton College, Cambridge.](#) من كلية جيرتون، جامعة كامبريدج. أوجزت في عرضي (انظر هنا [The contribution of Marxian economics](#))، الاختلافات في النظرية micro and macro والسياسة العامة policy، سواء الصغرى أو الكلية micro and macro بين الاقتصاد الكلاسيكي التقليدي السائد، البدائل

غير الأرثوذكسية المغايرة heterodox alternatives (الكينزية، ما بعد الكينزية، المؤسساتية والنمساوية) والماركسية.

أرى هذا على أنه [مؤشر] لثلاث مدارس فكرية – وهو أمر وجده بعض المشاركون من الجناح غير الأرثوذكسي غريباً. لماذا لا يندرج الاقتصاد الماركسي داخل الاقتصاد غير الأرثوذكسي؟ بالنسبة لي، كانت الإجابة بسيطة. هناك شيء واحد يوحد التيار الرئيسي السائد والتيار غير الأرثوذكسي (في كل أشكاله) وشيء واحد يتميز به الاقتصاد الماركسي: وهو نظرية العمل للقيمة وفائض القيمة. ينكر الكلاسيكيون الجدد وجميع الاقتصاديين غير الأرثوذكسيين من كينز إلى كالييتشكي وروبسون ومينسكي وكين وأصحاب النظرية النقدية الجديدة MMTers صحة وأهمية مساهمة ماركس الرئيسية في فهم النظام الرأسمالي: كونه نظام للإنتاج من أجل الربح؛ وأن الأرباح تنشأ من استغلال قوة العمل – حيث تنشأ القيمة وفائض القيمة. إن القيمة لا تنشأ من المنفعة الحدية (الإشباع الفردي) أو الإنتاجية الحدية (العائد على مدخلات العوامل) ولكن من الاستغلال، الذي يتجسد في بيع السلع لجني الأرباح.

إن الرأسمالية هي اقتصاد نقدي حيث يكون الإنتاج من أجل الربح، وليس الحاجة. إن هذا الواقع الواضح بشكل صارخ ينكره التيار الرئيسي (حيث لا يوجد ربح "على الهامش" "at the margin" "no profit") وأيضاً من قبل غير الأرثوذكسيين الذين يقبلون إما بالنظرية الحدية marginalism أو يحسبون أن الربح يأتي من "الاحتكار" أو "القوة" أو من تعاطم دور "المالية" "financialisation" – ولكن ليس من استغلال قوة العمل.

بالنسبة لي، فإن تفسير ماركس ليس صحيحاً في الواقع فحسب، بل إنه ضروري أيضاً لتوضيح عملية التراكم والأزمة المزمنة داخل الرأسمالية – فكل المدارس الاقتصادية الأخرى تفنقر إلى هذا. في الجلسة التي عُقدت حول ماركس، أكدت كارولينا أليس أيضاً على الجانب الرئيسي الآخر لمساهمة ماركس في فهم المجتمع، أي المفهوم المادي للتاريخ. "الوجود الاجتماعي يحدد الوعي" وليس العكس، والتكنولوجيا (قوى الإنتاج) والعلاقات الاجتماعية (ملكية وسائل الإنتاج) هي التي تحدد الصراع الطبقي وأشكال التنظيم الاجتماعي والأيدولوجية. على عكس النظرة المثالية لكينز بأن الاقتصاد السيئ يقع في قبضة فكرة انتهت صلاحيتها لأحد الاقتصاديين، فإن الفكر الاقتصادي السائد يتم تحويله إلى اعتذار عن الوضع الراهن للرأسمالية لأن الاقتصاديين يعملون في نهاية المطاف من

أجل المصالح المادية لرأس المال [economists ultimately work for the material interests of capital](#)، وهكذا كان الهدف الرئيسي لماركس هو "نقد الاقتصاد السياسي" - العنوان الفرعي لكتاب رأس المال.

انصب نقدُ نظرية ماركس للقيمة، على الأقل كما عبر عنها الحضور في جلسة ماركس، على أن ماركس عفا عليه الزمن: لقد كان على ما يرام في شرح الاقتصادات الصناعية في القرن التاسع عشر وحتى استغلال العمال في الاقتصادات الناشئة الآن، لكنه ليس له أي صلة بالاقتصادات الحديثة القائمة على الخدمات التكنولوجية الفائقة للاقتصادات الرأسمالية المتقدمة. كان جوابي: أخبر ذلك للعمال في [شركة] الأمازون. بشكل عام، فإن معدلات الاستغلال في الاقتصادات المتقدمة أخذت في الارتفاع، وليس في الانخفاض. كان النقد الآخر هو أن ماركس لم يخبرنا سوى القليل عما حدث في الاتحاد السوفيتي أو الصين - وهذا صحيح إلى حد ما، لكن رأس المال يتعلق بالرأسمالية ونقد الاقتصاد السياسي، وليس اقتصادات ما بعد الرأسمالية.

كون أن تجاهل أو رفض نظرية القيمة التي وضعها ماركس من جانب الاقتصاد غير الأرثوذكسي مماثل لتيار الاقتصاد السائد انكشف في الجلسة حول دور النقود والمالية في الاقتصادات الحديثة. فقد قدم جو ميتشيل [Jo Michel](#)، وهو اقتصادي ينتمي إلى المدرسة ما بعد الكينزية من جامعة غرب إنجلترا، وصفاً ممتازاً وواضحاً لدور النقود. لكنه عندما سُئل عما إذا كانت أي نظرية للنقود والائتمان تتطلب دعماً من نظرية القيمة، أجاب (بعد بعض التردد) "ربما لا".

وبالتالي، [وفقاً لهذا الموقف] يجب فصل النقود والمالية عن القيمة والسلع ويكون لهما [النقود والمالية] دور مستقل (أو حتى مُحَدَد) في الرأسمالية بدلاً من إنتاج القيمة وفائض القيمة. هذا، بالطبع، هو بالضبط ما تستنتجه النظرية النقدية الحديثة [modern monetary theory \(MMT\) also ends up](#) - مفصولة عن ركيزة القيمة والربح ونافية للعلاقات الاجتماعية للإنتاج الرأسمالي. إن التحليل غير الأرثوذكسي، وما بعد الكينزي ونظرية النقود الحديثة يتجاهل الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج واستغلال أولئك الذين لا يملكون غير قوة عملهم. كما قال جو ميتشيل، لا يمكنك إصلاح التغير المناخي أو عدم المساواة من خلال العمل النقدي. أود أن

أضيف إنه لا يمكنك تجنب الأزمات المنتظمة في الرأسمالية بتدابير نقدية أو مالية فقط.

في الجلسة نفسها، جادلت فرانسيس كوبولا [Frances Coppola](#)، وهي اقتصادية غير أورثودوكسية تدير مدونة خاصة بها، بأن الأزمات كانت حقاً نتاجاً لنقود قليلة جداً تطارد الكثير من السلع (في إشارة إلى تعليق إيرفينج فيشر أثناء الكساد العظيم في ثلاثينيات القرن العشرين). لكنها حسبت أن ضخ النقد من البنوك المركزية على غرار التيسير الكمي بعد الكساد العظيم قد فشل في دفع الاقتصادات الرأسمالية للأمام لأن البنوك لن تقرض. هناك "خوف وعدم يقين" وهو ما يمنع البنوك من الإقراض، والشركات من الاستثمار والناس من الإنفاق. هذه الحجة تدور حول فكرة كينز حول تدني "النزعة الحيوانية" [لدى المستثمرين]. وهي ترى أن الأزمات والكساد الطويل هي نتيجة للتغيرات في "سيكولوجية" المستثمرين والمستهلكين ولا علاقة لها بربحية رأس المال. عند سؤالها، إذا كانت الأزمات ناتجة عن الخوف وعدم اليقين، فما الذي يمكن أن نفعله للتخلص من هذه المخاوف؟ أجابت بأنه علينا فقط الانتظار حتى تعود "الثقة"!

رفضت كوبولا أيضاً الحاجة إلى نظرية للقيمة أو الربح. بدلاً من ذلك، فهي تعتقد أن النقود تخضع لسيطرة "هياكل القوة" (المؤسسات المالية؟) ولا ترتبط بالقيمة. في الواقع، في لقاء سابق نظمته [Rethinking Economics](#) قبل بضع سنوات، عقدت كوبولا جلسة حول نظرية القيمة [in a previous event organised by Rethinking Economics some years ago, Coppola did a session on value theory](#) حيث رفضت تماماً نظرية ماركس للقيمة لصالح نظرية المنفعة الحدية للتيار الرئيسي. يبدو لي أن المدارس غير الأرثودوكسية، في رفضها لنظرية القيمة التي وضعها ماركس أو الحاجة إلى أي نظرية للقيمة، ينتهي بها المطاف إلى تبني النظرية الحدية للكلاسيكية الجديدة.

حضرت أيضاً جلسة حول التبعية والإمبريالية حيث أوضحت إنغريد هارفولد [Ingrid Harvold](#) من جامعة يورك جميع أشكال ما يسمى بنظرية التبعية، أي أن الاقتصادات الطرفية "الناشئة" تعتمد إلى حد كبير على المركز الإمبريالي بحيث لا يمكنها التطور والنمو بأي شكل حقيقي. هناك العديد من الاختلافات حول أسباب هذا التبعية من انخفاض معدلات التبادل التجاري بسبب اختلاف الإنتاجية، والسيطرة الاحتكارية على

التمويل والتكنولوجيا من قبل الاقتصادات الإمبريالية، وانخفاض الأجور والاستغلال الفائق لـ "الجنوب".

قدم توني نورفيلد، مؤلف كتاب "السيتي" [The City](#)، الذي استعرضته من قبل، تعريفه للإمبريالية [presented his definition of imperialism](#) كقوة احتكارية من قبل الدول الكبرى المدعومة من مؤسسات دولية مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي والأمم المتحدة. هذه القوة الاحتكارية تمنح الدول الإمبريالية حرية وصول وسيطرة أفضل على التكنولوجيا. أظهر نورفيلد مع "مؤشر القوة الإمبريالية" 'imperialist power index' أن هناك بالفعل عشرة أو أكثر من البلدان التي يمكن اعتبارها إمبريالية مع بقية الدول الأخرى مجرد بلدان خاسرة also-rans. لكنه حذر من الرأي القائل بأن المالية هو كل شيء. فالقوة المالية تنبع من القوة الإنتاجية والتكنولوجية. والأزمات المالية هي أحد أعراض الأزمة الأساسية في الرأسمالية، عندما لا يسير الدين مع إنتاج القيمة.

نعم، كان ذلك هو أهم ما لدي في هذا المؤتمر الممتاز. يقف الاقتصاد السياسي الماركسي منفصلاً عن النظريات السائدة وعن النظريات غير التقليدية لأنه يستند على نظرية القيمة القائمة على استغلال قوة العمل. هذا هو المفتاح، لكل من العلاقات الاجتماعية للإنتاج ودور النقود، ولكن أيضاً لأسباب الأزمات والهيمنة الإمبريالية. إن الربح هو القوة الدافعة للاستثمار والإنتاج في الاقتصاد الرأسمالي، ولذلك فإن ما يحدث للأرباح وربحية رأس المال هو العامل الحاسم في الأزمات. وبالتالي لا يمكن التخلص من الأزمات بشكل دائم من الاقتصادات الحديثة حتى يتم استبدال الاقتصاد الرأسمالي الذي يحركه الربح. إن محاولة "إصلاح" المالية من خلال التنظيم [الضوابط]؛ أو الركود من خلال التحفيز المالي أو النقدي، كما يركز عليه الاقتصاديون غير الأورثودوكسيون، محكوم عليه بالفشل.

ريتشارد هورتون: الطب وماركس

عندما خاطب الرئيس شي جين بينغ المؤتمر الوطني التاسع عشر للحزب الشيوعي الصيني الشهر الماضي [تشرين الأول 2017]، تحدث عن "الحقيقة العلمية للماركسية اللينينية." إن الماركسية (ذات الخصائص الصينية)، كما قال الرئيس شي، هي الأساس لصين يتمتع بالصحة.

من يجرؤ اليوم في الغرب على مدح كارل ماركس كمنقذ لرفاهيتنا؟ لقد مات ماركس منذ فترة طويلة فقد توفي جسدياً في 14 آذار/مارس عام 1883. وتوفي ميتافيزيقياً في عام 1991، عندما انحسر الاتحاد السوفيتي بعيداً إلى دولة روسية مستقلة حديثاً. لقد تعثرت التجربة الشيوعية وتداعت وفشلت أخيراً. ما هو الإرث الذي تركه؟ كما كتب ميشيل كازاتشكين في مجلة لانسيت الشهر الماضي، فإن النظام الصحي في الحقبة السوفيتية "تدهور بسرعة" في سنواته الأخيرة، مما أدى إلى "عدم كفاية توافر الأدوية والتكنولوجيات الطبية، ومرافق تعاني من سوء الصيانة، وتدهور في جودة الرعاية الصحية، وانخفاض متوسط العمر المتوقع." ولكن هل من العدل أن نُهمش مكانة ماركس في تأريخ الصحة؟ يصادف 5 أيار/مايو 2018 الذكرى المئوية لميلاد ماركس. إن هذه المناسبة هي لحظة لإعادة تقييم مساهمة ماركس في الطب واكتشاف ما إذا كان تأثيره ضاراً مثلاً توحى الحكمة المعاصرة.

إن الطب والماركسية لهما تاريخ متشابك وحميم ومحترم. فقد كانت الصحة العامة القابلة لميلاد الماركسية. ففي كتابه *حالة الطبقة العاملة في إنجلترا* (1845) كشف فريدريك إنجلز عن التكاليف البشرية للرأسمالية. صاغ رئيس التحرير السابق بَد ريلمان Bud Relman لمجلة NEJM [New England Journal of Medicine]، مصطلح "المجمع الصناعي الطبي"، مردداً مخاوف ماركسية من تسليع كل شيء نهتم به كثيراً في حياتنا. وطرح هوارد وايتزكين هذه الفكرة في ورقة عام 1978 في *حوليات الطب الباطني Annals of Internal Medicine*، بعنوان "وجهة نظر ماركسية للرعاية الطبية": "إن وجهة النظر الماركسية تتساءل عما إذا كان بالإمكان إدخال تحسينات كبيرة في النظام الصحي دون تغييرات أساسية في النظام الاجتماعي العام." وكتبت مجلة الإيكونوميست، وهي ليست معقلاً للفكر اليساري، في وقت سابق من هذا العام، أن "هناك قدر هائل للتعلم من ماركس. في الواقع، يبدو أن الكثير مما قاله ماركس أصبح أكثر أهمية يوماً بعد يوم." فولفجانج ستريك، في كتابه المثير

للاستفزاز **كيف ستنتهي الرأسمالية؟** (2016)، يستخدم الاستعارات الطبية لوصف "الأمراض المتعددة" التي تواجه الرأسمالية منذ الأزمة المالية العالمية لعام 2007. ويجادل في أن الرأسمالية راكمت كتلة من الهشاشة واستنفدت عدتها من العلاجات. وكتب الاقتصادي السابق في صندوق النقد الدولي، كين روجوف، في عام 2005 أن "المعركة الكبرى القادمة بين الاشتراكية والرأسمالية ستشن على صحة الإنسان ومتوسط العمر المتوقع." وقالت رئيسة الوزراء البريطانية، تيريزا ماي، إن الرأسمالية هي "أكبر عامل للتقدم البشري الجماعي الذي تم إنشاؤه على الإطلاق." لكن أعداداً متزايدة من الناس، وخاصة الأجيال الشابة، يعتقدون أن الاقتصادات القائمة فقط على الأسواق الحرة ليست بالضرورة أفضل وسيلة لقيام مجتمعات أكثر عدالة أو صحة. وأشارت رئيسة الوزراء النيوزيلندية الجديدة، جاسيندا أديرن، في الشهر الماضي إلى أنه "عندما تسمح للأسواق بتحديد مصير شعبك ... فهذا لا يخدم دولة أو شعباً بشكل جيد." لقد عادت الأفكار الماركسية إلى ساحة الجدل السياسي من جديد.

كما يجادل تيري إيجلتون في لماذا كان ماركس على حق (2011)، فإن الماركسية لا تدور حول ثورة عالمية عنيفة، أو ديكتاتوريات استبدادية، أو خيالات طوباوية غير قابلة للتحقيق.

أعتقد أن أهمية ماركس بالنسبة للطب تعود لثلاثة أسباب. أولاً، يقدم ماركس نقداً للمجتمع، ومنهجاً للتحليل، ثمكّن من شرح الاتجاهات المثيرة للقلق في الطب الحديث والصحة العامة - اقتصادات الصحة المخصصة، وقوة النخب المهنية المحافظة، ونمو التفاؤل التكنولوجي، ورأسمالية الصدقات philanthrocapitalism، وأهمية المحددات السياسية للصحة، والميول الإمبريالية الجديدة للصحة العالمية، وتعريفات المرض القائمة على المُنتج الطبي، واستبعاد الجماعات التي شوّعت سمعتها من مجتمعاتنا. إن البحث في هذه الجوانب من الرعاية الصحية في القرن الحادي والعشرين وتفسيرها سيكون أفضل باعتماد منظور ماركسي. ثانياً، تدافع الماركسية عن مجموعة من القيم: التقرير الحر لمصير الفرد، المجتمع العادل، نهاية الاستغلال، تعميق إمكانات المشاركة العامة في تشكيل الخيارات الجماعية، رفض قبول ثبات الطبيعة البشرية والإيمان بقدرتنا على التغيير، والحفاظ على شعور الاعتماد المتبادل وعدم التجزئة لإنسانيتنا المشتركة. أخيراً، فإن الماركسية هي دعوة للانخراط، دعوة للانضمام إلى النضال من أجل حماية القيم التي نتشارك بها. ليس عليك أن تكون ماركسياً لتقدر قيمة

ماركس. مع اقتراب الذكرى المئوية لميلاده، قد نتفق على أن الطب لديه الكثير ليتعلمه من ماركس.

ريتشارد هورتون، محرر مجلة لانسيت

نشر هذا التعليق في المجلة الطبية الإنجليزية لانسيت *The Lancet*، المجلد 390، العدد 10107، 4 تشرين الثاني 2017. لقراءة النص الإنجليزي راجع:

Richard Horton, Medicine and Marx, *The Lancet*,
[https://doi.org/10.1016/S0140-6736\(17\)32805-2](https://doi.org/10.1016/S0140-6736(17)32805-2)

لانسيت مجلة طبية أسبوعية محكمة، تأسست في إنجلترا سنة 1823.

المسارات الفكرية المجهولة للمراحل الأخيرة في حياة ماركس: حوار مع مارچيلو موستو¹

لماذا تعتقد أن هناك عودة لمؤلفات ماركس في القرن الحادي والعشرين؟
لماذا تركز على الفترة الأخيرة من حياته؟

مارچيلو موستو (م.م): في السنوات الأخيرة من حياته، شرح ماركس العديد من الأسئلة التي غالبًا ما يتم التقليل من شأنها أو حتى تجاهلها من قبل الباحثين في أعماله، إلا أنها ذات أهمية حاسمة للأجندة السياسية في عصرنا. وتشمل هذه الإيكولوجيا،² والحرية الفردية في المجال الاقتصادي

¹ Originally published: Left Voice by Josefina L. Martínez (February 27, 2022) | -
Posted Mar 05, 2022

نُشر في الأصل: Left Voice بقلم جوزيفينا إل مارتينيز (27 شباط/فبراير 2022) | - نُشر في موقع
MRonline بتاريخ 5 آذار/مارس 2022 تحت عنوان: The unknown paths of the late Marx
<https://mronline.org/2022/03/05/the-unknown-paths-of-the-late-marx/>

مارچيلو موستو Marcello Musto أستاذ علم الاجتماع بجامعة يورك في تورنتو، كندا. أحدث مؤلفاته كتاب بعنوان "السنوات الأخيرة لكارل ماركس: سيرة ذاتية فكرية". كما أصدر كتابًا بعنوان "ماركس آخر: المخطوطات الأولى للأممية" إلى جانب العديد من الكتب والمختارات الأخرى. وقد أطلق عليه لقب "أعظم خبير في حياة ماركس"، وُترجمت كتاباته إلى 25 لغة.

حسب علمي فإن مؤلفات مارچيلو موستو لم تترجم إلى العربية، وما هو متوفر هو القليل من حوار له مع المؤرخ الراحل أريك هوبزباوم، ومقال عن روزا لوكسمبرج. فيما يلي ما استطعنا الوصول إليه لروابط ما هو منشور باللغة العربية:

"روزا لوكسمبورغ بعد مرور 150 عامًا"، ترجمة: أسامة إسير، موقع الحدلية:
<https://www.jadaliyya.com/Details/42508>

عبد الحسين سلمان، "تراث ماركس و إنجلز المجلد 28 الغروندريسة القسم الأول" الحوار المتمدن:
<https://www.ahewar.org/debat/s.asp?t=4&aid=636799>
حوار مع هوبزباوم.

أنظر أيضًا بهذا الشأن، "حوار مع إريك هوبزباوم: عودة ماركس"، رصد أخبار العالم:
<https://www.gnmonitor.com/%D8%AD%D9%88%D8%A7%D8%B1-%D9%85%D8%B9-%D8%A5%D8%B1%D9%8A%D9%83-%D9%87%D9%88%D8%A8%D8%B3%D8%A8%D8%A7%D9%88%D9%85-%D8%B9%D9%88%D8%AF%D8%A9-%D9%85%D8%A7%D8%B1%D9%83%D8%B3%D8%8C/>

² من بين الدراسات المهمة حول علاقة ماركس بالإيكولوجيا هذين الكتابين:

والسياسي، وتحرير المثلية الجنسية، ونقد القومية، وأشكال الملكية الجماعية التي لا تسيطر عليها الدولة.

بالإضافة إلى ذلك، قام ماركس بالبحث في المجتمعات غير الأوروبية وتحدث ضد ويلات الاستعمار بعبارات لا لبس فيها. من الخطأ أن نفتتح خلاف ذلك. يتضح هذا في مخطوطات ماركس غير المكتملة - التي نُشرت مؤخرًا في الطبعة التاريخية النقدية لأعماله الكاملة، ماركس-إنجلز-كيزمتاوسكابه (MEGA2) - Marx- Engels-Gesamtausgabe - على الرغم من الشك السائد في بعض الأوساط الأكاديمية. وهكذا، بعد 30 عامًا من نهاية الاتحاد السوفيتي، من الممكن قراءة ماركس مختلف تمامًا عن المنظر الدوغمائي والاقتصادي والمتمركز حول أوروبا الذي تعرض لانتقادات لسنوات عديدة من قبل أولئك الذين لم يقرأوا أعماله أو قرأوا أعماله بشكل سطحي جدًا.

إن كل السير الذاتية الفكرية لماركس تقريبًا المنشورة حتى الآن تعطي وزناً كبيراً لكتابات المبكرة. ولفترة طويلة، أعاقَت صعوبة الحصول على أبحاثه التي قام بها في السنوات الأخيرة من حياته فهم إنجازاته المهمة. لقد خصص جميع كتاب سيرة ماركس بضع صفحات فقط لنشاطه بعد تفكك جمعية العمال الدولية [الأممية الأولى] في عام 1872، واستخدموا دائمًا العنوان العام "العقد الأخير" لتلخيص هذه المرحلة من حياته، بدلاً من الخوض عميقاً في ما قام به. ويهدف كتابي إلى المساهمة في سد هذه الفجوة.

عندما ننظر إلى "ماركس في أواخر حياته"، ما الذي يمكن أن نتعلمه من دفاتر ملاحظاته حول مجتمعات ما قبل الرأسمالية ودراساته الإثنولوجية؟

م.م: من 1881 إلى 1882، حقق ماركس تقدماً نظرياً كبيراً في دراساته للأنثروبولوجيا، وأنماط الإنتاج ما قبل الرأسمالية،

John Bellamy Foster, *Marx's Ecology: Materialism and Nature* (Monthly Review Press, 2000)

Kohei Saito, *Karl Marx's Ecosocialism* (Monthly Review Press, 2017)

وهو يبحث بالتفصيل في الدفاتر التي كتبها ماركس حول البيئة والزراعة والتربة والسماد ويبين مدى عمق فهم ماركس للقضايا للإيكولوجية في عصره.

والمجتمعات غير الغربية، والثورة الاشتراكية، والمفهوم المادي للتاريخ. كان يعتقد أن دراسة الصراعات السياسية الجديدة والموضوعات الجديدة والمناطق الجغرافية كانت أساسية لنقده للنظام الرأسمالي. وقد سمح له ذلك بالانفتاح على الخصوصيات القومية الجديدة والنظر في إمكانية تطور الحركة الشيوعية بطرق مختلفة عما كان يتخيله سابقًا.

إن ما يسمى بـ **الدفاتر الإثنولوجية** *Ethnological Notebooks* (1881)، وهي عبارة عن مجموعة من الملخصات الشارحة لكتاب **المجتمع القديم** *Ancient Society* (1877) لعالم الأنثروبولوجيا الأمريكي لويس إتش مورغان Lewis H. Morgan، ونصوص أخرى عن التاريخ والأنثروبولوجيا، تمثل أحد أهم البحوث في الفترة الأخيرة من حياته. وقر هذا المؤلف لماركس الحصول على معلومات محددة حول الخصائص الاجتماعية والمؤسسات في الماضي البعيد، والتي لم تكن في حوزته عندما نشر كتاب رأس المال في عام 1867.

لم يدرس ماركس الأنثروبولوجيا بدافع الفضول الفكري فحسب، بل بنية نظرية-سياسية تمامًا. لقد أراد إعادة بناء التسلسل الذي تتابعت فيه أنماط الإنتاج المختلفة مع مرور الوقت، على أساس الفهم التاريخي الصحيح. وقد ساعد هذا أيضًا في منحه أسسًا تاريخية أكثر صلابة للتحول الشيوعي المحتمل للمجتمع.

في السعي لتحقيق هذا الهدف، كرّس ماركس نفسه لدراسة عصور ما قبل التاريخ، وتطور الروابط الأسرية، ووضع المرأة، وأصل علاقات الملكية، والممارسات المجتمعية التي كانت موجودة في مجتمعات ما قبل الرأسمالية، وتشكيل وطبيعة قوة الدولة ودور الفرد في المجتمع. من بين أكثر أفكاره إثارة للتفكير ملاحظاته حول تراكم الثروة، والتي أشار فيها إلى أن "الملكية الخاصة للمنازل والأراضي والقطعان [مرتبطة] بالعائلة أحادية الزواج". وكما جاء في بيان الحزب الشيوعي (1848)، فإن هذا يمثل نقطة انطلاق التاريخ على أنها "تاريخ الصراع الطبقي".

كما أولى ماركس اهتمامًا كبيرًا لحجج مورغان بشأن تحرير المرأة. فقد أكد عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي أن المجتمعات القديمة كانت

أكثر تقدماً من المجتمعات الحديثة في معاملتها وسلوكها تجاه النساء. ففي اليونان القديمة، كان التحول من خطوط النسب الأنثوية إلى الذكور ضاراً بوضع المرأة وحقوقها، واعتبر مورغان هذا النموذج الاجتماعي سلبياً للغاية. بالنسبة لمؤلف كتاب **المجتمع القديم**، فإن الإغريق "ظلوا بربريين بشكل أساسي في معاملتهم للجنس الأنثوي في ذروة حضارتهم ... وتم إدخال الدونية كمبدأ، حتى أصبحت مقبولة من قبل النساء أنفسهن." بالتفكير في التناقض مع أساطير العالم الكلاسيكي، أضاف ماركس تعليقاً واضحاً في **الدفاتر الإثنولوجية**: "لكن وضع الآلهات في أوليمبس يوضح الحنين إلى الموقف السابق الأكثر حرية وتأثيراً للإناث. فالإلهة جونو Juno، إلهة الحكمة، المتعطشة للسلطة، تنطلق من رأس زيوس.³

ربما كان الاهتمام الوحيد المعروف لـ "ماركس في سنواته الأخيرة" هو النقاش حول الكوميون **commune** الريفي الروسي. هل هذا مثال على تفكيره الديالكتيكي المناهض للغائية؟

م.م: من عام 1870 فصاعداً، وبعد أن تعلم قراءة اللغة الروسية، بدأ ماركس دراسة جادة للتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي تحدث في روسيا. وهكذا تعرّف على كتابات نيكولاي تشيرنيشيفسكي [1889-1828]، الشخصية الرئيسية في "الشعبوية" الروسية (في القرن التاسع عشر، كان للمصطلح دلالة يسارية ومناهضة للرأسمالية). في دراسته لكتابات تشيرنيشيفسكي، اكتشف ماركس أفكاراً أصيلة حول إمكانية أن يقفز التطور الاقتصادي في بعض أجزاء العالم على نمط الإنتاج الرأسمالي بكل عواقبه الاجتماعية الرهيبة على الطبقة العاملة في أوروبا الغربية. كتب تشيرنيشيفسكي أنه ليس بالضرورة أن تمر كل ظاهرة اجتماعية بكل الخطوات المنطقية في الحياة الواقعية لجميع المجتمعات. لذلك، يجب الحفاظ على الخصائص الإيجابية للكوميونات الريفية الروسية (الأوبشينا obshchina)، لكنها لا تستطيع ضمان رفاهية جماهير الفلاحين إلا إذا تم إدراجها في سياق إنتاجي مختلف. لا يمكن أن تساهم الكوميونات في مرحلة جديدة أولية من التحرر الاجتماعي

³ يمكن متابعة مناقشة هذا الموضوع في كتاب:

Heather A. Brown. *Marx on Gender and the Family* (Brill: 2012), p 160.

جونو هي ملكة السماء عند الرومان يقابلها هيرا عن الإغريق:

Michael Jordan, *Encyclopaedia of Gods* (London: Kyle Cathie, 1992), p145.

إلا إذا أصبحت جنينًا لنظام اجتماعي جديد ومختلف جذريًا. بدون الاكتشافات العلمية والابتكارات التكنولوجية المرتبطة بصعود الرأسمالية، لن تتحول الأوبشينا أبدًا إلى تجربة في التعاون الزراعي الحديث حقًا. على هذا الأساس، كان لدى الشعبويين هدفان لبرنامجهم: منع تقدم الرأسمالية في روسيا والاستفادة من الإمكانيات التحررية للكوميونات الريفية القائمة.

على الرغم من أن هذا غير معروف لمعظم الباحثين في فكر ماركس، إلا أن عمل تشيرنيشيفسكي كان مفيدًا جدًا لمؤلف كتاب رأس المال. عندما سألته فيرا زاسوليتش [Vera Zasulich 1849-1919] في عام 1881 عما إذا كان من المقدر أن تختفي الأوبشينا أو إذا كان من الممكن تحويلها إلى شكل اشتراكي للإنتاج، كان لدى ماركس نظرة نقدية للغاية لعملية الانتقال من الأشكال المجتمعية communal في الماضي إلى الرأسمالية. على سبيل المثال، في إشارة إلى الهند، قال إن الشيء الوحيد الذي تمكّن البريطانيون من فعله هو "إفساد الزراعة المحلية وتضخيم عدد المجاعات وحدّتها". في سياق مماثل، لم يعتقد ماركس أن الرأسمالية مرحلة ضرورية لروسيا. لم يكن يعتقد أن مصير الأوبشينا هو نفس مصير الكوميونات المماثلة في أوروبا الغربية في القرون السابقة، حيث كان الانتقال من مجتمع قائم على الملكية الجماعية إلى مجتمع قائم على الملكية الخاصة موحّدًا إلى حد ما. في الوقت نفسه، لم يغير ماركس تقييمه النقدي للكوميونات الريفية الروسية. في رأيه، ظلت أهمية التطور الفردي وتطوير الإنتاج الاجتماعي من أجل بناء مجتمع اشتراكي سليمة. بالنسبة لماركس، فإن الكوميونات الريفية القديمة لم تعزز تحررًا أكثر تقدمًا للفرد من العلاقات الاجتماعية التي كانت موجودة داخل الرأسمالية.

تم تفسير هذا النقاش بطرق مختلفة. على سبيل المثال، اقترحت قراءة "عالم ثالثة" لماركس أنه في سنواته الأخيرة خالف أفكاره السابقة وغير موضوعه الثوري. ما رأيك في هذه القراءات؟

م.م: في مسودات رسالته إلى فيرا زاسوليتش، لا توجد مؤشرات على قطيعة دراماتيكية مع مواقف ماركس السابقة، كما يعتقد بعض الباحثين مثل هاروكي وادا Haruki Wada وإنريكي دوسل Enrique Dussel. ولا يمكنني أن أؤيد وجهة نظر المؤلفين

الذين اقترحوا قراءة "عالم ثالثة" لماركس، زاعمين أن الثوريين لم يعودوا عمال المصانع، بل هم جماهير الريف والأطراف.⁴

تمشيًا مع مبادئه النظرية، لم يقترح ماركس أن روسيا أو البلدان الأخرى التي كانت الرأسمالية فيها لا تزال متخلفة ستصبح بالضرورة المحور الأساسي لانتفاضة ثورية. كما أنه لم يعتقد أن الدول ذات الرأسمالية المتخلفة كانت أقرب إلى هدف الاشتراكية من تلك التي لديها تطور أكثر تقدمًا لقوى الإنتاج. في رأيه، لا ينبغي الخلط بين التمردات في فترات متقطعة أو حركات المقاومة النضالية وإنشاء نظام اجتماعي اقتصادي جديد قائم على الاشتراكية. إن الاحتمالية التي أخذها في الاعتبار في لحظة خاصة جدًا من التاريخ الروسي، عندما كانت هناك ظروف مواتية للتحويل التدريجي للكوميونات الزراعية، لا يمكن رفعها إلى مرتبة نموذج عام. فلا في الجزائر التي يحكمها الفرنسيون، ولا في الهند البريطانية، على سبيل المثال، يمكن ملاحظة هذه الظروف الخاصة التي شخّصها تشيرنيشيفسكي. لا يمكن مقارنة روسيا في أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر بما حدث في زمن لينين. إن العنصر الجديد في تفكير ماركس يتمثل في الانفتاح النظري المتزايد، والذي مكّنه من التفكير في مسارات أخرى محتملة للاشتراكية لم يفكر فيها من قبل أو التي رأى أنها مستحيلة.

يمكن وضع أفكار ماركس حول مستقبل الأوبشينا كنقيض للاعتقاد بأن الاشتراكية يمكن مساواتها بالقوى المنتجة - وهو مفهوم تميز بإحياءات قومية وتعاطف استعماري كان حاضراً في الأممية الثانية والأحزاب الديمقراطية الاجتماعية. اختلفت آراء ماركس أيضاً اختلافاً كبيراً عن "الطريقة العلمية" المفترضة للتحليل الاجتماعي السائدة في الماركسية-اللينينية في القرن العشرين.

إن غياب أي مخطط جامد والقدرة على تطوير نظرية ثورية مرنة - لا تنفصل أبداً عن سياقها التاريخي - مفيد ليس فقط لفهم فكر

⁴ من الدراسات الرائدة حول فكر ماركس في السنوات الأخيرة من حياته بشأن دور الكوميونات الزراعية في روسيا كتاب:

Teodor Shanin, *Late Marx and the Russian Road: Marx and the Peripheries Of Capitalism* (Monthly Review Press, 1983)

ماركس، ولكن أيضًا لإعادة ضبط بوصلة العمل السياسي لقوى اليسار المعاصر العاملة من أجل التغيير.

في نهاية حياته، عندما كان مريضًا بالفعل، سافر ماركس إلى الجزائر. هذه الحلقة [من حياته] ليست معروفة جيدًا. ماذا تعلمه ماركس من هذه التجربة؟

م.م: في محاولة يائسة لعلاج مرض الرئة بمناخ معتدل، وصل ماركس إلى إفريقيا في شباط/فبراير عام 1882. مكث في الجزائر العاصمة لمدة 72 يومًا - وهي الفترة الوحيدة من حياته التي قضاها خارج أوروبا. لسوء الحظ، لم يول أي كاتب لسيرة ماركس اهتمامًا خاصًا لهذه الرحلة.

لقد منعت حالته الصحية السيئة من اكتساب فهم شامل للواقع الجزائري ولم يستطع حتى إكمال خطته لدراسة خصائص الملكية المشتركة common property بين العرب. أصبح مهتمًا بهذا الموضوع في سياق دراساته حول الملكية الزراعية ومجتمعات [التشكيلات] ما قبل الرأسمالية،⁵ والتي بدأها في عام 1879. كتب في ذلك الوقت، أن إضفاء الطابع الفردي على ملكية الأرض، تم خلال فترة الحكم الفرنسي بأكملها، وأن الغزاة لم يكتفوا بفوائد اقتصادية هائلة فحسب، بل عززوا أيضًا الهدف السياسي المتمثل في تدمير أسس المجتمع الجزائري.⁶

انزعج ماركس بشدة من حقيقة أنه أُجبر على التخلي عن أي نوع من النشاط الفكري الشاق. على الرغم من اعتلالاته، فقد كان قادرًا

⁵ راجع:

Karl Marx, *Pre-Capitalist Formations*, Introduction by Eric Hobsbawm (Lawrence and Wishart, 1964)

⁶ حسين الموزاني، "رحلة ماركس إلى الجزائر: نظرة فيلسوف البروليتاريا العالمية إلى العرب والمسلمين"، موقع سعدي يوسف الإلكتروني:

http://www.saadiyousif.com/new/index.php?option=com_content&view=article&id=1868:---&catid=27:&Itemid=27

للتعريف بالملكية المشتركة في عصر ما قبل الإسلام وما بعده راجع: المشترك: نظام الاشتراكية الديمقراطية في ضوء تاريخ المجتمع الإسلامي وخبرة الثورات الاشتراكية الحديثة (منشورات الحزب الشيوعي العراقي-القيادة المركزية، 1983)، الفصل الأول، المشترك في الإسلام، ص 39-99.

على تلخيص ملاحظات مثيرة للاهتمام حول الاستعمار الأوروبي في رسائل كتبها من الجزائر العاصمة. هاجم بشدة الانتهاكات العنيفة والاستفزازات المتكررة من قبل الفرنسيين ضد كل عمل تمرد من قبل السكان المحليين. وشدد على أنه فيما يتعلق بالضرر الذي سببته القوى العظمى طوال تاريخ الاحتلال الاستعماري، كان البريطانيون والهولنديون الأسوأ.

في الختام: في سنواته الأخيرة، واصل ماركس الجدل مع الأشخاص الذين اعتقدوا أنه من الممكن إضفاء الطابع الديمقراطي على الدولة الرأسمالية. ما رأيك بهذا؟

م.م: في نهاية حياته، عاد ماركس إلى دراسة أصل الدولة ووظيفتها. من خلال دراسة كتاب عالم الأنثروبولوجيا لويس إتش مورغان وانتقاد المؤرخ البريطاني هنري مين Henry Maine، كرس ماركس نفسه لتحليل الدور الذي لعبته الدولة في المرحلة الانتقالية للمجتمع "من البربرية إلى الحضارة"، وأثناء ذلك بحث أيضًا العلاقة بين الفرد والدولة. كانت ملاحظات ماركس حول هذا الموضوع متوافقة مع أهم نظراته السابقة. في نقد فلسفة الحق لهيجل (1843)، كتب ماركس أن الفرنسيين كانوا محقين في تأكيدهم على أنه "في الديمقراطية الحقيقية تختفي الدولة السياسية." وفي كتاب الحرب الأهلية في فرنسا، الذي نُشر عام 1871، أطلق على سلطة الدولة "القوة العامة المنظمة للاستعباد الاجتماعي" أو "محرك الاستبداد الطبقي."

وعلى نفس النهج، عرّف ماركس في الدفاتر الإثنولوجية لعام 1881، عرّف الدولة كقوة للعبودية الاجتماعية التي تمنع التحرر الكامل للفرد. علاوة على ذلك، أصرّ في هذه الدراسات غير المعروفة على الطابع الطفيلي والانتقالي للدولة: "أن الوجود المستقل الأعلى الظاهر للدولة هو في حد ذاته ظاهر فقط، وأنه في جميع أشكاله انتفاخ لا لزوم له للمجتمع؛ فكما أن ظهوره نفسه لا يظهر إلا في مرحلة معينة من التطور الاجتماعي، فإنه يختفي مرة أخرى بمجرد أن يصل المجتمع إلى مرحلة لم يبلغها بعد."

تبدو هذه التأملات بعيدة كل البعد عن عصرنا، في مواجهة الحاجة إلى تدخل الدولة للتخفيف من حكم السوق السائد بلا منازع. ومع

ذلك، يجب ألا ننسى أبدًا أن المجتمع الاشتراكي الذي وضع نظرياته ماركس لا علاقة له بدولتية statism ما يسمى بـ "الاشتراكيات الموجودة بالفعل" في القرن العشرين. لقد وجّه ماركس انتقادات لاذعة ضد أولئك اليساريين الذين أرادوا أن يحكموا من خلال إرضاء أنفسهم بالتصحّحات الملطفة للقواعد الاقتصادية والاجتماعية للبرالية. لهذا السبب أيضًا، يظل ماركس لا غنى عنه لكل أولئك الذين يكافحون لإعادة بناء بديل تحرري. إن نقده السياسي لشيوعية الدولة و "اشتراكية" الدولة المتوافقة مع الليبرالية لا يقل أهمية عن نقده الاقتصادي لنمط الإنتاج الرأسمالي.

مايكل روبرتس: يانوش كورناي: عن الرأسمالية والاشتراكية

نشر النص الإنجليزي للمقال في موقع الاقتصادي الماركسي مايكل روبرتس:

<https://thenextrecession.wordpress.com/2021/11/11/kornai-on-capitalism-and-socialism/>

توفي يانوش كورناي János Kornai مؤخرًا عن عمر يناهز 93 عامًا [2021-1928]. كان خبيرًا اقتصاديًا مجريًا معروفًا بتحليله وانتقاده للاقتصاديات الموجهة/الأوامرية command economies في الدول الشيوعية في أوروبا الشرقية. نال استحسانًا واسعًا في الأوساط الأكاديمية الغربية. انضم في النهاية إلى هيئة التدريس في جامعة هارفارد وكان عضوًا في مجلس إدارة البنك المركزي المجري بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. يصف أليك نوف Alec Nove المتخصص البارز في الدراسات السوفيتية عمل كورناي بأنه "عرض مُتقن لطبيعة عمل النظام من النوع السوفيتي، وتفسير بارع مماثل لفشل محاولات إصلاحه".

بدأ كورناي تحليله الفكري لـ "الاشتراكية" كماركسي ملتزم. لكنه أصيب بخيبة أمل من النظام المجري للاقتصاد المخطط بعد قمع الثورة المجرية عام 1956. وفي كتابه الصادر عام 1980، اقتصاديات النقص Economics of Shortage، ربما يكون أكثر أعماله تأثيرًا في الدوائر الاقتصادية السائدة (وبين اليساريين)، جادل بأن النقص المزمن الذي شوهد في جميع أنحاء أوروبا الشرقية في أواخر السبعينيات واستمر في الثمانينيات من القرن الماضي لم يكن نتيجة لأخطاء المخططين أو التسعير الخاطئ، ولكن بسبب عيوب منهجية في آلية التخطيط. التخطيط لا يعمل.

في كتابه الصادر عام 1988، النظام الاشتراكي، الاقتصاد السياسي للشيوعية، جادل بأن الاقتصاد الموجه القائم على سيطرة بدون منازع من قبل حزب شيوعي ماركسي-لينيني يؤدي إلى هيمنة الإدارة البيروقراطية لشركات الدولة من خلال التخطيط والإدارة المركزيين، واستخدام "التسعير الإداري" لإزالة آثار السوق. ويُتوج هذا بالنقص وسوء تخصيص الموارد.

شخص كورناي النظام الاقتصادي السوفيتي بأنه يختلف اختلافاً جوهرياً عن الرأسمالية أو "الديمقراطية البرجوازية" من وجوه ثلاثة: (1) حكم

الحزب الشيوعي الذي يسترشد بأيديولوجية "الماركسية اللينينية"؛ (2) هيمنة الملكية العامة على الاقتصاد؛ و (3) غلبة "التنسيق البيروقراطي" في التخطيط. بالنسبة لكورناي، كان هذا هو تعريف الاشتراكية في الممارسة العملية. فكل الدول التي تبنت هذه الخصائص الثلاث بعد الثورات ضد رأس المال هدفت إلى "النمو القسري" من خلال التخطيط البيروقراطي غير الديمقراطي الذي أدى إلى تقلبات في التوسع الاقتصادي.

رغم كورناي في تشخيصه على إحدى ميزات هذا النظام: ما أسماه "قيود الميزانية الناعمة" 'soft budget constraint' حيث يمكن للمنشآت الحكومية أن تتكبد خسائر ويتم تمويلها بغض النظر عن "ظروف السوق" والربحية، على عكس الاقتصادات الرأسمالية. لقد كانت "الميزانيات الناعمة" في نظر كورناي كارثية بالنسبة للكفاءة وتسببت في النقص. وفي النهاية لم تكن المشكلة هي الافتقار إلى الديمقراطية في الاتحاد السوفيتي و "الاقتصادات الموجهة" المماثلة؛ لقد كانت المشكلة تكمن في طبيعة التخطيط بدون أسواق وأسعار لتخصيص الموارد. لذا انتقل كورناي من مؤيد لنهاية الرأسمالية في المجر إلى قبول وجهة نظر المدرسة النمساوية والاقتصاد السائد بأن الاقتصادات المخططة المملوكة ملكية عامة لا يمكن أن تنجح.

من المثير للاهتمام أن نلاحظ أن فكرة الميزانيات "الناعمة" و "الصلبة" (وهذا الأخير يعني أن الهدف يجب أن يكون تحقيق أقصى ربحية) يدعمها أولئك الذين لا يؤيدون الرأسمالية فحسب، بل يدعمون أيضًا النقش في معارضة لزيادة من الإنفاق الحكومي "الناعم". خذ على سبيل المثال ماثيو كلاين Matthew Klein "الكينزي الليبرالي" المزعم من صحيفة فايننشال تايمز البريطانية في إشارات بمفاهيم كورناي. يكتب كلاين: "يجب على أي شخص يفكر بجدية في المخاطر والمكافآت المحتملة لمزيج السياسات الذي قد يسمى "الكينزية الكاملة" أن يأخذ في الاعتبار أفكار الاقتصادي يانوش كورناي، الذي توفي الشهر الماضي." كلاين اشترك مع مايكل بيتيس Michael Pettis في تأليف كتاب الحروب التجارية والحروب الطبقة الحائز على جوائز، وهو كتاب يقدم تحليلًا كينزيًا للاختلالات العالمية.

من المثير للاهتمام ملاحظة أن فكرة الميزانيات "الناعمة" و "الصلبة" (وبالنسبة لكورناي، فإن نموذج الأساس للميزانيات "اللينة والصلبة" هو روسيا السوفيتية. وقد أظهر كورناي إعجابًا كبيرًا بالنجاح الاقتصادي

للصين. وجاء هذا الإعجاب لأن الصين تخلّت عن اثنتين من سماته الثلاث [السمات الثلاث لكورناي] لنموذج ما بعد الرأسمالية. فقد حافظت الصين على الاحتكار السياسي للحزب الشيوعي، لكنها سمحت للأسواق الرأسمالية بالازدهار. ولهذا نجحت في حين أن الاتحاد السوفيتي انهيار. كتب كورناي: إن هيكل الملكية خضع لتغييرات جوهرية تخلق فيها القطاع المملوك للدولة عن دوره الريادي. وتم تقليص دور التنسيق البيروقراطي والإدارة المركزية بشكل كبير وحل محله السوق إلى حد كبير. إن الصين ليست نظامًا اشتراكيًا كلاسيكيًا وهي أقرب إلى نظام رأسمالي نموذجي."

جادل كورناي بأن النجاح الاقتصادي للصين كان ممكنًا فقط لأنها تخلّت عن التخطيط المركزي وهيمنة الدولة وانتقلت إلى الرأسمالية. ووافق كورناي على حجج الاقتصاديين المؤيدين للسوق مثل أليك نوف Alec Nove بأن التعقيد في ملايين المعاملات في الاقتصاد الوطني جعل الحسابات لتنظيم وتخطيط الاقتصاد بشكل فعال مستحيلًا. وجادل بأن السوق الحرة هي وحدها القادرة على تنفيذ هذه الوظائف، والتي تقوم بها "تلقائيًا". فالمنافسة على الأسواق بين المنتجين والبائعين في ظل الرأسمالية، تولّد تنافسًا شرسًا بين الرأسماليين. وهذا يجعل الرأسمالية "ديناميكية ومبتكرة بطبيعتها". إن عملية الاختراع invention في ظل الاشتراكية لا يقابلها ابتكار مقابل innovation، والذي يتضمن "تنظيم الإنتاج ونشر المنتج الجديد أو تطبيق شكل تنظيمي جديد". ويكمن الاستيعاب البطيء للابتكارات الجديدة في ظل "الاشتراكية"، من وجهة نظر كورناي، في غياب "ريادة الأعمال المبتكرة."

كل هذه الحجج ضد التخطيط (ديمقراطي أو غير ذلك) هي الأيديولوجية الأساسية للاقتصاد الرأسمالي السائد. ومع ذلك، فقد تمّ دحض هذه الحجج التي ساقها فون مايزس Von Mises ونوف وكورناي من قبل العديد من الاقتصاديين الماركسيين في العقود القليلة الماضية، حتى بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. فإجراء حسابات التخطيط يُعد أمرًا ممكنًا تمامًا، خاصة مع أجهزة الكمبيوتر الحديثة (الكمومية أو غير ذلك) والتطورات في الرياضيات.

علاوة على ذلك، وخلافًا لوجهة نظر كورناي (ورأي العديد من الاقتصاديين المؤيدين للرأسمالية)، لم يكن الاتحاد السوفيتي فشلًا اقتصاديًا، كما جادل في مقال سابق. إن الخطوات التي تم إحرازها في التوسع الاقتصادي ومستويات المعيشة (على الرغم من الكوارث المروعة للعصر

الستاليني) قد رفعت مستويات المعيشة الروسية إلى ما هو أعلى من الاقتصادات الأكثر ثراءً في أمريكا اللاتينية وحتى جنوب أوروبا.

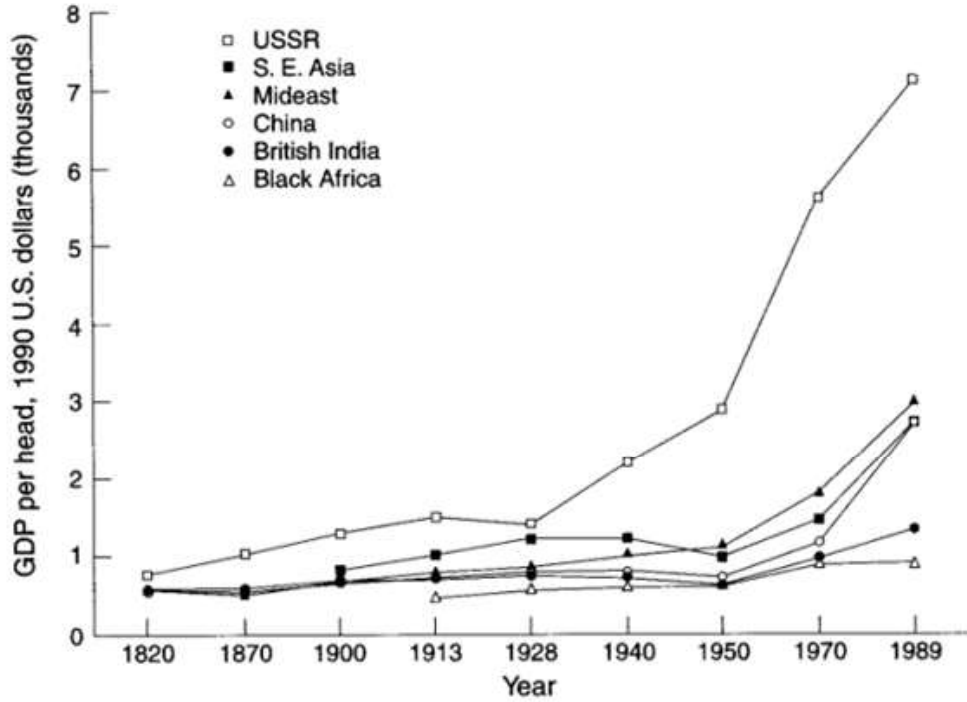


Fig. 1.5. USSR versus the Rest of the World. Source: Table 1.1.

بالنسبة لكورناي، نظرًا لأن النظام الاقتصادي الاشتراكي مستحيل، وأنه فشل في روسيا السوفيتية وتم التخلي عنه في الصين، فقد اختزل الأمر بالتفكير فقط في "أنواع مختلفة من الرأسمالية": أي الديمقراطية والاستبداد والديكتاتورية. وفقًا لكورناي، لا يمكن أن توجد الديمقراطية (غير المعرفة) إلا في ظل الرأسمالية حيث تقتصر الاشتراكية على الأشكال الديكتاتورية والاستبدادية: "الاشتراكية الديمقراطية مستحيلة."

حجة كورناي هي أن الاشتراكية نظام تاريخي يعتبر حكمه السياسي والاقتصادي تجربة مغلقة للبشرية. كان هذا الرأي قريبًا جدًا من وجهة نظر الاقتصادي السابق بالبنك الدولي برانكو ميلانوفيتش Branco Milanovic والاشتراكي إلى حد ما، الذي يجادل أيضًا في كتابه الأخير الرأسمالية وحدها، بأنه لا توجد سوى أشكال مختلفة من الرأسمالية متاحة في المستقبل المنظور؛ إما "الغرب الديمقراطي الليبرالي" أو "الصين الأوتوقراطية". ويعتقد ميلانوفيتش أن الرأسمالية وحدها ليست فقط النمط

المهيمن للإنتاج على مستوى العالم، ولكنها موجودة لتبقى. ويخلص إلى أن "الرأسمالية تُخطئ كثيراً، ولكنها صحيحة كثيراً أيضاً – وليس مألها إلى أي مكان. مهمتنا هي تحسينها."

كما يعترف كورناي وميلانوفيتش، فقد حققت الصين نمواً في الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي ومتوسط مستويات المعيشة في 70 عاماً بشكل أسرع من أي اقتصاد آخر في تاريخ البشرية. وإذا تم تحقيق ذلك من خلال تبني نمط الإنتاج الرأسمالي، فإن ذلك يثير احتمال أن الرأسمالية ليست في "عصر الأفول"، ولكن بدلاً من ذلك لديها فرصة جديدة للحياة في دفع البشرية إلى الأمام. لكنني أذكر القراء أنه في الفترة من 1952 إلى 1978 عندما كان لدى الصين اقتصاد مخطط مملوك للدولة بالكامل، حيث تم استبدال نمط الإنتاج الرأسمالي، حققت الصين نمو إجمالي الناتج المحلي الحقيقي بنسبة 6-7٪ سنوياً. علاوة على ذلك، هل كان للرأسمالية حقاً فرصة جديدة للحياة على مستوى العالم؟ لقد تباطأ نمو الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي في الاقتصادات الرأسمالية الرئيسية عقداً بعد عقد، جنباً إلى جنب مع تباطؤ الاستثمار والإنتاجية. وقد تعرّضت الاقتصادات الرأسمالية لهبوط منتظم ومتكرر في الاستثمار والإنتاج بشكل متزايد الشدة في القرن الحادي والعشرين.



تجاهل كورناي وميلانوفيتش ذلك. يستنتج ميلانوفيتش، كما فعل كورناي، التالي: "أعتقد، إلى حد كبير، أن [الرأسمالية] مستدامة. حتى لو استمرت

جميع أشكال عدم المساواة على النحو الذي [هي] عليه، دون رادع. إنها مستدامة، إلى حد كبير، لأنه ليس لدينا مخطط لنظام بديل. ومع ذلك، فإن الشيء المستدام، والشيء الكفوء، والشيء الجيد، هما شيئان مختلفان. "إن ميلانوفيتش لا يحب الرأسمالية، ولكنه يستخدم عبارة مارغريت تاتشر في الإشارة إلى سياساتها النيوليبرالية للرأسمالية: إنه يعتقد أنه لا يوجد بديل [There Is No Alternative] (TINA). لذا يجب أن يكون الهدف، تمامًا كما جادل كينز في الثلاثينيات: "جعل الرأسمالية أكثر استدامة. وهذا بالضبط ما أعتقد أنه يجب علينا فعله الآن". بالنظر إلى التحديات الوجودية لتغير المناخ والتدهور البيئي، فإن "الرأسمالية المستدامة" تبدو مستحيلة بالنسبة لي كما بدت "الاشتراكية الديمقراطية" لكورناي.

* مايكل روبرتس، اقتصادي ماركسي بريطاني.

لين بارامور: لقد نهبوا الشركات، والآن ينهبون الحكومة

نشر النص الإنجليزي للمقال في موقع معهد الفكر الاقتصادي الجديد بتاريخ 12 أيار 2025 تحت عنوان:

'They Looted Companies — Now They're Looting the Government' Institute of New Economic Thinking

<https://www.ineteconomics.org/perspectives/blog/they-looted-companies-now-theyre-looting-the-government>

يكشف العالم الاقتصادي ويليام لازونيك¹ William Lazonick كيف انتقل نموذج الاستخراج² extraction model الذي تتبناه الشركات الأميركية من قطاع الأعمال إلى الحكومة.

هناك أسطورة شائعة في السياسة الأمريكية: أسطورة قائد الأعمال الجريء الذي يتخطى الروتين ويحقق النتائج. تُغذي هذه الأسطورة الاعتقاد بأن إدارة بلد ما أشبه بإدارة شركة، وأن المديرين التنفيذيين، بفطرتهم الإدارية وعقليتهم القائمة على تحقيق الربح، هم بالضبط ما تحتاجه الحكومة.

ولكن هذه الأسطورة تنهار تحت وطأة ما أصبحت عليه قيادة الشركات في الواقع - وما يحدث عندما تنتقل الأسطورة إلى المناصب العامة.

أمضى الخبير الاقتصادي ويليام لازونيك عقودًا في تحليل هذا التحول. وهو يجادل بأن الشركات الأمريكية تخلت عن التزامها بالابتكار والاستثمار الإنتاجي، واستبدلته بتركيز مُفرط على خفض التكاليف، ورفع الأسعار، والتهرب الضريبي لزيادة الأرباح، مما يسمح لها بإعادة شراء المزيد من الأسهم — كل ذلك باسم تعظيم القيمة للمساهمين [maximizing shareholder value](#).³ لم يعد معظم المديرين التنفيذيين يُكافأون على

¹ راجع تعريفه في الموسوعة الحرة: https://en.wikipedia.org/wiki/William_Lazonick وكذلك موقع معهد الفكر الاقتصادي الجديد: <https://www.ineteconomics.org/research/experts/wlazonick> (المترجم)

² للتعريف بمفهوم الاستخراج وتاريخه راجع الموسوعة الحرة: <https://en.wikipedia.org/wiki/Extractivism> (المترجم)

³ Lynn Parramore, 'How Economists Turned Corporations into Predators,'

بناء شركات مستدامة أو المساهمة في الاقتصاد الحقيقي، بل يكافأون على كفاءتهم في استخلاص القيمة من الشركات التي يسيطرون عليها.

يصف لازونيك هذا النموذج بأنه "وباء"، ويلقي اللوم عليه في إضعاف الريادة التكنولوجية الأمريكية، وتأجيج التفاوت الهائل، وزعزعة استقرار الاقتصاد بأكمله. ويحذر الآن من أن هذا المنطق الاستخراجي نفسه يتسلل إلى الحكومة الفيدرالية.

تُعدّ مناقشات ميزانية عام 2025 الجارية خير مثال على ذلك. فبجبة "الكفاءة" و"المسؤولية المالية"، اقترحت إدارة ترامب خفض الإنفاق الفيدرالي بمقدار 163 مليار دولار — وهي تخفيضات من شأنها أن تُقوّض قطاعات التعليم والإسكان والبحث الطبي — وجميعها قطاعات أساسية لخلق القيمة. وتعكس هذه العبارات ما دأب المسؤولون التنفيذيون على استخدامه لتبرير تسريح الموظفين ونقل الأعمال إلى الخارج وسحب الاستثمارات. ولكن في هذه الحالة، لا يتعلق الأمر بتفريغ شركة من مضمونها، بل بالدولة نفسها.

يُجادل لازونيك بأن هذا لا ينبغي أن يُفاجئ أحداً. ويقول: "لأن هؤلاء الناس أفلتوا من العقاب بنهب الشركات، فقد أصبحوا يعتقدون إن من حقهم نهب الدولة." حتى بين شخصيات التكنولوجيا التي صنعت أو قادت بناء منتجات حقيقية — مثل إيلون ماسك وجيف بيزوس ومارك زوكربيرج — يُشير لازونيك إلى وجود عقلية استحقاق: "إنهم يتعاملون مع الثروة الناتجة على أنها ملك لهم بالكامل، كما لو أنهم وحدهم من اكتسبوها." وتُشكل هذه العقلية الآن السياسات العامة، حيث يُفقد إلغاء القيود وتخفيضات الميزانية الأثرية بينما يُفكك الحماية للعمال والمستهلكين.

خذ ماسك على سبيل المثال. بصفته رئيساً لإدارة كفاءة الحكومة (DOGE)، فقد عمل على إضعاف الهيئات التنظيمية مثل مكتب حماية المستهلك المالي Consumer Financial Protection Bureau والمجلس الوطني لعلاقات العمل National Labor Relations Board — وكلاهما يشرف عادةً على أجزاء من إمبراطوريته التجارية. في الوقت نفسه، تواصل شركاتها ضمان تحقيق عقود فيدرالية ضخمة، بما في

<https://www.ineteconomics.org/perspectives/blog/how-economists-turned-corporations-into-predators>

ذلك صفقة محتملة بقيمة 2 مليار دولار مع إدارة الطيران الفيدرالية، مما يثير مخاوف جدية بشأن تضارب المصالح. وكما يجادل لازونيك وزميله مات هوبكنز Matt Hopkins في مقال نُشر مؤخرًا في موقع معهد الفكر الاقتصادي الجديد،⁴ فقد تقدم ماسك بـ "نظام حوكمة شركات محفوف بالمخاطر" مدفوعًا بأولوية المساهمين — مما أدى إلى تأجيل عدم المساواة وتآكل الريادة التكنولوجية الأمريكية. إن فترة ولايته في إدارة كفاءة الحكومة هي ببساطة المزيد من الشيء نفسه: تفكيك الرقابة، وتوجيه الموارد العامة إلى المشاريع الخاصة، ومعاملة الحكومة كمجرد أصل آخر للاستخراج.

تدين إمبراطورية ماسك التجارية — تيسلا، وسبيس إكس، ونيورالينك Tesla, SpaceX, and Neuralink — بالكثير من نجاحها للأبحاث الممولة من دافعي الضرائب والدعم الحكومي. فقد أطلقت تيسلا بمساعدة قروض فيدرالية وإعانات للسيارات الكهربائية. أما سبيس إكس، فتعتمد على عقود من البحث والتطوير بتمويل من ناسا، وتعتمد الآن على عقود حكومية بمليارات الدولارات. حتى نيورالينك تعتمد بشكل كبير على أبحاث علم الأعصاب الممولة من القطاع العام. ورغم أسطورة عبقرية القطاع الخاص، فإن هذه الشركات متجذرة في الاستثمار العام. ومع ذلك، لا يرى الجمهور سوى عائد ضئيل.⁵

ولا تقتصر هذه العقلية على ماسك. فالرئيس ترامب وعائلته يرتقيان بنموذج الشركات corporate model الذي يصفه لازونيك إلى آفاق جديدة، مستخدمين الحكومة كمنصة لإثراء القطاع الخاص. فقد روج إريك ترامب مؤخرًا لأحدث مشروع عائلي في مجال العملات المشفرة، مما جعل الرئيس لاعبًا رئيسيًا في هذا المجال، بينما كان يعمل على رسم السياسة الفيدرالية تجاه هذا القطاع تحديدًا. وقد فاقت حصة عائلة ترامب البالغة 60% في شركة وورلد ليبيرتي فاينانشال، والتي تجذب الآن استثمارات

⁴ Matt Hopkins and William Lazonick, 'Musk and Tesla: Corporate Compensation, Financialization, and the Problem of Strategic Control' <https://www.ineteconomics.org/perspectives/blog/musk-and-tesla-corporate-compensation-financialization-and-problem-of-strategic-control>

⁵ قبل عدة سنوات قامت الأستاذة في جامعة لندن ماريانا مازوكاتو بالكشف عما هو مستور في خرافة إقصاء دور الدولة في مجال الابتكار وحصره بالقطاع الخاص:

Mariana Mazzucato, *The Entrepreneurial State: Debunking Public vs Private Sector Myths* (Penguin Books, 2018), First published in 2013. (المترجم)

كبيرة، المخاوف بشأن تضارب المصالح. في غضون ذلك، أبرمت منظمة ترامب، بقيادة إريك، صفقة مثيرة للجدل بقيمة 5.5 مليار دولار مع شركة حكومية قطرية لبناء منتجع جولف فاخر، على الرغم من تعهد ترامب السابق بتجنب الصفقات الأجنبية أثناء توليه منصبه.

أصدر ترامب أيضًا أوامر تنفيذية لتبسيط عمليات مراجعة المشتريات والعقود الفيدرالية. ورغم تسويقها كإجراءات لمكافحة الهدر، إلا أن المنتقدين يرونها وسيلة خفية لتوجيه أعمال الحكومة نحو مقاولين مفضلين، بمن فيهم أولئك من ذوي العلاقات العائلية. ونادرًا ما كان الخط الفاصل بين الخدمة العامة والمكاسب الخاصة أوهى من هذا.

يُحذّر لازونيك من أن المخاطر كبيرة. عندما تُعطي الشركات الأولوية لتوزيع الأرباح للمساهمين على الاستثمار الحقيقي، يخسر المجتمع، ولكن عندما تتبنى الحكومات النموذج نفسه، فإن العواقب تكون وخيمة. نحن لا نتحدث فقط عن شركات هشة، بل نتحدث عن تآكل المؤسسات العامة، وتزايد التفاوت، وديمقراطية تخدم عددًا أقل فأقل من الناس.

لنعكس هذا المسار، يرى لازونيك أننا بحاجة إلى إصلاح هيكلي عميق في كيفية عمل الشركات، وبالتالي الحكومات. وهذا يعني حظر عمليات إعادة شراء الأسهم stock buybacks، وكبح جماع تعويضات المديرين التنفيذيين المرتبطة بأداء الأسهم المتلاعب به، وإعادة استثمار الأرباح في الابتكار والعمال والمجتمعات. وهذا يعني تبني نموذج حوكمة قائم على أصحاب المصلحة، لا ينظر إلى الشركات كمجرد آلات للثروة، بل كجهات راعية للقيمة الاجتماعية.

لأنه إن لم نُصلح هذه العيوب النظامية، فلن يتوقف النهب، بل سيتفاقم وينتشر.

* لين بارامور، محلل أبحاث أول، معهد الفكر الاقتصادي الجديد

مارتن هارت-لاندسبيرغ*: لا، ليس هذا وهماً، مخطط الشركات

للذكاء الاصطناعي يشكل خطراً حقيقياً

تعمل شركات التكنولوجيا الكبرى جاهدةً على إقناعنا بالذكاء الاصطناعي، وخاصةً ما يُسمى "الذكاء الاصطناعي العام" artificial general intelligence. في المؤتمرات والمقابلات، يصف قادة الشركات مستقبلاً غير بعيد ستتمكن فيه أنظمة الذكاء الاصطناعي من خدمة الجميع، مما يُوفر عالمًا من الرخاء للجميع. لكنهم يُحذرون من أن هذا المستقبل يعتمد على استعدادنا لتوفير بيئة تنظيمية ومالية مُلائمة للأعمال.

لكن الحقيقة هي أن هذه الشركات بعيدة كل البعد عن تطوير مثل هذه الأنظمة. إن ما ابتكرته هو أنظمة "الذكاء الاصطناعي التوليدي" "generative AI" غير الموثوقة والخطيرة. ولسوء حظنا، بدأ عدد متزايد من الشركات والهيئات الحكومية باستخدامها، مما أدى إلى نتائج كارثية على العمال.

ما هو الذكاء الاصطناعي؟

لا يوجد تعريف بسيط ومتفق عليه للذكاء الاصطناعي. هناك فكرة الذكاء الاصطناعي العام artificial general intelligence، وهناك حقيقة الذكاء الاصطناعي التوليدي generative AI. تُعرّف شركة OpenAI [شركة الذكاء الاصطناعي المفتوح]، التي طوّرت چات جي بي تي ChatGPT، أنظمة الذكاء الاصطناعي العام بأنها "أنظمة عالية الاستقلالية تتفوق على البشر في أداء الأعمال الأكثر قيمة اقتصادياً." بمعنى آخر، أنظمة تمتلك القدرة على فهم أو تعلم أي مهمة فكرية يستطيع الإنسان القيام بها.

أنظمة الذكاء الاصطناعي التوليدي أو روبوتات الدردشة chatbots، مثل ChatGPT والعديد من المنتجات المنافسة التي طورتها شركات تقنية أخرى — مثل غوغل (Gemini)، وماسك (Grok)، ومايكروسوفت (Copilot)، وميتا (Llama) — تتدرج ضمن فئة مختلفة تمامًا. تعتمد هذه الأنظمة على التعرف على أنماط واسعة النطاق تستجيب للمطالبات prompts [التعليمات أو المدخلات التي يقدمها مستخدم النظام لتوجيهه

استجابة الذكاء الاصطناعي]. إنها لا "تفكر" أو "تستدل" أو تعمل بشكل مستقل.

يجب تدريب أنظمة الذكاء الاصطناعي التوليدي على البيانات، ويجب ترميز coded هذه البيانات قبل استخدامها، وعادةً ما يستخدمها العمال ذوو الأجور المنخفضة في دول الجنوب. على سبيل المثال، تستخدم شركات التكنولوجيا الرائدة مئات الآلاف، بل ملايين الصور، لتدريب أنظمتها على التعرف على الصور أو توليدها. ويجب تسمية كل صورة بجميع عناصرها. وتستخدم عملية مماثلة لتدريب الأنظمة على الكلام، حيث يُصنّف العمال المحادثات المأخوذة من مصادر متنوعة وفقًا لتقييمهم للمشاعر المُعبّر عنها. وكثيرًا ما تُراجع المواد النصية أيضًا في محاولة لإزالة أكثر المواد عنفًا أو عدائية اجتماعيًا.

تستخدم عملية التدريب الفعلية خوارزميات معقدة لمعالجة البيانات لإنشاء أنماط وعلاقات إحصائية ذات صلة. ثم تعتمد روبوتات الدردشة Chatbots على هذه الأنماط والعلاقات لتوليد مجموعات مرتبة من الصور أو الأصوات أو الكلمات، بناءً على الاحتمالات، استجابةً للمطالبات prompts. ونظرًا لأن الشركات المتنافسة تستخدم مجموعات بيانات وخوارزميات مختلفة، فقد تقدم روبوتات الدردشة الخاصة بها استجابات مختلفة للمطالبة نفسها prompt. لكن هذا بعيد كل البعد عن الذكاء الاصطناعي العام، ولا يوجد مسار تكنولوجي واضح للانتقال من الذكاء الاصطناعي التوليدي إلى الذكاء الاصطناعي العام.

أسباب القلق

كما ذكر سابقًا، تُدرّب روبوتات الدردشة على البيانات. وبما أن حجم مجموعة البيانات يزيد من قوة النظام، فقد بحثت شركات التكنولوجيا في كل مكان عن البيانات. وهذا يعني البحث في الإنترنت عن كل ما هو موجود (دون مراعاة تُذكر لحقوق النشر): الكتب، والمقالات، ونصوص فيديوهات يوتيوب، ومواقع ريديت¹ reddit sites، والمدونات، وتقييمات المستخدمين للمنتجات، ومحادثات فيسبوك؛ أيًا كان ما تريده، فالشركات ترغب فيه.

¹ ريديت reddit منتدى إلكتروني ضخم ومنصة اجتماعية، يتشارك فيها المستخدمون — المعروفون باسم "مستخدمو ريديت" — بالمحتوى ويطرحون الأسئلة ويشاركون في نقاشات عبر آلاف المجتمعات المهمة، والتي تُعرف باسم "المجموعات الفرعية". تخيلوه كساحة الإنترنت الرئيسية، حيث لكل مجال ركنه الخاص. (منقول من موقع ذكاء اصطناعي. جميع الهوامش من وضع المترجم).

ومع ذلك، هذا يعني أيضًا أن روبوتات الدردشة تُدرَّب على بيانات تتضمن كتابات بغيضة وتمييزية ومجنونة، وهذه الكتابات تؤثر على إنتاجها.

على سبيل المثال، تستخدم العديد من أقسام العلاقات الإنسانية في الشركات، الراغبة في خفض عدد موظفيها، أنظمة مدعومة بالذكاء الاصطناعي لإعداد أوصاف الوظائف وفرز المتقدمين لإشغالها. في الواقع، تُقدَّر هيئة تكافؤ فرص العمل² أن 99% من شركات فورتن 500³ تستخدم نوعًا من الأدوات الآلية في عملية التوظيف. وليس من المستغرب أن يجد باحثو جامعة واشنطن أن:

أظهرت ثلاثة نماذج لغوية كبيرة، أو ما يُعرف بـ "نماذج اللغة الكبيرة" (LLMs)، تحيزًا عرقيًا وجنسانيًا وتقاطعياً intersectional bias كبيرًا في كيفية تصنيف السير الذاتية. قارن الباحثون بين الأسماء المرتبطة بالرجال والنساء البيض والسود في أكثر من 550 سيرة ذاتية واقعية، ووجدوا أن نماذج اللغة الكبيرة فضّلت الأسماء المرتبطة بالبيض بنسبة 85%، والأسماء المرتبطة بالإناث بنسبة 11% فقط، ولم تُفضّل أبدًا الأسماء المرتبطة بالرجال السود على الأسماء المرتبطة بالرجال البيض.

يوجد تحيز مماثل في توليد الصور image generation. فقد وجد الباحثون أن الصور التي تم إنشاؤها بواسطة العديد من البرامج الشائعة "لجأت بشكل كبير إلى الصور النمطية الشائعة، مثل ربط كلمة "أفريقيًا" بالفقر، أو "الفقراء" بدرجات لون البشرة الداكنة". على سبيل المثال: عند مطالبة أحد الأنظمة بـ "صورة لرجل أمريكي ومنزله"، أنتج صورة لشخص أبيض أمام منزل كبير متين. وعند مطالبة بـ "صورة لرجل أفريقي ومنزله الفاخر"، أنتج صورة لشخص أسود أمام منزل طيني بسيط. ووجد الباحثون صورًا نمطية عنصرية (وجنسانية) مماثلة عند توليد صور لأشخاص في مهن مختلفة. الخطر واضح هنا، فالجهود التي تبذلها شركات النشر والإعلام لاستبدال المصورين والفنانين بأنظمة الذكاء الاصطناعي من المرجح أن تعزز التحيزات والصور النمطية القائمة.

يمكن لهذه الأنظمة أيضًا أن تُلحق ضررًا بالغًا بمن يعتمدون عليها بشكل مفرط في التواصل والصدقة. وكما وصفتها صحيفة نيويورك تايمز:

² هيئة تكافؤ فرص العمل في الولايات المتحدة (EEOC – Equal Employment Opportunity Commission) وكالة فيدرالية مسؤولة عن إنفاذ القوانين التي تحظر التمييز في مكان العمل.

³ تُظهر هذه القائمة أكبر 500 شركة أمريكية، مُصنفة حسب إجمالي إيراداتها خلال سنواتها المالية.

يبدو أن التقارير عن تعطل روبوتات الدردشة قد ازدادت منذ تيسان/أبريل [2025]، عندما أصدرت OpenAI لفترة وجيزة نسخة من ChatGPT تتسم بالتملق المفرط. وقد أدى هذا التحديث إلى اجتهاد روبوت الذكاء الاصطناعي في إرضاء المستخدمين من خلال "إثبات الشكوك، أو تأجيج الغضب، أو الحث على التصرفات الاندفاعية، أو تعزيز المشاعر السلبية"، وفقاً لما كتبه الشركة في منشور على مدونتها. وقالت الشركة إنها بدأت في التراجع عن التحديث خلال أيام، لكن هذه التجارب سبقت تلك النسخة من روبوت الدردشة واستمرت منذ ذلك الحين. وتنتشر قصص عن "الذهان psychosis الناجم عن ChatGPT" على موقع Reddit. ويستغل المؤثرون المضطربون Unsettled influencers "أنبياء الذكاء الاصطناعي" على وسائل التواصل الاجتماعي.

من المثير للقلق بشكل خاص أن دراسة أجراها مختبر الوسائط Media Lab بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT) وجدت أن الأشخاص الذين اعتبروا ChatGPT صديقاً لهم كانوا أكثر عرضة للآثار السلبية لاستخدام روبوتات الدردشة، وأن الاستخدام اليومي المطول ارتبط أيضاً بنتائج أسوأ. للأسف، من غير المرجح أن يدفع هذا شركة ميتا Meta إلى إعادة النظر في استراتيجيتها الجديدة المتمثلة في إنشاء روبوتات دردشة تعمل بالذكاء الاصطناعي وتشجيع الناس على إضافتها إلى شبكة أصدقائهم كوسيلة لزيادة الوقت الذي يقضونه على فيسبوك وتوليد بيانات جديدة للتدريبات المستقبلية. يخشى المرء من عواقب قرار المستشفيات والعيادات استبدال معالجها المدربين بأنظمة الذكاء الاصطناعي.

الأمر الأكثر إثارة للخوف هو سهولة برمجة هذه الأنظمة لتقديم استجابات سياسية مرغوبة. في أيار/مايو 2025، بدأ الرئيس ترامب الحديث عن "إبادة البيض" في جنوب أفريقيا، مدعياً أن "المزارعين البيض يُقتلون بوحشية" هناك. وفي النهاية، سارع إلى منح اللجوء لـ 54 جنوب أفريقياً أبيض. وقد قوبل ادعاؤه بالرفض على نطاق واسع، ولم يكن من المستغرب أن يبدأ الناس بسؤال روبوتات الدردشة الذكية الخاصة بهم عن هذا الأمر.

فجأة، بدأ نظام الذكاء الاصطناعي "غروك" Grok التابع لإيلون ماسك، بإخبار المستخدمين بأن الإبادة الجماعية للبيض في جنوب أفريقيا حقيقية وذات دوافع عنصرية. بل إنه بدأ بمشاركة هذه المعلومات مع المستخدمين للنظام حتى دون سؤاله عن هذا الموضوع. وعندما ضغط مراسلو صحيفة الغارديان، من بين آخرين، على "غروك" لتقديم أدلة، أجاب بأنه تلقى

تعليمات بقبول حقيقة الإبادة الجماعية في جنوب أفريقيا. وكون ماسك، المولود لعائلة ثرية في بريتوريا، جنوب أفريقيا، قد أدلى سابقاً بادعاءات مماثلة، يُسهّل تصديق أن الأمر صدر منه، وأنه كان لكسب ود الرئيس ترامب

بعد ساعات قليلة من تحوّل سلوك "غروك" إلى موضوع رئيسي على منصات التواصل الاجتماعي، توقف عن الاستجابة للاستفسارات حول الإبادة الجماعية للبيض. وكما ذكرت صحيفة الغارديان، "ليس من الواضح تمامًا كيف يُدرّب الذكاء الاصطناعي الخاص بـ "غروك"؛ إذ تُصرّح الشركة بأنها تستخدم بيانات من "مصادر متاحة للعامة"، كما تُصرّح بأن "غروك" مُصمّم ليُظهر "روحًا تمردية ومنظورًا خارجيًا للبشرية".

الأمر يزداد سوءاً

على الرغم من مدى قلق المشاكل المذكورة أعلاه، إلا أنها لا تُذكر مقارنةً بحقيقة أنه، لأسباب لا يمكن تفسيرها، تختلق جميع أنظمة الذكاء الاصطناعي واسعة النطاق أمورًا بشكل دوري، أو كما يقول خبراء التكنولوجيا، "تهلوسًا". على سبيل المثال، في أيار/مايو 2025، نشرت صحيفة شيكاغو صن تايمز (والعديد من الصحف الأخرى) ملحقًا رئيسيًا، من إنتاج شركة كينج فيتشرز سينديكيت King Features Syndicate، يُبرز كتبًا تستحق القراءة خلال أشهر الصيف. استخدم الكاتب المُكلف بإعداد الملحق نظام ذكاء اصطناعي لاختيار الكتب وكتابة الملخصات.

كما اكتُشف سريعًا بعد نشر الملحق، فقد تضمن كتبًا وهمية لمؤلفين مشهورين. على سبيل المثال، قيل إن الروائية الأمريكية التشيلية إيزابيل أليندي ألقت كتابًا بعنوان "أحلام مياه المد" *Tidewater Dreams*، والذي وُصف بأنه "أول رواية خيال علمي عن المناخ" لها. لا يوجد كتاب من هذا القبيل. في الواقع، خمسة فقط من أصل خمسة عشر عنوانًا مدرجًا في الملحق كانت حقيقية.

في شباط/فبراير 2025، اختبرت هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) قدرة روبوتات الدردشة الرائدة على تلخيص القصص الإخبارية. قدم الباحثون محتوى الذكاء الاصطناعي من OpenAI و Copilot من Microsoft و Gemini من Google و Perplexity من موقع BBC الإلكتروني، ثم طرحوا عليهم أسئلة حول القصص. ووجدوا "مشاكل كبيرة" في أكثر من

نصف الإجابات المؤلدة. فحوالي 20 بالمائة من جميع الإجابات "أدخلت أخطاء في الحقائق، مثل بيانات عن الحقائق غير صحيحة وأرقام وتواريخ غير صحيحة". عندما تم تضمين الاقتباسات في الإجابات، كان أكثر من 10 بالمائة إما قد تم تغييرها أو اختلاقتها. وبشكل عام، كافحت روبوتات الدردشة للتمييز بين الحقائق والآراء. وكما قالت الرئيسة التنفيذية للأخبار وشؤون الساعة في BBC، ديبورا تورنيس: إن شركات التكنولوجيا التي تروج لهذه الأنظمة "تلعب بالنار... نحن نعيش في أوقات عصيبة، فكم من الوقت سيستغرق الأمر قبل أن يتسبب عنوان رئيسي مشوه بواسطة الذكاء الاصطناعي في ضرر حقيقي كبير في العالم الحقيقي؟"

فيما يتعلق بالتسبب في الضرر، في شباط/فبراير 2025، قدّم المحامون الذين يمثلون شركة ماي pillow MyPillow ورئيسها التنفيذي مايك ليندل في قضية تشهير، مذكرةً أُجبروا سريعاً على الاعتراف بأنها كُتبت في معظمها باستخدام الذكاء الاصطناعي. وهُدّدوا باتخاذ إجراءات تأديبية لأن المذكرة تضمنت ما يقرب من 30 اقتباساً معيياً، بما في ذلك اقتباسات خاطئة واستشهادات بقضايا وهمية. وكما أشار القاضي الفيدرالي الذي نظر في القضية:

شخصت المحكمة ما يقرب من ثلاثين استشهاداً معيياً في لائحة الشكوى. تشمل هذه العيوب، على سبيل المثال لا الحصر، اقتباسات خاطئة من القضايا المذكورة؛ وتحريف مبادئ القانون المرتبطة بالقضايا المذكورة، بما في ذلك مناقشة مبادئ قانونية لا تظهر في مثل هذه القرارات؛ وبيانات خاطئة حول ما إذا كان اجتهاد القضاء قد صدر عن سلطة ملزمة مثل محكمة الاستئناف الأمريكية للدائرة العاشرة؛ ونسب اجتهاد القضاء إلى هذه الدائرة بشكل خاطئ؛ والأخطر من ذلك، الاستشهاد بقضايا غير موجودة.

إن هذا الميل لدى أنظمة الذكاء الاصطناعي إلى الهلوسة أمر مثير للقلق بشكل خاص لأن الجيش الأمريكي يدرس استخدامها بشكل نشط، معتقداً أنه بسبب سرعتها، يمكنها القيام بعمل أفضل من البشر في التعرف على التهديدات والاستجابة لها.

الطريق إلى الأمام

عادةً ما تُقلل شركات التكنولوجيا الكبرى من خطورة هذه المشاكل، مُدّعيةً أنه سيتم التغلب عليها من خلال إدارة أفضل للبيانات، والأهم من ذلك، من

خلال أنظمة ذكاء اصطناعي جديدة ذات خوارزميات أكثر تطورًا وقدرة حاسوبية أكبر. مع ذلك، تُشير دراسات حديثة إلى خلاف ذلك. وكما أوضحت صحيفة نيويورك تايمز:

أحدث التقنيات وأكثرها فعالية — ما يُسمى بأنظمة التفكير من شركات مثل OpenAI و Google والشركة الصينية الناشئة DeepSeek — تُنتج أخطاءً أكثر، لا أقل. ومع التحسن الملحوظ في مهاراتهم الرياضية، أصبح فهمهم للوقائع أكثر تذبذبًا. وليس واضحًا تمامًا سبب ذلك.

يُفترض أن تُقلل نماذج التفكير من احتمالية الهلوسة، لأنها مُبرمجة للاستجابة لمُحفّز ما بتقسيمه إلى مهام مُنفصلة، و"التفكير" في كل مهمة على حدة قبل دمج أجزائها في استجابة نهائية. لكن يبدو أن زيادة عدد الخطوات تُزيد من احتمالية الهلوسة.

تُظهر اختبارات OpenAI أن نظام o3، أقوى أنظمتها، قد أصيب بالهلوسة بنسبة 33% عند تشغيل اختبار PersonQA المعياري، والذي يتضمن الإجابة على أسئلة حول شخصيات عامة. وهذا يزيد عن ضعف معدل الهلوسة لنظام OpenAI السابق للاستدلال، المسمى o1. أما نظام o4-mini الجديد، فقد أصيب بالهلوسة بنسبة أعلى: 48%.

عند إجراء اختبار آخر يُسمى SimpleQA، والذي يطرح أسئلة عامة، كانت معدلات الهلوسة لدى o3 و o4-mini⁴ 51% و 79% على التوالي. في حين أن النظام السابق، o1، كان يعاني من الهلوسة بنسبة 44% من الوقت.

وتوصلت دراسات مستقلة إلى اتجاه مماثل مع نماذج التفكير من شركات أخرى، بما في ذلك غوغل وديب سيك DeepSeek.

علينا مقاومة هذا التوجه من قبل الشركات لبناء نماذج ذكاء اصطناعي أكثر قوة. إحدى الطرق لذلك هي تنظيم معارضة مجتمعية لبناء مراكز بيانات أكبر حجمًا. فمع ازدياد تعقيد النماذج، لا تتطلب عملية التدريب بيانات أكثر فحسب، بل تتطلب أيضًا مساحة أكبر لاستيعاب المزيد من الخوادم servers. وهذا يعني أيضًا المزيد من الطاقة والمياه العذبة لتشغيلها على

⁴ OpenAI o4-mini هو نموذج ذكاء اصطناعي صغير الحجم ولكنه قوي تم طرحه في أبريل 2025. وهو جزء من أحدث جيل من نماذج التفكير من OpenAI وهو مصمم لتحقيق أداء سريع وفعال من حيث التكلفة، وخاصة في مجالات مثل الرياضيات والترميز coding والمهام المرئية visual tasks: [Introducing](#)

[OpenAI o3 and o4-mini | OpenAI](#)

مدار الساعة. وقد ساهمت أكبر ست شركات تقنية بنسبة 20% من نمو الطلب على الطاقة في الولايات المتحدة خلال العام المنتهي في آذار/مارس 2025.

هناك طريقة أخرى للرد، وهي الدعوة إلى وضع لوائح حكومية ومحلية تقيد استخدام أنظمة الذكاء الاصطناعي في مؤسساتنا الاجتماعية، وتحمي من العواقب الوخيمة للخوارزميات التمييزية. يبدو أن هذه المعركة ستكون صعبة بالفعل. فقانون ترامب "مشروع قانون واحد كبير وجميل" One Big Beautiful Bill Act، الذي أقره مجلس النواب، يتضمن بنداً يفرض وقفاً لمدة عشر سنوات على القيود التي تفرضها حكومات الولايات والحكومات المحلية على تطوير واستخدام أنظمة الذكاء الاصطناعي.

وأخيراً، ولعلّ الأهم من ذلك، علينا تشجيع ودعم العمال ونقاباتهم في معارضتهم لجهود الشركات لاستخدام الذكاء الاصطناعي بطرق تؤثر سلباً على استقلالية العمال وصحتهم وسلامتهم وقدرتهم على الاستجابة لاحتياجات المجتمع. وكحد أدنى، يجب أن نضمن قدرة البشر على مراجعة قرارات الذكاء الاصطناعي، وتجاوزها عند الضرورة.

هل يمكننا ابتكار أنظمة ذكاء اصطناعي أكثر تواضعاً تُساعد العاملين وتدعم العمل الإبداعي والمفيد اجتماعياً؟ الإجابة هي نعم. لكن هذا ليس ما تسعى الشركات إلى تحقيقه.

* مارتن هارت-لاندسبيرغ Martin Hart-Landsberg، أستاذ متقاعد، كلية لويس وكلارك في بورتلاند، ولاية أوريغون، وباحث مساعد في معهد العلوم الاجتماعية، جامعة جيونج سانج الوطنية، كوريا الجنوبية. تتركز اهتماماته على الاقتصاد السياسي، والتنمية الاقتصادية، والاقتصاد الدولي والاقتصاد السياسي لشرق آسيا وخاصة جنوب كوريا والصين واليابان. وهو أيضاً عضو في مجلس حقوق العمال (بورتلاند، أوريغون)، ويدير مدونة "تقارير من الجبهة الاقتصادية" التي نُشرت فيها هذه المقالة لأول مرة. من مؤلفاته:

- Rush to Development (1993)
- China and Socialism (with Paul Burkett, 2006)
- Capitalist Globalization: Consequences, Resistance, and Alternatives (2013)
- Numerous articles in journals like Monthly Review, Critical Asian Studies, and Historical Materialism

نشر هذا المقال في موقع الكاتب Report from the Economic Front بعنوان: 'No, you aren't hallucinating, the corporate plan for AI is dangerous'

<https://economicfront.wordpress.com/2025/06/21/no-you-arent-hallucinating-the-corporate-plan-for-ai-is-dangerous/>

أعيد نشره في موقع

<https://mronline.org/2025/06/27/no-you-arent-hallucinating-the-corporate-plan-for-ai-is-dangerous/>

يمكن الاستماع إلى حديث إذاعي للكاتب حول الموضوع بالنقر على هذا الرابط:
[30-minute interview on Artificial Intelligence](#)

جنيد ب. جهانجير: اقتصاد غزة

ملخص

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على اقتصاد غزة من خلال تحديد موضوعات الاحتلال الهيكلي وصراع الطاقة، والأسواق الحرة مقابل سوق الأفكار الحرة، واقتصاد التطرف، واقتصاد الجريمة والتمييز، والصور النمطية الثقافية، وتهميش الأخلاق. ويتحقق ذلك من خلال نهج متعدد التخصصات، مستعينًا بالدراسات والأبحاث حول العلاقة بين الاقتصاد واللاهوت، والقانون، والفلسفة.

الكلمات المفتاحية: غزة؛ التطرف؛ الجريمة؛ التمييز؛ صراع الطاقة؛ الاحتلال الهيكلي.

مقدمة

في مقابلة أجريت مؤخرًا، ذكر الخبير الاقتصادي المتميز ها-جون تشانغ Ha-Joon Chang أن طلاب الاقتصاد يتعلمون نماذج التوازن المجردة في الاقتصاد الكلاسيكي الجديد التي لا تأخذ في الاعتبار التمييز الهيكلي والصراعات الاجتماعية، وأن الاقتصاد الكلاسيكي الجديد يتجاهل التاريخ والثقافة والسياسة (Chang and Lari, 2024). وهذا أمر مثير للقلق لأنه بينما يتعلم الطلاب عن الجوانب الفنية للنماذج، فإنهم لا يتعلمون الكثير عن قضايا العالم الحقيقي المتعلقة بتغير المناخ وعدم المساواة الاقتصادية ناهيك عن القضايا الراهنة مثل غزة. ونتيجة لذلك، فبينما يمكن للطلاب في العلوم الاجتماعية مثل علم الاجتماع والعلوم السياسية تناول موضوعات الأنظمة والسلطة والتمييز، أو بشكل أقوى الاحتلال والفصل العنصري والإبادة الجماعية، يجد طلاب الاقتصاد أنفسهم غير مجهزين للتعامل مع غزة اعتمادًا على مجال اختصاصهم. إن بحثًا سريعًا في غوغل يكشف عن مقالات إعلامية تعرض التأثير الاقتصادي للوضع في غزة، وهذا يشمل تقرير الرفاعي Al-Riffai (2024).

ومع ذلك، فإن ما ينقص هذه المواد الوصفية هو النظرية الاقتصادية، سواء أكانت كلاسيكية جديدة أم غير تقليدية heterodox. ومع ذلك، هناك

مخاوف مشروعة بشأن تطبيق النظرية الاقتصادية على جوانب مختلفة من الحياة البشرية. على سبيل المثال، يذكر ألدريد (Aldred 2020) أن الإمبريالية الاقتصادية تشير إلى استعمار حياتنا من خلال التفكير الاقتصادي، وهذا يشمل فكرة أن الناس يختارون بحرية بيع أعضائهم، مما يؤدي إلى توزيع أجزاء الجسم من الفقراء إلى الأغنياء في سوق الأعضاء البشرية (ص 125، 148). تنشأ المخاوف بشأن الإمبريالية الاقتصادية عندما يتم الترويج للتحليل الاقتصادي على أنه الطريقة الوحيدة أو الأفضل على حساب المناهج الأخرى. ومع ذلك، يتم تخفيف هذه المخاوف إذا تم اعتبار التحليل الاقتصادي أحد المناهج العديدة لفهم الظواهر الاجتماعية أو السياسية أو الثقافية بشكل أفضل. لذا، ولأغراض هذه الورقة البحثية، فإنها تُسلط الضوء على اقتصاد غزة من خلال الاستناد إلى أدبيات متعددة التخصصات تتناول العلاقة بين الاقتصاد والدين، والقانون والفلسفة، وذلك لمعالجة موضوعات متنوعة كالاحتلال الهيكلي وصراع الطاقة، والأسواق الحرة مقابل سوق الأفكار الحرة، واقتصاد التطرف، واغتصاب الذكور واقتصاد الجريمة والتمييز، والصور النمطية الثقافية، وتهميش الأخلاق. يلي ذلك آراء نقدية للاقتصاديين والمنظمات حول غزة، وأخيراً، خاتمة.

الاحتلال الهيكلي والصراع على الطاقة

في حين ينتقد تشانغ تجاهل الاقتصاد الكلاسيكي الجديد للتمييز الهيكلي والصراعات الاجتماعية، فإن التحليل الاقتصادي الأوسع يسمح بمعالجة قضية غزة بشكل منهجي أو هيكلي. يقدم بيشلر ونيتزان (Bichler and Nitzan 2024a) الخلفية التي تفيد بأن الميليشيات اليهودية والمنظمات الاستيطانية تتلقى تمويلاً من الحكومة الإسرائيلية والمنظمات غير الحكومية الأجنبية، وأنها نجحت على مر السنين في السيطرة على وسائل الإعلام، وتغيير النظام التعليمي، والاستيلاء على الأحزاب السياسية، والاستيلاء على الجهاز العسكري والأمني للدولة، وأنها تهدف إلى تحويل إسرائيل إلى دولة استبدادية. ويضيفان أن حكومة الليكود كشفت عن "الأسس الكولونيالية للدولة" حيث تقوم جماعات المستوطنين "بإرهاب وتخويف وطرد" الفلسطينيين (ص 14)، ويدعو الجنرالات المتقاعدون إلى "ترحيل الفلسطينيين" (ص 16). وقد تجلّى هذا في "الاحتلال وقمع الفلسطينيين" (ص 14) بالارتباط مع فساد السلطة الفلسطينية وصعود الجهادية الإسلامية. بالإضافة إلى ذلك، ساعد "احتلال فلسطين لمدة نصف قرن" على "زيادة راديكالية المقاومة الفلسطينية" (ص 17). ويبدو أن لهذا أوجه تشابه في الهند حيث تمكن أيديولوجيو الهندوتفا Hindutva من السيطرة

على وسائل الإعلام (Akhter and Saratchand, 2023; Sharma and Pegu, 2023) وتغيير نظام التعليم (Dey, 2025) والذين يهدفون إلى تحويل الهند إلى دولة عرقية (Roy, 2024) في ظل حكومة حزب بهاراتيا جاناتا الحاكمة. ويستمر هذا التشابه مع الهندوس Hindutvists الذين يعبرون عن تضامنهم مع إسرائيل لدرجة أن دبلوماسيًا هنديًا سابقًا برر علنًا موت الأطفال الفلسطينيين (الشكل 1)¹. بالإضافة إلى ذلك، يوضح عيسى Essa (2023) العلاقة النيوليبرالية بين الهند وإسرائيل من خلال الإشارة إلى أن الهند اشترت "أسلحة وتقنيات مراقبة" بقيمة مليار دولار من إسرائيل بينما قدمت "عبارات الدعم والإحسان والتصويت من حين لآخر في الأمم المتحدة" لفلسطين (ص 34، 58). وعلاوة على ذلك، فإن نموذج الكولونيالية الاستيطانية الاستخراجية extractive settler colonial model مشابه [للمستوطنات في فلسطين]، كما لوحظ عندما صرح القنصل العام الهندي لدى الولايات المتحدة في عام 2019 بأن "الهند ستبني مستوطنات على غرار إسرائيل" لإنشاء "مستوطنات للهندوس فقط في كشمير" مدعومة "بالأمن والبنية التحتية العسكرية مثل الجدران والطرق المنفصلة ونقاط التفتيش، على غرار المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية." (ص 156-157).

بعد عرض سياق غزة، يُجادل بيشلر ونيتسان (2024b) بأن الصراعات في الشرق الأوسط هي في جوهرها صراعات على الطاقة مرتبطة "بأسعار النفط النسبية وعوائد النفط التفاضلية" (ص 25). وتحديدًا، يُحددان عوائد النفط التفاضلية بناءً على عائد حقوق الملكية (ROE return on equity) لشركات النفط الكبرى مقارنةً بعائد حقوق الملكية لشركات فورتشن 500. واستنادًا إلى النمذجة النظرية وتحليل البيانات، يُظهران أن صراعات الطاقة تسبقها عوائد تفاضلية سلبية، وتتبعها عوائد أعلى من المتوسط لشركات النفط الرائدة. وبالتالي، يُجادلان بأن شركات النفط الكبرى لا تستفيد من الإنتاج، بل من "ممارسة القوة" و"الحرب" (ص 26). يُكمل هذه الاستكشاف النتيجة السابقة التي توصل إليها كلور وبيريبي (Klor and Berrebi, 2005) والتي تُفيد بأن للإرهاب تأثيرًا إيجابيًا كبيرًا على صناعات الدفاع والأمن في إسرائيل. في الأونة الأخيرة، يُظهر مقطع فيديو شائع أن شركات تصنيع الأسلحة قد حققت

¹ Al Jazeera, How India has been covering Israel's war on Gaza, November 12, 2023, <https://www.youtube.com/watch?v=hBnrmEMwA2o>.

مكاسب في أسعار الأسهم في أعقاب هجوم حماس في 7 أكتوبر 2023.² وأخيرًا، يجادل بيشلر ونيتران (a2024) بأن الثروة المتأتية من شركات النفط الكبرى قد سمحت لدول الخليج الغنية بتوجيه دولارات النفط إلى الجماعات المتطرفة على مر السنين والتي تشمل المسلحين السوريين، مما أسفر عن "نصف مليون قتيل و5 ملايين لاجئ" ارتباطًا مع الأزمة السورية عام 2011 (ص 17). ومع ذلك، فإن تمويل الجماعات المسلحة ليس حكرًا على دول الخليج الغنية نظرًا للدعم الروسي للقوات الشيشانية والدعم الأمريكي للمليشيات الكردية (ص 8). علاوة على ذلك، يزعم البعض أن إسرائيل ساعدت في إنشاء حماس لإضعاف منظمة التحرير الفلسطينية.³ وبشكل عام، يقدم بيشلر ونيتران (a, b2024) تحليلًا اقتصاديًا يركز على الأنظمة التي يُحرّض فيها كل من الاحتلال الهيكلي ودولارات النفط على التطرف وحيث تعتمد عوائد شركات النفط الكبرى على الصراع على الطاقة. وبناء على هذا التحليل، يصبح من الواضح أن المصالح الرأسمالية لإسرائيل ودول الخليج الغنية تجعلهما متواطئتين بشكل مشترك في معاناة المدنيين الفقراء في غزة، وكلاهما يلعب دور توازنًا مثل الهند، حيث يقدمان الخدمة الكلامية لانتهاكات حقوق الإنسان ولكنهما يستمران في ممارسة الأعمال التجارية كالمعتاد.

السوق الحرة مقابل سوق الأفكار الحرة

في معرض مناقشته للتعددية الاقتصادية، يتفق تشانغ على أن الاقتصاديين يُحبّذون الأسواق الحرة، لا سوق الأفكار الحرة (Chang and Lari, 2024). يتجلى هذا عندما يُمنح الاقتصاد الكلاسيكي الجديد أفضلية على حساب استبعاد وجهات النظر غير التقليدية في المجالات والأقسام [الجامعية التي تدرّس التيارات] الاقتصادية السائدة. وبيّرز التوازي مع الخطاب المتعلق بغزة عندما يستشهد كبار المسؤولين الإسرائيليين، من جهة، بخطاب العماليق في الكتاب المقدس الذي يُقرّ بالإبادة الجماعية له [لغزة] (Lanard, 2023)، ويُجرّدون الفلسطينيين من إنسانيتهم ويُصنّفونهم كـ "حيوانات غير إنسانية"⁴ وأطفالهم كـ "أفاعي صغيرة" (Bryan, 2015).

² Dhruv Rathee, The Dark Truth about Weapons Industry, November 28, 2023, <https://www.youtube.com/watch?v=o7grSsuFSSo>

³ The Intercept, Blowback: How Israel Helped Create Hamas, February 20, 2018, <https://www.youtube.com/watch?v=o7grSsuFSSo>

⁴ Middle East Eye, Israel's former UN envoy: Palestinians are 'inhuman animals', October 26, 2023, <https://www.youtube.com/watch?v=Fr24GcCDgyM>

ولكن، من جهة أخرى، هناك استثناء حرية التعبير فيما يخص فلسطين في الأوساط الأكاديمية والجامعات (Salaita, 2024; Funez-Flores, 2024). يعود ذلك إلى استخدام مفهوم الضحية كسلاح، حيث تُستخدم تهمة معاداة السامية لقمع انتقاد أفعال الدولة الإسرائيلية، بما في ذلك "العنف الإبادة" (Gordon, 2024). وبالمثل، يجادل Essa (2023) بأن جماعات الضغط الإسرائيلية تدمج "نقد إسرائيل ومعاداة السامية" وتدين "جهود المقاومة والمناصرة الفلسطينية" (p. 100). ويقارن بين الجماعات الهندوسية التي بدأت "بمضايقة الأكاديميين والطلاب في الجامعات وترهيبهم ومراقبتهم"، وتدمج معاً انتقاد الهندوتفا ورهاب الهندوسية Hinduphobia (p. 120). وبشكل عام، يتضح أن الخطاب المتعلق بالأسواق الحرة لا يُترجم إلى سوق حرة للأفكار.

اقتصاد التطرف

بناءً على العمل الرائد لإياناكوني Iannaccone (1997; 2006; 2012)، فإن المتطرف النموذجي ليس فقيراً أو جاهلاً أو يعاني من مرض نفسي، إذ قد يكون هؤلاء الأشخاص غير أكفاء وخطرين. بل يُطلب من الجهات الفاعلة المتعلمة جيداً والمستقرة عقلياً عدم إفساد مهامها الإرهابية. وهذا يتوافق مع استنتاجات كروجر وماليكوف Krueger and Maleckova (2003)، اللذين يُظهران ضعف الصلة بين الفقر وضعف التعليم والإرهاب. في المقابل، وفقاً لبيريبي Berrebi (2003)، فإن "ارتفاع مستويات المعيشة والتعليم يرتبطان ارتباطاً إيجابياً" بمشاركة حماس. وهكذا، ينظر النهج الاقتصادي إلى المتطرفين كعناصر عقلانية، ويرفض الحجة الخاطئة القائلة بأنه لا يمكن ردع المتطرفين، فليس لديهم ما يخسرونه أو يعيشون من أجله. على سبيل المثال، يمكن للمفاوضات الناجحة مع حماس أن تُسهّل إطلاق سراح الرهائن الإسرائيليين، فبدلاً من أن تكون جماعةً عدميةً مضطربةً نفسياً، فإن لديها أهدافاً سياسية، مما يعني أنه يمكن مناقشتها وردعها. ووفقاً لإياناكوني (1997)، فإن التشدد نتيجةً للبيئة الاجتماعية والسياسية لا للدين. وتنشأ جاذبية الأصولية في سياقٍ تشدّد فيه الناس أو ساءت خدماتهم الحكومية، وتملاً جماعاتٍ مثل حماس هذا الفراغ، مُقدّمةً خدماتٍ عامةً وبرامج رعاية. ووفقاً لإياناكوني (2012)، تنشأ هذه الجماعات عندما تُقوّض الحريات المدنية الأساسية. ووفقاً لإينتريليغيتور Intriligator (2010)، يستخدم الطرف الأضعف الإرهاب في حربٍ غير متكافئة، حيث لا ينبع دافعه من الفقر أو الجهل، بل

من الإذلال والانتقام من أفعال سابقة. وهذا أمرٌ مُقلقٌ بالنظر إلى أن مُرتكبي أحداث 7 أكتوبر/تشرين الأول من حماس ربما كانوا أطفالاً أو قُصراً على مدى العقدين الماضيين، عندما قُصفت غزة عشوائياً من خلال عملياتٍ مُختلفةٍ مثل الرصاص المصبوب Cast Lead، والحافة الواقية Protective Edge، وعمود الدفاع Pillar of Defense، وبزوغ الفجر Breaking Dawn، وغيرها. علاوة على ذلك، تم سجن العديد من الأطفال والقاصرين الفلسطينيين بشكل منهجي على مر السنين بسبب إلقاءهم الحجارة على القوات الإسرائيلية (Quran, 2023).

في المقابل، ووفقاً لبيير بي Berrebi (2003)، فإن "ارتفاع مستويات المعيشة والتعليم يرتبط ارتباطاً إيجابياً" بمشاركة حماس. وبالتالي، تنظر المقاربة الاقتصادية إلى المتطرفين كعناصر عقلانية، وترفض الحجة الخاطئة القائلة بأنه لا يمكن ردع المتطرفين، إذ ليس لديهم ما يخسرونه أو يعيشون من أجله. على سبيل المثال، يمكن للمفاوضات الناجحة مع حماس أن تُسهّل إطلاق سراح الرهائن الإسرائيليين، فبدلاً من أن تكون جماعة عديمة مضطربة نفسياً، فإن لديها أهداف سياسية، مما يعني أنه يمكن التفاهم معها وردعها. ووفقاً لإياناكوني (1997)، فإن التشدد هو نتيجة للبيئة الاجتماعية والسياسية وليس الدين.

وهكذا، يُساعدنا التحليل الاقتصادي على فهم دورة التغذية العكسية الإيجابية positive feedback loop، حيث يؤدي الاحتلال الهيكلي والتمييز المُعتمد من قبل الدولة إلى مظالم مُتصوّرة وعنف/إرهاب، مما يؤدي بدوره إلى مزيد من قمع الدولة، وتستمر هذه الحلقة المفرغة دون هوادة. ويُجادل إياناكوني Iannaccone (2006) بأن سوق الشهداء لا يُقوّض بمنع توريدهم، لأن السجن والإعدام يُحفّزان ببساطة على تجنيد أفراد جدد.

إن المطلوب هو الحد من الطلب على الشهداء بتغيير البيئة السياسية والاقتصادية عبر الحريات المدنية، والخدمات الاجتماعية، والتمثيل السياسي، والحرية الاقتصادية، وكلها عوامل من شأنها أن تمنع المتطرفين الدينيين من تبني العنف. في الواقع، إن الأسباب الاجتماعية والقانونية والاقتصادية والسياسية تجعل العنف المدعوم دينياً غير مربح للمتطرفين المسيحيين في الولايات المتحدة، إذ أنهم سيتكبدون خسائر في السمعة والنفوذ والعضوية والتمويل. على سبيل المقارنة، تُعالج سوق الشهداء بنفس الطريقة التي تُعالج بها سوق المخدرات، بالتركيز على الطلب بدلاً من العرض، أي من خلال معالجة الشواغل الإنسانية التي تكون أقل تكلفة

بكثير من الإنفاق الباهظ على الشرطة والقضاء في الحرب على المخدرات أو على الجيش والدفاع في الحرب على الإرهاب. يؤكد بريكي Brekke (2016) أن النهج الاقتصادي ينظر إلى الإرهابيين على أنهم عقلانيون، وأن الحركات الأصولية هي رد فعل على تعدي الدولة، وأن جماعات مثل حماس وحزب الله تقدم الخدمات الاجتماعية، والقانون والنظام، والتعليم، وإغاثة الفقراء، وأن الحريات المدنية وتخفيف حدة المظالم تمثل تزييفاً ضد الإرهاب.

كل هذا يؤكد أنه بدلاً من القصف العشوائي، فإن الاستراتيجية طويلة الأمد لقمع الإرهاب تتمثل في توفير السلع العامة والحريات المدنية. بشكل عام، يشير التحليل الاقتصادي إلى أن الإرهاب لا ينشأ بسبب الدين أو الفقر أو المرض النفسي، بل عندما لا تتم معالجة المظالم السياسية. وبالتالي فإن معالجة الإرهاب لا تتطلب القصف العشوائي ولكن التركيز على معالجة المظالم السياسية، وهو ما يعني في حالة فلسطين إنهاء الاحتلال الهيكلي أو النظامي structural or systemic occupation. إن اغتصاب الذكور واقتصاد الجريمة والتمييز دفع العديد من العلماء والفنانين الإسرائيليين إلى إطلاق اسم "الفصل العنصري" على احتلال فلسطين (Pontone, 2023). كما وصف راز سيغال Raz Segal، وهو أكاديمي متخصص بدراسات الإبادة الجماعية، الإجراءات الإسرائيلية بأنها "حالة نموذجية للإبادة الجماعية" (Segal, 2023). يمكن وضع شهادات الفيديو عن الاعتداء الجنسي على الرجال الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية في هذا السياق من الاحتلال والفصل العنصري والإبادة الجماعية⁵. وتذكرنا هذه الشهادات بحوادث اغتصاب الرجال والاعتداء الجنسي عليهم في سجن أبو غريب بعد الغزو الأميركي للعراق⁶. وعلاوة على ذلك، فإن اغتصاب الرجال والاعتداء الجنسي عليهم يذكرنا بمدينة سدوم وعمورة الغنيتين، اللتين كانتا، وفقاً لفريدمان Friedman (2010)، معارضتين للغرباء، حيث تم إضفاء الطابع المؤسسي على كراهية الأجانب.

⁵ Middle East Monitor, UN hears from Palestinian men who were sexually abused in Israel's jails, October 31, 2024, <https://www.youtube.com/watch?v=QWbC59vNcCc>.

⁶ Al Jazeera, 20 years on, Abu Ghraib survivor recalls torture by US forces, March 21, 2023, <https://www.youtube.com/watch?v=j1ueTR5TkM>

في تعليق تأويلي، أشار المفكر الإسلامي مودودي (2006) إلى عدة حوادث من التلمود تفيد بأن قوم لوط (سدوم وعمورة) سرقوا المسافرين الفقراء، وحجبوا الطعام، وتركوا الموتى عراة بلا أكفان. وهكذا، تنعكس سدوم وعمورة في السجون الإسرائيلية مع اغتصاب الذكور والتعذيب الذي أدى إلى الموت (Cordall, 2024)، ومع استخدام التجويع كسلاح حرب (Khaki et al., 2024)، لقهر وإخضاع الرجال الفلسطينيين العراة (Al-Mughrabi, 2023). ومع ذلك، لا يمكن تصوير أضرار اغتصاب الذكور لإخضاع الآخرين بشكل كافٍ من خلال المقاربة الاقتصادية القياسية للجريمة.

ينتقد جيفورد Gifford (2019) النهج الاقتصادي لغاري بيكر Gary Becker القائل بأن الاحتيال والسرقة لا ينطويان على تكاليف اجتماعية، حيث يتم ببساطة نقل الموارد من الضحية إلى المجرم. ويجادل جيفورد بأن هذا لا ينطبق على جرائم مثل الاغتصاب والقتل حيث لا تعوّض منفعة المجرمين معاناة الضحايا. وتؤكد شهادة الرجال الفلسطينيين الذين تعرّضوا لاعتداءات جنسية والدم يسيل من أجسادهم العارية أن الجريمة تتجاوز مجرد نقل الموارد لإلحاق الضرر برفاهية الإنسان. وبالمثل، ينتقد كوملوس Komlos (2021) نموذج بيكر للتمييز، والذي يُستخدم لإظهار أن المنافسة يمكن أن تقضي على التمييز في السوق الحرة. وهي الفكرة التي تقول إن أصحاب العمل الذين يمارسون التمييز سيُطردون من السوق من قبل المنافسين الذين يوظفون أفضل الموظفين بغض النظر عن سماتهم العرقية. ومع ذلك، يجادل كوملوس بأنه يمكن أن يكون هناك ضغط مُنظم من المجتمع وتهديد بالعنف من جماعات أهلية مثل كوكلوكس كلان Ku Klux Klan، وكلاهما يقوض نتائج نموذج بيكر. في السياق الفلسطيني، يشير هذا إلى عنف المستوطنين المتطرفين في الضفة الغربية (Chalabi, 2024) الذي تُكتمّ ضده أصوات الأقليات غير التمييزية مثل الحاخام أريك أشerman⁷ بشكل عام، فإن اقتصاد الجريمة والتمييز discrimination تنحصر في التقاط أضرار اغتصاب الذكور والعنف الكولونيالي الاستيطاني. إن الصور النمطية الثقافية واستبعاد نظم ومؤسسات الأخلاق تُطور حياتها الخاصة ويصعب تغييرها من خلال الإجراءات الفردية. وهذا يعني أن نزع الصفة الإنسانية عن الفلسطينيين باعتبارهم "حيوانات

⁷ Middle East Eye, Rabbi raises alarm over settler violence against Palestinians in occupied West Bank, November 13, 2023, <https://www.youtube.com/watch?v=bxWucyfc8IM>

غير إنسانية" وأطفالهم باعتبارهم "أفاعي صغيرة" من قبل كبار المسؤولين الإسرائيليين، يُغذّي المواقف المجتمعية التمييزية، وهي مواقف لا يمكن إسقاطها.

ومع ذلك، يقدم تشانغ Chang (2007) أملاً في إمكانية تغيير المواقف الثقافية، حيث يشير إلى أن الصورة النمطية الثقافية للألمان اللصوص واليابانيين الكسالى قد تحولت بمرور الوقت إلى صورة أشخاص مجدين ومثابرين. وبالتالي، فكما يمكن تغيير المواقف الثقافية من خلال المؤسسات المناسبة، يمكن عكس العنصرية وكرهية الأجانب ضد الفلسطينيين. على سبيل المثال، وفقاً لفاغنر-تسوكاموتو Wagner-Tsukamoto (2019/2017)، تمكّن يوسف من أن يصبح مستشار فرعون في مصر على الرغم من دينه وسمته العرقية وعلى الرغم من الأكاذيب التي نشرتها زوجة بوتيفار Potiphar.⁸ إن ما هو مطلوب هو مؤسسات فعّالة وتغيير منهجي، وهذا يعني رفض الدول العرقية أو الإثنوقراطيات التي يسعى إليها المستوطنون في إسرائيل والهندوس في الهند، والتي تحيل الفلسطينيين والمسلمين على التوالي إلى مواطنين من الدرجة الثانية بحقوق مدنية محدودة. ومع ذلك، يتطلب التغيير في المواقف الثقافية أيضاً عدم إفساد الأخلاق الجوهرية وإلا فقد ينتهي الأمر بالناس إلى تبرير التحيز وضمانهم مرتاحة. يحذر ساندل Sandel (2012) من أن الأخلاق الجوهرية قد تختفي عندما يتم تقويض الشعور بالذنب والعار من خلال الحوافز المالية، كما في حالة عقلنة سوق الأعضاء البشرية والأطفال.

في السياق الفلسطيني، يشير هذا إلى أن مصالح الشركات تسمح للدول العربية الخليجية الغنية بتجاهل معاناة الفلسطينيين، كما تسمح الحوافز المالية للمستوطنين الإسرائيليين بعقلنة التحيز المتجذر ضد الفلسطينيين.⁹ وبشكل عام، إذا كانت الأخلاق الجوهرية فاسدة والمؤسسات والأنظمة الفاسدة راسخة بعمق، فإن الأمر يتطلب في بعض الأحيان إصلاحاً جذرياً للمجتمع من خلال العمل المدني الجماعي.

⁸ Movieclips, Joseph: King of Dreams (2000) - Potiphar's Wife Scene, April 18, 2019, <https://www.youtube.com/watch?v=SRy397r355A>

⁹ CNN, 'That sounds like ethnic cleansing': CNN questions lead figure in Israel's settler movement, March 20, 2024, <https://www.youtube.com/watch?v=FkXJwErm8DM>

اقتصاديون ناقدون ومواقفهم من غزة

أشير إلى دعوات مدنية لتغيير جذري بين العديد من الاقتصاديين الناقدين. على سبيل المثال، دعا بيكيتي (Piketty) (2024)، المعترف به لعمله في مجال التفاوت الاقتصادي، إلى فرض عقوبات على إسرائيل:

"إذا كانت الحكومات الغربية تدعم حقًا حل الدولتين، فيجب فرض عقوبات على الحكومة الإسرائيلية، التي تدوس علنا على جميع آفاق السلام من خلال مواصلة الاستيطان والقمع ومعارضة الاعتراف بالدولة الفلسطينية. بعبارة أخرى، يجب وقف المساعدات العسكرية، ... وفرض عقوبات تجارية ومالية، تزداد تدريجياً إلى مستويات رادعة. ... وفي الوقت نفسه، يجب على أوروبا والولايات المتحدة فرض عقوبات صارمة ورادعة على حماس وداعميها الخارجيين، وتعزيز المنظمات الفلسطينية التمثيلية والديمقراطية بشكل حاسم."

وقد ندد عالم الأنثروبولوجيا الاقتصادية جيسون هكل (Jason Hickel)، المعروف بكتبه الشهيرة عن النمو السلبي degrowth وعدم المساواة العالمية، بـ "الإمبريالية الرأسمالية" في فلسطين.¹⁰ وقد كتب بنشاط عن غزة على X، حيث ندد بـ "الإبادة الجماعية".¹¹

"تعمل إسرائيل بشكل منهجي على تفكيك النظام الصحي في غزة لأنهم يعلمون أن هذا سيؤدي إلى ارتفاع معدلات الوفيات. إن الفلسطينيين، الذين يعانون بالفعل من الجوع وضعف المناعة، ... وفي كل مرة يُجبر فيها الناس على الإخلاء والانتقال مرة أخرى، يصبحون أضعف وأكثر عرضة للخطر. هذه في الواقع مسيرات موت. هذه هي الطريقة التي تُنفَّذُ بها الإبادة الجماعية. تسلك الحكومة الإسرائيلية هذا الطريق - الجوع والمرض والنزوح المتكرر ... إنهم يحاولون ارتكاب إبادة جماعية بطريقة تتناسب تمامًا مع ما هو مقبول سياسيًا للطبقات الحاكمة ووسائل الإعلام في الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي."

¹⁰ Transnational Institute, Jason Hickel: Why a Liberated Palestine Threatens Global Capitalism, October 10, 2024, <https://www.youtube.com/watch?v=6dBy4-6pn1M>

¹¹ Jason Hickel, October 23, 2024, 9:15 AM, <https://x.com/jasonhickel/status/1849107339879559532>.

فاروفاكيس Varoufakis (2024)، المعروف بكتبه الاقتصادية الشهيرة وفترة عمله وزيراً للمالية في اليونان عام 2015، رد على استخدام الضحايا كسلاح:

"أنت تتهمنا بالكراهية المعادية للسامية. نحن نتهمك بأنك أفضل صديق لمعاداة السامية من خلال مساواة حق إسرائيل في ارتكاب جرائم حرب بحق اليهود الإسرائيليين في الدفاع عن أنفسهم. ... أنت تتهمنا بدعم الإرهاب. نحن نتهمك بمساواة المقاومة المشروعة لدولة الفصل العنصري بالفظائع ضد المدنيين التي أدينها دائماً وسأدينها دائماً، أيضاً كان مرتكبوها – الفلسطينيون والمستوطنون اليهود، ... أنت تتهمنا بالتقليل من شأن إرهاب حماس في 7 أكتوبر. نحن نتهمك بالتقليل من شأن ثمانين عاماً من التطهير العرقي الإسرائيلي للفلسطينيين وإقامة نظام فصل عنصري صارم في جميع أنحاء إسرائيل وفلسطين."

وأخيراً، انتقدت خبيرة الاقتصاد التنموي الهندية المرموقة، جاياتي غوش Jayati Ghosh، "التوسع الاستعماري والإبادة الجماعية" في غزة.¹² ونشرت في منصة إكس X منشوراً من معهد ليمنكين لمنع الإبادة الجماعية Lemkin Institute for Genocide Prevention، وأكدت على أنه "لنكن واضحين: إسرائيل ترتكب إبادة جماعية في غزة. الولايات المتحدة متواطئة في الإبادة الجماعية".¹³

كما أصدرت منظمات اقتصادية مختلفة بيانات تضامناً مع غزة والفلسطينيين. على سبيل المثال، أصدر اتحاد الاقتصاد السياسي الراديكالي Union for Radical Political Economics بياناً تحت عنوان "اقتصاديون من أجل فلسطين".¹⁴

¹² Transnational Institute, Jayati Gosh: Palestine is the end of the rules-based international order, October 22, 2024, <https://www.youtube.com/watch?v=BAOoWBAIUOw>

¹³ Jayati Ghosh, October 28, 2024, 11:08 PM, <https://x.com/Jayati1609/status/1851128844981285076>

¹⁴ Economists for Palestine, November 8, 2023, <https://urpe.org/2023/11/08/economists-for-palestine/>

"منذ النكبة قبل 75 عامًا، عانى الشعب الفلسطيني معاناة شديدة، ونزوحًا قسريًا، وحصارًا وحشيًا لا إنسانيًا دام 16 عامًا في غزة. لقد وصفت منظمات حقوق الإنسان غزة بأنها "أكبر سجن مفتوح". كما ندين دور الولايات المتحدة في دعم الحصار المستمر في فلسطين، ودعمها للأهوال التي لحقت بغزة، ... بالإضافة إلى ذلك، نؤيد بقوة مبدأ الحرية الأكاديمية، لا سيما في ضوء المناخ العالمي الحالي حيث يواجه الأفراد في المؤسسات التعليمية في جميع أنحاء العالم الفصل من العمل والتشهير والمضايقة بسبب التحدث ضد فظائع الدولة الإسرائيلية ودعم السكان المدنيين في غزة."

وبالمثل، أصدرت الجمعية الدولية للاقتصاد البيئي Society for Ecological Economics بيانها بشأن غزة:¹⁵

"يصف الباحث الإسرائيلي راز سيغال Raz Segal الوضع الحالي بأنه "حالة نموذجية للإبادة الجماعية" ... ندين المذبحة الإسرائيلية والتهجير والسجن وإزالة الطابع الإنساني عن الفلسطينيين. ... وتماشياً مع قرارات الأمم المتحدة، فإننا نعترف بالحق المشروع في مقاومة الهيمنة الاستعمارية ضمن حدود القانون الدولي. ... وندين تجريم التضامن مع فلسطين واستخدام النضال الحاسم ضد معاداة السامية لفرض الرقابة على أي انتقادات لسياسة إسرائيل تجاه فلسطين والإبادة الجماعية والاحتلال الاستعماري. ... ونُصِرُّ على أن هذه الأيديولوجية وهذا الصراع يضران بشدة بالمجتمع الإسرائيلي نفسه، الذي يتجه أكثر من أي وقت مضى نحو انحراف قومي عرقي حيث تزدهر الكراهية والعنصرية. ... ونُعرب عن تضامننا ودعمنا لزملائنا والعلماء الذين يدرسون فلسطين وإسرائيل والذين يواجهون التهديدات والتشهير لمجرد قيامهم بعملهم في تنوير النقاش العام من خلال التحليلات النقدية."

وأخيراً، أصدرت المنظمة التي يقودها الطلاب، "إعادة التفكير في الاقتصاد" Rethinking Economics والتي اشتهرت بالدعوة إلى

¹⁵ ISEE Statement on Gaza, December 27, 2023, <https://www.isecoeco.org/isee-statement-on-gaza/>

التعددية الاقتصادية والقضايا الواقعية في المناهج الاقتصادية في أعقاب الأزمة المالية، بيانها الخاص.¹⁶

"بصفتنا منظمة ترى في عدم المساواة تحديًا عالميًا رئيسيًا، فإننا نعارض بلا تحفظ الفصل العنصري والتطهير العرقي والإمبريالية، ونؤكد على المساواة الجوهرية بين جميع الشعوب. لقد ارتبط تاريخ إسرائيل بتاريخ الكولونالية، على حساب الشعب الفلسطيني، ونشعر بالفزع إزاء الدعم الأمريكي والأوروبي للحصار المستمر... نُقدّر تعليمًا اقتصاديًا يناقش علاقات القوة، واقتصاد الاحتلال، ويتحدى النظريات الإمبريالية، ويمنح الفلسطينيين الذين يعيشون في ظل نظام الفصل العنصري صوتًا.... ندعو بشدة جميع الجامعات إلى الحفاظ على حق الاحتجاج ضد جرائم الحرب الإسرائيلية ضد الفلسطينيين وتاريخها من القمع. ندين بشدة أي جامعات أو هيئات بحثية تفرض عقوبات على الطلاب والموظفين والأكاديميين لممارستهم هذه الحقوق..." يشكل عام، ينظر الاقتصاديون من أصحاب النظرة النقدية والمنظمات الاقتصادية البارزة إلى غزة من خلال المقاربة المنظومية systems approach المستوحاة من تاريخ الكولونالية الاستيطانية settler colonialism والاحتلال والفصل العنصري والإبادة الجماعية. وقد تبنا مواقف مدنية جماعية تدعو إلى تغيير جذري في الوضع الراهن الذي يُخضع الفلسطينيين في كل من الضفة الغربية وغزة."

ملاحظات ختامية

استهدفت هذه الورقة تسليط الضوء على اقتصاد غزة من خلال تحديد موضوعات الاحتلال الهيكلي وصراع الطاقة، والأسواق الحرة مقابل سوق الأفكار الحرة، واقتصاد التطرف، واقتصاد الجريمة والتميز، والصور النمطية الثقافية، وإقصاء الأخلاق. وقد تبين أن التحليل الاقتصادي يؤكد على أن الاحتلال الهيكلي وأموال النفط يحرضان على التطرف، وتبين أيضًا أن عوائد شركات النفط الكبرى تعتمد على صراع الطاقة، مما يشير

¹⁶ Rethinking Economics, A Statement on Israel- Palestine, November 15, 2023, <https://www.rethinkeconomics.org/blog/2023/11/15/a-statement-on-israel-palestine/>

إلى أن المصالح الرأسمالية تزيد المعاناة في غزة. كما تم التأكيد على التناقض بين الخطاب حول الأسواق الحرة وسوق الأفكار الحرة، مما يدل على أن وضع الضحية يستخدم كسلاح لقمع النقد المشروع.

يساعدنا التحليل الاقتصادي على فهم دورة التغذية العكسية الإيجابية positive feedback loop حيث يؤدي الاحتلال الهيكلي الذي ترعاه الدولة إلى مظالم وعنف مُتصوِّرة، مما يؤدي بدوره إلى المزيد من قمع الدولة في حلقة مفرغة. يُظهر التحليل الاقتصادي أيضًا أن الإرهاب لا ينشأ بسبب الدين أو الفقر أو المرض النفسي، وأن الإرهاب لا يُعالج بالقصف العشوائي، بل بمعالجة المظالم السياسية، مما يعني إنهاء الاحتلال الهيكلي. ومع ذلك، فقد تبين أن اقتصاد الجريمة والتميز تنحصر في أضرار اغتصاب الذكور وعنف الاستعمار الاستيطاني.

وأخيرًا، تبين أن المؤسسات الفعالة والتغيير المنهجي يعنيان رفض الدول الإثنية-العرقية، ولكن إذا فسدت الأخلاق الجوهرية وترسخت الأنظمة الفاسدة، فإن إصلاحًا جذريًا للمجتمع يتطلب عملاً مدنيًا جماعيًا. في هذا الصدد، أصدر الاقتصاديون النقديون والمنظمات الاقتصادية تصريحات قوية ضد الكولونيالية الاستيطانية والاحتلال والفصل العنصري والإبادة الجماعية، ودعوا إلى تغيير جذري في الوضع الراهن الذي يُخضع الفلسطينيين. بشكل عام، فقد تم عرض اقتصاد غزة من خلال نهج متعدد التخصصات، مستعينًا بالأدبيات التي تُركِّز على العلاقة بين الاقتصاد واللاهوت والقانون والفلسفة.

* جنيد ب. جهانجير، أستاذ مشارك في الاقتصاد، جامعة ماكويون MacEwan University، أدمنتون، ألبرتا، كندا.

نشرت هذه الورقة في مجلة الاقتصاد الواقعي real-world economics review، العدد 110، آذار 2025. تمت الترجمة بعد الحصول على موافقة الكاتب وإعلام محرري المجلة. يمكن قراءة النص الأصلي بالنقر على هذا الرابط:

<https://www.paecon.net/PAEReview/issue110/Jahangir110.pdf>

References

Akhter, S. and Saratchand, C. (2023) "Indian Media: A Victim of Neoconservatism and Cronyism", Fair Observer, March 5, <https://www.fairobserver.com/world-news/indian-media-a-victim-of-neoconservatism-and-cronyism/#> (Accessed: December 26, 2024).

Aldred, J. (2020) *Licence to be Bad: How Economics Corrupted Us*, Penguin Books, UK. Al-Mughrabi, N. (2023) "Israeli images showing Palestinian detainees in underwear spark outrage", Reuters, December 8, <https://www.reuters.com/world/middle-east/hamas-condemns-israel-over-images-showingsemi-naked-palestinian-prisoners-2023-12-08/> (Accessed: December 26, 2024).

Al-Riffai, P. (2024) "The economic and social costs of the war in Gaza", Atlantic Council, <https://www.atlanticcouncil.org/in-depth-research-reports/report/the-economic-and-social-costs-of-thewar-in-gaza/> (Accessed: December 26, 2024).

Berrebi, C. (2003) "Evidence About the Link between Education, Poverty and Terrorism Among Palestinians", Princeton University Industrial Relations Section Working Paper No. 477, SSRN. https://papers.ssrn.com/sol3/papers.cfm?abstract_id=487467 (Accessed: December 26, 2024).

Bichler, S. and Nitzan, J. (2024a) "The Road to Gaza", Working Papers on Capital as Power, August, <https://bnarchives.net/id/eprint/830/> (Accessed: December 26, 2024).

Bichler, S. and Nitzan, J. (2024b) "The Road to Gaza, Part II: The Capitalization of Everything", *Real-World Economics Review*, 109: 18-18.

Brekke, T. (2016) *Faithonomics: Religion and the Free Market*, Oxford University Press, Oxford. Bryan, R. (2015) "The refreshing bluntness of Ayelet Shaked", *Mondoweiss*, October 3, <https://mondoweiss.net/2015/10/refreshing-bluntness-shaked/> (Accessed: December 26, 2024).

Chalabi, M. (2024) "Settler violence against Palestinians in the West Bank – visualized", *The Guardian*, April 22, <https://www.theguardian.com/world/2024/apr/22/israel-settlers-violence-against-palestine-west-bank> (Accessed: December 26, 2024).

Chang, Ha-Joon (2007) *Bad Samaritans*, Bloomsbury Press, New York.

Chang, H.-J., & Lari, T. (2024) "Economics, Pluralism and Democracy: An Interview with Ha-Joon Chang", *Erasmus Journal for Philosophy and Economics*, 17(2): aa-aa.

Cordall, S.S. (2024) "Dying in 'Hell': The fate of Palestinian medics jailed by Israel", *Al Jazeera*, November 24,

<https://www.aljazeera.com/news/2024/11/24/dying-in-hell-palestinian-medics-jailed-by-israel> (Accessed: December 26, 2024).

Dey S. (2025) "The Saffronization of Public Knowledge in India", Public Humanities, 1:e10, 1-5.

Essa, A. (2023) Hostile Homelands: The New Alliance Between India and Israel, Pluto Press, London.

Friedman, H.H. (2010) "Return to Sodom and Gomorrah: The 'New' Political-Economic System", SSRN, https://papers.ssrn.com/sol3/papers.cfm?abstract_id=1697822.

Fúnez-Flores, J. I. (2024) "The Coloniality of Academic Freedom and the Palestine Exception", Middle East Critique, 33(3), 465–485.

Gifford, B. (2019) "Prison Crime and the Economics of Incarceration", Stanford Law Review, 7(1): 71-135.

Gordon, N. (2024) "Antisemitism and Zionism: The Internal Operations of the IHRA Definition", Middle East Critique, 33(3), 345–360.

Iannaccone, L.R. (1997) "Toward an Economic Theory of 'Fundamentalism'", Journal of Institutional and Theoretical Economics, 153(1): 100–116.

Iannaccone L.R. (2006) "The Market for Martyrs", Interdisciplinary Journal of Research on Religion, 2(Article 4): 1-29.

Iannaccone L.R. (2012) "Extremism and the economics of religion", Economic Record, 88(S1): 110–115.

Intriligator, M. (2010) "The Economics of Terrorism", Economic Inquiry, 48(1): 1-13

Khaki, A., Haveliwala, H. and Srivastava, V. (2024) "Starvation is a weapon of war: Gazans are paying the price", The Conversation, March 21, <https://theconversation.com/starvation-is-a-weapon-of-war-gazans-arepaying-the-price-226086> (Accessed: December 26, 2024).

Klor, E. and Berrebi, C. (2005) "The Impact of Terrorism Across Industries: An Empirical Study", CEPR Discussion Papers 5360, C.E.P.R. Discussion Papers.

Komlos, J. (2021) "The Becker model of discrimination is anachronistic and should no longer be taught", RealWorld Economics Review,

Krueger, A.B., and Maleckova, J. (2003) "Education, Poverty and Terrorism: Is There a Causal Connection?" Journal of Economic Perspectives, 17 (4): 119–144.

Lanard, N. (2023) "The Dangerous History Behind Netanyahu's Amalek Rhetoric", Mother Jones, November 3, <https://www.motherjones.com/politics/2023/11/benjamin-netanyahu-amalek-israel-palestinegaza-saul-samuel-old-testament/> (Accessed: December 26, 2024).

Maududi, S.A.A. (2006) Towards Understanding the Qur'an. Translated by Zafar Ishaq Ansari. Leicester: The Islamic Foundation. <http://www.tafheem.net/main800.html> (Accessed: December 26, 2024).

Piketty, T. (2024) "Thomas Piketty: 'If the West truly supports the two-state solution, it must sanction Israel', Le Monde, May 11, https://www.lemonde.fr/en/opinion/article/2024/05/11/thomas-piketty-if-the-west-trulysupports-the-two-state-solution-it-must-sanction-israel_6671073_23.html (Accessed: December 26, 2024).

Pontone, M. (2023) "Israeli Scholars and Artists Call Occupation of Palestine "Apartheid"", Hyperallergic, August 13, <https://hyperallergic.com/838451/israeli-scholars-and-artists-call-occupation-of-palestine-apartheid/> (Accessed: December 26, 2024).

Quran, F. (2023) "I Saw the Haunting Reality of Palestinian Child Prisoners", Time, December 14, <https://time.com/6366734/palestinian-child-detainees/> (Accessed: December 26, 2024).

Roy, I. (2024). "India: the making and resisting of an ethnocracy", India Review, 23(3), 177–196.

Salaita, S. (2024) "The Free Speech Exception to Palestine", Middle East Critique, 33(3), 361–375.

Sandel, M. (2012) "How Markets Crowd Out Morals", Boston Review, June 20, <https://www.bostonreview.net/forum/forum-sandel-markets-morals/> (Accessed: December 26, 2024).

Segal, R. (2023) "A Textbooks Case of Genocide", Jewish Currents, October 13, <https://jewishcurrents.org/atextbook-case-of-genocide> (Accessed: December 26, 2024).

Sharma, H., & Pegu, U. K. (2023) "Is the liberal media dead?" A critical analysis of Modi's Government and the performance of Indian Media", *India Review*, 22(3), 219–248.

Varoufakis (2024) "The Speech That Got Me Banned From Germany", *Jacobin*, April 13, <https://jacobin.com/2024/04/yanis-varoufakis-germany-banned-palestine-gaza> (Accessed: December 26, 2024).

Wagner-Tsukamoto, S.A. (2017/2019) 'The Cities of Genesis: Religion, Economics and the Rise of Modernity', *Textual Cultures*, 11(1-2): 206-245.

SUGGESTED CITATION: Junaid B. Jahangir, "Economics of Gaza", *real-world economics review*, issue no. 110, March 2025, pp.55–66, <http://www.paecon.net/PAEReview/issue110/Jahangir110> You may post and read comments on this paper at <https://rwer.wordpress.com/comments-on-rwer-issue110/>

Author contact: binjahangirj@macewan.ca

ألينور أوستروم (1933-2012)

Elinor Ostrom

(1933-2012)

<http://www.econlib.org/library/Enc/bios/Ostrom.html>

The Concise Encyclopaedia of Economics

Copyright © Liberty Fund, Inc.

في عام 2009، حازت إلينور أوستروم، جنباً إلى جنب أوليفر وليامسون، على جائزة نوبل في الاقتصاد. أوستروم، المرأة الوحيدة التي فازت بالجائزة في أي وقت مضى، فازت بها بفضل "تحليلها للإدارة [الحكومة] الاقتصادية، وخاصة إدارة المشاعات commons". فقد أثبتت "كيف يمكن إدارة الملكية المحلية بنجاح من قبل المشاعات المحلية دون أي تنظيم [رقابة] من قبل السلطات المركزية أو عن طريق الخصخصة."

طبقت أوستروم في بحوثها نظرية الاختيار العقلاني rational choice theory وأفكار مستلة من اقتصاديات التنمية على الحفاظ على البيئة، رغم أنها لم تخضع إلا إلى القليل من التدريب الاقتصادي المنهجي، إذ أن كل الشهادات التي حصلت عليها كانت في مجال العلوم السياسية. ربما لهذا السبب، تختلف أوستروم عن معظم الاقتصاديين الجدد، مستندة في أبحاثها على دراسات الحالة. فقد درست الترتيبات في مجال الري والثروة السمكية، واستخدام الغابات في عدد كبير من البلدان، بما في ذلك نيبال، إسبانيا، اندونيسيا، نيجيريا، بوليفيا، السويد، والولايات المتحدة.

معظم الاقتصاديين على دراية بالمقالة الكلاسيكية للراحل غاريت هاردن Garrett Hardin "مأساة المشاعات". كانت فكرة هاردن تقول إنه عندما لا يكون مورداً من الموارد مملوكاً لأحد فإنه يُستعمل بشكل مبالغ به لأنه ليس هناك من يستطيع السيطرة على استعماله وأن كل شخص لديه الحافز لاستعماله قبل الغير. وقد ساعدت هذه الرؤية في فهم الكثير من أشكال السلوك البشري، ودفعت الناس للدعوة إما إلى الملكية الفردية للمورد أو إدارته من قبل الحكومة¹.

¹ هامش للمترجم. للتعرف على قراءة نقدية لأطروحة "مأساة المشاعات" أنظر:

Ian Angus, "The Myth of the Tragedy of the Commons," MRzine, 25/08/2008

<http://mrzine.monthlyreview.org/2008/angus250808.html>

إن كتابات أوستروم، وخلافاً للتفكير التقليدي، تبين أن الجماعات البشرية قادرة على تنظيم نفسها بطرق تنطوي على معاقبة أولئك الذين يستعملون الموارد المشاعة بدون مقابل. ففي دراستها للعشرات من الترتيبات في العالم الحقيقي، وجدت حالات من الملكية الجماعية communal ownership تعمل بشكل اعتيادي - أي أنها لم تؤدي إلى النتائج المأساوية التي تصورها هاردن - مثلما وجدت حالات لم تعمل كما يجب. تُرى هل كانت هناك اختلافات منهجية بين هذه الحالات؟ الجواب هو نعم. والمثير للاهتمام، أن تلك الحالات التي كانت تعمل بشكل اعتيادي فيها نوع من أنواع نظام حقوق الملكية، ولكنه ليس نظاماً للملكية الفردية. وبناء على عملها، اقترحت أوستروم عدة مبادئ توجيهية، أبرزتها لجنة نوبل، لإدارة الموارد المجمعة المشاعة [أو المشتركة] common-pool resources. ومن بين هذه التوجيهات أن القواعد ينبغي أن تُحدد بوضوح لتحديد من يحصل على ماذا، وينبغي أن تكون هناك طرق جيدة لحل النزاع، وواجب الناس في الحفاظ على الموارد ينبغي أن يكون متناسباً مع فوائدها، وأن يكون الرصد [الرقابة] والعقاب من قبل مستعملي الموارد أو أي شخص يكون مسؤولاً أمام المستعملين، والسماح للمستعملين للمشاركة في وضع وتعديل القواعد. لاحظ [في هذه التوجيهات] عدم وجود حلول حكومية فوقية [من الأعلى إلى الأسفل].

في مقالة لها عام 2006 كتبتها بالاشتراك مع هاريني ناجيندرا Harini Nagendra، كتبت أوستروم: "نخلص إلى أن الصيغ البسيطة التي تُركز على الملكية الرسمية، لا سيما الملكية التي تستند فقط على الملكية العامة [الحكومية] لأراضي الغابات، لن تحل مشكلة استعمال الموارد." وهذا، كما يُعتقد، سببه إلى حد كبير هو أنه "عندما يشترك المستعملين حقاً في صنع القرارات المتعلقة بالقواعد التي تؤثر على استعمالهم [للموارد]، فإن احتمال التزامهم بالقواعد ومراقبة الآخرين هو أكبر بكثير عندما تقوم السلطة [الحكومة] وببساطة بفرض قواعد."

في الواقع، وفي مقابلة عام 2008 مع برنامج الحديث الاقتصادي EconTalk1، أشار الاقتصادي كارول بودريو Karol Boudreaux من مركز ميركاتس Mercatus Center أن غارث أوين سميث Garth Owen-Smith، الذي ساعد في حل مشكلة الفيلة كموارد مشاعة في ناميبيا، اعتمد صراحة على مؤلفات أوستروم. وكان الحل الذي تقدم به هو

ضمان مشاركة السكان المحليين في المنافع المالية من السياحة وجوائز الصيد. فإذا استفاد السكان المحليون من وجود أعداد مقيمة من الفيلة، فمن المرجح أنهم أقل عرضة للاصطياد بطريقة غير قانونية وأكثر احتمالاً لوقف الصيادين الذين يصطادون بدون إذن.

يمكن العثور على أشكال التنظيم المماثلة لتلك التي قامت أوستروم بدراساتها في كثير من حالات التفاعلات البشرية الأخرى. فالألعاب الرياضية المنظمة توفر أحد الأمثلة على ذلك. فالمنظمات الرياضية، بدءاً من الألعاب المحلية غير الرسمية وانتهاءً بالرابطة الوطنية لكرة القدم، تخلق أو تقنن القواعد الداخلية الخاصة بها وإدارتها من قبل المشاركين فيها. إن حكومة الولايات المتحدة لم تقرر اعتبار "البداية الزائفة" "false-start" ركلة جزاء في كرة القدم، على سبيل المثال، ومع ذلك فإن الفريق الذي يخضع للجزاء يحترم هذه القاعدة.

قام البعض بتلخيص مؤلفات أوستروم بالقول أن المؤسسات الأخرى عدا الأسواق الحرة تعمل في كثير من الأحيان بشكل جيد. ولكن النتائج التي توصلت إليها لا تتعارض مع الاقتصاد الحر: فقد لاحظت أن المجتمعات المحلية تقوم بإدارة الموارد المشتركة على نحو مستدام دون أي تخطيط مركزي. وكانت أوستروم تدعو إلى تشتيت مراكز القرار، بدلاً من التسلسل الهرمي من أعلى إلى أسفل، وذلك لأن الجهات الفاعلة المحلية تمتلك معلومات لا تستطيع امتلاكها مجموعة تتولى التخطيط المركزي. وكانت شكوكها حول التخطيط المركزي يستند، في جزء منه، على مدى سوء عمل الحلول من أعلى إلى أسفل في البلدان الفقيرة. وعلاوة على ذلك، فإن التنوع المؤسسي يسمح للأفكار أن تتنافس فيما بينها.

حصلت أوستروم على البكالوريوس في عام 1954، وعلى الماجستير في عام 1962، والدكتوراه في عام 1965، وكلها في العلوم السياسية من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس UCLA. وكان الحصول على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية في جامعة كاليفورنيا في أوائل ستينيات القرن العشرين يشكل تحدياً للمرأة. في سيرتها الذاتية على موقع نوبل، كتبت أوستروم ما يلي:

كان [القائمون على قسم] العلوم السياسية في ذلك الوقت متشككين أيضاً في قبول النساء لدراسة الدكتوراه لأنهم يخشون من أنه لن توظف امرأة تحمل شهادة دكتوراه سوى إحدى الكليات [المغمورة]

في إحدى المدن. وكلية من هذا النوع لم يكن مكاناً مناسباً لبناء سمعة قسم العلوم السياسية في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس. ومع ذلك، فقد تمَّ قبولي في صف من 40 طالباً مع ثلاث نساء أخريات. قيل لنا بعد بدء برنامجنا الدراسي أن أعضاء هيئة التدريس كان لهم اجتماع ساخن جداً انتقدوا فيه لجنة القسم لقبول النساء وتقديم المساعدة المالية لهن. لحسن الحظ، فإن طلاب الدراسات العليا من زملائنا الذكور كانوا ودودين وشجعونا جميعاً على مواصلة برنامجنا الدراسي.

شغلت أليينور أوستروم كرسي الأستاذية في جامعة إنديانا في بلومينغتون من عام 1965 إلى عام 1991. وفي عام 1973 شاركت مع زوجها، العالم السياسي فنسنت أوستروم، في تأسيس ورشة عمل في النظرية السياسية وتحليل السياسات في جامعة إنديانا، حيث كانت مديراً مشاركاً حتى 2009.

Selected Works

1990. *Governing the Commons: The Evolution of Institutions for Collective Action*. New York: Cambridge University Press

1997. "A Behavioral Approach to the Rational Choice Theory of Collective Action." *The American Political Science Review* Vol. 92, No. 1 (Mar., 1998): 1-22.

2009. *Understanding Institutional Diversity*. Princeton: Princeton University Press.

Footnotes

1. Karol Boudreaux on Wildlife, Property, and Poverty in Africa. EconTalk, Sept. 22, 2008.
http://www.econtalk.org/archives/2008/09/karol_boudreaux_1.html

اتحاد الاقتصاد السياسي الراديكالي: اقتصاديون من أجل فلسطين

نشر النص الإنجليزي للنداء الصادر من اتحاد الاقتصاد السياسي الراديكالي في موقع: [Economists for Palestine | MR Online](https://www.economistsforpalestine.org/) بتاريخ 10 تشرين الثاني/نوفمبر 2023.

إننا نقف في تضامن لا يتزعزع مع الشعب الفلسطيني. فمُنذ 7 تشرين الأول/أكتوبر 2023، واجه أكثر من مليوني شخص هجمة وحشية من قبل الجيش والدولة الإسرائيليين. لقد أُجبروا على الفرار دون أي مكان يذهبون إليه، حيث تم قصف المنازل والملاجئ وطرق الإخلاء والمعابر الحدودية والمستشفيات ودور العبادة وأحياء بأكملها.

إننا نحزن على مقتل المدنيين في كل من إسرائيل وفلسطين. ومع ذلك، فإن الرد الإسرائيلي على التوغل الذي وقع في 7 تشرين الأول/أكتوبر ما زال مستمراً، فقد قتل أكثر من 9,000 فلسطيني في الهجوم المستمر حتى الآن. وقتل أكثر من 8,000 شخص في ثلاثة أسابيع في فلسطين. ويقدر عدد الأطفال بين الضحايا بأكثر من 3,000 طفل، وتقدر اليونيسف أن حوالي 420 طفلاً يقتلون أو يجرحون يومياً. وحتى المراسلون تعرضوا للتهديد بالعنف أو القتل.¹

منذ النكبة قبل 75 عاماً، يعاني الشعب الفلسطيني من معاناة عميقة، وتهجير قسري، وفي غزة يعاني من حصار وحشي غير إنساني على مدى 16 عاماً. لقد وصفت منظمات حقوق الإنسان غزة بأنها "أكبر سجن مفتوح".²

كما ندين دور الولايات المتحدة في دعم الحصار المستمر في فلسطين، ودعمها للفظائع التي تتعرض لها غزة، ورفضها دعم وقف إطلاق النار الإنساني. من الضروري ألا ندير ظهورنا للأثر المدمر لهذا العنف على

¹ أرقام القتلى في تزايد يومياً فحتى الآن (11 تشرين الأول 2023) تجاوز 11,000 بضمنها أزيد من 4,000 طفل. (المحرر)

² هناك شبه إجماع في وصف قطاع غزة بأنه "أكبر سجن مفتوح" في العالم حتى أن رئيس وزراء بريطانيا السابق ديفيد كامرون (2010-2018) أطلق عليه هذه التسمية. (المحرر)

حياة الناس. إن النضال من أجل التحرير الفلسطيني والسلام العادل والدائم في المنطقة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بجهود التحرير والمقاومة التي تقودها المجتمعات الأصلية والمستعمرة والمضطهدة تاريخياً وفي جميع أنحاء العالم.

ونحن ندعم الجهود التي يبذلها الشعب الفلسطيني لدعم نفسه اقتصادياً من خلال السيطرة على أرضه وعمله. إننا نقف متضامنين مع المجتمعات اليهودية المناهضة للصهيونية التي رفعت أصواتها ضد القصف الشامل لغزة، من أجل تحرير الشعب الفلسطيني، والتي تعمل من أجل سلام عادل ومنصف ودائم.

ندعو بشكل عاجل لـ:

(1) وقف فوري لإطلاق النار

(2) الاستعادة الفورية لإمدادات الغذاء والوقود والمياه والكهرباء إلى قطاع غزة

(3) وقف كافة الأنشطة الاستيطانية ونزع سلاح جميع المستوطنين

(4) التسليم الفوري للمساعدات الإنسانية بالحجم المطلوب

(5) احترام اتفاقيات جنيف من قبل جميع الأطراف المعنية

(6) إنهاء الفصل العنصري والتحرك الصارم نحو مستقبل ديمقراطي لجميع الناس بغض النظر عن العرق والدين والهوية الجنسية والقومية

بالإضافة إلى ذلك، نحن نتمسك بقوة بمبدأ الحرية الأكاديمية، خاصة في ضوء المناخ العالمي الحالي حيث يواجه الأفراد في المؤسسات التعليمية في جميع أنحاء العالم إنهاء خدمتهم، والتشهير بهم، والمضايقات بسبب تحدثهم ضد الفظائع التي ترتكبها الدولة الإسرائيلية ودعمهم للسكان المدنيين في غزة. إن إهمال هذا الالتزام سيكون بمثابة خيانة لالتزاماتنا العلمية والأخلاقية.

مع التضامن.

اللجنة التوجيهية لاتحاد الاقتصاد السياسي الراديكالي³

The Steering Committee of the Union for Radical Political
Economics

³ تأسس اتحاد الاقتصاد السياسي الراديكالي (Union for Radical Political Economics-URPE) عام 1968، وهو منظمة متعددة التخصصات تضم أكاديميين وناشطين. وتتمثل مهمتها في تعزيز دراسة وتطوير وتطبيق التحليل الاقتصادي السياسي الجذري على المشاكل الاجتماعية. وينطوي هذا بشكل ملموس على نقد مستمر للنظام الرأسمالي، وجميع أشكال الاستغلال والقمع. تتضمن مهمة الاتحاد أيضًا، استخدام هذا النقد للمساعدة في صياغة سياسات اجتماعية تقدمية، وبدل جذري للرأسمالية يتمحور حول الإنسان.

للمزيد من التعريف راجع موقع الاتحاد: <https://urpe.org>.

منشورات شبكة الاقتصاديين العراقيين

فاروق يونس، حوارات في مسائل اقتصادية (2020)

منعم الخفاجي، نحو قطاع تأمين عراقي فعّال: تحديات وحلول (2020)
(نشرت أيضًا في بغداد في طبعة ورقية)

د علي خضير مرزا، أوراق اقتصادية ونفطية: العراق والعالم، المجلد الأول (2021)، المجلد الثاني (2021)

د مظهر محمد صالح، على تخوم النظرية الاقتصادية وتطبيقاتها في الواقع العراقي: مختارات من النتاج الفكري (2025)

كتابات في الاقتصاد والتاريخ الاقتصادي، ترجمة وإعداد وتحرير مصباح كمال (2025)

شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK

www.iraqieconomists.net